

السيرة الشخصية



تفكير جديد
لبلادنا والعالم

دار المصطفى

البيروترويك

الطبعة الأولى

يونيو ١٩٨٨

الطبعة الثانية

يوليو ١٩٨٨

الطبعة الثالثة

يناير ١٩٨٩

الطبعة الرابعة

يناير ١٩٩٠

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دارالشرق

القاهرة . ١٦ شارع حواد حسي - هاتف ٣٩٣٤٨١٤ - ٣٩٣٤٥٧٨

بروكس شروق - لكس ٠ 83091 SHROK UN

بيروت ٠ ص ب . ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

بروكس ٠ دالشرق - لكس SHOROK 20175 LE

ميخائيل جورباتشوف البيروسترويك

تفكير جديد
لبلادنا وللعالم

ترجمة
حمدى عبد الجواد

مراجعة
محمد المعلم

دار الشروق

إلى القارئ

عند كتابة هذا الكتاب كانت تحدوني الرغبة في أن أوجه كلامي مباشرة إلى شعوب الاتحاد السوفيتي ، والولايات المتحدة ، بل وكل البلدان في الحقيقة . لقد التقيت بقيادة حكومات وغيرهم من قادة دول عديدة وبممثلى شعوبهم ، ولكن غرضي من هذا الكتاب هو التحدث دون وسطاء إلى مواطني العالم بأسره عن أشياء تهمنا جميعا دون استثناء .

ولقد كتبت هذا الكتاب لأني أؤمن بسلامة حسهم . وأنا على قناعة بأنهم ، مثلى ، قلقون على مستقبل كوكبنا . وهذا هو الأمر الأهم .

وعلىنا أن نلتقي ونتناقش . علينا أن نحل المشاكل بروح التعاون بدلا من العداوة . وأنا أدرك جيدا أنه لن يتفق معي كل الناس . وكحقيقة فإنني لن أتفق مع مايقوله الآخرون حول مختلف المسائل . وهذا مايجعل الحوار هاما بدرجة أكبر . إن هذا الكتاب هو إسهامي في الحوار .

وكتاب البيريسترويكا ليس بحثا علميا أو كتيب دعائية ، رغم أن الآراء والاستنتاجات والمواقف التحليلية التي سيجدها القارئ فيه تتركز بالطبع على قيم محددة ومقدمات نظرية . إنه بالأحرى مجموعة من الأفكار والتأملات حول البيريسترويكا ، والمشاكل التي تواجهها ، ونطاق التغيرات التي تتضمنها ، وتعقد ، ومسئولية ، وتفرد عصرنا . قد تجنببت بالفعل حشو الكتاب بالحقائق ، والأرقام ، والتفاصيل . إنه كتاب عن خططنا وعن الطرق التي سننفذها بها ، وأكرر ، إنه دعوة إلى الحوار وقد كرست قسما كبيرا منه للتفكير السياسي الجديد ، لفلسفة سياستنا الخارجية . وإذا ما ساعد هذا الكتاب على تعزيز الثقة الدولية ، فسأعتبر أنه قد قام بدوره .

ما هي البيريسترويكا ، أو إعادة البناء ؟ ولماذا نحن في حاجة إليها ؟ وما هو جوهرها وأهدافها ؟ وما الذي ترفضه وما الذي تخلقه ؟ وكيف تتقدم ؟ وماذا يمكن أن تكون نتائجها بالنسبة للاتحاد السوفيتي والمجتمع العالمي ؟

كل هذه أسئلة مشروعة يبحث الكثيرون عن أجوبة لها : السياسيون ، ورجال الأعمال ، الباحثون والصحفيون ، المدرسون ، والأطباء ، ورجال الدين ، والكتاب والطلبة ، والعمال والفلاحون . ويريد الكثيرون أن يفهموا ما يحدث بالفعل في الاتحاد السوفيتي ، وبخاصة وأن الصحافة والتلفزيون في الغرب تجتاحها موجات من سوء النية تجاه بلادي .

وتشكل البيريسترويكا محور الحياة الفكرية لمجتمعنا الآن . وهذا أمر طبيعي ، لأنها تخص مستقبل هذا البلد . وتؤثر التغييرات التي تحدثها على الشعب السوفيتي ، وتتناول أكثر المسائل حيوية . وكل امرئ شغوف بأن يعرف نوع المجتمع الذي سنعيش فيه نحن ، وسيعيش فيه أطفالنا وأحفادنا .

وتبدي البلدان الاشتراكية الأخرى اهتماما حيا وطبيعيا بإعادة البناء السوفيتي . فهم كذلك يعيشون فترة صعبة وهامة للغاية من البحث في تطورهم . ويستحدثون ويجربون طرق تشريع للنمو الاقتصادي والاجتماعي . ويرتبط النجاح في ذلك بدرجة كبيرة بتفاعلنا ، وبمهامنا ومشاكلنا المشتركة .

وهكذا فإن الاهتمام الحالي ببلادنا أمر مفهوم ، وبخاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار ما لها من تأثير في شئون العالم .

وعندما وضعت كل ذلك في الاعتبار ، وافقت على طلب الناشرين الأمريكيين بأن أكتب هذا الكتاب . فنحن نريد أن يفهمنا الناس . والاتحاد السوفيتي يعيش حقا في فترة مفعمة بالحركة . ولقد قدم الحزب الشيوعي تحليلا انتقاديا للوضع الذي تطور بحلول منتصف الثمانينيات ، وصاغ سياسة البيريسترويكا هذه ، أو إعادة البناء ، سياسة تشريع تقدم البلاد الاجتماعي والاقتصادي وتجديد كل مناحي

الحياة . وتفهم الشعب السوفيتي هذه السياسة كما قبلها . لقد بعثت البيريسترويكا الحيوية في المجتمع بأسره . حقا ، إن بلادنا ضخمة . وقد تراكم العديد من المشاكل ، ولن يكون من السهل حلها . بيد أن التغيير قد بدأ ولا يمكن للمجتمع الآن أن يتراجع إلى الخلف .

وهناك تفسيرات مختلفة للبيريسترويكا في الغرب ، بما في ذلك في الولايات المتحدة . هناك رأى يقول بأنها قد فرضتها الحالة المتدهورة للاقتصاد السوفيتي ، وأنها تعني التحرر من الوهم بالنسبة للاشتراكية ، وأن ثمة أزمة بالنسبة لمثلها وأهدافها النهائية . ولا شيء يمكن أن يكون أبعد عن الحقيقة قدر هذه التفسيرات ، مهما كانت الدوافع التي خلفها .

لقد كان الدافع إلى البيريسترويكا بدرجة كبيرة بالطبع هو عدم رضانا عن الطريقة التي كانت تسير بها الأمور في بلادنا في السنوات الأخيرة . ولكن دفع إليها لدرجة كبيرة ، الوعي بأن طاقة الاشتراكية الكامنة لم يستفد منها كما يجب . ونحن ندرك ذلك بوضوح خاص الآن في أيام الذكرى السبعين لثورتنا . إن لدينا أساسا ماديا سليما ، وثروة من الخبرات ، ونظرة عالمية عريضة نستطيع أن نحسن بها مجتمعنا بشكل هادف ومستمر . ساعين إلى كسب عائدات متزايدة دوما - من حيث الكم والكيف - من كل أوجه نشاطنا .

ويمكنني أن أقول من البداية إن البيريسترويكا قد برهنت على أنها أصعب مما تصورناها في البداية . وكان علينا أن نعيد تقييم أشياء عديدة . ومع ذلك ، فمع كل خطوة إلى الأمام نزداد اقتناعا بأننا اخترنا الطريق الصحيح ونتصرف بشكل سليم .

ويقول بعض الناس : إن الأهداف الطموحة التي طرحتها سياسة البيريسترويكا في بلادنا كانت وراء المقترحات السلمية التي تقدمنا بها أخيرا في المجال الدولي . وهذه مبالغة في تبسيط الأمور . فن المعروف جيدا أن الاتحاد السوفيتي يعمل منذ فترة طويلة من أجل السلام والتعاون ، وقد تقدم بعدد من المقترحات ، التي لو

قبلت لأدت إلى تطبيع الوضع الدولي .

حقا ، إننا نحتاج إلى ظروف دولية طبيعية من أجل تقدمنا الداخلي . ولكننا نريد عالما متحررا من الحرب ، وبدون سباق تسلح ، وأسلحة نووية وعنف ، ليس فقط لأن هذا وضع أفضل لتطورنا الداخلي . إنه احتياج عالمي موضوعي ينشأ من وقائع أيامنا الحاضرة .

بيد أن تفكيرنا الجديد يسير إلى مدى أبعد . فالعالم لا يعيش فحسب في جو التهديد النووي ، وإنما في جو مشاكل اجتماعية هامة لم تحل ، وضغوط خلفها التقدم العلمي والتكنولوجي وتفاقم المشاكل العالمية . وتواجه البشرية اليوم مشاكل لم يسبق لها مثيل . وسيبقى المستقبل محفوفا بالخطر ما لم نجد حلولاً مشتركة . وتعتمد كافة البلدان الآن على بعضها البعض أكثر من أى وقت مضى . كما أن تكديس الأسلحة - لاسيما الصواريخ النووية - يجعل من اندلاع حرب عالمية ، حتى وإن يكن دون قرار من أعلى أو بطريقة عفوية ، احتمالا يتزايد باستمرار ، ويمكن أن يحدث نتيجة خلل تكتيكي أو لقابلية الإنسان للخطأ . ومع ذلك فسوف تحل الكارثة بكل ما هو حي على ظهر الأرض .

ويبدو أن كل امرئ يوافق على أنه لن يكون هناك منتصراً وخاسر في مثل هذه الحرب . ولن يكون هناك من يبقى حيا . إنه خطر مدمر بالنسبة للجميع .

ورغم أن أفق الموت في حرب نووية هو بدون شك السيناريو الممكن والأكثر رعبا ، فإن المسألة أكثر من ذلك . إن سباق التسلح المتصاعد ، الذى تضاعفه الحقائق العسكرية والسياسية للعالم ، والرؤية التقليدية للتفكير السياسى السابق على العصر النووى ، يعوق التعاون بين البلدان والشعوب ، والذى لاغنى عنه - كما يرى الشرق والغرب - إذا ما أرادت بلدان العالم أن تحافظ على الطبيعة دون أذى ، وأن تضمن الاستخدام الرشيد لمواردها ، وإعادة إنتاجها ، وبالتالي أن تبقى بشكل يناسب البشر .

حقا ، إن العالم لم يعد على نفس الحالة التي كان عليها ، ولا يمكن حل مشاكله الجديدة على أساس التفكير الذي وصل إلينا من قرون سابقة . فهل بإمكاننا أن نتمسك بالرأى القائل بأن الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى ؟ .

وباختصار ، فقد توصلنا في القيادة السوفيتية إلى الاستنتاج القائل - ونحن نرده - بأن هناك حاجة إلى تفكير سياسي جديد . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن القادة السوفيت يسعون بقوة إلى ترجمة هذا التفكير الجديد إلى عمل ، وأساسا في ميدان نزع السلاح . وهذا هو الدافع وراء مبادرات السياسة الخارجية التي قدمناها بأمانة إلى العالم .

وفيما يتعلق بنطاق التفكير التاريخي الجديد ، فإنه يشمل حقا كافة القضايا الأساسية لعصرنا .

ورغم كافة متناقضات عالم اليوم ، ورغم كل تنوع الأنظمة الاجتماعية والسياسية به ، ورغم كافة الخيارات المختلفة التي قامت بها البلدان في مختلف الأزمنة ، فإن هذا العالم يعتبر مع ذلك كلا واحدا . ونحن جميعا ركاب على ظهر سفينة واحدة ، هي الأرض ، وعلينا ألا نسمح بأن تغرق . فلن تكون هناك سفينة نوح ثانية .

ينبغي للسياسة أن تستند إلى الحقائق . والحقيقة الأكثر هولا في عالم اليوم هي الترسانات العسكرية الضخمة ، من كل من الأسلحة التقليدية والنوية للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي . وهذا مايلقى على بلدنا مسئولية خاصة حيال العالم بأسره . ووعيا منا بهذه الحقيقة ، فإننا نسعى بحق إلى تحسين العلاقات السوفيتية الأمريكية ، ونحتفظ على الأقل بهذا الحد الأدنى من التفاهم المتبادل اللازم لحل المسألة الحاسمة لمستقبل العالم .

ونحن نقول صراحة : إننا نرفض المطامع السباعية إلى الهيمنة ، والادعاءات العالمية للولايات المتحدة . ونحن لا تروق لنا جوانب معينة في السياسة وطريقة الحياة الأمريكية . ولكننا نحترم حق شعب الولايات المتحدة ، وكذلك حق أى شعب

آخر ، فى الحياة وفقا لقواعده وقوانينه ، وعاداته وأذواقه . ونحن نعرف ونأخذ فى الاعتبار الدور الكبير الذى تلعبه الولايات المتحدة فى العالم الحديث ، ونقدر إسهام الأمريكیین فى الحضارة العالمية ، ونحسب حسابا للمصالح المشروعة للولايات المتحدة ، ونذكر أنه بدون هذا البلد يستحيل إزالة خطر الكارثة النووية ، وضمان سلم وطميد . وليست لدينا أية نوايا سيئة تجاه الشعب الأمريكى . ونحن راغبون ومستعدون للتعاون فى كافة المجالات .

ولكننا نريد أن نتعاون على أساس المساواة ، والتفاهم المتبادل والمعاملة بالمثل . فأحيانا لا ينجب أملنا فحسب ، بل تساورنا شكوك خطيرة عندما تعامل الولايات المتحدة بلدنا كمعتد ، « كإمبراطورية للشر » . وتروج كافة أشكال القصص المختلفة والمزيفة حولنا ، ويبدو العداء وعدم الثقة حياء شعبنا ، وتفرض كافة أنواع القيود بل المواقف غير المتحضرة حيالنا . وهذا قصر نظر لا يمكن أن نسمح به .

إن الوقت ينقضى ولا يجب أن نضيعه . وعلينا أن نعمل . إذ لا يسمح لنا الوضع بأن ننتظر اللحظة الأفضل : إننا اليوم بحاجة إلى الحوار الواسع والبناء . وهذا هو ما نقصده عندما ننظم صلات تليفزيونية بين المدن السوفيتية والأمريكية ، وبين السياسيين والشخصيات العامة السوفيتية والأمريكية ، وبين الأمريكیین العاديين والمواطنين السوفيت . وتعرض وسائل الإعلام لدينا كل منظور المواقف الغربية ، بما فى ذلك أكثرها محافظة . ونحن نشجع الصلات مع المدافعين عن النظرات والمعتقدات السياسية المختلفة . وبهذه الطريقة نعبر عن إدراكنا بأن هذا الأسلوب يساعدنا على التحرك نحو عالم مقبول للطرفين .

ونحن بعيدون عن أن نعتبر نظرتنا هى النظرة الوحيدة الصحيحة . وليست لدينا حلول شاملة ، ولكننا على استعداد للتعاون بإخلاص وأمانة مع الولايات المتحدة والبلدان الأخرى فى البحث عن أجوبة لكافة المشاكل حتى أكثرها صعوبة .

الباب الأول البيريترويك

الفصل الأول

البيروترويكيا

أصولها، وجوهرها، وطابعها الثورى

ماهى البيروترويكيا ؟ وما الذى دعا إلى فكرة إعادة البناء ؟ وما الذى تعنيه فى تاريخ الاشتراكية ؟ وما الذى تبشر به شعوب الاتحاد السوفيتى ؟ وكيف يمكنها التأثير على العالم الخارجى ؟ كل هذه الأسئلة تشغل عامة الناس فى العالم وتجرى مناقشتها بالفعل ، ولنبدأ بالسؤال الأول

البيروترويكيا - ضرورة ملحة

عند دراسة أصول البيروترويكيا وجوهرها فى الاتحاد السوفيتى أعتقد أن شيئا واحدا يجب أن يؤخذ فى الاعتبار . فالبيروترويكيا ليست نزوة لدى بعض الأفراد الطموحين أو مجموعة من الزعماء . ولو كانت كذلك ، لما كان بمقدور النضال ، أو الاجتماعات الكاملة ، أو مؤتمر الحزب أن يحشد الشعب فى العمل الذى يؤديه ويشارك فيه أبناء الشعب السوفيتى بشكل متزايد كل يوم .

إن البيروترويكيا ضرورة ملحة نشأت من عمليات التطور العميقة فى مجتمعنا الاشتراكى . فهذا المجتمع ناضج للتغيير ، ويتوق إليه منذ أمد طويل . وأى تأخير فى بدء البيروترويكيا كان بالإمكان أن يؤدى إلى تفاقم الوضع الداخلى فى المستقبل القريب . وهذا ما كان سيحمل فى طياته ، إذا ما تحدثنا بصراحة ، أزمات اجتماعية واقتصادية وسياسية خطيرة .

لقد خالصنا إلى هذه الاستنتاجات من تحليل عام وصريح للوضع الذى تطور إليه مجتمعنا بحلول منتصف الثمانينيات . وهذا الوضع وما نجم عنه من مشاكل ، يواجه حاليا قيادة البلاد التى ظهرت فيها بالتدريج عناصر جديدة فى السنوات القليلة الماضية . وأود أن أناقش هنا النتائج الأساسية لهذا التحليل ، الذى كان

علينا خلاله أن نعيد تقييم أشياء عديدة ، ونعيد النظر في تاريخنا القريب والبعيد نسبيا على السواء .

إن روسيا التي حدثت بها ثورة عظيمة^(١) منذ سبعين عاما مضت ، بلد قديم ذو تاريخ فريد حافل بالابتكارات والإنجازات والأحداث الفاجعة . وقد قدمت للعالم كثيرا من الاكتشافات والشخصيات البارزة .

ومع ذلك ، فالاتحاد السوفيتي دولة فتية لامثيل لها في التاريخ أو في العالم الحديث . فخلال العقود السبعة الماضية - وهي فترة قصيرة في تاريخ الحضارة البشرية اجتازت بلادنا تاريخا يعادل قرونا . وقامت واحدة من أقوى الدول في العالم لتحل محل الامبراطورية الروسية المتخلفة ، شبه الإقطاعية وشبه المستعمرة . إن لدينا قوى إنتاج ضخمة ، وقدرة فكرية جبارة ، وثقافة رفيعة ، ومجتمعنا فريدا يضم ما يزيد على مائة أمة وقومية ، ورعاية اجتماعية راسخة لـ ٢٨٠ مليوناً من البشر فوق منطقة تشكل سدس الكرة الأرضية - وهذه هي منجزاتنا التي لا تمارى والتي يفخر بها الشعب السوفيتي عن حق .

وأنا لا أقول هذا كي تبدو بلادى أفضل مما كانت عليه أو مما هي عليه . ولا أريد أن أبدو كالمدافع الذي ينظر إلى « ما يخصه » على أنه الأفضل والأرقى دون شك . إن ماسبق أن قلته هو الواقع الفعلي ، والحقيقة الأكيدة ، والتأج الواضح لعمل أجيال عديدة من شعبنا . ومن الواضح بالمثل أن تقدم بلادنا غدا ممكنا فقط ، بفضل الثورة ، وهو نتاج للثورة . إنه ثمرة الاشتراكية ، باعتبارها النظام الاجتماعي الجديد ، ونتيجة الخيار التاريخي لشعبنا . إنه يستند إلى مآثر آبائنا وأجدادنا وملايين الشعب العامل - من العمال والفلاحين والمثقفين - الذين أخذوا

(١) بدأت الثورة في ٢٥ أكتوبر ١٩١٧ وفقا للتقويم اليوليوسى الذى استخدم فى روسيا حتى فبراير ١٩١٨ . وكان متأخرا ثلاثة عشر يوما عن التقويم الجريجورى المعمول به بشكل عام . ولهذا السبب فإننا نحتفل بذكرى الثورة يوم ٧ نوفمبر .

على عاتقهم منذ سبعين عاما مضت المسئولية المباشرة عن مستقبل بلادهم .

وبودى أن يتدبر القارئ كل هذا : وإلا فسيكون من الصعب عليه أن يرى ما حدث وما يحدث في مجتمعنا . وسوف أعود إلى الجوانب التاريخية لتطورنا فيما بعد . ولكن لنوضح أولا الوضع المعقد - لحد ما - الذى تطور في البلاد بحلول الثمانينيات والذى جعل البيريسترويكا مسألة ضرورية حتمية .

في مرحلة معينة - وهو ما أصبح واضحا على وجه الخصوص في النصف الأخير من السبعينيات - حدث شيء ما لا تفسير له لأول وهلة . لقد بدأت البلاد تفقد قوة اندفاعها . وتكرر الاخفاق الاقتصادى بدرجة أكبر . وبدأت الصعوبات تتراكم وتتدهور ، والمشاكل التى لا تجد حلا تتضاعف . وبدأت تظهر في حياة مجتمعنا عناصر ما نسميه بالركود وظواهر أخرى غريبة على الاشتراكية . وتشكل نوع من «الدولاب الكابح» الذى يؤثر على تنميتنا الاجتماعية والاقتصادية . وحدث كل هذا في وقت أتاح فيه الثورة العلمية والتكنولوجية آفاقا جديدة للتقدم الاقتصادى والاجتماعى .

كان هناك شيء غريب يحدث : فالحدافة الضخمة لآلة قوية كانت تدور ، إما في الوقت الذى كان فيه نقل الحركة منها إلى أماكن العمل يتبدد أو في الوقت الذى كانت فيه سيور الحركة مرتخية للغاية .

وعند تحليل الوضع ، اكتشفنا في البداية تباطؤا في النمو الاقتصادى . ففي الخمسة عشر عاما الأخيرة تدهورت معدلات نمو الدخل القومى لأكثر من النصف وبحلول بداية الثمانينيات انخفضت إلى مستوى قريب من الركود الاقتصادى . لقد بدأ البلد ، الذى كان يوما ما يلحق بسرعة ببلدان العالم المتقدمة ، يفقد موقعا بعد آخر . وبالإضافة إلى ذلك ، بدأت تتسع ، وفي غير صالحنا ، الفجوة في كفاءة الإنتاج ، وجودة المنتجات ، والتطور العلمى والتكنولوجى ، وإنتاج التكنولوجيا المتقدمة واستخدام التقنيات المتقدمة .

وأصبحت حركة اندفاع الناتج الإجمالي ، وبخاصة في الصناعات الثقيلة ، ذات أولوية قصوى ، ومجرد غاية في ذاتها . وحدث نفس الشيء في البناء الأساسي ، حيث أصبح قسم له وزنه من الثروة القومية رأسمالا عاطلا . وكانت هناك مشاريع مكلفة لم تبلغ أبدا أعلى المستويات العلمية والتكنولوجية . واعتبر العامل أو المؤسسة التي أنفقت أكبر قدر من العمل والمواد والأموال ، أفضلها جميعا . ومن طبيعة الأمور أن يحاول المنتج « إرضاء » المستهلك ، إذا ماسمح لي بأن أضع الأمر بهذه الصورة . غير أن المستهلك وجد نفسه ، في حالتنا ، تحت رحمة المنتج تماما ، وكان عليه أن يرضى بما اختار الأخير أن يقدمه له . وكان ذلك مرة أخرى نتيجة لحركة اندفاع الناتج الإجمالي .

وأصبح شيئا مميذا للعديد من مديرينا الاقتصاديين ، أن يفكروا لا في كيفية زيادة الأصول القومية ، وإنما في كيفية وضع مزيد من المواد ، والعمل ، ووقت العمل في سلعة ما كي يبيعوها بسعر أعلى . وبالتالي فقد كان هناك نقص في السلع بالنسبة لكل « الناتج الإجمالي » لقد أنفقنا وما نزال ننفق في الحقيقة ، مواد خام وطاقة وموارد أخرى بالنسبة للوحدة من الناتج أكثر بكثير مما تنفقه البلدان المتطورة الأخرى . إن ثروة بلادنا بمفهوم الموارد الطبيعية وقوة العمل قد أفسدتنا . ويمكن حتى القول بأنها قد أصابتنا بالعفن . وهذا ، في الحقيقة ، السبب الرئيسي في أنه كان بإمكان بلادنا أن تتطور على نطاق واسع لعقود .

وحيث أننا تعودنا إعطاء الأولوية للنمو الكمي في الإنتاج ، فقد حاولنا أن نوقف هبوط معدلات النمو ، ولكننا فعلنا ذلك أساسا عن طريق مواصلة زيادة النفقات : فقمنا بتعزيز صناعات الوقود والطاقة وزدنا من استخدام الموارد الطبيعية في الإنتاج .

ومع مرور الوقت ، أصبح من الصعوبة بمكان الحصول على الموارد الطبيعية. وغدت أكثر تكلفة . ومن ناحية أخرى ، نتج عن الأساليب المحسنة للتوسع في

الأصول الثابتة نقص مصطنع في القوى العاملة . وفي محاولة لإصلاح الوضع بشكل ما ، بدأ دفع مكافآت كبيرة ، لا مبرر لها ، أي ، غير مكتسبة في الحقيقة ، وأدخلت كافة أنواع الحوافز غير المستحقة تحت ضغط هذا النقص ، مما أدى في مرحلة لاحقة ، إلى أسلوب التقارير المنمقة لمجرد الكسب . وزادت المواقف الطفيلية ، وبدأت مكانة العمل الواعى العالى النوعية تتراجع ، وغدت عقلية « المساواة في الأجور » منتشرة . ولم يؤد انعدام التوازن بين حجم العمل وحجم الاستهلاك ، الذى أصبح كمسبار عجلة الدولاب الكابح ، إلى إعاقة نمو انتاجية العمل فحسب ، بل أدى أيضا إلى تشويه مبدأ العدالة الاجتماعية .

وهكذا كان القصور الدائى للتنمية الاقتصادية الأفقية يقودنا إلى إخفاق وركود اقتصادى .

وكان الاقتصاد يواجه إرهاقا ماليا متزايدا . ولم يساعد بيع كميات كبيرة من النفط وغيره من موارد الوقود والطاقة والمواد الخام فى السوق العالمية إلى التحسن . بل أدى إلى تفاقم الوضع فقط . واستخدمت الدخول النقدية التى تم الحصول عليها بهذه الطريقة لحل مشاكل الساعة أساسا بدلا من أن تستخدم للتحديث الاقتصادى كى نلحق بغيرنا تكنولوجيا .

وكان لابد لمعدلات النمو الهابطة والركود الاقتصادى من أن يؤثر على جوانب حياة المجتمع السوفيتى الأخرى . وأثرت الاتجاهات السلبية بشكل خطير على المجال الاجتماعى وأدى إلى ظهور ما يسمى « بمبدأ المتبقى » ، والذى تلقت على أساسه البرامج الاجتماعية والثقافية ما يتبقى فى الميزانية بعد ما ينحصر للإنتاج . وبدأ فى بعض الأحيان أن « أذنا صماء » تعطى للمشاكل الاجتماعية . وبدأ المجال الاجتماعى يتخلف عن المجالات الأخرى من حيث التطور التكنولوجى ، والعاملين والخبرة ، ومن حيث ما هو أكثر أهمية وهو نوعية العمل .

ونحن نواجه هنا تناقضات أكبر ، لقد ضمن مجتمعنا عمالة كاملة ووفر ضمانات

اجتماعية أساسية ، ولكننا عجزنا في نفس الوقت عن أن نستخدم على الوجه الأكمل قدرة الاشتراكية على تلبية الاحتياجات المتنامية في الإسكان ، وفي نوعية وأحيانا كمية المواد الغذائية ، وفي التنظيم المناسب للعمل في النقل ، وفي الخدمات الصحية ، وفي التعليم وفي حل المشاكل الأخرى ، التي نشأت بالطبع في مجرى تطور المجتمع .

وكان هناك وضع سخيف يتطور ، فالاتحاد السوفيتي وهو أكبر منتج في العالم للصلب ، والمواد الخام ، والوقود والطاقة ، يواجه نقصا فيها بسبب الاستخدام التبيدي أو غير الكفء . ورغم أنه من أكبر منتجي الحبوب للغذاء ، كان عليه أن يشتري ملايين أطنان الحبوب في العام للعلف . ومع أن لدينا أكبر عدد من الأطباء ، ومن أسرة المستشفيات بالنسبة لكل ألف من السكان ، نجد نقصا صارخا في خدماتنا الطبية . ويمكن لصواريخنا أن تصل إلى مذب هالي وتطير إلى الزهرة بدقة مذهلة ، ولكن إلى جانب هذه الانتصارات العلمية والتكنولوجية نجد نقصا واضحا في الكفاءة في استخدام المنجزات العلمية للحاجات الاقتصادية ، كما أن كثيرا من الأجهزة المنزلية السوفيتية من نوع رديء .

ولسوء الحظ ، فليس هذا كل مافي الأمر . فقد بدأ تدهور تدريجي في القيم الأيديولوجية والمعنوية لشعبنا .

كان واضحا لكل امرئ أن معدلات النمو تنخفض بسرعة وأن كل دولاب مراقبة الجودة لايعمل بكيفية سليمة . وكان هناك تناقص في الاستعداد لتلقي أحدث منجزات العلوم والتكنولوجيا ، وتباطؤ في التحسن في مستويات المعيشة ، وكانت هناك صعوبات في توفير المواد الغذائية ، والإسكان ، والسلع الاستهلاكية والخدمات .

وعلى الصعيد الأيديولوجي كذلك ، أدى الدولار الكابح إلى مقاومة متزايدة لمحاولات تفحص المشاكل الناشئة والأفكار الجديدة بشكل دقيق وبناء .

وكانت دعاية النجاح - الحقيقى أو المدعى - تحظى باليد العليا . وجرى تشجيع المديح والحنوع ، وتجاهل احتياجات وآراء الناس العاديين ، والرأى العام فى مجموعة ، وشُجّع التنظير المدرسى فى العلوم الاجتماعية وطُور ، بينما استبعد التفكير الخلاق من العلوم الاجتماعية ، وأعلنت أحكام وتقييمات عفوية وسطحية على أنها حقائق لاتقبل الجدل . وأضعفت المناقشات العلمية والنظرية ، والتي لاغنى عنها لتطور الفكر والعمل الخلاق . وكذلك أثرت اتجاهات سلبية مماثلة على الثقافة ، والفنون والصحافة ، وأيضا على عملية التعليم والطب حيث ساد المستوى دون المتوسط ، والشكلى والمديح الصاحب أيضا .

وكان لتقديم الواقع « الخالى من المشاكل » آثاره العكسية : فقد حدث انفصال بين القول والعمل ، مما حفّز على السلبية العامة وعلى عدم تصديق الشعارات التى تعلن وكان من الطبيعى تماما أن يؤدى هذا الوضع إلى فجوة فى المصادقية ، وأصبح كل مايعلن من فوق المنابر ويطلع فى الصحف والكتب الدراسية مثار شك وتساؤل . وبدأ الفساد يسرى فى الأخلاقيات العامة ، والضعف يعرف طريقه إلى الشعور العظيم بالتضامن بين المواطنين والذي تشكل خلال أوقات الثورة البطولية ، والخطط الخمسية الأولى ، والحرب الوطنية العظمى ، وإعادة التعمير فيما بعد الحرب . وزاد إدمان الخمر والمخدرات والجرائم ، وتغلغلت القوالب الجامدة للثقافة الجماهيرية الغريبة علينا ، مما أدى إلى السوقية والأذواق الهابطة وزاد من الجذب الأيديولوجى .

وضعف توجيه الحزب ، وانعدمت المبادرة فى بعض العمليات الاجتماعية الحيوية . وأخذ كل فرد يلاحظ الركود بين القيادة وانتهاك العملية الطبيعية للتغيير فيها . وفى مرحلة معينة أدى ذلك إلى إضعاف أداء المكتب السياسى^(٢)

(٢) المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى هو هيئة القيادة الجماعية للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى . ويجرى انتخابه فى اجتماع كامل للجنة المركزية لتوجيه عمل الحزب فيما بين الاجتماعات الكاملة للجنة المركزية .

وسكرتارية^(٣) اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ، والأداء الحكومي وكذلك الحال بالنسبة لكل من اللجنة المركزية وجهاز الحزب .

وغالبا ما حل العبث السياسي والتوزيع الواسع النطاق للجوائز ، والألقاب ، والمكافآت محل الاهتمام الحقيقي بالشعب ، وبظروفه المعيشية وظروف عمله ، وبخلق مناخ اجتماعي موات . ونشأ مناخ بأن « كل شيء على مايرام » . وفترت المطالبة بالانضباط والشعور بالمسئولية يوما بعد يوم وبذلت المحاولات لتغطية كل ذلك بحملات صاخبة ومشروعات طنانة واحتفالات بذكرى مناسبات عديدة على المستوى المركزي والمحلى . وكان عالم الواقع اليومي وعالم الرخاء الزائف يتباعدان أكثر فأكثر .

وعجز العديد من تنظيمات الحزب فى المناطق عن الدفاع عن المبادئ ، أو فى الهجوم بحزم على الاتجاهات الخاطئة ، وأسلوب تغطية البعض على البعض والتسبب فى الانضباط . وغالبا ما انتهكت مبادئ المساواة بين أعضاء الحزب وأصبح العديد من أعضاء الحزب فى المواقع القيادية فوق الرقابة والنقد ، مما أدى إلى الفشل فى العمل ، وإلى ممارسات خاطئة وخطيرة .

وظهر فى بعض المستويات الإدارية عدم احترام للقانون ، وتشجيع للكلام المضلل والرشوة ، والخنوع والتمجيد . وكانت الجماهير العاملة ساخطة بحق على سلوك الأشخاص الذين يحظون بالثقة والمسئولية ، ومع ذلك يسيئون استخدام السلطة ، ويقمعون النقد ، ويجمعون الثروات ، والذين تحولوا حتى إلى شركاء فى أعمال إجرامية ، إن لم يكونوا منظمين لها .

وإنصافا للحق ، ينبغى أن نقول إنه خلال تلك السنوات حلت كذلك

(٣) سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي هى جهاز اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي التى ينتخبها الاجتماع الكامل للجنة المركزية للإشراف على العمل اليومي للحزب ، وأساسا انتقاء الكوادر وتنظيم التحقق من انجاز القرارات المتخذة .

مسائل كثيرة ذات أهمية حيوية ، بطريقة أو بأخرى . ولكن ، كانت هذه المسائل أولا مجرد بضع مشاكل شددت الاهتمام منذ وقت طويل ، وثانيا ، حتى حيث اتخذت القرارات فقد نفذت جزئيا فقط ، أو لم تنفذ على الإطلاق . والأمر الأكثر دلالة أن أياً من هذه التدابير لم يكن شاملا ، ولم يتجاوز تأثيره بعض جوانب حياة المجتمع ، وترك الدولاب الكابح القائم دون مساس .

وبطبيعة الحال ، كانت تنظيمات الحزب تعمل ، وأدى غالبية الشيوعيين واجبههم نحو الشعب بإخلاص وتفان . ولكن ينبغي أن نعترف بأنه لم يكن هناك جهد فعال لسد الطريق أمام غير الأمناء ، والمحابين الذين يسعون وراء مصالحهم الخاصة . وبشكل عام ، فقد تخلفت الخطوات العملية التي اتخذتها هيئات الحزب والدولة عن متطلبات العصر وعن الحياة نفسها . وتراكمت المشاكل بسرعة أكثر مما كانت تحل . وبشكل عام ، فقد أصبح المجتمع بصورة متزايدة صعب القيادة . واعتقدنا فقط أننا نمسك بزمام الأمور ، بينما كان الوضع الناشئ بالفعل شبيها بما حذرنا منه لينين : فلم تكن السيارة تتجه إلى حيث يعتقد من يجلس على عجلة القيادة .

ولا ينبغي أن نطلى هذه الفترة بألوان داكنة فقط . فقد عملت الغالبية الساحقة من الشعب السوفيتي بأمانة . وواصل العلم والاقتصاد والثقافة التطور . ومع ذلك ، فقد كانت الظواهر السلبية مؤلمة ولا يمكن السماح بها .

أعتقد أنني قلت مافيه الكفاية لتدركوا كم كان الوضع خطيرا وكم كان التغيير الشامل ملحا .

وقد وجد الحزب القوة والشجاعة لكي يقيم الوضع بدقة ويعترف بضرورة إجراء تغييرات وتحولات أساسية .

وقادنا الموقف الأمين وغير المتحيز إلى الاستنتاج المنطقي الوحيد بأن البلاد على شفا أزمة . وقد أعلن هذا الاستنتاج في اجتماع أبريل ١٩٨٥ الكامل للجنة

المركزية ، الذى دشن استراتيجية البيروسترويكا الجديدة وصاغ مبادئها الأساسية .

وأود أن أؤكد هنا أن هذا التحليل بدأ منذ وقت طويل قبل اجتماع أبريل الكامل . وعلى ذلك فقد درست استنتاجاته بعناية . إنه لم يكن شيئا غير متوقع وإنما هو رأى متوازن . وسبكون من الخطأ الاعتقاد بأنه بعد شهر من الاجتماع الكامل للجنة المركزية فى مارس ١٩٨٥ ، والذى انتخبنى سكرتيرا عاما ، ظهرت فجأة مجموعة من الناس تفهم كل شىء وتعرف كل شىء ، وإن هؤلاء الناس قدموا إجابات حاسمة لكل المسائل . إن مثل هذه المعجزات ليس لها وجود .

كانت الحاجة إلى التغيير تختمر ليس فقط فى مجال الحياة المادى وإنما فى الوعى الشعبى كذلك . وانتقد الناس الذين يمتلكون خبرة عملية وإحساسا بالعدالة والتزاما بمثل البلشفية الأسلوب القائم للعمل ، وأشاروا بقلق إلى أعراض التدهور والضعف المعنوى للمثل الثورية والقيم الاشتراكية .

وبدأ العمال والفلاحون والمثقفون ، والمسؤولون فى الحزب على المستوى المركزى والمحلى ، يفكرون فى أوضاع البلاد . وكان هناك إدراك متزايد بأن الأمور لا يمكن أن تسير على ماهى عليه لوقت أطول . وتفجرت الحيرة والسخط لأن القيم العظيمة التى ولدتها ثورة أكتوبر والنضال البطولى من أجل الاشتراكية قد وطئتها الأقدام .

ورأى كل الشرفاء بمرارة أن الناس يفقدون اهتمامهم بالشئون الاجتماعية ، وأن العمل لم تعد له مكانته المحترمة ، وأن الناس ، وبخاصة الشباب ، يحرون وراء الكسب بأى ثمن . لقد كان لدى شعبنا على الدوام قدرة حقيقية على تبين الفجوة بين الأقوال والأفعال . ولا غرابة فى أن الحكايات الشعبية الروسية مليئة بالسخرية من الناس الذين يحبون التباهى والمظاهر ، كما أن الأدب الذى لعب على الدوام دورا عظيما فى حياة بلادنا الروحية لا يعرف رحمة إزاء كل مظاهر الظلم وسوء استخدام السلطة . وقد حاول الكتاب ، ومنتجو الأفلام ، ومخرجو المسرح

والممثلون ، فى أفضل أعمالهم ، أن يدعموا إيمان الشعب بالمنجزات الأيدولوجية للاشتراكية ، ويأملوا فى انبعث روحى للمجتمع ، وأعدوا الشعب معنويا للبريسترويكا ، رغم القيود البيروقراطية بل والاضطهاد .

وعندما أقول كل ذلك فإنما أريد أن جعل القارئ يدرك أن طاقة التغيير الثورى تتجمع بين شعبنا وفى الحزب منذ بعض الوقت . وأن أفكار البريسترويكا لاتدفع إليها مجرد المصالح والاعتبارات البرجماتية ، وإنما يدفع إليها كذلك ضميرنا المعذب ، والتزامنا العنيد بالمثل التى ورثناها عن الثورة ، وكنتيجة للبحث النظرى الذى أعطانا معرفة أفضل بالمجتمع وعزز تصميمنا على السير إلى الأمام .

التوجه إلى لينين ، مصدر أيدولوجى للبريسترويكا

إن الدافع الذى منح الحياة لثورتنا العظيمة كان قويا لدرجة لاتسمح لحزبنا وشعبنا بأن يقبلا الظواهر التى تهدد بتبديد مكاسبها . وبقيت أعمال لينين ومثله عن الاشتراكية ، بقيت بالنسبة لنا معينا لاينضب للفكر الإبداعى الجدى ، والإثراء النظرى والحصانة السياسية . وكانت صورته نفسها مثالا لاينخبو للقوة المعنوية النبيلة ، ولثقافة الروحية الشاملة ، وتكريس الذات لقضية الشعب وللإشتراكية . إن لينين يعيش فى عقول ملايين الناس وأفئدتها . وينمو الاهتمام بتراث لينين والتعطش إلى معرفته على نطاق أوسع فى كتاباته الأصلية مع تراكم الظواهر السلبية فى المجتمع .

والتوجه إلى لينين ، حفز الحزب والمجتمع إليه بدرجة كبيرة سعيها للعثور على تفسيرات وإجابات عن الأسئلة التى طرحت . وجذبت مؤلفات لينين فى السنوات الأخيرة من حياته الاهتمام بشكل خاص . وسوف أسوق خبرتى الخاصة لإثبات ذلك فى تقريرى بتاريخ ٢٢ أبريل ١٩٨٣ فى الاجتماع الجماهيرى المكرس للذكرى ١١٣ لميلاد لينين أشرت إلى معتقدات لينين حول الحاجة لأن نضع فى الاعتبار متطلبات

القوانين الاقتصادية ، حول التخطيط والحساب الاقتصادي^(٤) ، والاستخدام الماهر للعلاقات السلعية - النقدية والحوافز المادية والمعنوية . وأيد المستمعون بحماس هذه الإشارة إلى أفكار لينين . وأحسست مرة أخرى ، أن أفكارى تتفق مع مشاعر زملائي أعضاء الحزب وكثير من الناس الذين تشغلهم مشاكلنا بشكل جاد ، والذين يريدون بإخلاص أن يصححوا الأوضاع . وفى الحقيقة ، فقد شعر الكثيرون من زملائي أعضاء الحزب بالحاجة الملحة إلى تجديد المجتمع ، إلى التغيير . ومع ذلك ينبغى أن أقول إننى شعرت كذلك بأن التقرير لم يرق للجميع ، وأنه لم يكن متفائلا بالقدر الذى تطلبه الوقت عند ذاك .

واليوم يوجد لدينا فهم أفضل لمؤلفات لينين الأخيرة ، التى كانت فى جوهرها وصيته السياسية ، ونذكر بشكل أكثر وضوحا سبب ظهور هذه المؤلفات . فعندما اشتدت وطأة المرض على لينين كان شديد القلق على مستقبل الاشتراكية . وأدرك الأخطار التى ترصد النظام الجديد . وعلينا أيضا أن ندرك هذا القلق . لقد رأى أن الاشتراكية تواجه مشاكل هائلة ، وأن عليها أن تكافح بقدر كبير من أجل ماعجزت الثورة البرجوازية عن تحقيقه . ومن ثم استخدام أساليب لم تكن تبدو جوهرية بالنسبة للاشتراكية نفسها ، أو على الأقل ، اختلفت فى بعض الوجوه عن بعض الأفكار الكلاسيكية المقبولة بشكل عام للتطور الاشتراكى .

والفترة اللينينية على جانب كبير من الأهمية فى الحقيقة . وهى تعلمنا لأنها برهنت على قوة الجدل الماركسى اللينينى ، الذى تستند استنتاجاته على تحليل الوضع

(٤) الحساب الاقتصادي هو أسلوب لعمل أى مؤسسة فى إطار الخطة الاقتصادية القومية . إنه يستهدف مؤسسة تستخدم وسائل الإنتاج المملوكة ملكية عامة وتسدد كافة النفقات والمدفوعات لميزانية الدولة من الأرباح التى تحققها من بيع المنتجات . والأفكار العلمية والتكنولوجية ، والخدمات وما إلى ذلك ، ومع ذلك ، تمول الدولة برامج توسع وتحديث المؤسسات . ومن طريق الحساب الاقتصادي الكامل . الذى طبق عام ١٩٨٧ تمول المؤسسة كل نفقاتها بنفسها . وبذلك تخفض مدفوعاتها إلى ميزانية الدولة .

التاريخى الفعلى . لقد أدرك الكثرىون منا حتى قبل اجتمع أبرىل الكامل بوقت طوىل أنه ىجب إعاده تقىىم كل ما ىتعلق بالاقتصاد ، والثقافة ، والدىموقراطية والسىاسة الخارجىة وكافة المجلات . والشىء المهم أن نترجم ذلك إلى لغة الحىاة الوىومة العملىة .

برنامج أعد بعناية ، ولىس إعلانا طنانا

إن مفهوم إعاده البناء بكل ما ىتضمنه من مشاكل قد نشأ بالتدرىج . وقبل اجتمع أبرىل الكامل بدأت مجموعة من قادة الحزب والدولة تحلىلا شاملا لحالة الاقتصاد . وأصبع تحلىلهم بعد ذلك ، أساسا لوثائق البىرىستروىكا . لقد صغنا الأفكار الأساسية ورسمنا سىاسة بدأنا تنفيذها فىما بعد ، مستخدمىن توصىيات العلماء والخبراء ، وكل إمكانياتنا وأفضل ما أبدعه الفكر الاشتراكى .

وهكذا تراكمت ترسانة من الأفكار البناءة . وعلى ذلك فى اجتماع أبرىل ١٩٨٥ الكامل توصلنا إلى اقترح برنامج منسق ومدروس بعناية لابأس بها ، وإلى وضع استراتىجىة محددة لمواصلة تطور البلاد ونخطة للعمل . وكان من الواضح أن الترمىم والترقىع التجمىلى لىسا بكافىىن ، وأن هناك حاجة إلى فحص دقىق شامل . كما لم ىكن بالإمكان الانتظار ، فقد أضعنا كثرىا من الوقت كما حدث .

وكانت أول مسألة طرحت تتعلق بتحسنىن الوضع الاقتصادى . ووقف الاتجاهات غىر المواتىة فى هذا المجال ومحاولة عكسها .

وكانت الأولوىة العاجلة للغاية التى تطلعنا إليها بالطبع فى البداية ، أن نعىد تنسىق الاقتصاد بشكل ما ، وأن نشدد الانضباط ، وأن نرفع مستوى التنظيم والمسئولىة ، وأن نلحق بغيرنا فى المجالات التى تخلفنا عنهم فىها . وتم القىام من أجل ذلك بعمل شاق ، ولاىزال متواصلا ، وقد أعطى نتائجة الأولى كما كان متوقعا . وتوقفت معدلات النمو الاقتصادى عن التدهور ، بل إنها تبدى بعض أمارات التحسن .

وللتأكيد ، رأينا أن هذه الوسائل وحدها لن تضيء دينامية كبيرة على الاقتصاد ، وكان معروفا لنا أن الأولويات الرئيسية تكمن في مكان آخر- في إعادة تعمقة لتنظيم هيكلية الاقتصاد ، وفي إعادة بناء قاعدته المادية ، وفي تكنولوجيات جديدة ، وفي تغييرات في سياسة الاستثمار ، وفي مستويات عالية من الإدارة. وكل هذا يعنى شيئا واحدا - تسريع التقدم العلمى والتكنولوجى .

وبالتأكيد لم يكن من قبيل الصدفة أن كان أول تحرك قامت به القيادة الجديدة للاتحاد السوفيتى بعد اجتماع أبريل الكامل هو مناقشة هذه الأمور في اجتماع موسع (كونفرنس) هام للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى في يونيو ١٩٨٥ . ولم تكن هذه المناقشة من النوع الذى اعتدناه لسنوات طويلة. فقد وجه فيها الكثير من الانتقادات - المريرة والمتحمسة . بيد أن الشيء الرئيسى الذى جرت مناقشته يتعلق بالطرق والوسائل الفعالة للانتقال إلى اقتصاديات مكثفة ، إلى نوعية جديدة من النمو الاقتصادى .

وخلال ذلك العام ، وضعت برامج شاملة هامة في المجالات الجوهرية للعلم والتكنولوجيا . وهى ترمى إلى التوصل إلى تقدم هام والوصول إلى المستوى العالمى بحلول نهاية القرن .

وفي الواقع ، فإن لدينا الآن استئارا وسياسة هيكلية جديدة . لقد تحول التركيز من البناء الجديد إلى إعادة التجهيز التكتيكى للمؤسسات ، وإلى توفير الموارد ، ورفع جودة المنتج بشكل جاد . وسنواصل إيلاء اهتمام كبير لتطوير صناعات التعدين . وفي مجال تزويد الاقتصاد بالمواد الأولية والوقود والطاقة الكهربائية ، سيكون التركيز على تطبيق تكنولوجيات موفرة لهذه الموارد وعلى ترشيد استخدامها .

وقد طورنا برنامجا خاصا لتحديث الصناعة الهندسية ، التى تعرضت للإهمال . ويهدف البرنامج إلى التجديد الكامل للمنتجات الهندسية والتوصل إلى المستوى

العالمى مع بداية التسعينيات . ويشمل البرنامج ، بالتأكيد ، تحويلا جذريا للدولاب الاقتصادى ، الحيوى كما نعرف جيدا ، لاندفاع التقدم التكنولوجى وزيادة الكفاءة الاقتصادية .

وتمثل هذه المسألة أهمية خاصة ، مما يوجب على أن أعود إليها أكثر من مرة ، فى العديد من صفحات هذا الكتاب .

لقد كان الاقتصاد ، وسوف يظل بالطبع ، شاغلنا الرئيسى . ولكننا فى نفس الوقت بدأنا فى تغيير الوضع المعنوى والنفسى فى المجتمع . وإذا ما عدنا إلى السبعينيات لوجدنا كثيرا من الناس يدركون أنه لاغنى لنا عن تغييرات هامة فى التفكير والتكوين النفسى ، وفى تنظيم شكل وأساليب العمل فى كل مكان - فى الحزب ، وفى جهاز الدولة ، وفى المراتب العليا وقد حدث ذلك فى اللجنة المركزية للحزب ، وفى الحكومة ، وفى أماكن أخرى كذلك . وكانت هناك حاجة إلى تغييرات معينة فى العاملين . وشغل أشخاص جدد مواقع قيادية ، أشخاص فهموا الوضع جيدا ، ولديهم أفكار عما يجب عمله وكيفية ذلك .

وبدأ صراع لا هوادة فيه ضد انتهاكات مبادئ العدالة الاشتراكية دونما اعتبار لمن ارتكب هذه الانتهاكات . وأعلنت سياسة تقوم على المصارحة . وأعطيت الفرصة لمن يتحدثون لصالح الحزب والحكومة والهيئات الاقتصادية والمنظمات العامة ويباشرون نشاطهم علانية بأن يدلوا بأرائهم بصراحة ، وأزيلت كافة القيود وصور الحظر التى لا مبرر لها .

لقد توصلنا إلى استنتاج أنه بدون تنشيط العامل البشرى ، أى بدون أن نأخذ فى الاعتبار المصالح المختلفة للناس ، وأسر العمل ، والهيئات العامة ، والمجموعات الاجتماعية المختلفة ، وبدون أن نعتمد عليهم ، ونجذبهم إلى المشاركة فى المساعى البناءة النشطة ، فسيكون من المستحيل علينا أن نحقق أيًا من المهام المرسومة ، أو نغير الوضع فى البلاد .

لقد أعجبت منذ فترة طويلة بعبارة جديدة بالملاحظة قدمها لينين : إن الاشتراكية هي الإبداع الحى للجماهير. والاشتراكية ليست خطة نظرية مسبقة تتطابق مع أى مجتمع ينقسم إلى مجموعتين : الذين يعطون الأوامر والذين يتبعونهم . وأنا ضد مثل هذا الفهم الميكانيكى المبسط للاشتراكية .

إن الناس ، بكل تنوعهم الإبداعى هم صناع التاريخ . وهكذا فإن المهمة الأولية لإعادة البناء - التى تعتبر شرطا ضروريا لا غنى عنه إذا ما أريد لها النجاح - تتمثل فى « إيقاظ » هؤلاء الناس الذين « استسلموا للنوم » واستثارة فعاليتهم ليكونوا نشطين ومهتمين حقا ، وفى كفالة شعور كل امرئ كما لو أنه سيد البلاد ، وسيد مؤسسته ، أو مكتبه ، أو معهده . وهذا هو الشئ الرئيسى .

ويعتبر دفع الفرد إلى المشاركة فى كافة العمليات الجانب الأهم فيما نقوم به . وعلى البيرسترويكا أن تقدم « بوتقة » للمجتمع ، وفى المحل الأول للفرد نفسه . وسيكون مجتمع تم تجديده . وهذا ما يكشف عن مدى جدية المهمة التى بدأنا فى حلها ، وهى مهمة فى غاية الصعوبة . ولكن الهدف جدير بالجهد .

إن كل مانقوم به يمكن تفسيره وتقييمه بشكل مختلف . وإليك قصة قديمة : فقد اقترب مسافر من بعض الناس الذين يقيمون بناء وسألهم واحدا واحدا : « ما الذى تفعله ؟ » وأجاب أحدهم مستفزا : « انظر ، إننا من الصباح حتى الليل نحمل هذه الأحجار اللعينة .. » ونهض آخر من على ركبتيه وشد كتفيه وقال بفخار : « إننا نبني معبدا ، كما ترى ! » .

وهكذا فإذا كان أمامك هذا الهدف النبيل - معبد مضىء فوق ربوة خضراء - فستكون أثقل الأحجار خفيفة ، وأشق الأعمال ممتعة .

ولكى تصنع شيئا بشكل أفضل ، سيكون عليك أن تعمل بجد أكبر . إننى أحب هذه العبارة : العمل بجد أكبر . وهى بالنسبة لى ليست مجرد شعار ، وإنما

طريقة معتادة للتفكير ، واقتناع . وأية مهمة يقوم بها المرء يجب أن يفهمها ويحسها بروحه وعقله وقلبه . وعند ذلك فقط سيعمل المرء بجد أكبر .

والشخص ذو المعنويات الضعيفة لن يعمل بجد أكبر . وعلى العكس ، فإنه يستسلم أمام الصعوبات ، إذ أنها تقهره . ولكن إذا ما كان الشخص قوى المعتقدات والمعرفة ، مرتفع المعنويات ، فلا يمكن قهره ، وبإمكانه أن يقاوم أى عواصف . ونحن نعرف ذلك من تاريخنا .

ومهمتنا الرئيسية اليوم هى أن نرفع من روح الفرد ، ونحترم عالمه الداخلى ، ونعطيه قوة معنوية . ونحن نسعى لأن نجعل كل قدرات المجتمع الفكرية ، وكل إمكانياته الثقافية تعمل من أجل تشكيل شخص نشط اجتماعيا ، وغنى روحيا ، ومستقيم وحنى الضمير . وينبغى أن يعرف كل فرد ويشعر أن هناك حاجة إلى إسهامه ، وأن كرامته لا تتخدش ، وأنه يعامل بثقة واحترام . وعندما يرى الفرد كل ذلك ، فإن فى مقدوره أن يحقق الكثير .

والبيروسترويكما بالطبع تؤثر بشكل ما على كل فرد ، فهى تنزع الكثيرين من حالة الهدوء المعتادة ، والرضى عن طريقة الحياة القائمة . وأعتقد أن من المناسب هنا أن ألفت انتباهكم إلى أحد السمات الخاصة بالاشتراكية . وتحضرنى الدرجة العالية من الحماية الاجتماعية فى مجتمعنا . إنها من ناحية ، ودون شك ميزة وإنجاز هام لنا . ومن ناحية أخرى ، تجعل من بعض الناس عالة على غيرهم .

ولا توجد لدينا بالفعل أى بطالة . فقد أخذت الدولة على عاتقها الاهتمام بضمان العالة . وحتى الشخص الذى يفصل لكسله أو لخرقه انضباط العمل يجب أن تقدم له وظيفة أخرى . وقد أصبحت مساواة الأجور كذلك سمة دائمة لحياتنا اليومية : وحتى إذا كان الشخص عاملا رديئا ، فإنه يحصل على مايكفيه لحياة معقولة ومريحة . وأطفال أى طفلى غير متحفظ لن يتركوا تحت رحمة القدر . ولدينا مبالغ هائلة من الأموال مكثفة فى الصناديق الاجتماعية يتلقى منها الشعب

مساعدة مالية . وتقدم نفس الصناديق إعانات لرعاية دور الحضانة والملاجئ ودور الطلاب^(٥) وغيرها من المؤسسات التي ترتبط بإبداع الأطفال وبالرياضة . والرعاية الصحية مجانية ، وكذلك التعليم . ويجد الناس الحماية ضد تقلبات الحياة ، ونحن نفخر بذلك .

ولكننا نجد في نفس الوقت أن الناس غير المخلصين يحاولون استغلال ميزات الاشتراكية هذه ، وهم يعرفون حقوقهم فحسب ، ولكنهم لا يريدون أن يعرفوا واجباتهم : إنهم يعملون بتكاسل ، ويتهربون ، ويتعاطون المسكرات بكثرة . وهناك قلة من الناس بالفعل كيفوا القوانين والسياسات القائمة مع مصالحهم الخاصة الأنانية . وهم لا يعطون المجتمع سوى القليل ، ولكنهم مع ذلك يعملون على أن يحصلوا منه على كل ما يمكن ، بل وحتى على ما يبدو مستحيلا ، وهم يعيشون على دخول لم يتكسبوها .

إن سياسة إعادة البناء تضع كل شيء في مكانه . ونحن نحبي تماما مبدأ الاشتراكية : « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب عمله » ، ونسعى إلى تأكيد العدالة الاجتماعية للجميع ، والحقوق المتساوية للجميع ، وقانون واحد للجميع ، ونوع واحد للانضباط للجميع ، وشعور عال بالمسئولية لكل فرد . والبيروسترويكا ترفع من مستوى التوقع والمسئولية الاجتماعية . والوحيدون من بين الناس الذين يمتنعون من التغيرات هم من يعتقدون أن لديهم بالفعل ما يحتاجون إليه ، فما الداعي إذا لأن يتكيفوا من جديد ؟ ولكن إذا ما كان شخص ما حى الضمير ، ولم ينس ما يتعلق بخير شعبه ، فإنه لا يستطيع - ولا يجب عليه - أن يفكر بمثل هذه الطريقة . ثم تكشف الجلاسنوست ، أو العلانية ، أن شخصا ما يحظى بامتيازات غير مشروعة ، ونحن لم يعد بإمكاننا أن نتسامح حيال الركود أكثر من ذلك .

(٥) دور وتصور الطلاب - مؤسسات بجانب المدرسة تفرس في التلاميذ حب العمل والمعرفة والاهتمام بها ، وتطور القدرات الاجتماعية والتوجهات المهنية للجيل الشاب .

إننا نطرح المسألة بالطريقة التالية : إن كل شخص ، عاملا كان أم مديرا . مشغل آلات زراعية أم مدير ناد ، صحفيا أم سياسيا ، لديه ما يعيد النظر فيه : في أسلوبه وطرقه في العمل ، ويحتاج إلى أن يقيم بشكل نقدي وضعه الخاص . ولقد طرحنا مهمة التغلب على القصور الذاتي والترعة المحافظة بشكل جاد - كي نستثير كبرياء كل فرد ، غرور كل فرد . ووجد هذا صدى لدى كثير من الناس - وهم الغالبية ، رغم أن استجابة البعض كانت سلبية ، وبخاصة هؤلاء الذين مازالوا على تشبهم بالقديم ، وينبغي أن ننظر إلى أنفسنا كذلك من زاوية ما إذا كنا نعيش ونعمل وفقا لما يمليه علينا ضميرنا . وربما نكون في بعض الأمور قد انحرفنا عن الصواب ، وتبنينا معايير غريبة علينا ، وعلى سبيل المثال ، فقد بدأت تنتقل إلينا عدوى عقلية شيوعية سوقية . وإذا ما تعلمنا أن نعمل بشكل أفضل ، وأن نكون أكثر أمانة ، وأكثر جدارة بالاحترام ، فسوف نقيم عندئذ طريقة حياة اشتراكية حقا .

ومن الحيوى أن نتطلع إلى الأمام . ويجب أن نتزود من الخبرة السياسية والفهم النظرى والشجاعة المدنية بما يكفي لتحقيق النجاح ، وضمان أن البيروسترويكا سوف تلبى المعايير الأخلاقية الرفيعة للاشتراكية .

ونحن نريد عملا متحمسا ومأمونا من جانب كل المنظمات العامة ، وكل فرق الإنتاج والاتحادات الإبداعية ، وأشكالا جديدة من النشاط من جانب المواطنين وإحياء ما تم نسيانه منها . وباختصار ، فإننا في حاجة إلى إشاعة الديمقراطية الواسعة في كل جوانب المجتمع . وتعتبر إشاعة الديمقراطية كذلك الضمان الأساسى لأن تكون العمليات الحالية لا رجعة فيها .

ونحن نعرف الآن أنه كان بمقدورنا أن نتجنب كثيرا من هذه المصاعب لو تطورت العملية الديمقراطية بشكل عادى في بلادنا .

وقد تعلمنا هذا الدرس من تاريخنا جيدا ولن ننساه أبدا . وسوف نتمسك

الآن بحزم بالخط القائل : بأنه من خلال التطوير الثابت للأشكال الديمقراطية الكامنة في الاشتراكية فحسب أو من خلال توسيع الحكم الذاتي يمكننا أن نحقق تقدما في الإنتاج والعلم ، والتكنولوجيا ، والثقافة ، والفن ، وفي كافة المجالات الاجتماعية . وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكننا بها ضمان الانضباط الواعي . والبيروسترويكها نفسها يمكنها أن تتحقق فقط من خلال الديمقراطية . وحيث أننا نرى أن مهمتنا تتمثل في الكشف عن إمكانيات الاشتراكية والاستفادة منها عن طريق تكثيف العامل البشري ، فليس أمامنا من طريق آخر سوى إشاعة الديمقراطية ، بما في ذلك إصلاح الدولار الاقتصادي والإدارة ، إصلاحا يكون عنصره الرئيسي هو تطوير أسر العمل .

ولأننا نؤكد ، على وجه الدقة ، على تطوير الديمقراطية الاشتراكية ، فإننا نولي اهتماما كبيرا للمجال الفكري ، والوعي الشعبي والسياسة الاجتماعية النشطة . وبذلك نريد أن نشط العامل البشري .

غالبا مايصور لينين في الغرب على أنه مدافع عن أساليب الإدارة المتسلطة . وهذه علامة على الجهل التام بأفكار لينين ، وعلى تشويهها المتعمد في كثير من الأحيان . وفي الحقيقة ، فإن الاشتراكية والديموقراطية لاتنفصلان ، وفقا لما يقول لينين . وتصل الجماهير العاملة إلى السلطة عن طريق كسب الحريات الديمقراطية . كما أن بإمكانهم ، في ظروف توسيع الديمقراطية فقط ، أن يعززوا ويحققوا هذه السلطة . وهناك فكرة أخرى صحيحة تماما للينين تقول : بأنه كلما اتسع نطاق العمل وازداد عمق الإصلاح ، كلما كانت هناك حاجة أكبر إلى زيادة الاهتمام به ، وإلى إقناع ملايين وملايين الناس بضرورته . وهذا يعني أننا إذا كنا قد بدأنا إعادة بناء شاملة وجذرية ، فيجب أن نكشف كذلك عن كل إمكانيات الديمقراطية .

ومن الضروري أن نتعلم كذلك كيف نعدل السياسة بما يتمشى وطريقة تقبل

الجماهير لها ، وأن نضمن التغذية الخلفية ، وأن نتشرب الأفكار والآراء والنصائح الواردة من الشعب . وتقترح الجماهير كثيرا من الأشياء المفيدة والهامة التي لا تجد إدراكا لها اليوم « من أعلى » . ولهذا السبب فعلينا أن نمنع ، مهما كلفنا الأمر ، الموقف المتعجرف إزاء ما يقوله الناس . وفي الاعتبار النهائي ، فإن أهم شيء لنجاح البيريسترويكا هو موقف الشعب منها .

وهكذا ، لم تدفعنا النظرية فحسب ، وإنما دفعنا واقع العمليات التي تجرى إلى البدء في البرنامج الخاص بالتغيرات الديمقراطية الشاملة في الحياة العامة ، والذي قدم إلى اجتماع يناير ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي .

وشجع الاجتماع الكامل الجهود الواسعة لتقوية الأساس الديمقراطي للمجتمع السوفيتي ، ولتطوير شبكة الحكم الذاتي . ونحن نرى الآن كم كان هذا الدافع حافزا للشعب . فالتغيرات الديمقراطية تجري في كل أسرة عمل ، وفي كل منظمة حكومية وعامة ، وفي داخل الحزب . إن مزيدا من الجلاسnost والرقابة الحقيقية من « أسفل » ومزيدا من المبادرة والجرأة في العمل قد أصبح الآن جزءا لا يتجزأ من حياتنا .

لقد طورت العملية الديمقراطية البيريسترويكا بكاملها ، ورفعت مستوى أهدافها ، وجعلت مجتمعنا يفهم مشاكله بطريقة أفضل . وسمحت هذه العملية لنا بأن ننظر إلى المسائل الاقتصادية برؤية أوسع ، وأن نتقدم ببرنامج للإصلاحات الاقتصادية الجذرية . إن الدولاب الاقتصادي يتمشى الآن بشكل جيد مع النظام الشامل للإدارة الاجتماعية الذي يركز على مبادئ ديمقراطية متجددة .

وقمنا بهذا العمل في اجتماع يونيو ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ، الذي تبنى « أسس إعادة البناء الجذري للإدارة الاقتصادية » . وربما كان ذلك أهم برامج الإصلاح الاقتصادي ، وأكثرها

جذرية منذ طبق لينين سياسته الاقتصادية الجديدة عام ١٩٢١ . ويستهدف الإصلاح الاقتصادى الحالى تحويل التركيز من أساليب الإدارة فى الأساس إلى أساليب التدبير الاقتصادى فى الأساس وفى كل مستوى ، ويدعو إلى إشاعة ديمقراطية الإدارة على نطاق واسع ، وإلى التنشيط الشامل للعامل البشرى .

ويرتكز الإصلاح على زيادة استقلال المؤسسات والاتحادات بدرجة كبيرة ، ونقلها إلى الحساب الاقتصادى الكامل والتمويل الذاتى ، ومنح كافة الحقوق المناسبة لأسر العمل . وستكون الآن مسئولة بشكل كامل عن الإدارة ذات الكفاءة والنتائج النهائية . وسوف تتناسب أرباح أسرة العمل تناسباً طردياً مع كفاءتها .

وفى هذا الخصوص ، فإننا نستهدف إعادة تنظيم جذرية للإدارة الاقتصادية الممركزة لصالح المؤسسات . وسوف نحرر الإدارة المركزية من مهام التدخل فى إدارة المؤسسات مما يمكنها من التركيز على العمليات الرئيسية التى تحدد استراتيجية النمو الاقتصادى . ولكى نجعل من ذلك حقيقة بدأنا إصلاحاً جذرياً جاداً فى التخطيط ، وفى تشكيل الأسعار ، وفى الدولاب المالى والائتمانى ، وفى شبكة الإمدادات المادية والتكنولوجية للإنتاج ، وإدارة التقدم العلمى والتكنولوجى ، والعمل والمجال الاجتماعى . ويهدف هذا الإصلاح - خلال العامين أو الأعوام الثلاثة التالية - إلى الانتقال من نظام الإدارة المغالى فى مركزيته والذى يعتمد على الأوامر ، إلى نظام ديمقراطى ، يركز على ربط المركزية الديمقراطية بالإدارة الذاتية .

ويعتبر تبنى المبادئ الأساسية لتغيير جوهرى فى الإدارة الاقتصادية خطوة كبيرة إلى الأمام فى برنامج البيرسترويكا . والآن تتعلق البيرسترويكا بالفعل بكل الجوانب الرئيسية فى الحياة العامة . وسوف تتطور ، بالطبع ، أفكارنا عن محتويات وأساليب وأشكال البيرسترويكا ، وترداد وضوحا وتصحيح فيما بعد .

وهذا أمر طبيعي ومحتوم . إنها عملية حية . وسوف تطرح التغييرات ، بلاشك ، مشاكل هامة جديدة تحتاج إلى حلول غير تقليدية . بيد أن مفهوم البيرسترويكا العام ، وخطتها العامة ، واضحان لنا ، ليس فقط من حيث الجوهر ، وإنما كذلك من حيث المكونات .

وتعنى البيرسترويكا التغلب على عملية الركود ، وتحطيم الدولار الكابح ، وخلق دولار فعال يعول عليه لتسريع التقدم الاجتماعى والاقتصادى وإعطائه دينامية أكبر .

وتعنى البيرسترويكا مبادرة الجماهير . إنها التطوير الشامل للديموقراطية ، والحكم الذاتى الاشتراكى ، وتشجيع المبادرة والمسعى الخلاق ، وتحسين النظام والانضباط ، ومزيدا من الجلاسنوست ، والنقد والنقد الذاتى فى كافة مجالات مجتمعنا . إنها أقصى احترام للفرد ومراعاة للكرامة الشخصية .

والبيرسترويكا هى التكثيف الشامل للاقتصاد السوفيتى ، وإحياء وتطوير مبادئ المركزية الديموقراطية فى إدارة الاقتصاد الوطنى ، والتطبيق الشامل للأساليب الاقتصادية ، والتخلى عن الإدارة بالأوامر والأساليب الإدارية ، والتشجيع الشامل للتجديد والإقدام الاشتراكى .

وتعنى البيرسترويكا تحولا حازما إلى الأساليب العلمية ، وقدرة على توفير أساس علمى صلب لكل مبادرة جديدة . وهى تعنى ربط منجزات الثورة العلمية والتكنولوجية بالاقتصاد المخطط .

وتعنى البيرسترويكا إيلاء الأولوية لتطوير المجال الاجتماعى بهدف التلبية الأفضل دوما لاحتياجات الشعب السوفيتى لمعيشة وظروف عمل طيبة ، ولراحة واستجمام وتعليم ورعاية صحية طيبة . وهى تعنى اهتماما دائما بالثروة الثقافية والروحية ، وبثقافة كل فرد وثقافة المجتمع ككل .

وتعنى البيرسترويكا أن نزيل من المجتمع التشوهات للأخلاق الاشتراكية ،

والتنفيذ الثابت لمبادئ العدالة الاشتراكية . كما تعنى وحدة الأقوال والأفعال ،
والحقوق والواجبات . إنها ترفع مستوى العمل الأمين العالى التأهيل ، والتغلب
على اتجاهات مساواة الأجور والنزعة الاستهلاكية .

وهذه هى الصورة التى نرى بها البيريسترويكا اليوم . هذه هى الصورة التى
نرى بها مهامنا ، وجوهر ومحتوى عملنا للفترة القادمة . وإنه لمن الصعب الآن أن
نقول كم من الزمن سوف تستغرق هذه الفترة . وستكون بالطبع أطول كثيرا من
عامين أو ثلاثة أعوام . ونحن مستعدون للعمل الجاد ، والشاق والمضنى لكى
نضمن أن تصل بلادنا إلى آفاق جديدة بحلول نهاية القرن العشرين .

وغالبا ما يسألوننا عما نريد من البيريسترويكا . وماهى أهدافنا النهائية ؟ ومن
الصعوبة بمكان أن نقدم إجابة تفصيلية ودقيقة . ونحن لا نحب أن نشغل أنفسنا
بالتنبؤ ومحاولة تقدير كافة العناصر المعمارية للمبنى العام الذى نشيده فى عملية
البيريسترويكا .

ولكن بإمكانى أن أقول من حيث المبدأ : إن النتيجة النهائية للبيريسترويكا
واضحة لنا . إنها تجديد دقيق لكافة جوانب الحياة السوفيتية ، يتمثل فى إعطاء
الاشتراكية أكثر الأشكال تقدمية فى التنظيم الاجتماعى ، والعرض الأكمل
للطبيعة الإنسانية لنظامنا الاجتماعى فى جوانبه الحاسمة - الاقتصادية ، والاجتماعية
والسياسية ، والمعنوية .

وأؤكد مرة أخرى أن البيريسترويكا ليست نوعا من التنوير أو الإلهام . إن
إعادة بناء حياتنا يعنى فهم الضرورة الموضوعية للتجديد والتسريع . وقد نشأت
هذه الضرورة فى قلب مجتمعنا . ويمكن جوهر البيريسترويكا فى حقيقة أنها توحد
الاشتراكية مع الديمقراطية ، وتبعث إلى الحياة بالمفهوم اللينينى للبناء الاشتراكى
من الناحية النظرية والتطبيقية على السواء . وهذا هو جوهر البيريسترويكا الذى
يفسر روحها الثورية الحققة ونطاقها الشامل .

إن الهدف جدير بالجهد . ونحن على يقين من أن جهدنا سيكون إسهاما هاما في التقدم الاجتماعى للبشرية .

مزيد من الاشتراكية ومزيد من الديمقراطية

ترتبط البيريسترويكا ارتباطا وثيقا بالاشتراكية كنظام . ونجرب مناقشة هذا الجانب من الموضوع على نطاق واسع ، وبخاصة فى الخارج ، ولن يكون حديثنا عن البيريسترويكا واضحا تماما إذا لم نتناول هذا الجانب .

هل تعنى البيريسترويكا أننا نتخلى عن الاشتراكية أو على الأقل عن بعض جوانبها ؟ البعض يوجه هذا السؤال وهو يراوده الأمل . بينما آخرون يراودهم الشك .

وهناك أناس فى الغرب يودون أن يقولوا لنا : إن الاشتراكية تعانى من أزمة حادة ، وقد وصلت بمجتمعنا إلى طريق مسدود . وهم بذلك يفسرون تحليلنا الانتقادى للوضع فى نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات . وهم يقولون : بأن أماننا مخرجا واحدا : أن نبنى أساليب رأسمالية للإدارة الاقتصادية والنماذج الاجتماعية ، وأن ننحرف ناحية الرأسمالية .

وهم يقولون لنا : إن البيريسترويكا لن تؤدي إلى نتيجة داخل إطار نظامنا . ويقولون : إن علينا أن نغير هذا النظام ، وأن نستعير من خبرة نظام اجتماعى سياسى آخر . وهم يضيفون إلى ذلك أنه إذا ما سار الاتحاد السوفيتى فى هذا الطريق ، وتخلى عن خياره الاشتراكى . فمن المفروض أن تصبح الصلات الوثيقة مع الغرب ممكنة . وهم يذهبون بعيدا ويدعون بأن ثورة أكتوبر ١٩١٧ كانت خطأ عزل بلادنا تماما تقريبا عن التقدم الاجتماعى العالمى .

ولكى أضع حدا لكافة الشائعات والتخمينات التى تكثر فى الغرب عن ذلك ، أود أن أوضح مرة أخرى أننا نقوم بكل إصلاحاتنا وفقا للخيار

الاشتراكي . ونحن نبحث داخل الاشتراكية وليس خارجها عن إجابات لكافة الأسئلة المطروحة . ونحن نُقيّم نجاحاتنا وأخطاءنا على السواء بمعايير اشتراكية . والذين يأملون بأننا سنبتعد عن الطريق الاشتراكي سيصابون بخيبة أمل كبيرة . ولهذا السبب فإن كل قسم من برنامج البيرسترويكا - والبرنامج ككل - يركز بكامله على مبدأ مزيد من الاشتراكية ، ومزيد من الديمقراطية .

إن مزيدا من الاشتراكية تعنى مسعى ديناميا وجهدا إبداعيا ، ومزيدا من التنظيم ، والقانون والنظام ، ومزيدا من الأساليب العلمية والمبادرة في الإدارة الاقتصادية ، والكفاءة في الإدارة ، وحياة أغنى ماديا وأفضل للشعب .

ومزيد من الاشتراكية تعنى مزيدا من الديمقراطية ، والعلانية والجماعية في الحياة اليومية ، ومزيدا من الثقافة والإنسانية في الإنتاج ، والعلاقات الاجتماعية والشخصية بين الناس ، ومزيدا من الكرامة واحترام الذات بالنسبة للفرد .

ومزيد من الاشتراكية تعنى مزيدا من الوطنية والطموح لمثل نبيلة . ومزيدا من الاهتمام المدنى بشئون البلاد الداخلية ، وبتأثيرها الإيجابي على الشئون الدولية . وفي كلمات أخرى ، مزيد من كل هذه الأشياء الكامنة في الاشتراكية وفي المبادئ النظرية التي تميزها كشكل اجتماعي - اقتصادي متميز .

ولسوف نطلق نحو اشتراكية أفضل بدلا من أن نبتعد عنها . ونحن نقول ذلك بأمانة ، دون أن نحاول خداع شعبنا أو العالم . وأية آمال بأننا سنبدأ بناء مجتمع آخر غير اشتراكي ونتقل إلى المعسكر الآخر آمال غير واقعية وخاطئة . والذين يتوقعون منا في الغرب أن نتخلى عن الاشتراكية سيصابون بخيبة أمل . لقد آن الأوان لكي يدركوا هذا ، بل ماهو أكثر أهمية ، أن ينطلقوا من مفهومنا في علاقاتهم العملية مع الاتحاد السوفيتي .

وبعد هذا الكلام ، أود أن يكون واضحا تماما ، أننا نحن الشعب السوفيتي ، رغم أننا مع الاشتراكية (وقد شرحت سابقا السبب في ذلك) ، فإننا لانفرض

آراءنا على أى فرد . وليقرر كل امرئ خياره ، فسوف يضع التاريخ كل شىء فى مكانه . واليوم كما قلت لمجموعة من الشخصيات العامة الأمريكية (سايروس فانس ، هنرى كيسنجر وآخرين) فإننا نشعر بوضوح كما لم يحدث من قبل بأنه بفضل النظام الاشتراكى والاقتصاد المخطط ، تجرى التغيرات فى سياستنا الهيكلية بسهولة أكبر بالنسبة لنا عنها فى ظروف المؤسسة الخاصة ، رغم الصعوبات الخاصة التى نواجهها ، كذلك .

إننا نريد مزيدا من الاشتراكية ، وبالتالى مزيدا من الديمقراطية .

وكما نفهم الأمر ، فإن صعوبات ومشاكل السبعينيات والثمانينيات لا تعنى نوعا ما من الأزمة بالنسبة للاشتراكية كنظام اجتماعى وسياسى ، ولكنها بالأحرى نتيجة لعدم الثبات بما فيه الكفاية فى تطبيق مبادئ الاشتراكية ، وللانحرافات عنها وحتى تشويهها ، وللتمسك المتواصل بأساليب وأشكال الإدارة الاجتماعية التى نشأت فى ظروف تاريخية معينة فى المراحل الأولى للتطور الاشتراكى .

وعلى العكس ، فالاشتراكية كنظام اجتماعى فنى ، وكطريقة للحياة ، تملك إمكانيات ضخمة للتطور الذاتى والإتقان الذاتى ، وعلينا أن نكشف عنها . وتملك إمكانيات ضخمة كذلك لحل المشاكل الرئيسية للتقدم العلمى والتكنولوجى ، والاقتصادى ، والثقافى ، والفكرى للمجتمع المعاصر ، ولتطوير الإنسان الفرد . وهذا مايشير إليه الطريق الذى اختارته بلادنا منذ أكتوبر ١٩١٧ ، الطريق الذى كان مليئا بصعوبات عديدة ، وأحداث فاجعة ، وعمل مجهد ، كما كان مليئا فى نفس الوقت بانتصارات وإنجازات عظيمة .

دروس التاريخ

يصح القول بأن تطور مابعد الثورة مر بمراحل صعبة ، ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى التدخل الفظ للقوى الإمبريالية فى شئوننا الداخلية ، كما حدثت أخطاء فى

السياسة وفي التقديرات والحسابات . ورغم ذلك تقدم الاتحاد السوفيتي ، وقام مجتمع تتوفر فيه لدى الناس الثقة بمستقبلهم . وإذا كانت الحقيقة رائدنا ، فإن أى مراقب موضوعي عليه أن يعترف بأن التاريخ السوفيتي هو بشكل عام تاريخ تقدم لاشك فيه ، رغم كل الخسائر والانتكاسات والنقائص : لقد تقدمنا في ظل انعدام وجود طرق بالمعنى الحرفي والمجازي : لقد حدثنا عن الطريق أحيانا وارتكبنا أخطاء ، وأريقنا دماء وبذل عرق أكثر مما يجب على هذا الطريق . ولكننا واصلنا السير بعناد ولم نفكر أبدا في التراجع والتخلي عن الأرض التي كسبناها أو في وضع اختيارنا الاشتراكي محل تساؤل .

ومن الصعب أن نتصور أنه كان بإمكاننا ، ونحن نسير نحو مستقبل غير معروف ، أن نتجنب الانتكاسات ، وأن نجد كل مانريده ممهدا كرصيف شارع نفسكي بروسبكت^(٦) . ولناخذ التصنيع ، على سبيل المثال . في أية ظروف حققناه ؟ إن الحرب الأهلية وتدخل ١٤ دولة أجنبية^(٧) تركا البلاد مخربة تماما . كما كان هناك حصار اقتصادي و« عزل صحي » . ولم يكن هناك تراكم ولا مستعمرات ، وإنما على العكس ، كان من الضروري استخدام الأموال المتوفرة لتحسين مناطق الأطراف القومية التي عانت من الاضطهاد في ظل العنصرية . ولكي نقذف مكتسباتنا الاشتراكية ، كان علينا أن نبني - وبسرعة - قاعدة صناعية وطنية بمواردنا الداخلية ، بالحد من الاستهلاك وتقليصه إلى الحد الأدنى . ووقع العبء المادي لهذا البناء الجديد على الشعب ، الذي شكل الفلاحون غالبية .

(٦) يعتبر شارع نفسكي بروسبكت في ليننجراد الشارع الرئيسي في المدينة . وهو يسير في خط مستقيم تماما . ويستخدم في اللغة الروسية كاستعارة لوصف من يعتقدون بأن التطور الاجتماعي يمكن أن يسير في طريق مستقيم مماثل .

(٧) الحرب الأهلية والتدخل الأجنبي (١٩١٨ - ١٩٢٢) - نضال الجمهورية السوفيتية ضد الثورة المضادة وغزو القوات البريطانية ، والفرنسية ، والأمريكية ، والألمانية . واليابانية والبولندية وغيرها لأجزاء من أراضيها (شارك في الغزو ١٤ دولة) .

وكان علينا ، فى الواقع ، أن نبني الصناعة ، وبخاصة الصناعة الثقيلة وصناعات القوى وبناء الآلات ، من لاشيء . وبدأنا بجرأة نحقق هذه المهمة . إن حيوية خطط الحزب ، التى فهمتها الجماهير وتقبلتها ، وحيوية الشعارات والمشروعات المشربة بالطاقة الأيديولوجية لثورتنا ، قد أفصححت عن نفسها فى الحماس الذى انضم به ملايين الناس السوفيت إلى الجهود المبذولة من أجل بناء الصناعة الوطنية . وقد أذهل هذا الحماس العالم . فى ظل ظروف حرجة للغاية ، وبعيدا عن منازلهم فى الغالب ، وبدون أية آلات عادة ، وفى ظروف عدم توفر الغذاء ، صنعوا المعجزات من لاشيء . واستمدوا الإلهام من أن قضيتهم قضية عظيمة وتاريخية . ورغم أنهم لم يكونوا على معرفة جيدة ، فقد أدركوا المهمة العظيمة والفريدة التى يؤدونها . وكان هذا حقا ماثرة عظيمة باسم مستقبل وطنهم وإظهارا لإخلاص الشعب للاختيار الحر الذى قرره فى عام ١٩١٧ .

لقد تغلب آباؤنا وأجدادنا على كل ما واجههم وقدموا إسهاما حاسما لتطوير وتعزيز مجتمعنا فى وقت كان لا بد فيه من تقرير مستقبله كله .

كان التصنيع فى العشرينيات والثلاثينيات حقا اختبارا قاسيا للغاية . ولنحاول الآن بإدراك متأخر ، أن نجيب على السؤال : هل كان التصنيع ضروريا ؟ هل كان بإمكان بلد واسع مثل بلادنا أن يعيش فى القرن العشرين دون أن يكون دولة متطورة صناعيا ؟ ثم لقد كان هناك سبب آخر أوضح لنا على الفور كذلك أنه لم يكن أمامنا من خيار سوى الإسراع فى التصنيع . ففى ١٩٣٣ بدأت الفاشية تنمو بسرعة . فإين كان يمكن أن يكون العالم الآن إذا لم يكن الاتحاد السوفيتى قد سد الطريق أمام آلة الحرب الهتلرية ؟ لقد سحق شعبنا الفاشية بقوته الجبارة التى بناها فى العشرينيات والثلاثينيات . فإذا لم يكن قد حدث تصنيع ، لكنا قد أصبحنا فى مواجهة الفاشية بدون سلاح .

إننا لم نجد أنفسنا تحت جرارات الفاشية . لقد عجزت كل أوروبا عن وقف

هتلر ، ولكننا سحقناه . وهزمنا الفاشية ليس فقط بفضل بطولة جنودنا
وتضحياتهم ، وإنما بفضل صلبنا الأفضل ، ودباباتنا وطائراتنا الأفضل . وكل هذا
صنعتة فترتنا السوفيتية .

أو لنأخذ «الجماعية» . وأنا أعرف كم من الخيال والتأمل والنقد الخبيث لنا
يتعلق بهذا المصطلح ، ناهيك عن العملية نفسها . بيد أن العديد من الدارسين
الموضوعيين لهذه الفترة من تاريخنا لا يبدو أنهم قادرون على فهم أهمية وضرورة
الحاجة إلى الأخذ بالجماعية في بلادنا .

وإذا ما ألقينا نظرة علمية وصادقة حقا على ظروف ذلك الوقت ، وعلى السمات
الخاصة لتطور مجتمعتنا ، المجتمع السوفيتي ، وإذا لم نغمض أعيننا عن التخلف البالغ
للإنتاج الزراعي ، الذي لم يكن بإمكانه أن يتغلب على هذا التخلف إذا مابق إنتاجا
صغيرا ومجزءا ، وإذا ما حاولنا أخيرا ، أن نقيّم بشكل سليم النتائج الفعلية لتطبيق
الجماعية ، فلا بد من التوصل إلى استنتاج بسيط واحد : لقد كانت الجماعية عملا
تاريخيا عظيما ، وأهم تغيير اجتماعي منذ ١٩١٧ . نعم لقد تقدمت بصعوبة شديدة ،
وليس بدون تجاوزات وأخطاء فاضحة في الأساليب ومعدل التقدم . بين أن مواصلة
التقدم بالنسبة لبلادنا كانت ستبدو شبه مستحيلة بدونها . لقد وفرت الجماعية أساسا
اجتماعيا لتحديث القطاع الزراعي من الاقتصاد ، وجعلت بالإمكان إدخال أحدث
الأساليب الزراعية . وضمنت نمو الانتاجية وأقصى زيادة في الناتج . وهو ما كان
يستحيل الحصول عليه لو ترك الريف في حالته السابقة ، حالة العصور الوسطى
بالفعل ، دون مساس . وبالإضافة إلى ذلك ، حررت إدخال الجماعية موارد
هامة ، ووفرت عمالا كثيرين كانت ثمة حاجة إليهم في مجالات التنمية الأخرى في
مجتمعتنا ، وفي المقام الأول في الصناعة .

لقد غير تطبيق الجماعية ، ولكن ليس بسهولة وعلى الفور ، غير كل طريقة حياة
الفلاحين ، وجعل بإمكانهم أن يصبحوا طبقة متمدينة حديثة من المجتمع . ولولا

تطبيق الجماعية . ما كان بإمكاننا حتى أن نفكر اليوم في إنتاج الحبوب بكمية تبلغ ٢٠٠ مليون طن ، ناهيك عن ٢٥٠ مليون طن ، كما تقضى خططنا للمستقبل القريب . ومع ذلك ، فقد تخطينا بالفعل إجمالى إنتاج الحبوب في بلدان السوق المشتركة معا ، رغم حقيقة أن عدد سكاننا أقل .

ومع ذلك ، فمن الصحيح أننا سنواجه نقصا في العديد من المواد الغذائية ، وبخاصة في منتجات الماشية . ولكن بدون تطبيق الجماعية ما كنا ننتج الآن بالنسبة للفرد الواحد ما تنتجه بالفعل . وهو ما يسد معظم احتياجاتنا الحيوية . ومما له أهمية خاصة ، أن إمكانية المجاعة ونقص التغذية قد أزيلت إلى الأبد من بلادنا . وكانت تلك هى محنة روسيا لقرون عديدة . ومن حيث الغذاء الغنى بالسعرات ، يحتل الاتحاد السوفيتى مكانه على وجه التحديد بين البلدان المتطورة . والمسألة الرئيسية هى أنه بفضل تطبيق الجماعية وتاريخها الذى يزيد على خمسين عاما ، اكتسبنا القدرة على أن نرفع - فى مجرى إعادة البناء - كل القطاع الزراعى إلى مستوى نوعى جديد .

نعم لقد كان التصنيع وتطبيق الجماعية فى الزراعة أمرين لاغنى عنهما . وإلا ما كان بالإمكان إعادة تعمير البلاد . بيد أن أساليب وأشكال تحقيق هذه الإصلاحات لم تكن تتفق على الدوام مع المبادئ الاشتراكية ، ومع الأيديولوجية والفلسفة الاشتراكية . ولعبت الظروف الخارجية دورا أساسيا - فقد كانت البلاد تحس بخطر عسكرى مستمر عليها - ولكن إلى جانب ذلك كانت هناك تجاوزات ، وسطوة الضغط الإدارى ، ومعاناة الناس هكذا كانت الأمور فى الحقيقة . وكان هذا قدر بلادنا ، بكل تناقضاتها ، بما فى ذلك الإنجازات العظيمة ، والأخطاء الفاجعة ، والأحداث المأساوية .

نعم ، لقد كانت لدينا كذلك أوقات صعبة ، أوقات صعبة للغاية من حين لآخر ، بعد الانتصار فى الحرب . وأتذكر رحلاتى بالقطار من جنوب روسيا إلى موسكو للدراسة فى أواخر الأربعينيات . لقد رأيت بأم عيني ستالينجراد ،

وروستوف ، وخاركوف ، وأوريل ، وكورسك ، وفورونيز المحرقة . وكان هناك الكثير من أمثال هذه المدن المحرقة : ليننجراد ، كييف ، مينسك ، أوديسا ، سيفاستوبول ، سمولنسك ، بريانسك ، نونجورود كل شىء كان خرابا : مئات وآلاف المدن ، والبلدان والقرى ، والمصانع ، والمعامل . ونهبت أقيم آثارنا الثقافية أو دمرت - متاحف وقصور الفن ، والمكتبات والكنائس .

وقالوا فى الغرب فى ذلك الوقت إن روسيا لن تستطيع أن تنهض حتى فى مائة عام ، وأنها ستبقى خارج السياسة الدولية لوقت طويل قادم لأنها ستركز على تضييد جراحها بشكل ما . واليوم يقولون - بعضهم بإعجاب وآخرون بعداء صريح - إننا دولة عظمى ! لقد بعثنا بلادنا ورفعناها بجهودنا الخاصة ، مستفيدين من الإمكانيات الهائلة للنظام الاشتراكى .

ولا يمكننا إلا أن نذكر جانباً آخر من الموضوع غالباً مايجرى تجاهله أو السكوت عليه فى الغرب . ولكن بدون إستحيل ببساطة فهمنا ، نحن الشعب السوفيتى . فى جانب المنجزات الاقتصادية والاجتماعية ، كانت هناك أيضاً حياة جديدة ، كان هناك حماس بناء عالم جديد ، وإلهام الأشياء الجديدة والمدهشة ، وشعور حاد بالفخر بأننا وحدنا ، وبدون مساعدة وليس لأول مرة ، نرفع بلادنا على أكتافنا ، كان الناس يتعطشون إلى المعرفة والثقافة ويستوعبونها . كانوا مبهجين بالحياة ، يربون أطفالهم ، ويؤدون أعمالهم اليومية . وقد قمنا بكل هذا فى جو جديد تماماً يختلف لحد كبير عما كان قائماً قبل الثورة ، فى جو من الطمأنينة والمساواة ، والفرص الهائلة أمام الجماهير العاملة . ونحن نعرف جيداً ماقدمته لنا الاشتراكية . وباختصار ، فقد عاش الناس وعملوا بشكل خلاق فى كل مراحل التطور السلمى لبلادنا . والرسائل التى ألقاها من مواطنى تقول باعتزاز : لقد كنا أفقر من الآخرين ، ولكن حياتنا كانت حية وشيقة بدرجة أكبر .

إن أربعة عشر من بين كل خمسة عشر مواطناً ممن يعيشون فى الاتحاد السوفيتى

اليوم ولدوا بعد الثورة . ومازال هناك من يحثنا على أن نتخلى عن الاشتراكية . فما الذى يدفع الشعب السوفيتى ، الذى نما وازداد قوة فى ظل الاشتراكية ، إلى التخلي عن هذا النظام ؟ إننا لن نألوا جهدا لتطوير ودعم الاشتراكية . وأعتقد أن الحد الأدنى من إمكانيات النظام الجديد هو ما أمكن الاستفادة منه حتى الآن .

ولهذا السبب نجد اقتراحات غريبة - بعضها حتى مخلص - بأن نغير نظامنا الاجتماعى ونتجه إلى الأساليب والأشكال المميزة لتشكيل اجتماعى مختلف . والذين يتقدمون بمثل هذه المقترحات لا يدركون أن ذلك مستحيل حتى ولو كان هناك من يرغب فى تحويل الاتحاد السوفيتى إلى الرأسمالية . ولنفكر : كيف يمكن أن نوافق على أن ١٩١٧ كان خطأ ، وأن كل السنوات السبعين من حياتنا ، وعملنا ، وجهدنا ، ومعاركنا كانت كذلك خطأ تاما ، وأنا كنا نسير فى « الاتجاه الخاطئ » ؟ كلا ، فإن نظرة دقيقة وغير متميزة لحقائق التاريخ تنتهى فقط إلى استنتاج واحد : إن الخيار الاشتراكى هو الذى نقل روسيا المتخلفة سابقا إلى « المكان الصحيح » - المكان الذى يشغله الاتحاد السوفيتى الآن فى تقدم البشرية .

وليس ثمة ما يحملنا على أن نتحدث عن ثورة أكتوبر الاشتراكية بصوت خفيض ، كما لو كنا نحجلين منها . إن نجاحاتنا هائلة ولا مرأى فيها . ولكننا نرى الماضى فى مجموعه وبتعقيداته : ولا تحول أضخم إنجازاتنا بيننا وبين أن نرى التناقضات فى تطور مجتمعا ، وأخطائنا وإهمالنا لواجباتنا . إن أيديولوجيتنا نفسها حاسمة وتورية بطبيعتها .

وعندما نبحث عن جذور مشاكل اليوم وصعوباتها فإننا نفعل ذلك لكى نفهم منشأها ونستخلص دروس حياتنا الحالية من أحداث تعود إلى الثلاثينيات .

والشئ الأهم بالنسبة لنا الآن فى التاريخ السابق : هو أننا من خلال فهمه نصل إلى إدراك أصول البيريسترويكا . لقد تشكل تاريخنا تحت تأثير قوى لعوامل مصاحبة بيد أنه تاريخنا ، وتكمن فيه مصادر البيريسترويكا .

ولكن لماذا حدث كل ما جعل البيرسترويكا ضرورية ؟ ولماذا تأخرت ؟ ولماذا استمرت أساليب العمل القديمة فترة طويلة ؟ وكيف حدث التزمت العقائدى فى وعينا الاجتماعى وفى النظرية ؟.

كل هذا يحتاج إلى تفسير. نحن نجد فى تحليلنا وشرحنا كثيرا من البراهين على أن الحزب والمجتمع قد أدركا أن العمليات السلبية تنمو. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الوعى بالحاجة إلى التغيير قد أفصح عن نفسه بشكل حاد أكثر من مرة. ولكن التغييرات لم تتواصل واتسمت بعدم الثبات تحت ثقل تراث الماضى بكل خصائصه السائدة .

وكان المؤتمر العشرون^(٨) للحزب الشيوعى السوفيتى معلما هاما فى تاريخنا . فلقد قدم إسهاما كبيرا لنظرية وممارسة البناء الاشتراكى . وخلال المؤتمر وبعده ، بذلت محاولة هامة لتحويل دفة تقدم البلاد ، ولإعطاء دفعة للتحرر من الجوانب السلبية للحياة الاجتماعية - السياسية التى ولدتها عبادة شخص ستالين .

وساعدت قرارات المؤتمر على مباشرة تدابير سياسية واقتصادية واجتماعية وأيدولوجية هامة . بيد أن الإمكانيات التى ظهرت لم تستغل بشكل كامل . ويجد ذلك تفسيره فى الأساليب الذاتية التى أقرتها القيادة فى عهد خروتشوف . وساد الارتجال الإدارة الاقتصادية . وجعلت أفكار وأعمال القيادة العنيدة والمتغيرة ، المجتمع والحزب فى حالة محمومة . وأدت الوعود والتوقعات الطموحة التى لاتستند إلى أساس ، أدت من جديد إلى انفصال الأقوال عن الأفعال .

ولهذا السبب ، فى المرحلة التالية ، التى كان معلمها الرئيسى اجتماع أكتوبر

(٨) عقد المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفيتى من ١٤ - ٢٥ فبراير ١٩٥٦ ، ووافق المؤتمر على توجيهات الخطة الخمسية السادسة للتنمية الاقتصادية للبلاد للفترة ١٩٥٦ - ١٩٦٠ ، واكتشف مبدأ التعايش السلمى بين الدول ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة كما ينطبق على الفترة الحالية ، وأدان عبادة شخصية ستالين وآثارها .

١٩٦٤ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي^(٩) ، كانت الخطوة الأولى تتمثل في التغلب على هذه التدابير المتطرفة ومقاومتها . واتخذت سياسة ترمى إلى الاستقرار . وكانت سياسة لها ما يبررها تماما . ولقيت مساندة الحزب والشعب . وظهرت بعض النتائج الإيجابية . وكانت القرارات التي صيغت وأقرت مدروسة ومعللة بصورة أفضل . وكانت بداية الإصلاح الاقتصادي عام ١٩٥٦^(١٠) واجتماع مارس ١٩٦٥ الكامل للجنة المركزية المكرس للزراعة مبادرتين هامتين تهدفان إلى تغييرات إيجابية في الاقتصاد . بيد أنهما وهنتا بعد أن أعطتا تأثيرا هاما وإن كان مؤقتا .

وأدى جو الرضا عن الذات والعملية الطبيعية لتغير القيادة إلى الركود ، وإلى إعاقة تقدم البلاد . وقد سبق لي أن وصفت ذلك . وفي نفس الوقت تطلب الوضع بدرجة أكبر قرارات هامة ودؤوية لتحسين دولا ب الإدارة الاقتصادية والاجتماعية .

فما هي الاستنتاجات التي استخلصناها من دروس التاريخ ؟

أولا : لقد أثبتت الاشتراكية كنظام اجتماعي أنها تملك إمكانيات هائلة لحل أعقد مشاكل التقدم الاجتماعي . ونحن على قناعة بقدرتها على تخليص نفسها من المآخذ ، وعلى مواصلة المزيد من الكشف عن إمكانياتها ، وعلى معالجة المشاكل الهامة الحالية للتقدم الاجتماعي التي تنشأ مع اقترابنا من القرن الحادي والعشرين .

وفي نفس الوقت ، فنحن ندرك أن تحسين الاشتراكية ليس عملية تلقائية ، ولكنه مهمة تحتاج إلى اهتمام كبير ، وتحليل صادق وغير متحيز للمشاكل ، ورفض

(٩) أعني الاجتماع الكامل الذي عقد في ١٤ أكتوبر ١٩٦٤ نيكيثا خروتشوف من واجباته كسكرتير أول للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ، وانتخب ليونيد بريجنيف لهذا المنصب .

(١٠) كان الإصلاح الاقتصادي لعام ١٩٥٦ يهدف إلى تحسين دولا ب النشاط الاقتصادي في الصناعة والبناء ، مع التأكيد على الربح .

حازم لكل ما أصبح باليا . وقد أصبحنا نرى أن التدابير المترددة لن تفيد في هذا الخصوص . وعلينا أن نعمل على جبهة عريضة ، بثبات ونشاط ، ودون أن نعجز عن اتخاذ أجراء الخطوات .

وهناك استنتاج آخر - يعتبر في رأي أهم استنتاج - يتمثل في أننا يجب أن نعتمد على مبادرة الجماهير وإبداعيتها ، وعلى المشاركة النشطة لأوسع أقسام السكان في تنفيذ الإصلاحات المرسومة ، وعلى إشاعة الديمقراطية مرة أخرى .

ما الذى ألهمنا أن نبدأ البيرسترويكا

إنه لمن الخطأ بل والضرار أن ننظر إلى المجتمع الاشتراكى باعتباره شيئا جامدا لا يتغير ، وأن نرى في تحسينه جهدا لتكييف الواقع المعقد مع المفاهيم والصيغ المقررة مرة وإلى الأبد . إن مفاهيم الاشتراكية تواصل تطورها ، ويجرى إثراؤها على الدوام مع وضع الخبرة التاريخية والظروف الموضوعية في الاعتبار .

لقد تعلمنا على الدوام ، وما نزال نتعلم من موقف لينين الخلاق من نظرية وممارسة البناء الاشتراكى . ونحن نستخدم مناهجه العلمية ونستوعب منه في تحليل الأوضاع الملحوسة .

ومع استمرار البيرسترويكا ، فإننا ندرس مؤلفات لينين مرة بعد الأخرى ، وبخاصة مؤلفاته الأخيرة .

لقد قدمت لنا كلاسيكيات الماركسية اللينينية تعريفا للخصائص الجوهرية للاشتراكية . ولكنها لم تقدم لنا صورة مفصلة للاشتراكية . وتحدثت عن مراحلها التى يمكن التنبؤ بها نظريا . ومهمتنا أن نتبين ما يجب أن تكون عليه المرحلة الحالية . وسيكون علينا أن نمر بالفعل بهذه المرحلة ، لأن الكلاسيكيات تعلمنا المدخل وليس التكنيك .

وتواجهنا هذه المرحلة الجديدة بالحاجة إلى إعادة النظر في كثير من المسائل

النظرية والأفكار القائمة عن الاشتراكية ، معتمدين على تراث لينين ومناهجه .
ومثل هذه المراجعة هامة للغاية حيث أنه لم يجر التمسك على الدوام بأفكار لينين في
السنوات التي أعقبت وفاته .

ودفعنا الوضع الخاص في البلاد إلى قبول أشكال وأساليب للبناء الاشتراكي
تتفق مع الظروف التاريخية . وقد جرى تمجيد هذه الأشكال وتقديسها وتحولت إلى
عقيدة جامدة . ومن ثم كانت هذه الصورة العقيمة للاشتراكية ، والمركزية المبالغ
فيها في الإدارة ، وإهمال التنوع الفني للمصالح البشرية ، والتهوين من الدور
النشط الذي يلعبه الناس في الحياة العامة واتجاهات المساواة الصريحة .

ولنأخذ نموذج الإدارة الاقتصادية . فالوضع التاريخي الخاص الذي تطور فيه
الاتحاد السوفيتي ، وظروفنا الصعبة ، لا يمكن إلا وأن تؤثر على هذا النموذج . إن
التهديد بالحرب ، ثم وقوع أكثر الحروب دموية ودمارا في التاريخ كان من الممكن أن
يكون صعبا حتى بدونها ، ومحاولة إعادة التعمير فيها بعد الحرب ، كل ذلك أدى إلى
نشأة المركزية الصارمة في الإدارة . ونتيجة لذلك تقلصت الأسس الديمقراطية لنظام
الإدارة لدينا .

ولنعد الآن إلى كيف تطور هذا التناقض . عندما بدأت روسيا السوفيتية الفنية
بناء مجتمع جديد ، كانت تقف وحدها ضد العالم الرأسمالي ، وتواجه الحاجة إلى
التغلب السريع على التخلف الاقتصادي والتكنولوجي ، وتقيم صناعة حديثة عمليا
من لا شيء . وقامت كذلك بنشاط لم يسبق له مثيل .

وكان علينا ، لكي نقوم بذلك ، أن نزيد بشكل حاد من نسبة المدخرات في
دخلنا القومي ونخصص الجزء الأكبر من الأموال لتطوير الصناعة الثقيلة ، بما في
ذلك صناعة الدفاع . ولم نطرح على الإطلاق السؤال ، كم كلفتنا هذه الأولوية ،
أو ظل في أفضل الأحوال في الخلفية . ولم تضر الدولة بأية نفقات ، وكان الشعب
راغبا في تقديم التضحيات من أجل تقدم بلاده السريع ، ومن أجل قدراتها

الدفاعية ، واستقلالها وخيارها الاشتراكي .

وكان الغرض من نظام الإدارة الذي وضع ، هو أن يلبي هذه الأهداف . وكان ممرکزا بشكل قاس . وخطط التکلیفات حتى آخر التفاصيل . وحدد المهام بحزم ورصد أحوال الميزانية . وأنجز رسالته .

ومع ذلك ، فلا يمكننا أن نعزو مثل هذه الإدارة كلية إلى الظروف الموضوعية . فقد كانت هناك مقدمات خاطئة وقرارات ذاتية . وعلينا أن نضعها في أذهاننا كذلك ونحن نقيم مشاكلنا اليوم . ومهما كان الأمر ، فقد بدأ نظام الإدارة الذي تشكل في الثلاثينيات والاربعينيات يتناقض تدريجيا مع مطالب وظروف التقدم الاقتصادي . واستنفدت إمكانياته الإيجابية . وأصبح يشكل عقبة أكثر فأكثر ، وأدى إلى نشأة الدولار الكابح الذي أنزل بنا كثيرا من الأضرار فيها بعد . وكانت الأساليب التي تطلبها الأوضاع الصعبة ماتزال تستخدم .

وهنا دفعت النزعة العقائدية إلى تطور اقتصاد « منهك »^(١١) ، اكتسب قوة دفع كبيرة واستمر في الوجود حتى منتصف الثمانينيات . وفي ذلك تكمن جذور « نظرة إجمالي الناتج »^(١٢) التي سادت اقتصادنا حتى وقت قريب .

وفي هذه الظروف ظهر اتجاه متحيز لصالح دور العلاقات السلعية - النقدية وقانون القيمة في ظل الاشتراكية . وغالبا ما قيل إنها يتعارضان مع الاشتراكية وغريان عليها . وارتبط كل هذا بالتقليل من شأن حساب الربح والخسارة ، وأدى إلى الفوضى في تحديد الأسعار ، وإلى تجاهل دورة النقود .

وفي الظروف الجديدة بدأ الأساس الديمقراطي الضيق القائم للإدارة يفرز أثرا

(١١) الاقتصاد « المنهك » - أمر مظاهر الإدارة الشاملة للاقتصاد حيث يتحقق النمو غالبا من خلال بناء مصانع ووحدات انتاجية جديدة وتوظيف عمال أكثر ، مما يؤدي إلى زيادة تكاليف الإنتاج ، دون أى زيادة في الإنتاجية .

(١٢) « نظرة إجمالي الربح » - التخطيط والإنتاج غير المتوازن الذي يؤكد على « وزن » و « كمية » المنتجات بدلا من تحسين جودتها وتعديل العرض ومن الطلب الحقيقي .

سلبيًا شديدًا . ولم يترك سوى مكانًا محدودًا لفكرة لينين في الحكم الذاتي للجماهير العاملة . وعزلت الملكية العامة بالتدريج عن ملاكها الحقيقيين - العمال - وكثيرًا ما عانت هذه الملكية من النزعة الديوانية والمحلية ، وغدت أرضًا بلا صاحب ، تفتقر إلى مالك حقيقي وظهرت أمارات متزايدة لاغتراب الإنسان عن ملكية كل الشعب ، والافتقار إلى التنسيق بين المصلحة العامة والمصالح الخاصة للشعب العامل . وكان هذا هو السبب الهام لما حدث في المرحلة الجديدة حيث بدأ نظام الإدارة الاقتصادية الجديد يتحول من عامل تطوير إلى آلية كابحة عرقلت تقدم الاشتراكية .

وعندما يتحدث المرء عن الجانب السياسي للدولاب الكابح ، لا يمكنه أن يعجز عن رؤية تطور وضع مناقض : إذ لم يستطع الناس المتعلمون الموهوبون الملتزمون بالاشتراكية الاستفادة الكاملة من الإمكانيات الكامنة في الاشتراكية ، ومن حقهم في المشاركة الحقيقية في إدارة شئون الدولة . لقد كان العمال والفلاحون والمثقفون يمثلون ، بالطبع ، على الدوام في كافة هيئات السلطة والإدارة ، ولكنهم لم يجذبوا على الدوام إلى صنع واتخاذ القرارات بالدرجة اللازمة للتطور السليم للمجتمع الاشتراكي . وكانت الجماهير مستعدة لبذل جهد سياسي أكثر نشاطًا ، ولكن لم يكن ذلك متاحًا ، رغم أن الاشتراكية تزداد قوة على وجه التحديد كلما أشركت أعدادًا متزايدة دوماً من الناس في النشاط السياسي .

وأدى الدولاب الكابح في الاقتصاد ، بكل آثاره الاجتماعية والايدولوجية إلى بنى عامة تكبلها البيروقراطية ، وإلى اتساع البيروقراطية على كافة المستويات . واكتسبت هذه البيروقراطية نفوذًا كبيرًا للغاية في كل شئون الدولة والشئون الإدارية وحتى الشئون العامة .

وغني عن القول أن أفكار لينين القيمة عن الإدارة والحكم الذاتي ، وحساب الربح والخسارة وربط المصالح العامة بالمصالح الخاصة عجزت في هذه الظروف عن

أن تطبق وتطور بشكل سليم . وهذا ليس سوى مثال واحد للفكر الاجتماعي المتحجر المنفصل عن الواقع .

وضعت البيرسترويكا مهاماً جديدة لسياستنا وفكرنا الاجتماعي . وتضمنت وضع حد لتحجر الفكر الاجتماعي من أجل إعطائه آفاقاً أعرض ، والتغلب بشكل كامل على آثار هذا الاحتكار للنظرية ، والذي تميزت به فترة عبادة الشخصية . ففي هذه الفترة تحولت أشكال تطور المجتمع الاشتراكي التي ظهرت في ظروف صعبة إلى شيء مطلق بفعل سطوة ستالين واعتبرت أنها الأشكال الممكنة الوحيدة بالنسبة للاشتراكية .

ينبغي إجراء تغيير حاد في الفكر السياسي والاجتماعي . وفي ذلك يجب أن نتعلم من لينين . لقد كانت لديه قدرة نادرة على أن يحس في الوقت المناسب بالحاجة إلى تغييرات جذرية ، وإلى إعادة تقييم القيم ، وإلى مراجعة التوجيهات النظرية والشعارات السياسية .

وإليكم مثالا صارخا للغاية ، في أبريل ١٩١٧ ، عندما عاد لينين إلى روسيا ، لم يضع وقتاً طويلاً في تقييم الوضع واتجاهات التطور وإمكانياته بدقة في البلاد بعد ثورة فبراير^(١٣) . ولم يحدد فقط بشكل سليم تكتيكات الحزب والسوفيات الممكنة والوحيدة ، بل رسم أيضاً مهمة استراتيجية جديدة ، مهمة إعداد الحزب والجمهير لثورة اشتراكية . وإلا لكانت المكتسبات التي تحققت بالإطاحة بالحكم المطلق قد تعرضت للضياع . ولم يكن مثل هذا التغيير في التكتيكات متوقعا حتى بالنسبة للكثير من البلاشفة المتمرسين . وهذا هو نوع الجدل في التفكير السياسي الذي نتعلمه ونحن ننفذ البيرسترويكا .

وفي ذلك الوقت وفيما بعد على السواء ، غالبا ما حدث أن كان الحزب بطيئا

(١٣) أطاحت ثورة فبراير ١٩١٧ الديمقراطية البرجوازية بالعنصرية . وأقيمت حكومة مؤقتة ، كان عليها أن تشارك السلطة مع سوفيات نواب العمال والفلاحين والجنود .

للغاية في فهم الأفكار الجديدة . وكان من الصعب في بعض الأحيان ، حتى لدى بعض الأشخاص الملتزمين بقضية الثورة أن يكشفوا عن سوء فهم لديهم . بيد أن لينين وزملاءه كانت لديهم القدرة على إقناع الناس ، وعلى شرح الأمور ، وعلى العودة المرة بعد المرة إلى نفس المسألة ، ليعثوا الطاقة في الآخرين ، وليكسبوا من خامرهم التردد أو الشك . ووجد لينين نفسه أن المسألة صعبة في بعض الأحيان . وقد كتب في إحدى رسائله بمرارة ذات مرة ، مشيراً إلى هؤلاء الذين عجزوا عن مواجهة المصاعب ، وكانوا يبحثون عن حياة مريحة في الثورة : هناك أوقات قاسية ، وقاسية للغاية في بعض الأحيان ، ولكنني لن أقبل لأى سبب كان مبادلة أصغر جزء من هذه الفترة مقابل الحياة بكاملها في صحبة أشخاص سطحيين وسوقيين .

وقد ذكرت مرات عديدة ، بالرجوع إلى لينين ، أنك إذا ما عاجلت مسائل معينة دون أن ترى المنظور العام ، فسوف تستمر تتخبط في هذا المنظور العام طول الوقت . ومنذ أن اتخذنا من هذا خطأ مرشداً لنا ، منذ البداية الأولى للبريسترويكا ، وبخاصة في اجتماع يونيو ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ، أولينا أهمية رئيسية للنظرة التصورية وقد سعينا بالطبع لأن نقل من فوضى الأساليب . فلكى تحقق مكسباً هاماً ، ليس من الضروري على الإطلاق أن تبدأ بقلب الأمور ثم تبدأ بتصحيح كافة الأخطاء .

وثمة مهام جديدة ينبغي التصدي لها دون أن تكون لدينا إجابات جاهزة . كما لا توجد مثل هذه الإجابات اليوم . ولم يقدم لنا علماء الاجتماع بعد أى شيء متماسك . والاقتصاد السياسي للاشتراكية تعلق به مفهومات بالية ولم يعد يتمشى مع جدليات الحياة . وتتخلف الفلسفة وعلم الاجتماع كذلك عن متطلبات الممارسة . كما يجب أن يخضع علم التاريخ لمراجعة هامة .

لقد أتاح المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعي السوفيتي والاجتماعات

الكاملة للجنة المركزية فرصا جديدة للفكر الخلاق ، وأعطت دفعة قوية لتطوره .
لا يمكن أن تكون هناك حركة ثورية بدون نظرية ثورية - إن هذا المبدأ الماركسي
ملائم اليوم أكثر من أى وقت مضى .

البيروتويكا ثورة

البيروتويكا كلمة لها معان عديدة . ولكن إذا ما كان لنا أن نختار بين
مترادفاتنا العديدة واحدا يعبر عن جوهرها بدقة أكبر ، أمكننا أن نقول مايلي : إن
البيروتويكا ثورة . إن التسريع الحاسم للتنمية الاجتماعية - الاقتصادية والثقافية
للمجتمع السوفيتي ، والذي يشمل تغييرات جذرية على الطريق نحو دولة جديدة
نوعيا ، هو بدون شك مهمة ثورية .

واعتقد أنه كان لدينا كل الحق في أن نعلن في اجتماع يناير ١٩٨٧ الكامل : أن
النهج الحالي ، في جوهره ، وفي جرائته الفلسفية . وفي اندفاعه الاجتماعي الإنساني ،
هو تكملة مباشرة للإنجازات العظيمة التي بدأها الحزب اللينيني في أيام أكتوبر
١٩١٧ . إنه ليس تكملة فحسب ، بل هو امتداد وتطوير للأفكار الأساسية للثورة .
ويجب أن نضفي دينامية جديدة على اندفاع ثورة أكتوبر التاريخي ونواصل كل ما
بدأته في مجتمعا .

ونحن لانساوي البيروتويكا ، بالطبع ، بثورة أكتوبر التي تعتبر نقطة انعطاف
في تاريخ دولتنا الذي يبلغ ألف عام ، والتي لا يضاهاها شيء في قوة تأثيرها على تطور
البشرية . ومع ذلك ، فلماذا نتحدث في العام السبعين لثورة أكتوبر عن ثورة
جديدة ؟ .

وقد يساعد القياس التاريخي في الإجابة على هذا السؤال . فقد أشار لينين ذات
مرة إلى أنه في فرنسا ، بلد الثورة البرجوازية الكلاسيكية ، تطلب الأمر ثلاث
ثورات أخرى (١٨٣٠ ، ١٨٤٨ ، ١٨٧١) بعد ثورتها العظيمة ١٧٨٩ -

١٧٩٣ ، لتحقيق أهدافها . وينطبق نفس الشيء على بريطانيا ، حيث تلت ثورة كرومويل عام ١٦٤٩ ، ثورة ١٦٨٨ - ١٦٨٩ المجيدة . ثم كان إصلاح ١٨٣٢ ضروريا لكي تستقر الطبقة الجديدة بشكل نهائى فى السلطة - البرجوازية . وفى ألمانيا كانت هناك ثورتان برجوازيتان ديمقراطيتان (١٨٤٨ و ١٩١٨) وفيما بينهما الإصلاح الكبير لستينيات القرن التاسع عشر الذى نفذه بسمارك « بالحديد والدم » .

« ولم يحدث فى التاريخ إطلاقا « كما كتب لينين » ، أن كانت هناك ثورة من الممكن أن يلقى المرء فيها سلاحه ويستريح على إكليل الغار بعد النصر » . فلماذا إذن ينبغى على الاشتراكية المدعوة إلى تنفيذ تغييرات اجتماعية - سياسية وثقافية أكثر عمقا فى تطور المجتمع من الرأسمالية ألا تمر بمراحل ثورية عديدة لكي تكشف عن قدرتها الكاملة وتتلور فى النهاية كتشكيل جديد جذريا ؟ لقد كرر لينين الفكرة التالية أكثر من مرة : إن الاشتراكية قد تتضمن محاولات جديدة . ومن الممكن أن تكون كل محاولة أحادية الجانب من زاوية معينة ، ومن الممكن أن يكون لكل منها خصائصها الخاصة ، وينطبق ذلك على كافة البلدان .

وقد أوضحت الخبرة التاريخية أن المجتمع الاشتراكى ليس مؤمنا ضد ظهور وتراكم اتجاهات الركود ، ولا حتى ضد الأزمات الاجتماعية - الاقتصادية الكبرى . وهناك حاجة على وجه التحديد إلى تدابير ذات طابع ثورى للتغلب على الأزمة ، أو على وضع ماقبل الأزمة . والشيء الأهم هنا هو أن الاشتراكية قادرة على التغييرات الثورية ، لأنها دينامية بطبيعتها .

وفى ربيع ١٩٨٥ وضع الحزب هذه المهمة فى جدول الأعمال . وتطلبت خطوة المشاكل المتراكمة والناشئة ، والتأخير فى فهمها وحلها ، التصرف بطريقة ثورية وإعلان فحص ثورى للمجتمع .

والبيرسترويكا عملية ثورية لأنها قفزة إلى الأمام فى تطور الاشتراكية ، وفى تحقيق خصائصها الجوهرية . ولقد أدركنا منذ البداية أنه ليس لدينا وقت نضيعه .

ومن المهم للغاية ألا نبقى طويلا جدا عند خط البداية ، وأن نتغلب على التلكؤ ، وأن نخرج من مستنقع النزعة المحافظة ، وأن نحطم القصور الذاتي للركود . وذلك لا يمكن أن يتم بطريقة تطويرية ، عن طريق إصلاحات متسلسلة تعوزها الشجاعة . وأقولها ببساطة : إنه ليس لدينا وقت للاسترخاء ، ولا ليوم واحد . وعلى العكس ، فعلىنا يوما بعد يوم أن نضاعف جهدنا ، وأن نعزز وتيرته وكثافته . وعلىنا أن نقاوم الضغوط ، أو ما يسميه رواد الفضاء ، بالأحمال الزائدة الكبيرة ، في المرحلة الأولى من إعادة البناء .

إن الثورة ينبغي تطويرها على الدوام . ولا يجب أن يكون هناك وقت للانتظار ويكشف ماضينا عن ذلك . ومازلنا نشعر بآثار التباطؤ . ولذلك فنحن نحتاج الآن إلى شجاعة وجرأة مضاعفة ، وإذا ما توقفنا ثانية ، فسوف تزيد المشاكل ، وعلى ذلك - فإلى الأمام فقط !

إن التصرف بطريقة ثورية لا يتضمن بالطبع اندفاعا متهورا . وهجمات الفرسان بعيدة عن أن تكون مناسبة على الدوام . فالثورة تحكمها قوانين السياسة ، ومن الممكن . وينبغي تجنب تخطى مراحلها وتخطى أنفسنا . وتتمثل المهمة الآن في خلق أساس للتقدم نحو حدود نوعية جديدة . وإلا فقد يتحول كل الأمر إلى فوضى وتشوه سمعة القضية العظيمة .

ووفقا لنظريتنا فإن الثورة تعنى البناء ، ولكنها تتضمن كذلك التدمير على الدوام . والثورة تحتاج إلى تدمير كل ما هو عتيق ، وراكد ، وكل ما يعوق التقدم السريع . وبدون تدمير ، لا يمكنك أن تنظف الموقع لبناء جديد . وتعنى البيريسترويكا كذلك إزالة جذرية وحازمة للعقبات التي تعرقل التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، ولأساليب إدارة الاقتصاد التي انقضت زمانها ولعقلية القوالب العقائدية . وتؤثر البيريسترويكا على مصالح كثير من الناس ، على مصالح المجتمع بأسره . ويشير التدمير ، بالطبع ، النزاعات ، وأحيانا الصدمات الضارية بين القديم

والجديد . وليس هناك قنابل تنفجر ، أو رصاصا تتطاير ، بالطبع ، ولكن الذين يعترضون الطريق يقاومون . وكذلك فإن عدم التصرف ، واللامبالاة ، والكسل ، وعدم الشعور بالمسئولية . وسوء الإدارة ، كلها تشكل مقاومة أيضا .

وهذا شيء مفهوم . لقد ازداد جو مجتمعنا توترا مع تزايد جهد البيرسترويكا عمقا . وسمعنا بعض الناس يقولون : هل كان هناك ما يدعو إلى بدء كل ذلك على الإطلاق ؟.

ولا يقبل حتى بعض الناس كلمة « ثورة » عندما تعنى هذا الجهد . والبعض يرتعدون حتى للفظ « الإصلاح » . بيد أن لينين لم يكن يخشى استخدام هذه الكلمة ، بل علم البلاشفة أنفسهم أن يسعوا إلى « الإصلاح » حيثما احتاج الأمر إلى ذلك ، لمواصلة قضية الثورة في الظروف الجديدة . ونحن اليوم نحتاج إلى إصلاحات جذرية للتغيير الثوري .

وتتمثل إحدى علامات أى فترة ثورية في تعارض واضح بدرجة أو أخرى بين المصالح الحيوية للمجتمع الذى تستعد طلائعه لتغييرات حيوية ، وبين المصالح العاجلة اليومية للناس . والبيرسترويكا تضرب بشدة هؤلاء الذين اعتادوا العمل بالطريقة القديمة . ولا توجد لدينا أى معارضة سياسية ، ولكن هذا لا يعنى أنه لا توجد مواجهة مع الذين لا يقبلون البيرسترويكا ، لأسباب مختلفة . وربما كان على كل امرئ أن يقدم توضيحات في المرحلة الأولى من البيرسترويكا ، ولكن سيكون على البعض أن يتخلوا طواعية عن الامتيازات التى لا يستحقونها والتى اكتسبوها بشكل غير مشروع ، وعن الحقوق التى عرقلت تقدمنا .

لقد كانت مسألة المصالح على الدوام مسألة رئيسية بالنسبة للحزب في اللحظات الحرجة . وسيكون من المناسب أن نتذكر كيف كافح لينين من أجل معاهدة صلح برست^(١٤) في عام ١٩١٨ المضطرب . كانت الحرب الأهلية تستعر . وفي هذه

(١٤) معاهدة صلح برست - معاهدة صلح بين روسيا السوفيتية وبلدان الاتفاق الرباعى (ألمانيا ، والنمسا =

اللحظة أتي تهديد خطير من ألمانيا . ولهذا اقترح لينين توقيع معاهدة صلح معها . وكانت شروط السلام التي وضعتها ألمانيا لنا بشكل متعجرف « مهينة وقذرة » كما وصفها لينين ، وكانت تعني ضم بقعة واسعة من الأرض بسكانها الذين يبلغون ستة وخمسين مليوناً . وبدا من المستحيل قبولها . ومع ذلك أصر لينين على معاهدة الصلح . وعارض حتى بعض أعضاء اللجنة المركزية ، وقالوا إن العمال كذلك يطالبون بردع الغزاة الألمان . ومع ذلك استمر لينين يدعو للسلام لأنه كان يسترشد بالمصالح الحيوية ، لا العاجلة ، مصالح الطبقة العاملة في مجموعها ، والثورة ومستقبل الاشتراكية . ولحماية هذه المصالح ، احتاجت البلاد إلى التقاط الأنفاس قبل أن تتقدم إلى الأمام ، وأدرك قليلون ذلك في هذا الوقت . وكان من السهل فيما بعد وفقط أن نقول بثقة وبوضوح إن لينين كان على صواب . وكان على صواب بالفعل ، لأنه كان يتطلع بعيداً ، ولم يضع مآهوماً مؤقت فوق مآهوجوهري . وهكذا أنقذت الثورة .

ونفس الشيء مع البيريسترويكا . فهي تلي المصالح الحيوية للشعب السوفيتي وتهدف إلى نقل المجتمع إلى حدود جديدة ورفعته إلى مستوى نوعي جديد . وسيكون علينا أن نقدم توضيحات ، لن تكون سهلة . إن العادات والأفكار القائمة تتحلل أمام أعيننا . واختفاء الأشياء المألوفة يثير الاحتجاج . ولا تريد التزعة المحافظة أن تستسلم ، بيد أن كل هذا يمكن بل ويجب التغلب عليه إذا ما أردنا أن نلبي المصالح الطويلة الأمد للمجتمع ولكل فرد .

لقد واجهنا بالفعل مسألة العلاقة بين المصالح العاجلة والطويلة الأمد عندما بدأنا نطبق تفتيش الجودة الحكومي^(١٥) . فلتحسين جودة المنتجات أنشأنا جهازاً

= - المجر ، وتركيا ، وبلغاريا) وقعت في ٨ مارس ١٩١٨ في برست ليتوفسك . وقد ألغتها الحكومة السوفيتية في ١٣ نوفمبر ١٩١٨

(١٥) تفتيش الجودة الحكومي - نظام للرقابة على جودة المنتجات ، مستقل عن إدارة المؤسسة ، وخاضع للجنة التوحيد القياسي الحكومية للاتحاد السوفيتي . وقد أدخل هذا النظام في أول يناير ١٩٨٧ ، في ١٥٠٠ مؤسسة صناعية . وجرى التخطيط لمواصلة توسيعه .

مستقلا لضمان أن تلبى المنتجات المعايير القائمة . وفى البداية انخفضت دخول كثير من العمال ، ولكن المجتمع كان فى حاجة إلى تحسين الجودة ، ونظر العمال إلى الإجراء الجديد بتفهم . ولم تكن هناك احتجاجات منهم . وعلى العكس يقول العمال الآن : « إنه لشيء مشين أن تحصل على ما لم تتكسبه » . وفى نفس الوقت ، فإنهم يريدون من المديرين ، والمهندسين ، والعاملين التكنيكيين أن يتخذوا نفس الموقف . وهكذا أصبح تفتيش الجودة الحكومى أرض اختبار للبيريسترويكا . لقد كشف عن مواقف الناس من العمل والاحتياطات البشرية التى يمكن الاستفادة منها للبيريسترويكا . لقد أصبح تفتيش الجودة الحكومى ورقة اختبار تؤكد مرة أخرى أن الطبقة العاملة السوفيتية فى مجموعها تؤيد تماما إعادة البناء ، وأنها على استعداد لتطويرها ، ولأن تنجز فى الممارسة دورها كطبقة طليعية للمجتمع الاشتراكى .

إن البيريسترويكا ، كالثورة ، ليست شيئا يمكن أن تلهوبه . عليك أن تواصل العمل حتى النهاية ، وتحقق تقدما كل يوم حتى تشعر الجماهير بنتائجها ، وحتى يمكن للعملية أن تزداد قوة ماديا وروحيا على السواء .

وعندما نطلق على تدابيرنا أنها ثورية ، فإنما نعى أنها بعيدة المدى ، وجذرية ، ولا تقبل مساومة ، وتؤثر على كل المجتمع من القمة حتى القاعدة . إنها تؤثر على كل مناحى الحياة وذلك بطريقة شاملة . ولا يعنى هذا تجميل مجتمعنا ، أو تضييد جروحه ، ولكن يتضمن شفاءه وتجديده تماما .

تعتبر السياسة دون شك أهم شيء فى أى عملية ثورية . ويصح ذلك بالطبع على البيريسترويكا . ولذلك فنحن نولى أولوية للتدابير السياسية ، والإشاعة الديمقراطية الحقيقية والواسعة ، وللنضال الحازم ضد الروتين وانتهاك القانون ، ولمشاركة الجماهير النشطة فى إدارة شئون البلاد . وكل ذلك يرتبط مباشرة بالمسألة الأساسية فى أى ثورة ، وهى مسألة السلطة .

ولن نغير السلطة السوفيتية ، بالطبع ، أو نتخلى عن مبادئها الرئيسية ، ولكننا

نعتزف بالحاجة إلى تغييرات تدعم الاشتراكية وتجعلها أكثر دينامية ، وذات مغزى من الناحية السياسية . ولهذا السبب فلنا كل الحق فى أن نصف خططنا من أجل إشاعة الديمقراطية الواسعة النطاق فى المجتمع السوفيتى بأنها برنامج للتغييرات فى نظامنا السياسى .

ومن ثم فعلينا - إذا ما أردنا للبيريسترويكا النجاح - أن نوجه كل عملنا إلى مهام وأساليب القيادة السياسية . وأهم عنصر فى نشاط منظمات الحزب والعاملين فيه هو العمل السياسى بين الجماهير ، والتربية السياسية للجماهير العاملين ، ورفع مستوى نشاط الشعب السياسى . لقد برز إلى المقدمة من جديد المعنى الأصلى لمفهوم «الاشتراكية» باعتبارها ، فى المقام الأول ، حركة سياسية وأيدولوجية للجماهير ، حركة قاعدية تكمن قوتها أساسا فى وعى ونشاط الإنسان .

إن الثورة ظاهرة لا يضارعه شىء . ونشاطنا اليومى ينبغى ألا يضارعه شىء ، كالثورة ، وينبغى أن يكون ثوريا . والبيريسترويكا تتطلب زعماء حزينين قريبين للغاية من مثل لينين كبلىشنى ثورى . إن تحكّم الموظفين ، والروتين ، والاستعلاء ، والوصولية لا تتفق مع هذه المثل . ومن ناحية أخرى ، تبجل لدرجة كبيرة الشجاعة والمبادرة ، والمستويات الأيدولوجية العالية ، والنقاء المعنوى ، والاندفاع الدائم لمناقشة الأمور مع الناس ، والقدرة على الدفاع بحزم عن القيم الإنسانية للاشتراكية . إن الوضع الثورى يتطلب الحماس ، والإخلاص والتفانى . وهذا ما ينطبق بشكل خاص على القادة . وما يزال أمامنا طريق طويل للتوصل إلى هذه المثل ، إن كثيرا من الناس ما يزالون « فى حالة تطور » ، أو بوضوح ، يتبنون موقف الترقب .

« ثورة من أعلى » الحزب والبيريسترويكا

هناك مصطلح في العلوم التاريخية وكذلك في المفردات السياسية : « ثورة من أعلى » . وقد كان هناك عدد محدود من أمثال هذه الثورات في التاريخ . ولكن يجب عدم الخلط بينها وبين « الانقلابات » وثورات القصور . إن مانعني هو التغييرات العميقة والثورية حقا التي يجرى تنفيذها بمبادرة من السلطات نفسها ، والتي تطلبها التغييرات الموضوعية في الوضع وفي المزاج الاجتماعي .

وقد يبدو أن البيريسترويكا الحالية لا يمكن أن يطلق عليها « ثورة من أعلى » حقا ، لقد بدأت حركة البيريسترويكا بمبادرة من الحزب الشيوعي ، والحزب يقودها . ولدى الحزب من القوة والجرأة ما يكفي لوضع سياسة جديدة . كما برهن على أنه قادر على قيادة ونحوض عملية تجديد المجتمع ، وقد بدأ الحزب المحاولة بتقويم نفسه . وتحدثت عن ذلك بصراحة في اجتماعي مع نشطاء الحزب في خاباروفسك ، في صيف ١٩٨٦ . وقلت ، يجب أن نبدأ بأنفسنا ، وعلى كل فرد أن يتحمل المسؤولية : في المكتب السياسي ، وفي الهيئات المحلية ، وفي منظمات الحزب القاعدية . ينبغي أن نكون أفضل مما نحن عليه . وسوف نساعد من لا يستطيعون تقويم أنفسهم . والشئ الرئيسي أن يكون ضميرنا حيا . لقد اعتدنا على كثير من الممارسات عندما لم تكن هناك صراحة . وينطبق ذلك على العناصر العادية وعلى كبار المسؤولين على السواء .

ولا أعني بذلك أننا يجب أن نتملق الناس ، كما يفعل المرشحون في بعض البلاد خلال الحملات الانتخابية . فشعبنا لا يجب ذلك . ويجب أن يعرف الحقيقة ، ولا ينبغي على المرء أن يخشى من شعبه . والصراحة خاصة للاشتراكية . ولكن ما يزال هناك بعض الناس ، في المراتب العليا ، يتحدثون إلى الجميع عن الأخلاق

الاشتراكية ، ويتحدثون بشكل آخر مع أنفسهم ، أى ، بما يناسب أغراضهم
الأنانية ، وهذا لا يصلح .

وباختصار ، لقد بدأت محاولة إعادة البناء بالحزب وقيادته . وبدأنا من قمة الهرم
واتجهنا إلى قاعدته . وعلى ذلك فإن مفهوم « الثورة من أعلى » لا ينطبق تماما على
البيريسترويكا . إنه يحتاج على الأقل إلى بعض التحفظات . نعم إن قيادة الحزب قد
بدأتها . وصاغت أعلى هيئات الحزب والدولة البرنامج وأقرته . حقا إن
البيريسترويكا ليست عملية تلقائية ولكنها عملية موجهة . وهذا ليس سوى جانب
واحد من المسألة .

وما كان للبيريسترويكا أن تكون مهمة ثورية حقا ، وما كان لها أن تكتسب نطاقها
الحالى أو ما كان لها أن تتاح لها فرصة جادة فى النجاح ، إذا لم تكن قد وُحِّدَت بين
المبادرة من « أعلى » وبين حركة القاعدة ، وإذا لم تكن قد عبرت عن المصالح الرئيسية
طويلة المدى لكافة جماهير الشعب ، وإذا لم تكن الجماهير قد اعتبرتها برنامجا لها ،
واستجابة لأفكارها واعترافا بمطالبها ، وإذا لم يكن الشعب قد أيدىها بحماس وبشكل
فعال .

إن طبيعة إعادة البناء نفسها تتضمن أن تمضى فى كل مكان عمل ، وفى كل
أسرة عمل ، وفى نظام الإدارة بكامله ، وفى هيئات الحزب والدولة ، بما فى ذلك
المكتب السياسى والحكومة . إن إعادة البناء تهم الجميع ، من الشيوعى العادى إلى
سكرتير اللجنة المركزية ، ومن العامل فى الورشة حتى الوزير ، ومن المهندس حتى
الأكاديمى . ومن الممكن أن نصل إلى نهاية ناجحة فقط إذا ما غدت جهدا على
نطاق البلاد حقا . ولكن على أية حال ، ينبغى على كل امرئ أن يعمل بأمانة
وبضمير حى ، وألا يضمن بجهوده وقدراته . وسوف يشارك فى مثل هذه الحركة مزيد
ومزيد من الناس .

وعندما يقترح موقف جاد ومدرّوس ، فسيلقى على الدوام مساندة الجماهير العاملة

وفهمها . وهذا بالضبط ما حاولنا التعرف على منواله طوال العامين والنصف عام الماضيين ، وربما لم نعبر بعد عن أنفسنا بشكل كامل ، أو نوضح للشعب كل تعقيدات الوضع الذى وجدت البلاد نفسها فيه ، وما الذى يجب عمله . ولكننا قلنا أهم شيء ولقينا المساندة والترحيب استجابة لذلك .

وتبرز عناصر الضعف وعدم الثبات فى كافة ما عرفنا من « الثورات من أعلى » فى افتقاد مثل هذه المساندة من أسفل ، وإلى انعدام التفاهم والعمل الدؤوب مع الجماهير ، ونتيجة لافتقاد كل هذه الأشياء كانت هناك الحاجة إلى درجة ما من الضغط القمعى من أعلى . وأدى ذلك إلى تشويهاات فى مجرى التغييرات ، ومن ثم إلى « تكاليفها » الاجتماعية - السياسية والمعنوية الباهظة .

وتتمثل السمة المميزة للبيريسترويكا وقوتها فى أنها تشكل فى نفس الوقت ثورة « من أعلى » و « من أسفل » . وفى هذا تكمن أهم الضمانات التى يعول عليها لنجاحها ولأن تكون لارجعة فيها . وسنسى بدأب لضمان أن تحافظ الجماهير « الناس من أسفل » على كافة حقوقهم الديمقراطية ويتعلموا استخدامها بطريقة عادية وكفؤة ومسئولة . وتؤكد لنا الحياة بوضوح أن الناس عند المنعطفات الحادة للتاريخ ، وفى ظل الأوضاع الثورية ، يبدون قدرة ملحوظة على الإنصات ، والفهم والاستجابة إذا ما قبلت لهم الحقيقة . وهذه هى على وجه الدقة الطريقة التى تصرف بها لينين حتى فى أصعب اللحظات بعد ثورة أكتوبر وخلال الحرب الأهلية ، عندما ذهب إلى الناس وتحدث إليهم بصراحة . ولهذا السبب فمن المهم للغاية أن تحتفظ البيريسترويكا بمستوى عال من النشاط السياسى ومن طاقة العمل بين الجماهير .

وكثيرا ما يقولون فى الغرب إن البيريسترويكا ستواجه المصاعب ، وأن هذا سوف يثير استياء جماهيرنا العاملة . فما الذى يمكن أن أقوله ردا على ذلك ؟ ستكون هناك بالطبع صعوبات فى مثل هذه المهمة الكبيرة . وإذا ما صادفنا سخطا أو احتجاجا

مشروعاً ، فسوف نبذل جهداً جاداً لكي نتحقق ، في المقام الأول ، من الأسباب التي تكمن وراء ذلك ، ولا يمكن للحماس الإداري أن يساعد في مثل هذه الحالات . ويجب على هيئات السلطة والمنظمات الاقتصادية والعامة أن تتعلم كيف تعمل حتى لا تعطى أية مبررات لمثل هذه المظاهر ، وحتى تحل في الوقت المناسب المسائل التي قد تثير ردود الفعل هذه عندما تحدث . وإذا لم تحل السلطات المشاكل الخاصة التي تهم الناس ، فإنهم سيحاولون حلها بأنفسهم . وإذا كان الناس يواصلون الحديث في الاجتماعات ويتوجهون إلى السلطات العليا ، ولكن الأخيرة تتجاهل الأمور ، فإن أفعالاً غير عادية تبدأ تحدث في القاعدة . وهذه نتيجة مباشرة للتقصير في عملنا .

ولدينا فقط معيار واحد في حالتنا : سوف ننصت إلى كل ما يدعم الاشتراكية ونأخذه في الاعتبار ، في الوقت الذي سنقاوم فيه الاتجاهات الغربية على الاشتراكية . ولكن في إطار العملية الديمقراطية ، وأكرر ذلك بالتزعة الثورية ، وعدم الانحراف بعيداً . هذا ، ومن مبادئ الروح الثورية اللينينية الحققة ، عدم التلاعب بالتزعة الثورية ، وعدم الانحراف بعيداً وعدم الإطراء أو الإفراط في الأساليب الإدارية .

وعندما يسألوننا عما إذا كنا ندفع الأمور أكثر مما يجب ، نجيب عليهم : كلا ، إننا لانفعل ذلك . فليس هناك بديل معقول للبيريسترويكا الثورية الدينامية . والبديل هو الركود المستمر . ويتوقف على نجاح البيريسترويكا مستقبل الاشتراكية ومستقبل السلام . والمخاطر شديدة للغاية . ويفرض علينا الزمن خياراً ثورياً وقد حسمناه . ولن نتراجع عن البيريسترويكا وإنما سنمضي فيها .

وعندما سألتني جيمي كارتر ، الذي التقيت به هذا الصيف « هل أنت واثق من نجاح جهودك للإصلاح الاقتصادي والسياسي في الاتحاد السوفيتي » ، أجبت : « لقد بدأنا مهمة صعبة وكبيرة في المجالات السياسية والاقتصادية ،

والاجتماعية ، والروحية . والبيريسترويكا تهتم كافة المجموعات في المجتمع . وهذه ليست مهمة سهلة . لقد دخلنا مراحل معينة ، وربما كانت أهم مراحل إعادة البناء . لقد اقترحنا سياسة التغيير ونحن نرى أنها تجد ترحيبا من المجتمع ، ويجرى تنفيذها . وتبرز مشاكل عديدة بالطبع .

« لقد بدأ الغرب على الفور يتحدث عن نوع ما من المعارضة ، بيد أن هذا لا يشكل خطورة . لقد بدأنا إعادة بناء هامة . ونحن نعيد صياغة مواقفنا وتفكيرنا وكل طريقتنا في الحياة ، ونستبعد القوالب الجامدة . وقد تغير جو المجتمع لدرجة كبيرة . لقد أديرت حركة المجتمع . إننا نحظى بمساندة ضخمة ، وندفع الأمور إلى الأمام ، اعتمادا على هذه المساندة . وإذا لم تكن على ثقة بصحة هذه السياسة ما كنت أنا وزملائي قد اقترحناها .

« والآن لدينا خبرة العاملين الأولين ، خبرة التنفيذ العملي لهذه السياسة ، وقد زادت ثقتنا في صحة ما نقوم به لدرجة كبيرة . وستقدم على هذا الطريق مهما بلغت صعوبته . وسنبذل بعض الأهداف خلال وقت قصير . وسيستغرق تحقيق مهام أخرى سنوات عديدة . وهناك أهداف بعيدة كذلك . وسوف نندفع إلى الأمام »

إن الشعب السوفيتي على قناعة بأن البلاد ستصبح أكثر غنى وقوة نتيجة للبيريسترويكا . وسوف تتحسن الحياة . وهناك صعوبات ، وستكون هناك صعوبات كبيرة ، على طريق البيريسترويكا ، ونحن لانحني ذلك . ولكننا سنتغلب عليها . ونحن واثقون من ذلك .

الفصل الثاني

البيروسترويكيا تحقق تقدّمًا الاستنتاجات الأولى

انقضى عامان ونصف عام منذ أن بدأت سياسة البيروسترويكيا . ولدينا الآن مفهوم نظري لها وبرنامج معين يجرى تطويرهما على الدوام ، وتوضيحهما ، وإثراؤهما بأفكار ونظريات جديدة . وهذا ما يتطلب جهدا إبداعيا ضخما من جانب قادة الحزب والدولة ، ويقتضى مناقشات مستفيضة . وبعد المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي^(١) والاجتماعات العديدة الكاملة للجنة المركزية ، تجرى مناقشة قضايا ونهج البيروسترويكيا بحماس في كل قطاعات المجتمع السوفيتي . وقد وجد برنامج البيروسترويكيا تعبيرا عنه بالفعل في سلسلة من الأعمال التشريعية التي وافق عليها البرلمان - السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتي .

ويسير جنبا إلى جنب مع ذلك العمل التطبيقى اليومي لتنفيذ استراتيجية البيروسترويكيا . وتراكمت لدينا خبرة معينة ، وإن كانت محدودة . وهناك نتائج أولية مشجعة ولكن هناك أخطاء وسوء تقديرات كذلك . ونحن نرى اليوم بوضوح أكبر إمكانياتنا ونقاط ضعفنا . ومازلنا على قناعة بأننا في المرحلة الأولى . ومع ذلك ، فقد غدت البيروسترويكيا بالفعل جزءا من حياتنا ، وتشمل جماهير شعبنا . وبهذا المعنى فإنها بالفعل حقيقة واقعة .

(١) عقد المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعي السوفيتي من ٢٥ فبراير - ٦ مارس ١٩٨٦

أولاً - المجتمع يبدأ في التحرك

كيف بدأت الأمور

حينما نتحدث عما فعلناه خلال العامين ونصف العام ، فعادة مانعنى الزمن الذى سبق المؤتمر والذى تلاه على السواء .

وتحتل مؤتمرات الحزب الشيوعى السوفيتى مكانا خاصا في تاريخنا ، وهى ، فى الواقع بمثابة المعالم على طريقنا . وكان على المؤتمر السابع والعشرين لأسباب عديدة أن يقدم إجابات عن المسائل الأكثر إلحاحا فى حياة المجتمع السوفيتى . وحددت لائحة الحزب^(٢) زمن انعقاده . وكان يجرى الإعداد للصياغة الجديدة لبرنامج الحزب^(٣) ، كما كانت توضع الخطط لفترة الخطة الخمسية الثانية عشرة وللفترة المنتهية عام ٢٠٠٠ . وتمثلت الصعوبة فى أنه قد بدأ إعداد التوجيهات السياسية للمؤتمر فى ظروف تغيرت بشكل مثير بعد اجتماعى مارس^(٤) وأبريل ١٩٨٥ الكاملين للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى . وبدأت عمليات جديدة داخل الحزب نفسه وفى المجتمع بأسره على السواء .

ولم تكن عملية إدراك وفهم أفكار الاجتماع الكامل بالعملية السهلة . فقد ولدت أفكار جديدة فى المناقشات التى جرت فى كافة المستويات - فى المكتب السياسى ، واللجنة المركزية ، وتنظيمات الحزب المحلية ، والأسرة العلمية ، وأسر العمل .

(٢) لائحة الحزب الشيوعى السوفيتى - قانون الحزب الأساسى الذى يحدد حقوق وواجبات أعضائه ، وهيكل الحزب التنظيمى ومبادئ الديمقراطية الداخلية فى الحزب .

(٣) برنامج الحزب الشيوعى السوفيتى - وثيقة الحزب الأساسية التى تطرح أسسه النظرية والأيدولوجية ، ومبادئ نشاطه ، والأهداف التى يسعى إلى تحقيقها .

(٤) الاجتماع الكامل الخاص للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى الذى عقد فى ١١ مارس ١٩٨٥ وانتخب ميخائيل جورباتشوف سكرتيرا عاما للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى .

وبدأت مناقشات حية ، وأحيانا ثار جدل حاد في وسائل الإعلام . وبدأ تقييم ماضى بلادنا بشكل انتقادي . وشارك آلاف الناس - من العمال والفلاحين والمتقنين - بشغف في هذا الجدل - في اجتماعات أسرار العمل ، وفي الصحافة وفي رسائل إلى أعلى الهيئات الحزبية والحكومية ، احتوت على نقد ومقترحات . وجرى التعبير عن وجهات نظر مختلفة ، ومتعارضة بشكل مباشر أحيانا ، حول كثير من المسائل الخاصة ، وبدأ البحث بصراحة عن مخرج من الوضع القائم . ونحن نعتبر مثل هذا التعدد في الآراء طبيعيا ومفيدا على السواء . وأصبح من الواضح أن الإعداد للمؤتمر السابع والعشرين يجب أن يستند إلى نظرات جديدة ، رغم أنه لم يبق سوى أقل من عام على الوقت الذي تحدد لانهقاده .

وكان من الممكن تأجيل المؤتمر بالطبع . وجرى التعبير عن هذا الرأى بإصرار وقدمت حجج مقنعة . ولكننا شعرنا بأن مواقف فترة الركود التى أثرت فىنا جميعا تقف خلف ذلك . وسادت فى النهاية وجهة النظر التى تتفق ، فى رأى ، بدرجة أكبر ، مع الوضع - بأنه يجب علينا أن نعقد المؤتمر فى موعده ونجذب كافة العناصر السليمة فى المجتمع إلى المشاركة فى الإعداد له .

وتبنى المؤتمر السابع والعشرون قرارات على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لمستقبل الاتحاد السوفيتى . وصاغ الخطوط الموجهة لعمل الحزب من أجل تنفيذ مفهوم تسريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية الذى قدمه اجتماع أبريل الكامل للجنة المركزية . نعم لقد كان مؤتمرا طرح فيه مندوبيه ، ليس فقط ، همومهم والحقائق ، وإنما أيضا أفكارهم ، وخططهم وتصميمهم على إعطاء دافع جديد وقوى لتطور الاشتراكية .

لقد كان مؤتمرا شجاعا . وتحدثنا بصراحة عن النواقص والأخطاء والصعوبات وأكدنا الإمكانيات التى لم تستغل للاشتراكية ، وتبنى المؤتمر خطة عمل تفصيلية طويلة المدى . وأصبح مؤتمر القرارات الاستراتيجية .

بيد أننا عجزنا أو لم نستطع على وجه الدقة أن ندرك بشكل كامل الطابع المثير للعمليات الجارية ونطاقها . وبإمكاننا الآن أن نرى الأمور بصورة أفضل ، ومن الواضح أنه كان علينا أن نواصل بحزم العمل الذى بدأناه فى الفترة السابقة على المؤتمر وفى المؤتمر نفسه ، وأن ندرس فى نفس الوقت بشكل أعمق المجتمع الذى نعيش فيه . ولكى نقوم بذلك ، كان علينا أن نعود إلى المصادر ، إلى الجذور ، وأن نقيم الماضى بشكل أفضل ، وأن نقرر أولوياتنا وطرق تحقيقها . وبدون فهم ذلك كان من الممكن أن نضل طريقنا .

وحتى بعد مضى مايقرب من عام على المؤتمر السابع والعشرين استمر بعض الناس بين مختلف فئات المجتمع وفى الحزب نفسه يعتقدون بأن البيرسترويكا ليست سياسة طويلة المدى وإنما هى مجرد حملة أخرى . وأعاق العديد من المسئولين المحليين حركة الأنصار النشطين للبيرسترويكا فأخضعوهم للمراقبة وحذروا كثيرى المطالب بينهم : انتظروا أيها الرفاق ، لاتحدثوا جلبة ، وسيخمد كل شىء فى عام أو عامين . وكانوا يعتقدون بصدق أن كل شىء سيعود إلى نفس النقطة التى بدأ منها ، كما حدث أكثر من مرة قبل ذلك . وكان هناك كذلك المتشككون ذوو الأسلوب الخاص ممن يضحكون ضحكة خافتة فى ردهات المكاتب : لقد عشنا فترات مختلفة ، وسنعيش هذه الفترة كذلك . كان القلق على مصير البيرسترويكا يزداد فى المجتمع : ألن تعود الأمور إلى نفس المجرى القديم ؟ .

وفى اجتماع يناير حللنا مع انتقاد أنفسنا أسباب الوضع المعقد والمتناقض . ولم نسع فقط إلى نقد الماضى وإدانة مشؤل أو أكثر . فهل يكمن جوهر الأمر فقط فى إدانة شخص ما ؟ إن ما كنا فى حاجة إليه هو تقييم الظواهر وتحليل العمليات والاتجاهات . وقد سعينا لأن نقوم بذلك . وأنا على يقين من أنه لو كان اجتماع يناير الكامل قد حصر نفسه فى نقد الماضى لما كان قد أنجز مهمته . إننا فى حاجة إلى الدروس والنقد لا من أجل تسوية الحسابات وإنما من أجل حاضرتنا ومستقبلنا .

وإذا لم نكن فى اجتماع يناير الكامل قد اقترحنا برنامج عمل بناء ، إذا لم نكن قد قلنا الشئ الرئيسى - مالى الذى يجب عمله ، وماهى القوى الإضافية الواجب تنشيطها للقضاء على الدولار الكابح ، وكيف يمكن إقامة دولار تسريع فعال - لكان معنى ذلك أننا لم نحرز أى تقدم . وإذا كان الاجتماع الكامل لم يبين لنا الاتجاه الذى نتبعه ، وإذا لم يقترح تعميم الديمقراطية باعتبارها القوة المحركة الأساسية للبيريسترويكا ، لكان قد أصبح بلا أى جدوى .

كان تطوير الديمقراطية هو الفكرة الرئيسة لاجتماع يناير الكامل - فيما يتعلق بطرق تحقيق مهام البيريسترويكا ، وحماية المجتمع من تكرار أخطاء الماضى . إنه الضمان الرئيسى لكى تصبح البيريسترويكا لارجعة فيها . وكلما كان هناك مزيد من الديمقراطية . سيكون هناك مزيد من الاشتراكية . هذه هى قناعتنا الراسخة ، ولن نتخلى عنها . وسوف تطور الديمقراطية فى الاقتصاد ، وفى السياسة ، وفى داخل الحزب نفسه . ويعتبر إبداع الجماهير القوة الحاسمة فى البيريسترويكا . وليس هناك من قوة أخرى أعظم .

وأوضحت الشهور التى انقضت منذ الاجتماع الكامل أننا تصرفنا بشكل سليم . ويواجه جيلنا مهمة هائلة لإعادة بناء كل البلاد . وربما لانحل كل شئ ولكن سيكون لدينا الوقت لدفع عملية التسريع . وسنضع أسس البيريسترويكا . وأنا على يقين من أن كل المجتمع السوفيتى سينخرط فى عملية البيريسترويكا .

ولكن حتى عندما يجرب الدولار الديمقراطى الجديد ، ويبدأ استخدام الروافع المعنوية بشكل كامل ، لن تصبح المهمة أيسر . وفى الحقيقة ، أعتقد أن كمية العمل سترداد وسيغدو أكثر تعقيدا ، فمن الواضح أنه لا بد من تغيير أشكاله وأساليبه أكثر من مرة لأنه سيكون علينا أن نعمل فى ظروف سياسية ، واقتصادية ، ومعنوية ، وثقافية جديدة .

البيرسترويكا تكتسب قوة دافعة

آمل في أن أكون قد نجحت حتى الآن في أن أوضح لكم أن المجتمع السوفيتي قد بدأ في التحرك ، وأنه ليس هناك مايوقفه . ولكننا لا نشجع التوقعات غير الواقعية . فبعض الناس يأملون في أن يتغير كل شيء على الفور من تلقاء نفسه ، دون أن يحتاج الأمر إلى أى جهد خاص . وكثيرون يفكرون بهذه الطريقة : لقد ظهر قادة جدد ، وهكذا فإن كل شيء سيتغير الآن ، وسيكون كل شيء على مايرام . لا ، ومن الخطأ الاعتقاد بأنه من الآن فصاعدا ستكون الأمور سهلة مثل نزهة بالجياد أسفل التل . إننا على العكس مازلنا نصعد التل ، وأمامنا طريق طويل علينا أن نقطعه قبل أن تكتسب البيرسترويكا قوة .

إن البيرسترويكا مازالت تحبو . وكل ما فعلناه حتى الآن أننا شكلنا فقط دولا ب التسريع . وحتى وقت قريب انهمكنا بدرجة أكبر في التعرف على الأمور ، وفي استكشاف المواقف وفي جمع الأفكار والتوصيات . وعلينا جميعا الآن أن نتقدم معا إلى الأمام . وإنها لمسألة أخرى تماما أن يكون لدى مختلف الناس أفكار مختلفة عن البيرسترويكا وعن الدور الذي يجب عليهم أن يلعبوه فيها .

وليس هناك كثير من المعارضين بصراحة للبيرسترويكا . ومع ذلك فهناك أناس يؤيدون التجديدات ولكنهم يعتقدون أن البيرسترويكا ينبغي ألا تمسهم ، لن تمس فقط إلا الذين في القمة - في الأجهزة الحزبية والحكومية والاقتصادية وغيرها من القطاعات ، وزملاء العمل في المصانع أو المزارع أو مواقع البناء - بإيجاز أى شخص إلا هم . وفي حديث أجرته مع العمال في مصنع ف ل ف (٥) لهندسة الراديو في ريجا خلال زيارتي لجمهورية لاتفيا الاشتراكية السوفيتية رأيت من الضروري أن أخبرهم بأن الصعوبات شيء له أهميته ، ولكن إذا ما اهتموا فقط بما يحدث « في

(٥) ف ل ف - مصنع للهندسة الكهربائية في لاتفيا .

القمة » ، ولم يستفيدوا من مواردهم الخاصة فسوف تتباطأ البيروسترويكات وتبدأ في الدوران حول نفسها وتنتهي كإجراء تعوزه الحماسة .

وهناك أيضا أناس لا يعرفون كيف يعملون بالطريقة الجديدة ، بمضمون البيروسترويكات . وعلينا أن نعلمهم وأن نساعدتهم .

وهناك أيضا مشكلة التباطؤ ، والقصور الذاتي . ولم يتم التخلص بعد من أسلوب انتظار التعليمات من أعلى في كل أمر ، والاعتماد على قرارات المستوى الأعلى . وليس في هذا ما يدهش ، إذ أن الأمور اعتادت أن تسير بهذه الطريقة من الورش حتى الوزارات ، وما يزال لها تأثيرها إلى اليوم ، حتى في المراتب العليا من الإدارة . والمشكلة أن الناس زاد اعتيادهم على عدم التفكير والتصرف بطريقة مسئولة ومستقلة . وفي ذلك تكمن مشكلة كبيرة أخرى .

والمهمة الرئيسية أن نجعل المجتمع بكامله يشارك في عملية إعادة البناء فالاشتراكية في مجتمعنا تتطور وفق أسسها الخاصة . ونحن لانقترح ضرورة تنفيذ البيروسترويكات مع شعب مختلف ، وحزب آخر ، وعلم وأدب آخرين ، وما إلى ذلك . ليس الأمر كذلك . إننا نقوم بتنفيذها معا ، من خلال جهد على نطاق البلاد . وينبغي الاستفادة فيه من كل قدراتنا الفكرية . ويمكنني أن أرى من خبرتي الخاصة أننا جميعا نتغير من خلال مجرى البيروسترويكات . وسيكون من عدم الإنصاف أن ننكر على شخص ما حقه في ممارسة البيروسترويكات الخاصة به ، والتصرف بشكل مختلف اليوم عما فعل بالأمس . والانطلاق اليوم من إدراك الوضع والأهداف التي طرحها وقتنا .

ليست لدينا صيغ جاهزة

السياسة هي فن الممكن . وفيما وراء حدود الممكن تبدأ المغامرة . ولهذا السبب فإننا نقدر إمكانياتنا بعناية وترو واضعين ذلك في الاعتبار ونحن نرسم مهامنا . وقد

علمتنا التجربة المريرة ألا نسبق أنفسنا على الطريق الذى اخترناه ، وإنما نأخذ فى اعتبارنا الحقائق الواضحة لبلادنا .

وتكن أكبر الصعوبات التى تعترض جهدنا من أجل إعادة البناء ، فى تفكيرنا الذى تشكل خلال السنوات الماضية . وعلى كل منا ، بدءا من السكرتير العام للحزب حتى العامل فى موقع الإنتاج ، أن يغير تفكيره ، وهذا أمر يمكن فهمه لأن الكثيرين منا تشكلوا كأفراد وعاشوا فى ظروف كان النظام القديم فيها قائما . وعلينا أن نتغلب على نزعتنا المحافظة . إن غالبيتنا تتمسك بمبادئ أيديولوجية وسياسية سليمة . ولكن هناك مساحة كبيرة بين الموقف السليم وبين تحقيقه .

ويحدث فى بعض الأحيان أثناء مناقشة مسألة ما فى المكتب السياسى أن يبدو أننا توصلنا إلى استنتاجات هامة واتخذنا قرارات مبتكرة . ولكن عندما يصل الأمر إلى اختيار أساليب تنفيذها ، ننتهى إلى محاولة استخدام الأساليب القديمة لتحقيق مهام جديدة .

ونحن نسعى فى السياسة والأيدولوجية إلى بعث الروح الحية للينينية . إن للعقود العديدة التى تقيدنا فيها بالعقائد الجامدة ومداخل كتب القواعد ، كان لها أثرها ونحن نريد اليوم أن نحقق عملنا النظرى بروح خلاقة حقة . إنه لأمر صعب ، ولكن يجب أن نقوم به . ويبدو أن الفكر الخلاق يقوى .

ونحن ندرك أنه ليس هناك ضمان ضد الأخطاء ، وأخطر الأخطاء ألا تفعل شيئا خوفا من ارتكاب الخطأ . ونحن نعرف من تجربتنا خطأ عدم فعل شيء . وكثير من متاعبنا تنبع من ذلك . وقد لاحظ معارضونا فى الغرب هذا الضعف الذى اتضح بشكل خاص فى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات ، وكانوا على وشك أن يلقوا بالاتحاد السوفيتى إلى « كومة نفايات التاريخ » . ولكن قدّاسهم كان سابقا للأوان .

ويسرنى أن هناك فهما متزايدا ، سواء داخل الحزب أو فى المجتمع بأسره ، بأننا بدأنا مسعى سياسيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا ، وأيدولوجيا لم يسبق له مثيل . وإذا

كان علينا أن ننفذ كل ماخططناه ، فعلىنا أن ننفذ عملا سياسيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا وأيديولوجيا لم يسبق له مثيل في المجالين الداخلى والخارجى على السواء . إننا نتحمل قبل كل شىء مسئولية لم يسبق لها مثيل . ونحن ندرك الحاجة إلى جهود ضخمة وجريئة ، وبخاصة في المرحلة الأولى .

هناك أشياء كثيرة غير معتادة في بلادنا الآن : انتخاب المديرين في المؤسسات والمكاتب ، وتعدد المرشحين لانتخابات السوفيات في بعض الأحياء ، والمشروعات المشتركة مع الشركات الأجنبية ، والمصانع والوحدات والمزارع الجماعية والحكومية التى تمول نفسها ، ورفع القيود عن المزارع التى تنتج منتجات غذائية للمؤسسات وإدارة هذه لها ، واتساع النشاط التعاونى ، وتشجيع النشاط الفردى فى الإنتاج صغير الحجم ، والتجارة وإغلاق الوحدات غير المربحة والمصانع التى تعمل بخسارة ، ومعاهد الأبحاث ومنشآت التعليم العالى التى لا تعمل بكفاءة . ولدينا الآن صحافة أكثر وضوحا ، وتواصل جدلا صريحا حول كافة المسائل الحية المتعلقة بتقدمنا وبالبيروسترويكا . وكل هذا طبيعى وضرورى ، رغم أن كل هذه الأشياء لا تتحقق بسهولة ، كما لا ييسر فهمها على الفور بين الجمهور على اتساعه أو بين أعضاء الحزب .

ولا أعتقد أن الفترة الماضية التى امتدت عامين ونصف عام كانت أصعب الفترات بالنسبة للحزب الشيوعى السوفيتى . ومع ذلك ، فقد كانت من أكثر الفترات خطورة وتطلبت إحساسا عاليا بالمسئولية ، ونضجا وإخلاصا للمثل العليا والأهداف السياسية . وقد يناسبنا أو لا يناسبنا اتجاه معين ، ولكننا نحاول أن نرى الأشياء بروية وواقعية وبهذه الطريقة وحدها يمكننا أن نطرح سياسة ما على الشعب ونقدم له أهدافا يفهمها وتقوده إلى الأمام .

وكان يوجد لدى القيادة بالتأكيد بعض الخلافات فى رأى حول كيفية التغلب على الركود وحول كيفية معالجة الأمور فى المستقبل . وليس فى ذلك ما يثير الدهشة .

وعلى العكس ، فسيكون من الغريب ، وهذا أقل ما يقال ، إذا لم تكن هناك مثل هذه الاختلافات ، وإذا ما كان كل فرد يفكر ويتحدث مثل الآخرين تماما . إن اختلاف الآراء يولد الفكر . ولكننا متحدون فيما يتعلق بالأمر الأساسي . فنحن مجمعون في قناعتنا بأن البيرسترويكا لا غنى عنها لأنها حتمية حقا ، وبأنه ليس أمامنا من خيار آخر .

إن كل الشعب السوفيتي ، وكل الحزب ، بما في ذلك لجنته المركزية ومكتبها السياسي ، والحكومة منخرطون جميعا في عملية إعادة البناء . وفي هذا العمل الثوري نكتسب نحن أعضاء المكتب السياسي خبرة في حل المشاكل التي تواجه مجتمعنا . ويحدث نفس الشيء في الجمهوريات والمناطق وأسر العمل المشاركة في البيرسترويكا . وفي حل المهام الجديدة تتعرض البلاد كلها لاختبار البيرسترويكا . والشيء الهام للغاية ، أن مناخ مجتمعنا نفسه قد تغير . وتجرى عملية إطلاق نشاط الشعب السوفيتي السياسي والاجتماعي . لقد غدا الناس أكثر جرأة وهم يريدون شعورا قويا بالواجب المدني . لقد تراكم الكثير في السنوات السابقة وهم يريدون التحدث عنه بصراحة .

وتنمو حدة هذا الوضع غير المعتاد وتزايد . فلو أخبرنا شخص ما في أبريل ١٩٨٥ أنه سيكون لدينا بعد عامين ما يحدث اليوم بالفعل ، لما صدقناه في الغالب ، أو لوجدنا ذلك أمرا غير مقبول . ولكن ماهي الحال بالفعل ؟ الحقيقة هي أن ما كنا نشيح بوجهنا عنه بالتأكيد أو ما كان غير واضح منذ عام مضى فقط لم يصبح فحسب موضوعا عاما للنقاش ، وإنما أصبح مكونا طبيعيا لحياتنا اليومية . إن المجتمع يتغير ، وهو يتحرك بكامله .

ونحن لانعيش في فترة عادية . والناس من الجيل الأكبر يقارنون الجو الثوري الحالي بجزء السنوات القليلة الأولى بعد ثورة أكتوبر أو بأيام الحرب الوطنية العظمى . بيد أن جيلي يمكن أن يقارن ذلك بفترة انتعاش ما بعد الحرب . إننا الآن أكثر

حصافة وواقعية بكثير. وهكذا فإن الحماس والتفانى الثورى اللذين يميزان بشكل متزايد المزاج السياسى للشعب السوفيتى قيمان ومشران لدرجة كبيرة.

وفى اجتماع يونيو ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية تحدثت عن خطر السماح بأن يتطور التناقض بين النشاط المتعظم للجماهير وبين الشكل وبين الأساليب البالية القائمة فى نشاط الهيئات الحكومية ، والإدارية وحتى تنظيمات الحزب . ومع ذلك ، فبإمكان المرء أن ينظر إلى هذا الوضع من زاوية مختلفة . فقد كان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ بكثير إذا ما كانت سلبية الشعب وعجزه عن أن يكون فى مستوى احتياجات البيريسترويكا قد شكلا العقبة الرئيسية . ولحسن الحظ ، لم يكن الأمر كذلك . إن ضغط الجماهير العاملة وصراحتها يتصاعدان بل ويتخطيان المعدل الفعلى لإعادة البناء .

لقد أصبحت الاتصالات المباشرة والرسائل هى « التغذية الخلفية » الهامة التى تربط القيادة السوفيتية بالجماهير . وتصل الرسائل إلى مكاتب تحرير الصحف والمجلات (ويجرى نشر الكثير منها) ، وتوجه إلى الحكومة ، والسوفيت الأعلى ، وعلى الأخص إلى اللجنة المركزية .

وها كم نقطة جديرة بالملاحظة . كانت هناك رسائل عديدة إلى كافة أنواع المؤسسات فى أوقات سابقة ، ولكن ما تغير الآن هو طابع هذه الرسائل نفسها . والقليل منها من النوع الذى يطلق عليه « رجاءات شخصية » بطلب المساعدة فى الحصول على شقة أو معاش ، أو فى مساعدة شخص أدين خطأ ، أو إعادة شخص إلى مكانه فى العمل . ورغم أنه ماتزال هناك بعض الرسائل من هذا النوع إلا أن ذلك لم يعد الغرض الأساسى فى رسائل اليوم . فغالبيتها تتضمن أفكارا وتعبيرات عن الاهتمام بمستقبل البلاد . ويبدو كما لو أن ما كان يُكبح بشكل مؤلم فى سنوات الصمت والاغتراب الطويلة ، قد وجد أخيرا متنفسا . فالوضع الجديد يشجع الناس على الكلام . وهم يريدون أن يعرضوا أفكارهم ومشاكلهم ليس على مجرد صديق

أو قريب ، وإنما على قادة البلاد . وبعض الرسائل تموج حقا بالحماس .
وعندما قرأ الناشرون المخطوط الأصلي لهذا الكتاب ، طلبوا مني أن أستشهد بأبرز
تلك الرسائل . وإليك رسالة من أ . زيرنوف ، وهو عامل يبلغ من العمر ٣٣ عاما
ويعيش في جمهورية ياكوتسك ذات الحكم الذاتي ، في الشرق الأقصى :
« رغم أنني لست عضوا بالحزب ، فأني أعتبر من واجبي أن أكتب إليك
وأشكرك لأنك أيقظت فينا نحن العمال العاديين شعورا بالمسئولية المدنية . إن الشعب
كان ينتظر هذه التغييرات ..

« وسأكون صريحا معكم . في البداية استجاب كثير من الناس للنهج العام
للبيريسترويكا بالشك ليس لأنها تتعارض مع رغباتنا - كلا على الإطلاق - لقد كان
الناس ببساطة يعرفون من خبرتهم المريعة أن الشعارات الجيدة كثيرا ما لا تتفق مع
الواقع . ومع ذلك ، فسرعان ما أدركنا أن البيريسترويكا ليست حملة قصيرة المدى
وإنما عملية ضرورية تاريخيا . والشئ الأهم أننا رأيناها تؤثر على كافة مجالات
مجتمعنا .

« لقد غدت حياتنا ذات معنى كبير بدرجة أكبر . وبدأ الناس يبدون اهتماما
حقيقيا بالوضع في البلاد ، ويتقدمون بالمقترحات حول كيفية تحسين العمل ،
ويقدمون ملاحظات انتقادية . والآن تبدأ مناقشة مشاكل الإنتاج « الصعبة » تلقائيا
في أسر العمل . وإنه لما يحيرنا أن تكون منتجاتنا بمثل هذه النوعية الرديئة ! إننا
نسرق أنفسنا .

« شكرا لكم . من الصعب أن تكتب وتعبر عن امتنانك لشخص لاتعرفه ،
ولكننا ، من ناحية أخرى ، لا نشعر بالخرج من توجيه الشكر إلى طبيب عاجلنا من
مرض خطير . لقد عاجلنا من السلبية المدنية واللامبالاة ، وعلمتنا أن نثق في
قدراتنا ، وفي العدالة . وفي الديمقراطية إن كثيرا من الناس لم يعتادوا أن
يأخذوا الاجتماعات الكاملة للجنة المركزية أو حتى مؤتمرات الحزب بجدية ، أما الآن

فحتى ابني الذي يبلغ من العمر سبع سنوات يناديني بصوت عال كلما رآك في التلفزيون ، « ياأبتي ، تعال بسرعة ، إن جورباتشوف يتحدث » .

« إن المستقبل لنا . وفيما يتعلق بالأخطاء ، فليس هناك من هو معصوم من الخطأ . لقد كنا الرواد الأوائل ، ولم يكن هناك من نتعلم منه ، ولذلك ، فإننا نتعلم من أخطائنا » .

وإليكم رسالة من ليتوانيا . وقد وردت إلينا من ف . أ . بريكوفسكيس الذي كتبها بعد اجتماع يناير ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية :

« إن قلبي يموج بانطباعات أود ببساطة أن أشارك فيها شخصا آخر . ولأول مرة منذ سنوات طويلة يمكننا أن نرى في قيادة الحزب والحكومة أناسا ذوي وجوه إنسانية بدلا من وجوه أبي الهول المتحجرة . وهذا وحده إنجاز عظيم .

« ماذا يرى الناس في سياستكم ؟ »

« لن أكذب عليك ، ياعزيزي ميخائيل سيرجيفيتش لأن ذلك يمكن أن يضر بقضيتنا المشتركة . وسأقول لك الحقيقة كاملة » .

« لن أتحدث عن الفئة صاحبة الامتيازات من المجتمع . فكل شيء واضح هنا . والكثيرون يودون أن يواصلوا حياتهم كما لو كانوا نياما تحت تأثير مخدر ، في بلد العسل واللبن » .

« إنني أريد الحديث عن البروليتاريين ، هؤلاء الذين شرعت في هذه البيريسترويكا من أجلهم ، ولسوء الحظ ، فليس لديهم فهم عميق لسياستك بينهم وماتزال ثقتهم فيها محدودة . ولكن ينبغي ألا يبدو هذا مثيرا للدهشة . فالعقول لا تفيق بسرعة بعد هذا الشتاء الطويل والرهيب . وستكون هذه عملية طويلة وصعبة » .

« ولكن كل شيء سيكون على مايرام في النهاية » .

« إنني كاثوليكي ورع . أذهب كل أحد إلى الكنيسة وأصلي كي لا يعاقب الله

العالم على خطايانا . وأنا أعرف أنك ملحد ، لكن جهودك قد أوضحت أن على بعض المؤمنين أن يتعلموا منك شيئا ما . وأود أن تعرف أنني أذهب إلى الكنيسة كل أحد من التاسعة صباحا حتى الواحدة ظهرا ، وأصلي من أجلك ومن أجل أسرتك » .

والرسالة التالية من ب . دوبرفولسكى ، مدرس من كيشينوف ، من جمهورية مولدانيا :

« إن علينا نحن الشباب أن نواصل قضية لينين ، القضية العظيمة للشعب السوفيتى . وإنك تقوم بمهمة ضخمة ، فتأكد أنها لن تغدو مثل مهمة سيزيف . أرجو ألا تغضبك لهجة رسالتى : إنها صادرة عن الألم الذى يعتصرنى لأن بعض الناس لا يفهمون قرارات الحزب الأخيرة ولقاءاتك الشخصية مع الشعب . واسمح لى أن أخبرك صراحة أنني معك . وأنا أحيى اجتماعاتكم مع الجماهير العاملة والمناقشة الأمنية والصريحة لمشاكلنا ومتاعبنا . لكننى أرغب فقط فى أن تودى هذه المناقشات إلى نتيجة . فليس كل الناس يفهمون ويقبلون أسلوب عملكم اللينينى : العمل بين الشعب ، ومن أجل الشعب ، وباسم الشعب . وفى بعض الأحيان أدخل فى مناقشات حول هذه المسائل حتى يبح صوتى » .

« إن كثيرا من الناس - وأعنى الجيل الذى ولد فى الثلاثينيات ، والأربعينيات ، والخمسينيات - قد أصبحوا متحجرين . ولست خائفا من استخدام هذه الكلمة . فى الاجتماعات يقولون جميعا نعم (وبعضهم الآن مسئولون صغارا وحتى كبار) . على أى شىء ؟ على كل شىء . إنهم يقولون نعم للتجديد . ويقولون نعم للبيريسترويكا . وهم يقولون على الدوام « نعم » و « نحن نريد » . وهم مستعدون لتعرية صدورهم تعبيرا عن الحماس . ولكن ماذا يعنى ذلك حقيقة ؟ إنه كذب . وقد حاولت أن أعثر على السبب . لماذا لا تصدقون رجلا لا يضمن بحياته ، وصحته وأعصابه من أجلنا ؟ هل تعتقدون أنه من السهل إيقاظ بلد يضم عشرات الملايين ، كان يغط فى سبات لعشرات السنين ؟ هل تعتقدون أن من السهل بعث روح المبادرة

فى وقت مازال فىه الكثرىون ببحتون عن معنى هذه الكلمة فى القاموس؟ هل تعتقدون أن من السهل دفعكم جميعا إلى الحركة ؟ » .

« إننى أتحدث إليك بأمانة عن مسائل تتعلق بالمبدأ . وأنا هنا أتحدث باسم جيل كامل من الشباب السوفيت الذين تلقوا تعليما عاليا » .

وإليكم رسالة أخرى ، وهذه المرة من ج . فاردانيان الذى يعيش فى جورجيا :

« قد تتذكرنى . فذات مرة ، حينما كنت لاتزال تعمل فى إقليم ستافروبول ، عقدت اجتماعا موسعا مع أول من طبقوا نظام الأجر على أساس القطعة والعقود الجماعية بين عمال تشغيل الآلات الزراعية . وكنت أعمل فى ذلك الوقت كبير الاقتصاديين بالمزرعة الجماعية المسماة « الطريق إلى الشيوعية » بحى الكسندروفسكى . وداريننا حديث طويل ، وطرحت علينا أسئلة عديدة عن حياتنا ، وعن الشعور العام فى المزرعة » .

« إن كل مبادراتك سواء فى السياسة الخارجية أو الداخلية تلهمنى أنا وكل الشرفاء لأنها تتفق مع طموحاتنا واهتماماتنا . ومع ذلك فمن المؤلم أن أقول لك : ليس كل الناس متفقيين معك » .

« ولا أستطيع أن ألومهم . وسأقولها بصراحة ، كما تود أنت : إن المشكلة تكمن فى القادة المحليين ، لقد تشكلوا على صورة القادة السابقين ومن الصعوبة الآن بمكان أن نعيد تشكيلهم » .

« ونحن ندرك أن الأمور التى تواجهك صعبة . ولكننا نتوسل إليك : لا تتراجع ولو خطوة واحدة إلى الخلف . وينبغى ألا يكون هناك أدنى تغيير فى التفكير أو حتى أدنى تراجع . لا تلق بالاهؤلاء الذين لا يتفقون معك . إن الشعب مبهتج وعلى استعداد لتقديم التضحيات من أجل الأهداف التى رسمتها . وهذا ما أردت أن أقوله لك » .

وأخيرا ، إليكم رسالة من ك . لاستا ، وهى سيدة من ليننجراد : « إن جميع من يقفون معك يجب أن يكافحوا ضد كل أشكال الممارسات القديمة الكريهة ، مثل الروتين ، والفساد ، والامتثال ، والخنوع والخوف من السلطات القائمة . وهذا ، الآن ، هو واجب كل امرئ لا يريد العودة إلى الماضي . ويتعين على كل امرئ الآن العمل في موقعه كما تعملون أنتم ، دون أن يضمن بأى جهد . إذ أن كل امرئ يمكنه أن يرى كم من الطاقة ، والوقت ، والقوة العاطفية والصحة يتطلبها منك العبء الهائل فوق طاقة البشر الذى يقع على كاهلك . والبناء صعب على الدوام ، ولكن الأصعب منه أن تبنى على موقع يجب أولا تنظيفه من القاذورات . وآمل أن يسهل الأمور قليلا بالنسبة لك إذا ما قلت لك : إن أعدادا ضخمة من الناس العاديين تقف إلى جانبك ، وتحبك وتهتم بك » .

ويمكننى الاستشهاد بالرسائل بلا حدود . بيد أن هذا الكتاب بكامله لن يكون كافيا لها جميعا . وفى كثير من هذه الرسائل يكتب الناس عن كيف بدأت البيرسترويكا - أو لم تبدأ - فى مصنعهم ، أو مزرعتهم الجماعية ، أو موقع الإنشاء ، أو فى مكتبهم . وهم يخبروننى ما الذى يقومون به كى يصبحوا نشطين فيها ، ويحللون الأسباب الخاصة والعامة للصعوبات التى تنشأ على طريقهم .

وتشهد هذه الرسائل - وهناك منها الآلاف فوق الآلاف - على الثقة الكبيرة فى قيادة الحزب والحكومة . الثقة المستعادة ! وهذه قوة كبيرة ، ورصيد لا يقدر . وما يستوقف المرء فى هذه الرسائل هو التفكير غير المقيد ، والدرجة العالية من الثقافة السياسية ، والرغبة العارمة فى الحياة والعمل بما يمليه الضمير .

ونحن فى المكتب السياسى نناقش هذه الرسائل ، ونجمعها فى فترات منتظمة . وهذا يساعد قيادة البلاد على أن تسبق مجرى الأحداث ، وعلى أن تقيم سياستها بدقة وتعدلها ، وأن تضع أساليب حديثة لتناول الأمور .

وهناك شىء واحد مشترك بين كافة الرسائل - هو التأييد غير المتحفظ والحماس

للبيروسترويك . وحتى الأحكام الحادة والقاسية تجدها مشربة بالرغبة في المساعدة على أن تمضى قدما . ومع ذلك ، فكما لاحظ القارئ مما سبق أن استشهدت به ، هناك أيضا إشارة قلق من أن يكون مصير البيروسترويك هو نفس مصير إصلاحات الخمسينيات والستينيات وأن تحمد . والناس يحثوننا ألا نراجع ! لا خطوة واحدة إلى الخلف ! وإنما أن نتحرك إلى الأمام ونواصل بشجاعة وتصميم أكبر ! .

وباختصار ، يجب أن نكون قادرين ليس فقط على تعديل سياستنا بما يتفق ورد فعل الجماهير ، والطريقة التي تنعكس بها في عقل الشعب ، ولكن يجب أن نضمن التغذية الخلفية ، بأن نشجع الناس على أن يقدموا لنا الأفكار ، والاقتراحات والنصح ، بما في ذلك عن طريق الاتصال المباشر بهم .

والآن بدأ كل شخص يعتاد على الأمر . ولكن في البداية كان هناك بعض الناس « المتحمسين » الذين حذروا من خطر أن يصاب جورباتشوف بـ « التسمم بالأكسجين » خلال أحاديثه في الهواء الطلق مع الناس ، ومن خطر أن يقال له شيء لا يلقى الترحيب ، شيء لا ينبغي أن يعرفه رجال الكرملين . وقد كان هناك بعض التعليقات . وربما لا يزال هناك بعض آخر ، بأن الاجتماعات المباشرة غير الرسمية ، ليست سوى محاولة لخطب ود الشعب . ولدى ، طبعا ، رأى آخر عكسي ومختلف حول هذا الموضوع . فليست هناك تلميحات وتوصيات وتحذيرات أكثر قيمة مما تحصل عليه مباشرة من الشعب .

وبشكل عام ، أصبح الناس أكثر اقترابا منا في مثل هذه الاجتماعات . فكيف كان الأمر قبل ذلك ؟ كان يمكن أن نطرح سؤالا على شخص ما ولكنه كان يظل صامتا ، ربما نتيجة للخوف أو عدم الثقة . وحقا ، كان هناك بعض الديماجوجية : ماذا يفكرون فيه ... هناك في موسكو؟ هذا أمر سيئ ، وليس بحسن . ولكن لم تكن هناك مقترحات . أما الآن فتبدأ على الدوام مناقشة جادة ومشيرة للاهتمام . وأصبح العمال والفلاحون أكثر تفاؤلا ، وكان المثقفون والمهنيون

يتحدثون بطريقة آمرة ومطالبة . ولكن الأصوات العالية قد هدأت بعض الشيء وتحذر من التدخل في مناقشة جادة وبناءة . وحينما يتدخلون بالفعل يقطعهم الناس .

لقد تحدثت بالفعل عن الانطباع الذى خرجت به من اجتماع مع أناس فى ساحة أكتوبر فى كراسنودار فى صيف ١٩٨٦ . كم كانت مناقشة واقعية ، وكم من مشاكل طرحها الناس ! وقد سعدت حقا برؤيتهم يساندون خط اللجنة المركزية بمثل هذا الحماس . ثم أدركت كم يشعر الناس بالمرارة ، وكم لديهم من المقترحات والتوصيات لقادتهم .

لم أكن أنوى إلقاء خطاب فى منطقة كوبان^(٦) (عاصمتها كراسنودار) وذهبت إلى هناك لمجرد إلقاء نظرة على كيفية سير الأمور ولكى أرى بأم عيني كيف يجرى تنفيذ تجربة اقتصادية ذات أهمية قومية - لقد بدأ حى بأكمله يعمل على أساس مبدأ التمويل الذاتى وتغطية التكاليف ذاتيا - وبعد مناقشات عديدة ، وجدت من الضرورى أن أخطب فيهم . وأعتقد أن ماقلته برهن على فائدته بالنسبة للمناطق الأخرى من بلادنا كذلك ، إذ كانت تدفعه وقائع الحياة نفسها . إن المشاورات والاجتماعات مع الشعب لا غنى عنها حقا . وليس بإمكان المرء أن يتوصل إلى الكثير بالأوامر .

إن الخبرة التى اكتسبناها بالفعل فى تنفيذ البيريسترويكا تبرز مرة أخرى فكرة لينين القائلة بأن الثورات مدرسة عظيمة وذات فعالية كبيرة للتعليم والتنوير السياسى للجماهير . والبيريسترويكا ثورة ، بل إنها أكثر الثورات سلمية وديموقراطية . وفى حدود العملية الديمقراطية سنتقدم للتغلب على المواقف الخاطئة التى نصادفها والتى سوف نصادفها فى مجرى هذا التجديد للمجتمع . بل للتغلب حتى على المقاومة

(٦) كوبان - منطقة فى القسم الغربى من شمال القوقاز ينحدر القسم الأكبر من سكانها من القوازيك الذين استقروا من جديد هناك منذ بضع قرون .

الأكثر صراحة وسفورا . وليست لدينا أية مجموعة ذات شأن من السكان لا تتفق مصالحها الطويلة المدى مع البيريسسترويكا .

والصعوبات التي نواجهها في عملية إشاعة الديمقراطية هي من صنعنا لدرجة كبيرة . إننا جميعا نتاج لعصرنا ، ولنموذج معين من الأشياء والعادات . ولذلك فنحن نقول بأن علينا جميعا أن نغير أنفسنا ، بما في ذلك من هم في المكتب السياسي ، وفي الحكومة ، وفي المراتب العليا الأخرى للقيادة . ويعمل البعض على تنفيذ ذلك بسهولة وسرعة ، بينما يجد آخرون الأمر صعبا ويطلبون إعفاءهم أو نقلهم إلى وظائف أخرى .

ويبدى الناس رأيا في التخلص من لامبالاتهم السابقة وفي المشاركة بشكل كامل في الحياة العامة . ويتجلى ذلك في أشكال مختلفة من التعبير . فالبعض يلقي خطبا قاسية في الاجتماعات ، بينما ينظم آخرون اجتماعات ومواكب جماهيرية . وبشكل عام ، فإن العملية الديمقراطية لا تستبعد إمكانية مثل هذا النشاط القاعدي . لقد تخطينا بالفعل الأزمة التي كانت فيها مثل هذه الأمور تثير خوف المسؤولين وتؤدي إلى محظورات إدارية . ولا تتوفر لدينا بعد ، أخلاق كافية للنقاش . فأحيانا يقاطع شخص ما مجلس بين الجمهور متحدثا يقف على المنصة ، ويميل البعض في مقالاتهم إلى تسوية حسابات قديمة مع الآخرين ، أو يلصقون بهم نعوتا كريمة . ولكن هناك إدراكا متزايدا باطراد بأن الديمقراطية لا تتفق مع التنظيم البيروقراطي الصارم المفرط للحياة الاجتماعية . وبطبيعة الحال ، لا يمكن لأى مجتمع يحترم نفسه ، أن يسمح بالفوضى ، وبأن يتصرف كل فرد وفق هواه . وكذلك فإننا لانسمح بذلك . فالديموقراطية تتضمن كذلك القانون والنظام ، وتتطلب المراعاة الأكثر صراحة للقوانين من جانب السلطات والمنظمات وكذلك من جانب كافة المواطنين .

مزيد من الضوء على الجلاسنوست

لعل المناخ الجديد يتضح بحيوية أكبر في الجلاسنوست . فنحن نريد مزيدا من العلانية بشأن المسائل العامة في كافة مجالات الحياة . ولا بد أن يعرف الناس ماهو جيد ، وما هو رديء ، بغية الإكثار من الجيد ومكافحة الرديء . وهكذا ينبغي أن تكون الأمور في ظل الاشتراكية .

ومن المهم أن ندرك كل ماهو إيجابي وبناء ، ونستخدمه ، ونجعل منه رصيда لكل الشعب ، ولكل الحزب ، حتى يمكن استخدام بواكير الموقف الجديد في ظروف البيريسترويكا .

إن الحقيقة هي الشيء الرئيسي . لقد قال لينين : « مزيدا من الضوء ! فليعرف الحزب كل شيء ! » . ونحن في حاجة ، أكثر من أى وقت مضى ، ألا تكون هناك أركان مظلمة يظهر فيها العفن من جديد ، ويتراكم عليها كل مابدأنا نناضل ضده بحزم . ولهذا السبب يجب أن يكون هناك مزيد من الضوء .

وتقدم الجلاسنوست اليوم مثالا حيا لجو روحى ومعنوى موات وطبيعى في المجتمع ، يجعل بإمكان الناس أن يفهموا بشكل أفضل ما الذى حدث لنا في الماضى ، وما الذى يحدث الآن ، وما الذى نسعى إليه ، وماهى خططنا ، وأن يشاركوا بوعى ، على أساس هذا الفهم ، في جهد إعادة البناء .

إن إشاعة الديمقراطية في جو المجتمع والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية ، تكتسب قوة دفع لدرجة كبيرة ، بفضل تطور الجلاسنوست . وغنى عن القول إن سياسة الحزب هي أساس هذه العملية . ومع ذلك ، فلن تبدأ الأمور في التغير إذا لم نمارس النهج السياسى بطريقة مفهومة للجماهير . ولا بد أن يعرف الشعب الحياة بكل تناقضاتها وتعقيداتها . ويجب أن يكون لدى الجماهير العاملة معلومات كاملة وصادقة عن المنجزات والعقبات ، وعما يعترض سبيل التقدم ويعرقله .

وقد يقال إن الناس قد تطور لديهم إحساس بميزات الجلاسنوست . ولا يعود

ذلك فحسب إلى رغبتهم الطبيعية في أن يعرفوا مايجرى ومن يعمل بجد . فهم يزدادون اقتناعا بأن الجلاسنوست هي شكل فعال للرقابة العامة على نشاط كافة الهيئات الحكومية ، دون استثناء ، ورافعة قوية لتصحيح النواقص والعيوب . ونتيجة لذلك بدأت القدرة المعنوية لمجتمعنا تتحرك . وبدأ العقل والضمير يستردان الأرض من السلبية واللامبالاة التي كانت تعتصر الأفئدة . ولا يكتفى بالطبع ، أن تعرف وتقول الحقيقة . فالشيء الرئيسى هو أن تتصرف على أساس معرفة الحقيقة وفهمها .

لقد بدأنا ندرك ضرورة أن نتعلم التغلب على التناقض الراسخ بين الواقع وبين السياسة المعلنة . وهذا التحول الهام في المجال المعنوى هو الذى يشكل المضمون والجوهر العاطفى للثورات الاشتراكية الحالية في مجتمعنا .

لقد بدأنا نعد القوانين التي تضمن الجلاسنوست . وتهدف هذه القوانين إلى ضمان أكبر علانية ممكنة في عمل الحكومة والمنظمات الجماهيرية وتمكين الجماهير العاملة من التعبير عن رأيها ، بدون خوف ، في أى مسألة في الحياة الاجتماعية أو نشاط الحكومة .

عند بدء عملية إعادة البناء ، اعتمدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى على قوتين حقيقتين جبارتين - لجان الحزب ووسائل الإعلام الجماهيرى . ويمكننى حتى القول بأن الحزب ما كان يستطيع أن يصل إلى مستوى النقاش الحالى عن كل مجموعة قضايا البيريسترويكا - وعملية البيريسترويكا ضخمة للغاية ، ومتنوعة ، ومتناقضة - إذا لم تشارك فيها وسائل الإعلام الجماهيرى بنشاط ، وبطريقة مناسبة ، بعد اجتماع أبريل ١٩٨٥ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى مباشرة .

وتقدر اللجنة المركزية بدرجة كبيرة الإسهام الذى قدمته وسائل الإعلام إلى البيريسترويكا . فما السبب في ذلك ؟ لأن كل شيء يتوقف على الشعب . والناس في

طليعة النضال ، والبيريسترويكا تتطور من خلالها . ولهذا السبب فإن الطريقة التي يفكر بها الناس ، ومستوى وعيهم وموقفهم المدني تعتبر كلها ذات أهمية حاسمة .

إن مجتمعنا الاشتراكي الذي سار بحزم في طريق التجديد الديمقراطي ، له مصلحة حيوية في المشاركة النشطة لكل مواطن - لكل عامل ، وكل فلاح جماعي ، وكل عالم ، وكل مهني - في مناقشة خططنا وتنفيذها على السواء . وتلعب وسائل الإعلام الجماهيري ، وستستمر تلعب ، دورا هائلا في ذلك . إنها ليست ، بالطبع ، القنوات الوحيدة للتعبير عن إرادة الشعب ، ولعكس آرائه ، وأمزجته ، ولكنها أكثر منابر الجلاسنوست تمثيلا وقوة . والحزب يريد من كل مواطن أن يعبر عن رأيه بثقة من على هذا المنبر ، وينبغي لصوت المواطنين ألا يعلن فقط في المناقشات التي تجري في البلاد وإنما عليه أن يكون كذلك ضامنا للرقابة الديمقراطية على صحة القرارات وتوافقها مع مصالح الجماهير واحتياجاتها ، وفي المرحلة اللاحقة ، على إنجاز هذه القرارات .

وتنعكس عملية إشاعة الديمقراطية الحالية ليس فقط في المطبوعات ، ولكنها تؤثر بصورة متزايدة على نشاط وسائل الإعلام الجماهيري . وبالتدريج يذوب الجمود وتكشف صحفنا ، ومجلاتنا ، والإذاعة والتلفزيون عن موضوعات جديدة وتتناولها . وأحد علامات إشاعة النشاط والحيوية بشكل عام هو أن صحافتنا تفضل بشكل متزايد الحوار عن الحديث الفردي . وتحلى التقارير الرسمية مكانها للمقابلات ، والحوار ، ومناقشات المائدة المستديرة ، والمناقشات الخاصة برسائل القراء . حقا ، إن هناك في بعض الأحيان اتجاه للحد من عدد الكتاب المشاركين إلى ما بين ثلاثة وخمسة أشخاص وهذا ليس سوى عجرفة مهنية . فن المفيد بدرجة أكبر تنوع المشاركين في الكتابة حتى يعبر كافة المواطنين عن آرائهم ، وحتى يقول كل مواطن كلمته ، وحتى يتم تمثيل التعددية الاشتراكية ، كما هي ، في كل مطبوع ينشر . ومن المؤكد أنه لشيء حسن عندما يحدد كاتب محترف موقفه . ومع ذلك ، فإن ما يثير اهتماما أكبر أن نقرأ حوارا ومقابلات مع العمال وسكرتيري لجان

الحزب في الأحياء ، ورؤساء المزارع الجماعية ، والعلماء ، والشخصيات الثقافية .
فهم حملة أفكار حية . أو فلنأخذ الرسائل - يالها من وثائق رائعة ! إنها مثيرة حقاً .
ومع ذلك ، فلا يجب كل الناس الأسلوب الجديد . ويصح ذلك على وجه
الخصوص بالنسبة لمن لم يتعودوا على الحياة والعمل في ظروف الجلاسنوست والنقد
المتحرر ، والذين لا يستطيعون ولا يريدون أن يقوموا بذلك . إنهم هؤلاء الذين
يعلنون سخطهم على وسائل الإعلام الجماهيرى ، ويطالبون حتى أحياناً بتقييد
الجلاسنوست وكبحها .

ونحن لانتعبر أمراً سلبياً وجود مناقشات حول ما إذا لم يكن هناك كثير من
النقد ، وما إذا كنا نحتاج إلى مثل هذه الصراحة الواسعة ، وإذا ما كان لإشاعة
الديموقراطية آثار غير مرغوب فيها . وتكشف هذه المناقشات ، بأى حال ، عن
الاهتمام باستقرار مجتمعنا . ومن الممكن إغراق الديمقراطية والجلاسنوست في
العبارات البلاغية وتشويه معناهما . هناك أناس يبدو وكأنهم مع التجديدات ،
ولكن عندما يحين موعد العمل يضعون كافة أنواع الشروط والتحفظات أمام تطوير
الديموقراطية والنقد والجلاسنوست .

ولم تعد المسألة هي ما إذا كانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى
ستواصل سياسة الجلاسنوست من خلال الصحافة وغيرها من وسائل الإعلام
الجماهيرى وبالمشاركة النشطة للمواطنين . إننا نحتاج إلى الجلاسنوست كما نحتاج إلى
الهواء .

وأود أن أؤكد مرة أخرى على أن سياسة توسيع الجلاسنوست وتطوير النقد
والنقد الذاتى ، بدلا من التلاعب بالديموقراطية ، هي مسألة مبدأ بالنسبة لحزبنا .
ونحن نعتبر تطوير الجلاسنوست طريقة لتراكم الآراء والأفكار المتنوعة المختلفة التى
تعكس مصالح كافة الفئات ، وكل المهن والحرف فى المجتمع السوفيتى . ولن يكون
فى مقدورنا أن نتقدم ما لم نتأكد إلى أى مدى تستجيب سياستنا للنقد وبخاصة النقد

من أسفل ، وما لم نكافح التطورات السلبية ونمنعها ، ونستجيب للمعلومات من أسفل . ولا يمكنني تصور الديمقراطية بدون كل ذلك .

ومن ناحية أخرى ، فإن طابع النقد ومعاييره تتغير هي الأخرى في ظروف إعادة البناء ، وإشاعة الديمقراطية . والنقد أولا وقبل كل شيء هو المسئولية ، وكلما كان النقد أكثر حدة ، كلما وجب أن يكون مسئولاً بدرجة أكبر ، لأن كل مقال حول موضوع اجتماعي ليس فقط تعبيراً عن الذات بواسطة شخص معين أو انعكاس لعقد شخص ما أو طموحاته ، ولكنه أمر ذو أهمية عامة ، وإشاعة الديمقراطية تعني إدخال تصحيحات هامة على العلاقة بين من ينتقدون وبين من يوجه إليهم النقد . وينبغي أن تكون علاقات مشاركة تقوم على المصلحة المتبادلة . والحوار هو الأكثر مناسبة في مثل هذه الحالات ، بينما لا يسمح بتاتا بكافة أنواع التعالي في إلقاء المحاضرات والدروس وبشكل خاص لهجة قاعات المحاكم . ويمكننا أن نعثر على هذا التعالي حتى في مقالات كتّاب محترمون ومحترفون : فلا يحق لأحد إصدار حكم نهائي .

وهناك أمر واحد واضح : إن النقد يجب أن يركز على الحقيقة على الدوام ، ويتوقف ذلك على حيوية ضمير الكاتب والمحرر ، وعلى شعوره بالمسئولية أمام الشعب .

وينبغي أن تغدو الصحافة أكثر فعالية . يجب ألا تتغافل عن المتسكعين ، والساعين وراء المنفعة والانتهازيين ، ومن يقمعون النقد والديمماجوجيين ، وينبغي أن تساعد بنشاط أكبر الذين يعملون بتفان من أجل البيرسترويكا . ويتوقف الكثير هنا على لجان الحزب المحلية . فإذا ما أعادت لجنة الحزب تنظيم عملها ، فستفعل الصحافة ذلك أيضا .

وأود أن أؤكد على أن الصحافة توحد الشعب وتعبئه بدلا من تقسيم صفوفه وتوليد الاستياء ، والافتقار إلى الثقة . وتجديد المجتمع يعني كذلك السعي لتأكيد كرامة الإنسان ، ونبله وشرفه . ويمكن للنقد أن يكون أداة فعالة للبيرسترويكا فقط

إذا ما استند إلى الحقيقة المطلقة والاهتمام الدقيق بالعدالة .

ويشكل الدفاع عن القيم الأساسية للاشتراكية تقليدا لصحافتنا . فأى حقيقة ، سواء كانت مسألة راهنة أو حدثا مؤسفا من الماضي ، قد تصبح مادة لتحليل الصحافة . وأى قيم تدافع عنها ، فالأمر الأهم فيها هو ما إذا كان مصير الشعب ومستقبله يهمل أم لا . وهكذا يحدث أحيانا أن يطرح كاتب حقيقة مثيرة وملحة في الصحيفة ويبدأ في الرقص حولها ، ويفرض على الآخرين أفكاره ومشاربه . وفي رأي ، ينبغي أن نرحب بأى حديث صريح وأمين حتى ولو أثار الشكوك . ولكن إذا ما حاول أن يلبسنا ثوب شخص آخر ، فحذار ! إن الجلاسنوست تهدف إلى تدعيم مجتمعنا . ولدينا الكثير لتؤكدده . ولا يمكن أن يرتاب في ذلك إلا أولئك الذين تحول الديموقراطية الاشتراكية ومطالبنا الخاصة بالمسؤولية دون تحقيق مطامحهم الشخصية ، والتي هي شديدة البعد ، على أية حال ، عن مصالح الشعب .

وهذا ليس بالطبع دعوة لفرض حظر على النقد أو للتحويل إلى أنصاف الحقائق أو الكف عن التحليل النقدي . إن مصالح تعميق الديموقراطية الاشتراكية وتعزيز النضج السياسى للشعب ، يتطلب استخداما أكمل لوسائل الإعلام الجماهيرى لمناقشة المسائل العامة والمتعلقة بالدولة ، ولتوسيع الرقابة بواسطة الشعب ، والسعى النشط لمزيد من المسؤولية ، ومن أجل انضباط أقوى في العمل ومراعاة للقانون والنظام الاشتراكى ، ومقاومة انتهاكات المبادئ الاجتماعية والمعايير الأخلاقية لطريقة الحياة السوفيتية . إننا نسعى إلى تنظيم هذا العمل بطريقة تمكن وسائل الإعلام الجماهيرى من أن تتصرف كقوة حرة ، متحدة ومرنة على نطاق البلاد ، قوة قادرة على أن تحل على الفور أكثر الأحداث والمشاكل إلحاحا .

والجلاسنوست ، والنقد والنقد الذاتى ليست مجرد حملة جديدة . لقد أعلنت وينبغى أن تصبح قاعدة لطريقة الحياة السوفيتية . ولا يمكن أن يحدث أى تغيير

جذرى بدونها . ولا توجد ديمقراطية ولا يمكن أن توجد بدون الجلاسنوست ، كما لا توجد اشتراكية اليوم ، ولا يمكن أن توجد بدون ديمقراطية .

ولا يزال هناك عدد محدود إلى حد ما من المسؤولين يواصلون الاستجابة بانزعاج لنقد وسائل الإعلام ويقيمون المقالات أو ما يقال في الإذاعات من زاوية الحس الشخصى ، والتجربة الماضية ، والتفسير الخاطئ لمصالح المجتمع ، أو لا يفهمون ببساطة دور الصحافة في المجتمع الاشتراكى اليوم . ويحاولون أحيانا تخويف النقاد بتحذيرهم من رد الفعل المحتمل من قبل الغرب على مقال نقدى . وهم يقولون إن الغرب شغوف لأن يسمع نقدنا لأنفسنا لكى يستخدمه ضدنا ، ولتشويه سمعة طريقة الحياة الاشتراكية . ولا أستطيع أن أقول شيئا محددًا عن الآخرين ، ولكننى لا أخشى النقد . إن الاستعراض النقدى لتجربتنا علامة على القوة ، وليس الضعف ومثل هذه النظرة تتفق مع مبادئ الأيديولوجية الاشتراكية .

ولكن يوجد كذلك أسلوب « هادئ » آخر لقمع أو تجنب النقد ، عندما يوافق المسؤولون علنا عليه ، بل ويرحبون به ويعدون باتخاذ التدابير الفعالة . ولكنهم فى الواقع العملى لا يكونون متعجلين لاستخلاص الاستنتاجات العملية . ويأملون بأن ينتهى كل شىء بالكلام ، « ويغوصون فى الرمال » ، ولن يتذكر أحد خطاياهم بعد ذلك . والشىء الهام بالنسبة لمثل هؤلاء الناس أن يندموا فى الوقت المناسب .

اسمحوا لى فقط أن أكرر ماقلته فى اجتماع يناير الكامل : إن الموقف من النقد هو مؤشر هام لموقف الشخص من البيروسترويكا ، ومن كل ما هو جديد يحدث فى مجتمعنا .

وسنبذل كل ما فى وسعنا لنمنع أى فرد من قمع النقد أو تجنبه . إن النقد دواء مر المذاق ولكن حتى الأمراض التى تصيب المجتمع تجعل منه ضرورة حتمية : فأنت تقطب وجهك ولكنك تبلعه . والذين يعتقدون بأننا نحتاج فقط إلى جرعات

من النقد في فترات معينة مخطئون . والذين يميلون إلى الاعتقاد بأن الركود قد تم التغلب عليه تماما ولا داعي للانتعاج مخطئون بالمثل . إن إضعاف النقد سوف يضر حتما بالبيروسترويك .

البيروسترويك والمثقفون

أيد المثقفون إعادة البناء بحماس . وسأسمح لنفسي باستطراد واحد هنا . إن المثقفين المخلصين للقيم الاشتراكية ، والذين يشكلون جزءا عضويا من المجتمع السوفيتي ، لديهم إحساس عميق بالوطنية ، ويمثلون إنجازنا العظيم ، وربما الفريد ، ورأسمالنا الروحي الذي لا يقدر بثمن . ولثقفينا تاريخ شاق . فالعديد من المثقفين ، بما في ذلك ذوى العقيلة الديمقراطية ، الذين هاجموا النظام القيصري ، بل وحتى كافحوا ضده . قد أرعبتهم الثورة واكتسحتهم موجة الهجرة البيضاء^(٧) إلى الخارج ، حيث قدموا مواهبهم ومعرفتهم للآخرين . وكانت هذه خسارة كبيرة لمجتمعنا السوفيتي القليل الخبرة .

وعانى المثقفون كثيرا ، بما فيهم المثقفون في الحزب البلشفي ، وأنزلت بهم في بعض الأحيان خسائر لاتعوض بسبب انتهاكات الشرعية الاشتراكية وأعمال القمع في الثلاثينيات . وكان ذلك أيضا ضربة قاصمة لقدرة البلاد الثقافية .

ومع ذلك واصل المثقفون السوفيت تكوينهم ونموهم ، وكانوا مرآة تعكس القوانين الموضوعية التي تحكم تطور الاشتراكية واحتياجاتها الحيوية . وقد حولت الثورة الثقافية^(٨) اللينينية في النهاية بلادنا شبه الجاهلة والأمية ببساطة إلى بلد من أكثر البلاد تعلما في العالم .

(٧) الهجرة البيضاء - اصطلاح عام يطلق على كل من ترك روسيا بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ وخلال الحرب الأهلية ١٩١٨ - ١٩٢٢ . وحارب قسم كبير منهم بنشاط ضد الحكومة السوفيتية في الحرب الأهلية وشاركوا في نشاطات تخريبية ضد الجمهورية السوفيتية . وحصل كثير من المهاجرين فيما بعد على المواطنة السوفيتية وعاد بعضهم إلى وطنهم .

(٨) الثورة الثقافية - القضاء على الأمية في الاتحاد السوفيتي في العشرينيات والثلاثينيات واستيعاب الجماهير =

ومع ذلك فقد تشكل في فترة الركود وضع متناقض عجز فيه مجتمعنا عن أن يستخدم قدراته الثقافية والإبداعية الهائلة . ومرة أخرى يعود السبب في ذلك إلى إبطاء تطور الديمقراطية بشكل مصطنع . ولم تعجز كافة أشكال الخطر ، والخوف من الجديد ، ومن النظرات الخلاقة ، من أن يكون لها أثرها .

وأذكر اجتماعا في يونيو ١٩٨٦ مع العاملين في جهاز اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي . وكان الاجتماع يتعلق بالبيريسترويكا . وكان على أن أطلب منهم أن يتبنوا أسلوبا جديدا في العمل مع المثقفين . لقد آن الأوان لوقف إصدار الأوامر ، لأن ذلك ضار وغير مسموح به . وقد رحب المثقفون بكل قلوبهم ببرنامج التجديد الديمقراطي للمجتمع .

وعقدت مؤتمرات الاتحادات الإبداعية^(٩) لمنتجي الأفلام ، والكتاب ، والفنانين ، والمؤلفين الموسيقيين ، والمعماريين ، والشخصيات المسرحية والصحفيين . وتميزت هذه المؤتمرات بمناقشات حادة . وأيدت كافة المؤتمرات البيريسترويكا بإخلاص . وانتقد المشاركون فيها أنفسهم بشدة . ولم ينتخب كبار مسئولى الاتحاد السابقين للهيئات القيادية ، كما لم ينتخب الصاخبون ، وانتخب بدلا منهم أشخاص بارزون ذوو نفوذ ليرأسوا الاتحادات .

وقلت لمن وجدوا المناقشات حادة للغاية : إن عليهم ألا يندهشوا أو يمتعضوا ، وإن هذه المؤتمرات يجب أن تقبل كظواهر معتادة ، رغم أنها جديدة . إن إشاعة الديمقراطية تجرى في كل مكان ، وتكتسب أشكالا حادة في بعض الأحيان . وقد عارض بعضهم ، وقالوا : إنه سيكون من الصعب العمل في جو يجد فيه كل شخص أنه فيلسوف نفسه ، والسلطة الأولى على نفسه ، ويعتقد أنه

= الشعبية العريضة للثقافة الحديثة .

(٩) الاتحادات الإبداعية - جمعيات اختيارية للمثقفين توحد الكتاب ، والمهندسين ، والمؤلفين الموسيقيين ، والممثلين ، والفنانين ، والصحفيين ، ومنتجي الأفلام ، الخ .

وحده على حق . وأجبت : إنه سيكون من الأسوأ كثيرا أن نتعامل مع مثقفين سليبين ، ومع اللامبالاة والسخرية .

إن الانفجارات العاطفية هي جزء محتوم من أى مسعى معقد . وكانت تلك هي الحال فى الأزمنة الثورية . واليوم يبدو وكأننا ندخل مدرسة الديمقراطية من جديد ونحن نتعلم . ومازلنا نفتقر إلى الثقافة السياسية . ولا يوجد لدينا حتى الصبر لكى نسمع أصدقاءنا . وكل هذا سوف يمضى بالتأكيد . وسوف نستوعب هذا العلم أيضا . ولا بد من مناقشة أكثر المسائل الشائكة مع الاحترام الواجب لبعضنا البعض . وحتى أكثر وجهات النظر تطرفا تحوى شيئا قيما وعقليا ، لأن الشخص الذى يدافع عنها بإخلاص ويهتم بالقضية المشتركة بطريقته الخاصة يعكس بعض الجوانب الواقعية للحياة . وهذا لا يمثل بالنسبة لنا صراعا طبقيًا عدائيا . إنه سعى ونقاش حول كيفية مواصلة جهد إعادة البناء وجعل تقدمنا راسخا ولا رجعة فيه . ولهذا فأنا لا أرى أى تضارب حاد فى الجدل العنيف ، وفى مقارنة الآراء . إنه شىء عادى .

لقد ظهرت فى الحقيقية بين الكُتّاب أوهام جماعية وعدم تسامح فيما يتعلق بالعلانية الجديدة . وجاء وقت زاد فيه الانفصال فى الأوساط الأدبية . ونقلنا إليهم رأى اللجنة المركزية ، القائل بأنها ستكون آسفة للغاية إذا ماتشاجر المثقفون فى مجال الفن والمجال الإبداعى بدلا من تعزيز وحدتهم . وبدأ أفراد منهم يستخدمون العلانية ، والصراحة وإشاعة الديمقراطية لتسوية حسابات قديمة والانتقام للنقد . وأسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن يسمح المثقفون الإبداعيون لأنفسهم ، فى هذه الأزمنة الثورية ، بأن يغرقوا فى التوافه ، وأن يعطوا فرصة للمطامح الشخصية وليستنفدوا طاقاتهم فى الكلمات الرنانة عديمة المعنى بدلا من المسعى الخلاق . وحثت اللجنة المركزية الكُتّاب على أن يسموا فوق عواطفهم ، وعاداتهم المريحة وقوالهم الجامدة . وقلنا لهم ، ارتقوا بأنفسكم وفكروا فى الشعب والمجتمع .

فليشعر المثقفون بالمسؤولية وليتجلى ذلك فى اتحاداتهم الإبداعية ، مهتمين ، فى المقام الأول بتطور المجتمع روحيا .

والمثقفون متشربون بشعور المسؤولية المدنية ، وقد تحملوا بحماس نصيبا أكبر من جهد إعادة البناء. إن مثقفينا، جنبا إلى جنب مع الحزب، قد بدأوا التغيير. إن موقفهم المفعم بالروح العامة يتجلى بقوة متزايدة ، ولنا مصلحة راسخة فى هذا ، ونثنى على كل صوره - الطريقة التى شاركوا بها فى الجهد بعد أبريل ١٩٨٥ ، وحماسهم ورغبتهم فى مساعدة إعادة بناء المجتمع - ونحن نأمل أن يتواصل إسهام المثقفين هذا . إنهم يرتفعون إلى مستوى جديد للتفكير والمسؤولية . وأن خطهم يتفق مع المسار السياسى للحزب الشيوعى السوفيتى ومع مصالح الشعب .

ثانيا - السياسة الاقتصادية والاجتماعية الجديدة فى العمل

كيف تتطور البيريسترويكا فى الاقتصاد ؟.

يجب أن أقول صراحة إن كل جهودنا نحو تغيير بنية الاقتصاد القومى ، وتحويله إلى مسار التنمية المكثفة ، وتسريع التقدم العلمى والتكنولوجى قد حثت بدرجة زائدة الإلحاح على الحاجة إلى إصلاح جذرى للدولاب الاقتصادى وإلى إعادة بناء كل نظام الإدارة الاقتصادية .

والاشتراكية ، والملكية العامة التى تركز عليها ، تقدمان إمكانيات غير محدودة ، من الناحية الفعلية للعمليات الاقتصادية التقدمية . ولهذا السبب ، يجب علينا ، مع ذلك ، أن نجد فى كل مرة الأشكال الأكثر فعالية للملكية الاشتراكية ولتنظيم الاقتصاد . ومما له أهمية قصوى فى هذا الخصوص أن يكون الشعب السيد الحقيقى للإنتاج ، بدلا من أن يكون سيدا بالإسم فقط ، لأنه بدون ذلك ، لن يهتم العمال - الأفراد أو أسر العمل - ولا يمكن أن يهتموا بالنتائج النهائية لعملهم .

إن فكرة لينين المتعلقة بإيجاد أكثر الأشكال فعالية وحادثة لدمج الملكية العامة

مع المصلحة الشخصية تشكل أساس كل مساعيها ، وكل مفهومنا لتحويل الإدارة الاقتصادية جذريا .

الإصلاح الاقتصادي : اجتماع يونيو ١٩٨٥ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي

عند تنفيذ إصلاح اقتصادي جذري ، كان من المهم أن نحول دون تكرار الأخطاء الماضية التي انتهت في الخمسينيات والستينيات إلى فشل محاولتنا لتغيير نظام الإدارة الاقتصادية . وفي نفس الوقت ، برهنت هذه المحاولات أنها غير كاملة ، وغير ثابتة لأنها أكدت مسائل معينة ، بينما تجاهلت مسائل أخرى . وإذا ما تحدثنا بصراحة ، فلم تكن الحلول التي قدمت حينذاك حلا جذرية ، وإنما كانت تدابير جزئية ، كثيرا ما فاتها جوهر الأمور .

ويمكنني القول بأن مفهوم الإصلاح الاقتصادي ، الذي تقدمنا به إلى اجتماع يونيو الكامل ، ذو طبيعة شاملة . إنه ينهض بأعباء التغييرات الجوهرية في كل مجال بما في ذلك تحويل المؤسسات إلى الحساب الاقتصادي الكامل ، وتحويل جذري لإدارة الاقتصاد المركزية ، وتغييرات جوهرية في التخطيط ، وإصلاح نظام تكوين الأسعار ، والدولاب المالي والائتماني ، وإعادة بناء العلاقات الاقتصادية الخارجية . كما ينهض كذلك بأعباء إقامة بني تنظيمية جديدة للإدارة والتطوير الشامل للأسس الديمقراطية للإدارة ، والتطبيق الواسع لمبادئ الإدارة الذاتية .

وهناك منطق داخلي في كل عملية معقدة ، ويعكس العلاقات الداخلية بين تدابير معينة ، وبين خطوات ملموسة معينة . وقد طرح أمامنا سؤال طبيعي : من أين نبدأ ؟ وما هي نقطة البدء في إعادة بناء الإدارة ؟ .

وفي اقتصادنا المخطط ، قد يبدو منطقيا ، عند أول نظرة ، أن نبدأ إعادة

البناء من المركز ، وأن نحدد بنية ووظائف الهيئات الاقتصادية المركزية ، ثم نتقل إلى مستوى الإدارة المتوسط ، ثم في النهاية ، إلى المؤسسات والاتحادات ، باعتبارها المستوى الأول . وقد يبدو هذا صحيحا من وجهة نظر المنطق المجرد ، بيد أن الواقع والخبرة المتراكمة قد أملت نظرة مختلفة ومنطقا مغايرا : إذ ينبغي أن نبدأ بالمؤسسات والاتحادات الحلقة الرئيسية في السلسلة الاقتصادية . علينا أن نبدأ بإيجاد النموذج الاقتصادي الأكثر فعالية لها ، ثم نخلق الظروف الاقتصادية المثلى ، ونوسع ونعزز حقوقها ، وعلى هذا الأساس فقط ندخل تغييرات جوهرية في نشاط كافة المراتب العليا للإدارة الاقتصادية .

وعندما حددنا هذا التابع في جهد إعادة البناء كنا نضع في الاعتبار أن العمليات الاقتصادية الأساسية تجري هناك ، في المؤسسات والاتحادات ، وأن القيم المادية تخلق فيها ، وأن الأفكار العلمية والتكنولوجية تتجسد هناك . وتعطى أسرة العمل شكلا ملموسا للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، كما تتشابك في عملها (أسرة العمل) المصالح الشخصية ، والجماعية ، والاجتماعية للناس . وتحدد أسرة العمل لدرجة كبيرة الجو الاجتماعي والسياسي على نطاق البلاد .

ووضعنا في اعتبارنا كذلك خبرتنا السابقة ، حيث لم تنجح المحاولات المتكررة لإصلاح مستويات الإدارة العليا دون مساندة من أسفل بسبب المقاومة العنيدة من جهاز الإدارة ، الذي لم يكن يرغب في أن يتخلى عن حقوقه وامتيازاته العديدة . وقد صادفنا أخيرا هذه المقاومة ، وما تزال نصادفها الآن . وفي ذلك أيضا ، كما في كافة مجالات إعادة البناء الأخرى ، علينا أن نربط ما يأتي من أعلى مع الحركة من أسفل ، أي ، إعطاء جهد إعادة البناء طبيعة ديمقراطية عميقة .

ما هو العيب الرئيسي في الجهاز الاقتصادي القديم ؟

إنه في المقام الأول الافتقار إلى الحافز الداخلي للتطور الذاتي ، حقا ، إنه من خلال نظام مؤشرات الخطة ، تتلقى المؤسسة التكاليفات والموارد . وتغطي كافة

النفقات عمليا ، ويضمن بيع المنتجات فى الأساس ثم وهو الأهم ، فإن دخول الموظفين لا تعتمد على النتائج النهائية لعمل أسرة العمل : إنجاز التزامات العقود ، وجودة المنتج والأرباح. ومثل هذا الدولار يمكن أن ينتج عملا ذا نوعية متوسطة أو حتى رديئة ، سواء راق ذلك لنا أم لا . فكيف يمكن أن يتقدم الاقتصاد إذا ما خلق ظروفًا تفضيلية للمؤسسات المتخلفة وإذا ما عاقب أكثرها تقدما؟.

لم يعد بإمكاننا أن ندير شئوننا بهذه الطريقة . وينبغي على الدولار الاقتصادى الجديد أن يصلح الأمور . يجب أن يصبح رافعة قوية ، وقوة باعثة على الحيوية لأداء الجودة الواسع الحيلة . ويجب أن تنطلق كل مؤسسة من مطالب اجتماعية حقة لتحديد خطط الإنتاج والبيع لنفسها . ويجب أن تركز هذه الخطط لا على تكاليف تفصيلية عديدة تضعها الهيئات الأعلى ، وإنما على أوامر مباشرة تضعها المنظمات الحكومية ومؤسسات الحساب الذاتى وشركات التجارة لمنتجات معينة ذات كمية وجودة مناسبة . ويجب أن توضع المؤسسات فى ظروف تمكنها من تشجيع المنافسة الاقتصادية من أجل أفضل تلبية لطلبات المستهلك ، كما يجب أن تعتمد دخول الموظفين بشكل حازم على نتائج الإنتاج النهائية ، على الأرباح .

وقد أدخلنا كل هذه المبادئ للإدارة الاقتصادية وأشكالها الخاصة فى مشروع القانون الخاص بمؤسسات الدولة (الاتحادات) الذى جرت مناقشته على نطاق البلاد فى أسر العمل ، وفى اجتماعات العمال والنقابات المحلية وفى وسائل الإعلام . وقد أثار مشروع القانون اهتمام كل الشعب . وشعر الناس أن هناك حاجة إلى رأيهم . وقامت مجموعة خاصة من المسؤولين الحكوميين ، والعلماء ، وممثلين مختلفين هيئات الدولة بدراسة المقترحات ، والتعديلات ، والإضافات المقدمة . وأدخل فى المشروع كل ما هو عقلى ومقبول وجرى تحسينه بدرجة كبيرة .

كان الهدف من معظم التصحيحات توسيع حقوق أسرة العمل . وكان المطلب العام ألا نتراجع تحت تأثير القصور الذاتى ، وإنما أن نواصل السير بحزم . وشعرنا أن

القانون الجديد لا ينبغي أن يثقل بتعليقات عديدة يمكن أن تضعفه وتوقفه . وتبنى السوفيت الأعلى القانون الذى سيصبح سارى المفعول فى أول يناير ١٩٨٨ .

حقا ، لقد نشرت الصحافة بعض مقترحات كانت خارجة على نظامنا . فكان هناك رأى ، مثلا ، يقول بأن علينا أن نتوقف عن الاقتصاد المخطط ونسمح بالبطالة . إنه ليس بإمكاننا أن نسمح بذلك ، لأننا نهدف إلى تدعيم الاشتراكية ، وليس إلى استبدالها بنظام آخر . وما يقدمه لنا الغرب ، من اقتصاد مختلف ، غير مقبول لنا . ونحن على يقين من أننا إذا ما استخدمنا حقا إمكانيات الاشتراكية ، وإذا ما تمسكنا بمبادئها الأساسية ، وإذا ما أخذنا فى اعتبارنا تماما المصالح البشرية واستخدمنا مزايا الاقتصاد المخطط ، لأمكن للاشتراكية أن تحقق أكثر من الرأسمالية بكثير .

ونحن نولى أهمية أساسية للقانون الخاص بمؤسسات الدولة فى إصلاحنا الاقتصادى . ونعتبره مقياسا لخطواتنا وتدابيرنا الأخرى ، التى ننظر إليها من وجهة نظر مدى اتفاقها بشكل كامل مع هذا القانون وإسهامها فى تنفيذه العملى .

ومن أجل التحضير للاجتماع الكامل ، أمضى المكتب السياسى شهورا عديدة يدرس نتائج التحليل الشامل والموضوعى تماما لنشاط مجلس وزراء الاتحاد السوفيتى ، والجوسبلان^(١٠) ، والجوسناب^(١١) ، والمينفين^(١٢) ، والجوسبانك^(١٣) ، والوزارات والإدارات الاقتصادية وهيئات الإدارة الصناعية ، ووضعت مشاريع قوانين محلية للتحكم فى عمل الهيئات المركزية لجعلها (وظائفها الرسمية) تتفق تماما مع القانون الخاص بمؤسسات الدولة ، وألا تتناقض معها بأى حال ، وقد نوقشت فى

(١٠) جوسبلان (لجنة التخطيط الحكومية للاتحاد السوفيتى) - هيئة حكومية مسئولة عن التخطيط

الطويل المدى والجارى للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للبلاد والرقابة على إنجاز الخطط .

(١١) جوسناب - لجنة الدولة للاتحاد السوفيتى للإمداد المادى والتكنيكى . وهى هيئة حكومية .

(١٢) مينفين - وزارة المالية للاتحاد السوفيتى .

(١٣) جوسبانك - بنك الدولة للاتحاد السوفيتى . البنك الرئيسى فى البلاد .

الاجتماع الكامل ، ووضعت في صورتها النهائية ، وأقرت ، ودخلت حيز التطبيق .
إن اجتماع يونيو الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ، وقراراته ،
و« المواد الأساسية لإعادة البناء الجذري للإدارة الاقتصادية » التي أقرها تكمل في
الواقع بناء نموذج حديث للاقتصاد الاشتراكي يلبي تحدى المرحلة الحالية من التطور
الوطني .

إن الاجتماع الكامل ودورة السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتي التي أعقبته ، قد
طورا وعززا سياسة مشاركة الشعب النشطة في العمليات الاقتصادية والإنتاجية ،
وربطا بشكل وثيق بين مصالح الدولة ومصالح الفرد وأسرة العمل ، وجعلا الجماهير
العاملة السوفيتية هي السيد الحقيقي .

وما يزال لدينا بالطبع ، أشياء لا بد من تكميلها ، أو ربما إعادة عملها . وليس
بإمكان أى مجتمع استبدال أى نظام للإدارة الاقتصادية في يوم وليلة ، بنظام مختلف
وأكثر تقدما ، كما لو كان حيلة ميكانيكية ما . وسيكون علينا أن نكيف دولابا ديناميا
ومرنا وحساسا للتغيرات في الإنتاج وقادرا على أن نخضع للتحديث بشكل دائم ،
ويقبل ما هو متقدم ويرفض ما انقضى زمانه . ويتمثل التحدى الرئيسي في وقف
الاعتقاد بأنه مدامت القرارات قد اتخذت ، فستكون على الدوام ملائمة في شكلها
القائم .

وعندما وضعنا برنامجا لإصلاح اقتصادى جذرى أرسينا الأسس لهجوم واسع
النطاق ، هذه المرة في كل مجالات عملية تسريع وتوسيع إعادة البناء . وتوفر
القرارات التي اتخذت المستلزمات الاقتصادية والتنظيمية للتوصل إلى أهداف الخطة
الخمسية الحالية والأهداف البعيدة المدى حتى عام ٢٠٠٠ . والمهمة التي في متناولنا
الآن هي أن نشغل الجهاز الجديد للإدارة الاقتصادية بكامل طاقته وبكفاءة ودون
تأخير .

وربما كانت اللحظة الحالية هي أخرج اللحظات في إعادة بناء الاقتصاد

والإدارة . لقد بدأت مرحلة العمل البناء . والآن ينبغي ترجمة كل شيء إلى واقع .
ويجب التركيز الآن على أن ننفذ بالفعل ما كثفنا جهودنا من أجله - وهذه هي السمة
المميزة للوضع الراهن .

نحو الحساب الاقتصادى الكامل

إن جوهر ما نخطط لعمله فى جميع أنحاء البلاد يتمثل فى أن نستبدل بأساليب
يهيمن عليها الطابع الإدارى أساليب يهيمن عليها الطابع الاقتصادى فى الأساس .
ومن الواضح تماما للقيادة السوفيتية أنه لابد وأن يكون لدينا حساب اقتصادى
كامل .

حقا إن هناك بعض العقبات . واثنان منها على الأقل كبيرتان . العقبة الأولى أنه
يتعين علينا أن نفعل ذلك فى إطار الخطة الخمسية المعتمدة بالفعل ، أى نجعله متفقا
معه . ولهذا الجانب الخاص أثر خطير على عملية الانتقال . إذن فما الذى يجب علينا
عمله فى النهاية : هل نتمسك بالخطة الخمسية أو نسحبها ؟ هناك جواب واحد على
هذا السؤال : يجب أن نحقق أهداف الخطة الخمسية ١٠ إنها فترة خمسية صعبة
للغاية : إذ تجرى فيها أبحاث طموحة واسعة ، وتغييرات هيكلية كبيرة ، كما يجرى
حل كثير من المسائل الاجتماعية ، وإلى جانب ذلك ، يجب إدخال الكثير من
التجديدات خلال هذه الفترة . إنها أوقات صعبة ومرهقة بالنسبة لمديرى المصانع :
ف لديهم عبء ثقيل من المشاكل التى تراكمت وعليهم فى نفس الوقت أن ينتقلوا إلى
التمويل الذاتى .

والعقبة الأخرى هى أن بعضا من المكونات الأكثر أهمية لدولاب الإدارة
الجديد ، ليس جاهزا بعد ولن يوضع موضع التنفيذ على الفور . وسيحتاج إلى
عامين أو ثلاثة لإعداد إصلاح تكوين الأسعار وإصلاح دولاب المال والاثنان ،
ومن خمس إلى ست سنوات للانتقال إلى تجارة الجملة فى وسائل الإنتاج . وماتزال

أمامنا أمور كثيرة يجب أن نحسمها بخصوص تحديد وظائف الوزارات ، وإعادة تنظيم الإدارة الإقليمية ، وتقليص العاملين .

وعلى ذلك فستكون لدينا فترة انتقال معقدة للغاية ، تتعايش خلالها كل من الدواليب القديمة وهذه التى أدخلت حديثا . بيد أن الحساب الاقتصادى الكامل سيطبق دون تأخير . وستابع هذا المسار بنشاط مكتسبين الخبرة العملية . وسوف نجرب ونختبر كل شىء .

وكما قابلت أناسا يعملون فى الصناعة ، أو حتى فى وزارات ، أقول لهم : لا تحجموا ، ابحثوا عن الأشياء وجربوها . إن الشعب لديه من الحكمة الكبيرة والشعور الحاد بالمسئولية ما يمكنكم - بل ويوجب عليكم - أن تتصرفوا بجرأة وثقة . حسنا ، لنفترض أننا ارتكبنا أخطاء . فماذا إذن ؟ من الأفضل أن نصححها بدلا من الجلوس والانتظار .

مفهوم جديد للمركزية

فى مجرى البيريسترويكا يتشكل مفهوم جديد للمركزية الديمقراطية . ومن المهم أن نحافظ على توازن سليم لجانبها ، واضعين فى اعتبارنا أنه فى المراحل المختلفة ستلقى الأضواء على جوانب مختلفة .

والوضع الآن هو كما يلى : هناك كثير من الناس يدعون إلى تقوية المركزية . إن بيانات الميزانية ، والنسب ، والحاجة إلى أن تتطابق الدخول مع مجموع السلع وحجم الخدمات ، والسياسات الهيكلية ، ونفقات الدولة ، والدفاع - كل هذه الأمور تتطلب مركزية حازمة . ويجب أن تشعر كل جمهورياتنا وكافة شعوبنا أنهم يعيشون فى ظروف متكافئة ، ولديهم فرص متساوية للتطور . وفى ذلك يكمن ضمان استقرار المجتمع السوفيتى . ولهذا السبب فنحن لانريد أن نضعف من دور المركز ، لأننا لو فعلنا ذلك فسوف نفقد ميزات الاقتصاد المخطط .

وفي نفس الوقت ، لا يعجز المرء عن أن يرى أن السلطات المركزية محملة أكثر مما يجب بأعمال صغيرة . ولسوف نحررها من الواجبات الحالية لأنها بالقيام بها ، تفوت عليها الأمور الاستراتيجية .

ويعود الكثير مما انتقدناه بحق في اجتماعي يناير ويونيو الكاملين ، في المقام الأول ، إلى لامبالاة في المركز : فليس في مقدوره أن يشعر بالاتجاهات الخطرة في الوقت المناسب ، وأخفق في إيجاد الحلول للمشاكل الجديدة ، الخ . وأكرر أن كل إعادة تنظيم للجهاز المركزي ووظائفه ستكون في جميع مراحلها متفقة بدقة مع قانون مؤسسات الدولة . والمركزية في ظروف البيروسترويكا لا علاقة لها بالتنظيم البيروقراطي للحياة المتعددة الوجوه للإنتاج ، وللأسر العلمية ، وأسر التصميم . وعلينا مع ذلك أن نفرق بين وظائف المركز والمحليات ، وأن نغير جوهر عمل الوزارات ، وأغراضها .

إننا نعتزم إشاعة الديمقراطية في التخطيط . وهذا يعني أن وضع الخطط الفعلية وليست الإسمية - سيبدأ داخل المؤسسات وأسر العمل . فهي التي ستخطط إنتاج منتجاتها ، على أساس الحاجات الاجتماعية التي تعبر عنها أرقام الخطة والعقود الحكومية ، وعلى صلات العقود الاقتصادية المباشرة مع المستهلكين .

وسيكون على لجنة تخطيط الدولة أن تكف عن التنظيم التفصيلي والرقابة اليومية على عمل الوزارات والإدارات ، وسيكون على الأخيرة أن تفعل نفس الشيء بالنسبة للمؤسسات . وسيجرى تنظيم نشاط المؤسسات (ميزانيات الأجور ، وتوزيع الأرباح ، والمدفوعات إلى الميزانية ، الخ) وفقا للقواعد الاقتصادية بعيدة المدى ، وسيكون ذلك في الواقع تنظيما ذاتيا .

ونحن نستهدف توسيع العلانية في كل مراحل التخطيط ، وإدخال المناقشة الواسعة للمشاكل الحكومية والإقليمية الاجتماعية ، والاقتصادية ، والعلمية ،

والتكنولوجية ، والبيئية . وسوف يطبق مبدأ التغييرية في نظام التخطيط بهدف العثور على الحلول المثلى .

وبشكل متميز عن الأسلوب السابق ، سوف تراقب الأجهزة المركزية المؤسسات في عدد محدود من المناطق - في إنجاز الطلبات الحكومية ، والأرباح ، وإنتاجية العمل ، والمؤشرات العامة للتقدم العلمي والتكنولوجي والمجال الاجتماعي . إن إنجاز المؤسسات لالتزامات التعاقد والطلبات الحكومية بالنسبة للمنتجات الأكثر أهمية ، وأنماط العمل والخدمات يغدو معيارا هاما لنشاط المؤسسات . وسيقلص تركيب وحجم الطلبات الحكومية بالتدريج مع تشجيع السوق لما فيه مصلحة الصلات المباشرة المتزايدة بين المنتجين والمستهلكين . وعندما نكتسب الخبرة اللازمة . سنضع الطلبات الحكومية على أساس تنافسي ، مطبقين مبدأ المباراة ، أو المنافسة الاشتراكية .

وسيخضع نظام الإمدادات المادية والتكنيكية لتغيرات جذرية . وسيكون التركيز على الانتقال من تكوين الأموال إلى التوزيع الممركز للموارد ، إلى تجارة الجملة .

وباختصار ، فسوف ترتبط مزايا التخطيط بصورة متزايدة بالعوامل الحافزة للسوق الاشتراكي . ولكن كل ذلك سيحدث في خلال المجرى الرئيسي للأهداف الاشتراكية ومبادئ الإدارة .

إن توسيع حقوق الاستقلال الاقتصادي للمؤسسات ، وتغيير وظائف الإدارات القطاعية والاقتصادية المركزية ، والانتقال في الإدارة من الأساليب ذات الطابع الإداري الغالب إلى الأساليب ذات الطابع الاقتصادي الغالب يتطلب تغييرات جذرية في البنية الإدارية .

وفيما مضى ، غالبا ما صاحب تحسين الإدارة إقامة عناصر تنظيمية جديدة ، مما أدى إلى تضخم الجهاز ، إلى أن أصبح كبير الحجم ، يصعب التعامل معه ،

وبيروقراطيا . ونحن ندرك أن معدلات إعادة البناء الاقتصادى تعوق منها بدرجة غير قليلة ضخامة الجهاز الإدارى وكفاءته غير الكافية . ولذلك فإننا ننوئ أن نجري تخفيضات كبيرة فى الجهاز الإدارى ، وسوف نبسط بنيتة ، عند الضرورة ، ونوسع الوزارات القطاعية . ولدينا بالفعل بعض الخبرة فى القيام بذلك . وعلى سبيل المثال ، فلقد كانت الزراعة وتصنيع منتجاتها تديرها فى بلادنا سبع وزارات وإدارات اتحادية . وقد دمجنا كل هذه الإدارات فى الجوساجرو بروم^(١٤) . وفى نفس الوقت خفضنا العاملين الإداريين بها إلى النصف تقريبا . وفى حالة أخرى ، اخترنا تكبير بعض الوزارات عن طريق إدماجها . وهكذا سوف نتصرف فى المستقبل ، على أن نأخذ كل حالة وفقا لخصائصها الفردية .

ومن الواضح الآن لكل امرئ أنه فى ظل النطاق الحالى للاقتصاد ، لا يمكن لأى جهاز وزارى أو إدارى ، مهما كانت كفاءته ، أن يأخذ على عاتقه حل كل مسألة بشكل مطلق ، كما لا يمكنه أن يحل محل فكر ومبادرة أسر العمل . إن إعادة توزيع الحقوق بين الإدارات المركزية والمؤسسات لا تسير بشكل سلس . فجهاز الوزارات والوزراء أنفسهم غير راغبين فى أن يكفوا عن عادة إقرار الأمور الصغيرة بأنفسهم . إنهم معتادون على هذا الأسلوب ، الذى يجعل الأمور أسهل كثيرا بالنسبة لهم . وأى تحويل للحقوق من المركز إلى المحليات ، مؤلم بشكل عام ، رغم أن ضرورة ذلك ، كما أكرر ، واضحة للجميع ، لكل من الوزارات والعاملين . وهم يدركون أن هذا العمل يفيد القضية ، ولكن رغم ذلك ، توضع المصالح الديوانية الضيقة ومصالح بعض التجمعات فى بعض الأحيان فوق مصالح المجتمع والشعب .

وهناك طريق آخر لإتقان الإدارة الاقتصادية . وتبين التجربة أن هناك إمكانية للتوصل إلى الكفاءة القصوى فى نقاط التقاء الصناعات . بيد أن توقعنا أن يكون فى مقدور لجنة الدولة للتخطيط متابعة كافة العلاقات فيما بين القطاعات واختيار

(١٤) جوساجرو بروم (اللجنة الحكومية الزراعية الصناعية للاتحاد السوفيتى) - الهيئة المركزية للإدارة الحكومية للمجمع الزراعى الصناعى فى البلاد ، التى تشكلت عام ١٩٨٥ .

أفضل بديل ، يعنى التعلق بالأوهام. فالوزارات فى وضع لا يسمح لها حتى بأن تقوم بذلك . وهذا ما دعا إلى أن ندرج فى جدول الأعمال مسألة إقامة هيئات تدير المجمعات الاقتصادية الكبيرة . وكما نرى ، فإن نظام الإدارة سيخضع لتغييرات ضخمة . ونحن ننوئ أن نتصرف بحزم ، ولكن بطريقة متوازنة كذلك ، وبدون ضجة لا لزوم لها .

الهدف : المستويات التكنولوجية العالمية

فى الوقت الذى نعيد بناء نشاطنا التخطيطى والاقتصادى ونوسع حقوق المؤسسات قمنا كذلك بمعالجة مسائل التقدم العلمى والتكنولوجى . وكانت تقدم للفروع التى تحتل مركز الصدارة فى هذا التقدم مساندة مالية ومادية إضافية . ومن أجل هذه الغاية رسمنا برنامجا قوميا صارما ، وخصصنا الأموال اللازمة .

وسوف نحدد ، خلال فترة الخطة الخمسية الثانية عشرة^(١٥) ، الجزء الأكبر من الأصول الثابتة فى صناعة آلات الإنتاج . وستكون الأموال المرصودة لهذه الأغراض حوالى ضعف ما أنفق فى السنوات الخمس السابقة .

وقد كشف تحليل أداء الصناعة عن أخطاء فى سياسة الاستثمار . ولقد كانت سياستنا لسنوات عديدة أن نبني مزيدا من المؤسسات . واستوعب بناء الورش والمباني الإدارية أموالا ضخمة . وفى غضون ذلك ، ظلت المؤسسات القائمة عند المستوى التكنولوجى نفسه . وإذا ماجرى بالطبع استخدام جيد لكل مايتوفر فى ورديتين أو ثلاث ، لأمكن تلبية أهداف الخطة الخمسية الثانية عشرة باستخدام المعدات القائمة . بيد أن المعدات العتيقة تجرنا بطريقة أو بأخرى إلى الخلف ، لأنها ستعنى أننا لن نكون قادرين على إنتاج منتجات حديثة . ولذا يجب التخلئ عن الآلات القديمة . ولهذا السبب فإننا نغير لدرجة كبيرة سياستنا الاستثمارية والهيكلية .

(١٥) فترة الخطة الخمسية الثانية عشرة - فترة التنمية الخمسية الحالية (١٩٨٦ - ١٩٩٠) .

في عام ١٩٨٣ قمت بزيارة مصنع «زِيل»^(١٦). وكان ذلك في وقت الإعدادات النشطة لتحديث هذا المصنع ، الذي يعتبر واحدا من أهم المشاريع في صناعة السيارات السوفيتية. وفي عام ١٩٨٥ زرت مصنع «زِيل» ثانية ، وسألت كيف تقدم التحديث . واتضح أن المعالم الرئيسية قد انتقلت إلى المستوى التكنولوجي المتوسط ، بالاعتماد على معدات صنعت قبل ذلك بخمس أو سبع سنوات . ولذلك ، ما كان بإمكان المرء أن يتوقع تقدما هاما في التكنولوجيا . وبالإضافة إلى ذلك ، سيحتاج الأمر إلى قوة عمل أكبر . إن التركيز على التكنولوجيا التي انقضى زمانها لا يؤدي إلى تكثيف كبير في الإنتاج ، إنه يعزز فقط التباطؤ في التنفيذ . ومع اتضاح ذلك ، تقدمت أسرة المصنع بخطة أخرى أكثر تقدما . ولكنها لم تجد مساندة وتوقف العمل بها ، وقد ساندنا قرار أسرة المصنع بالرجوع إلى هذه الخطة لتحديث زيل . ورسمت خطة جديدة لتجديد معدات المصنع ، وهي تنفذ بشكل ناجح . وستصبح مصانع « زيل » مؤسسة حديثة حقا .

وبشكل عام ، فإن التغييرات الكبيرة في التكنولوجيا وفي المعدات تستغرق وقتا طويلا . وكما نقول ، « إن موسكو لم تبني في يوم واحد » . وإذا ما بدأنا مهمة حسم كل شيء دفعة واحدة ، لكان علينا تحديث الإنتاج باستخدام معدات عتيقة ، انقضى زمانها . ولكان هذا يعادل عدم إحراز أي تقدم .

عندئذ ألقينا نظرة على المعدات لدينا . وبحثنا ما إذا كانت تتماشى مع المستويات العالمية . واكتشفنا أن جزءا صغيرا منها هو فقط الذي على هذا المستوى . وفرض الاستنتاج نفسه : فبدلا من الاحتفاظ بتخلفنا التكنولوجي لسنوات عديدة ، سيكون من الأفضل أن نخوض آلام تطوير معدات جديدة من حين لآخر ، رغم أن التجديدات في بناء الآلات ، تفتح الطريق نحو أحدث التكنولوجيات . وهذا « الحين » لا يتضمن بالضرورة مستقبلا بعيدا . كلا ، إن التحديث الهيكلي لصناعة

(١٦) زيل - مصانع أ. أ. ليجاتشوف للسيارات في موسكو.

بناء آلات الإنتاج في الاتحاد السوفيتي يجب أن يرتبط بجهود هائلة لتحويل القدرة العلمية إلى قيمة جيدة . وهذه هي ألح المهام وأكثرها حيوية بالنسبة لنا ، بل إنها المهمة ذات الأولوية الأولى . وقد وجدنا أنفسنا في هذا الوضع تكنولوجيا لأننا أسأنا تقدير قدرتنا العلمية واعتمدنا بدرجة كبيرة على الارتباطات الخارجية .

وفي رأيي ، لقد قبلنا سياسة الانفراج بآمال مشرقة للغاية ، وقد أقول بثقة كبيرة جدا . واعتقد الكثيرون أنها ستكون بغير رجعة وستفتح إمكانيات بلا حدود ، وعلى الأخص لتوسيع التجارة والعلاقات الاقتصادية مع الغرب . بل إننا توقعنا عن بعض أبحاثنا وتطوراتنا التكنولوجية ، متطلعين إلى تقسيم العمل الدولي ، ومعتقدين بأنه قد يكون من الأفيد شراء بعض الآلات من الخارج عن إنتاجها في الداخل . ولكن ما الذي حدث في الواقع ؟ لقد تعرضنا لعقاب شديد نتيجة سداجتنا . وجاءت فترة من الحظر والمقاطعة ، والتحریم ، والقيود ، وتخويف من يتاجرون معنا الخ . وتوقع بعض الساسة الغربيين ، حتى في العلانية ، انهيار النظام السوفيتي . ولكن عبثا كانوا يأملون .

لقد خالصنا بالتأكيد إلى الاستنتاجات اللازمة ، وبدأنا الأبحاث والتطوير اللازمين وإنتاج ما اقترحنا ذات يوم شراءه ، وبذلك ستكون الشركات الغربية هي الخاسرة في النهاية . ومن المصادفة أن كل هذه الضجة حول الحظر والقيود لم تكن على ما اعتقد موجهة فقط ضد الاتحاد السوفيتي ، وإنما كذلك ، ولدرجة كبيرة ، ضد الشركات غير الأمريكية المنافسة .

وبشكل عام . لقد ساعدت « العقوبات » و « أعمال الحظر » الأمريكية وغيرها من القيود على توضيح الأمور لدرجة كبيرة . وكما يقولون ، فإن لكل سحابة إطارا فضيا . لقد استخلصنا الدروس من القرارات التي اتخذتها الولايات المتحدة وبعض البلدان الغربية برفض بيع التكنولوجيا المتقدمة للاتحاد السوفيتي . وربما كان هذا هو السبب فيما نمرّ به الآن من ازدهار حقيقي في مجالات علم المعلومات ، وتكنولوجيا

الحاسبات ، وغيرها من مجالات العلوم والتكنولوجيا .

لقد قررنا أن نضع نهاية حاسمة لـ «كارثة الاستيراد» كما يسميها المسؤولون الاقتصاديون لدينا . ومن أجل هذه الغاية ، فإننا نمشد قدراتنا الكبيرة في العلوم والهندسة الميكانيكية .

وإنه لمن التناقض أن كثيرا من منجزات العلماء السوفيت قد طبقت في الغرب بأسرع مما طبقت في بلادنا ، ومثال ذلك ، خطوط نقل الحركة الدوارة وقد تباطأنا أيضا في حالة أخرى . فقد كنا أول من اخترع سبابة الصلب المستمرة . فإذا عاد علينا من هذا الاختراع؟ إن ثمانين في المائة من الصلب الذي تنتجه بعض البلدان الآن تجرى سباكته بأسلوبنا بينما يتم ذلك بدرجة أقل في بلادنا . فالمسافة طويلة في بلادنا بين الاكتشاف العلمي وتطبيقه في الإنتاج . وهذا مايمكن الصناعيين الأجانب المغامرين من تحقيق الأرباح من وراء أفكارنا . ومثل هذا وضع لا يناسبنا طبعاً . ولا بد أن تكون هناك معاملة بالمثل في المبادلات . ومن الواضح أن الوضع لابد أن يتغير . وقد تغير أخيراً فعلاً .

ويبذل الآن جهد كبير لبعث النشاط في التقدم العلمي والتكنولوجي . ونقوم بتنفيذ برامج هادفة ، ونبحث أسرار العمل وعلماء الاقتصاد وغيرهم على العمل بطريقة خلاقة ، وقد نظمنا ٢٢ بحثاً بين القطاعات ومجمعات تكنولوجية تحت قيادة علماء كبار . وتتمثل الأولوية اليوم ، كما قلت ، في تطوير الهندسة الميكانيكية السوفيتية . وقد اقترح اجتماع يونيو ١٩٨٦ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي برنامجاً لتحديث الجدرى في الهندسة الميكانيكية . وحدد هدفاً لم يسبق له مثيل في تاريخ الصناعة السوفيتية ، وهو التوصل في السنوات الست أو السبع التالية إلى المستويات العالمية فيما يتعلق بالآلات والمعدات والأدوات الرئيسية . وتقرر تركيز الاهتمام على بناء الآلات ، وصناعة الأدوات ، والإلكترونيات ، والهندسة الكهربائية . كما يجري كذلك تحديث صناعة الحديد والصلب والصناعات الكيماوية ، وعلى نطاق واسع .

إن الأمانى التى لاتقوم على أساس ، عمل خطير للغاية . ومع ذلك ، فكل التغييرات الجارية واعدة للغاية . لقد زرت أخيرا مدينة زلينوجراد التى لاتبعد كثيرا عن موسكو ، حيث تتركز بعض منظمات ومؤسسات الأبحاث الخاصة بالصناعة الإلكترونية . وقد سرنى أن أسمع العلماء والمتخصصين يقولون إننا فى عدد من المجالات لانزحف وراء الولايات المتحدة أو حتى نسير معها فى نفس المستوى وإنما نسبقها فى بعض النواحي . وهكذا برهنت العجرفة التكنولوجية للغرب على أنها ذات فائدة لنا . والمهمة الآن ، التى لاتقل صعوبة ، هى أن نترجم هذه النتائج إلى ممارسة .

النسيج الحى للبيريسترويكا

تتضمن البيريسترويكا نطاقا هائلا من المشاكل والمهام المتباينة المرتبطة بما ورثناه مما سبق عن الماضى ، وبما ينبغى عمله الآن ، وعلى الفور ، وبما لايزال ينتظرنا . ورغم أننى أخاطر بتكرار أن قلته ، فإنى أود أن أقدم للقارئ صورة متعددة الألوان للبيريسترويكا ، وأدعوه إلى النظر فى مشكال^(١٧) الحياة اليومية حيث يتشكل النسيج الحى لمستقبلنا . إننا نعد الجماهير لتغييرات جذرية . ويتضمن ذلك ضرورة إعداد الظروف الاقتصادية والنفسية اللازمة ، لأنه ليس من السهل تحطيم العادات القديمة والتخلى عن مفاهيم الأشكال الاجتماعية التى فرضت نفسها فى ظروف تاريخية معينة .

ومانزال نسمع الاتهامات توجه إلى الأفراد المستقيمين . انظروا إلى هؤلاء الذين يشيرون بأصابعهم فى سخط إلى الفوضى ، وإلى النواقص والأخطاء . وإذا بدأ شخص ما يفعل شيئا ذا شأن ولكنه غير عادى ، تصايح هؤلاء الاشتراكيون الزائفون ، بأنه إنما يقوض أسس الاشتراكية ! وهذه أيضا من وقائع

(١٧) المشكال : أداة تحتوى على قطع متحركة من الزجاج الملون ما أن تتغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان .

البيروسترويكا . فعلينا أن نحاول بصبر مع أمثال هؤلاء المكافحين من أجل اشتراكية « نقية » ، مثالية ، غير ملطخة في شكلها المجرد ، لنبرهن على أنها اشتراكية لا صلة لها بالحياة الواقعية ! .

لم يكن لينين أبدا على قناعة بأن الطريق إلى الاشتراكية سيكون مستقيما وكان يعرف كيف يغير الشعارات عندما تتطلب الحياة ذلك . كما أنه لم يكن على الإطلاق عبدا للقرارات إذا ما اتخذت . ولم يكن يخشى أن يحفز نشاط العمل الفردي عندما تكون الدولة والقطاع العام ضعيفين . واليوم ، في مجرى جهد إعادة البناء ، يخشى بعض الأفراد من التدابير التي يجرى تنفيذها لتطوير التعاونيات ، وحفز نشاط العمل الفردي ، والعقود والتمويل الذاتي ، وهم قلقون من أننا نضعف « الأسس » وننشئ ملاكا صغارا . وهم يشعرون بأننا بتطبيقنا لمختلف أشكال العقود قد نقوض المزارع الجماعية . ولكن ماذا عن حقيقة أن المتاجر تفتقر إلى السلع ؟ هذا ما يجب أن نحذر منه ، بدلا من أن نتصايح في دعر « النجدة ، فالاشتراكية في خطر ! »

ونحن على قناعة بأن ربط المصالح الشخصية بالاشتراكية لا يزال يشكل المشكلة الرئيسية . ونحن نشير ، بالطبع ، إلى المصالح الشخصية بمعناها الواسع ، وليس بمجرد المعنى المادي . إن ما نحتاج إليه ليس الاشتراكية « النقية » المذهبية المخترعة ، وإنما الاشتراكية اللينينية الحقة . ولقد كان لينين واضحا بهذا الخصوص - وحيث أننا قد طورنا الصناعة والطاقة بدرجة هائلة ، فليس هناك ما نخشى منه . واعتمادا على هذه القوة ، يمكننا أن ننفذ التحويلات الاشتراكية بطريقة مخططة . وهذا هو العمل الاشتراكي الحقيقي . كان هذا صحيحا آنذاك وهو أكثر صحة الآن ، لأن مجتمعنا اليوم قوى اقتصاديا وسياسيا . ولم يفقد لينين على الإطلاق رؤية الحالة الواقعية للأمور ، وكان يسترشد بمصالح الجماهير العاملة .

وإنني لعلى قناعة بأن أكثر الأشكال فعالية لتنظيم الإنتاج على أساس الحساب الاقتصادي الكامل ستقوى بشكل أسرع في المجمع الزراعي الصناعي . فمن ناحية ،

توجد لدى مزارعنا الجماعية تقاليد راسخة . ومن ناحية أخرى ، فإن جماهير الريف مقدامة وواسعة الحيلة . ويتطلب كل ذلك حركة ومرونة أعلى عند تطبيق الحساب الاقتصادي ، والاكتفاء الذاتي والتحويل الذاتي .

لقد برهن العقد الجماعي^(١٨) على نجاحه في الزراعة من وجهة نظر تنظيم العمل وعائده . وقد أنشئ الآن نظام العقد الأسري^(١٩) ، والنتائج الأولى مشجعة .

وفي أوائل أغسطس ١٩٨٧ كنت في حي راسين خارج موسكو ، حيث تحدثت مع أعضاء فريق يعمل على أساس تعاقدى ويطبق تكنولوجيا مكثفة الخمس سنوات ، كانوا يزرعون البطاطس ، وفي العام الماضي حققوا هم الخمسة أرباحا ضخمة للمزرعة الحكومية . وهكذا تحدث أشياء مذهلة عندما يأخذ الناس على عاتقهم مسؤولية كل شيء . فالنتائج تكون مختلفة تماما ، ويصعب تقييم الناس في بعض الأحيان . إن العمل يتغير ، كما يتغير الموقف منه كذلك .

إن الفرد في مجتمعنا يريد أن يكون جزءا من كل شيء . وهذا شيء طيب . إنه لا يجب الأوضاع التي لا يؤخذ رأيها فيها ، والتي ينظر إليه فيها كمجرد قوة عمل ، ولا تقدر صفاته البشرية والمدنية . إن العقد الجماعي وما يرتبط به من ديمقراطية هو على وجه التحديد ، ما يدعم إحساس الشخص بأنه مواطن وسيد .

واليوم ، توجد لدينا مزارع جماعية كبيرة وسوفخوزات^(٢٠) في كثير من المناطق الزراعية . وقد نظمت فرق عمل ، وأقسام ومجموعات كبيرة . وهى إلى حد ما منفصلة عن الأرض وهذا ما يؤثر على النتائج النهائية . وعلينا اليوم أن نضمن ربطا أكثر قوة ومباشرة لمصالح الأفراد من خلال العقود الجماعية ، والأسرية وعقود

(١٨) العقد الجماعي - أسلوب للعمل يقوم فريق من العمال في ظله بتنفيذ بعض العمل بكامله في ظل عقد مع إدارة مؤسسة أو مع أى تنظيم آخر . وفي هذه الحالة يتوقف ما يدفع لكل عامل في الفريق مباشرة على كفاءته في العمل .

(١٩) العقد الأسري - عقد جماعي ترتبط به أسرة .

(٢٠) المزرعة الجماعية - مزرعة تعاونية . سوفخوز - مزرعة حكومية .

الإيجار في إطار هذه المزارع الجماعية والحكومية . وعندئذ سنربط مزايا الاقتصاد الجماعي الكبير بالمصالح الفردية . وهذا هو ما نحتاج إليه على وجه الدقة . وإذا ما تصرفنا بهذه الطريقة لأمكننا تحقيق قفزات تثير الإعجاب في حل مشكلة المواد الغذائية خلال عامين أو ثلاثة .

وإذا أغفلت المصالح الشخصية ، فن تؤدي جهودنا إلى شيء ، فقط ، سيتعرض المجتمع للخسارة . ولهذا السبب من الضروري مراعاة توازن المصالح ، ونحن نقوم بذلك من خلال الدولار الاقتصادي الجديد ، ومن خلال مزيد من الديمقراطية ، ومن خلال جوالعانية ، ومن خلال مشاركة الجماهير في كافة جوانب إعادة البناء .

إن أول ما ينبغي ضمانه هو جو يشجع جهود إعادة البناء ويجعل الفرد مسئولاً ونشطاً اجتماعياً . وهذا هو مناخ العلانية ومناقشة كافة الأمور ، وحتى أصعبها ، مع الشعب ، لكي نحلها جميعاً معاً . ومن أجل التوصل إلى ذلك فإننا نحتاج إلى مشاركة جماهيرية حقة في الإدارة . ولهذا السبب فإننا نقول إن إشاعة الديمقراطية هي حجر الزاوية في جهد إعادة البناء . وقد طبقت على نحو سليم أشكال مثل دولاب الإدارة الجديد . وانتخاب المديرين ، وإقامة مجالس لأسر العمل على مستوى فرق العمل ، وورش المصانع والمؤسسات . ويتضح من مثال أسر العمل في المزارع التعاقدية والتي تديرها الأسرة كيف افتقد شعبنا دور المالكين . إنهم لا يريدون فحسب أن يكسبوا المزيد ، وهو أمر مفهوم تماماً ، ولكنهم يريدون أن يؤديوا عملهم بأمانة . وهم يريدون أن يكسبوا من الدولة لا أن يسرقوها . وهذه الرغبة تتفق تماماً مع الروح الاشتراكية . ولذلك يجب ألا تكون هناك أية قيود - فما يكسبه المرء يجب أن يحصل عليه . وفي نفس الوقت ، يجب ألا نسمح لشخص بأن يحصل على ما لم يتكسبه .

السياسة الاجتماعية لإعادة البناء

إننا ننطلق من الافتراض القائل بأن السياسة الاجتماعية القوية التي أعلنها المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعي السوفيتي هي وحدها التي يمكن أن تضمن النجاح للبريسترويكا. فينبغي رفع مستويات المعيشة ، وتحسين ظروف السكن ، وإنتاج مزيد من المواد الغذائية وتحسين جودة السلع ، ومواصلة تطوير خدمات الصحة العامة ، وتحقيق إصلاح المدارس الثانوية والعليا ، كما ينبغي حل كثير من المشاكل الاجتماعية الأخرى .

وعندما عالج اجتماع يونيو الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي عام ١٩٨٧ المهام الحالية والطويلة الأمد ، أولى اهتماما خاصا للمسائل المتعلقة بزيادة إنتاج المواد الغذائية والسلع الاستهلاكية والتوسع في بناء المساكن .

ويجري تنفيذ تدابير واسعة النطاق . فنحن نبني مساكن أكثر . وهذه بالنسبة لنا ، مهمة على نطاق البلاد . وسوف نستثمر أموالا أكبر في حلها . فلا بد أن تساعد الناس في الحصول على مساكن أكثر وأفضل ، في المناطق الحضرية والريفية على السواء .

ولابد أن تتوفر للناس نوعية حياة طيبة . وإذا ما حلت هذه المشكلة استقرت أسرة العمل والناس يقدرّون بدرجة أكبر التغيرات التي تجرى في مدنهم أو قراهم ، وفي الإنتاج ، وفي ظروف العمل ، وفي طبيعة العمل ذاته أكثر من تقديرهم لسرعة زيادة الأجور .

ولا يمكن التسامح بشكل خاص مع السلبية الحالية للزعماء الذين يعجزون عن الاستفادة من الفرص المتاحة لحل المشاكل الاجتماعية . ويرجع ذلك ، من ناحية إلى العادة القديمة لمعالجة هذه المسائل على أساس ما يسمى بمبدأ المتبقي ، عندما ينحصر فقط ما يبقى ، بعد تلبية حاجات الإنتاج ، للأغراض الاجتماعية . ومن ناحية أخرى ، يرجع إلى كونه نتيجة لسيكولوجية التبعية ، التي ضرت بجذورها

عميقا . إن الحساب الاقتصادى والتمويل الذاتى يضعان حدا لكل ذلك . ويدعو الدولاب الاقتصادى نفسه إلى معالجة نشطة ، ومعقولة ، وجريئة ، وإلى التصرف بطريقة المالك .

وإنجازاتنا فى التعليم معروفة للجميع . إنها تثير الإعجاب عند مقارنتها بأكثر البلدان تطورا . ومع ذلك فإننا ننفذ إصلاح المدرسة . فما الذى دعانا إلى فعل ذلك ؟ قبل كل شيء ، المطالب الجديدة التى يفرضها المجتمع الحديث على الناس ، وإلى جانب ذلك ، فقد أثرت ظواهر الركود فى مجتمعنا على النظام التعليمى كذلك : وكان فى التعليم أيضا مظاهر الرضى عن النفس فى النتائج التى تم التوصل إليها ، مما أثر بشكل مباشر على كل شيء آخر .

والآن ، بعد مناقشة على نطاق البلاد ، تبيننا برنامجا لتحويل جذرى للمدارس الثانوية والعليا ، ويتمثل الاتجاه الرئيسى لجهودنا فى تدريب الشباب على العمل فى المستقبل بهدف تلبية احتياجات التقدم العلمى والتكنولوجى والتخلص من كل ما هو ثانوى الأهمية ويعطى للناس القليل بعد الأعباء التى لا لزوم لها . كما يجرى تحسين التعليم الإنسانى للشباب ، الذى يهدف إلى تربية سليمة وتحصيل مستويات ثقافية مناسبة . وتولى الكليات والمدارس الثانوية الاهتمام بالحث على أساليب التعليم والتربية الخلاقة وغرس المبادرة والاستقلال فى أسر المدارس الثانوية والعليا . وتتطلب المهام الجديدة إعادة بناء الأساس المادى ، كما يتطلب - وهو الأهم - بلوغ المدرسين مستوى جديدا فى عملهم . وسيجد من يرتقون بمهاراتهم التشجيع المادى المناسب . وتلقى هذه البرامج المساندة المالية اللازمة ، ويمضى تنفيذها قدما .

وتجرى حاليا على نطاق البلاد مناقشة الخطوط التوجيهية لتحسين الخدمات الصحية العامة للبلاد . وعندما تنتهى المناقشة ستخضع الخطوط التوجيهية لدراسة دقيقة من جانب اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى والحكومة ثم السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتى . وسيحتاج هذا المشروع الشامل إلى استثمارات ضخمة

وجهود كبيرة . وقد وفرنا الموارد المالية والمادية لمرحلته الأولى ، التى سيجرى تنفيذها فى السنوات المتبقية من فترة الخطة الخمسية الثانية عشرة وخلال فترة الخطة الخمسية الثالثة عشر .

إن تكثيف الإنتاج الاجتماعى يوحى بموقف جديد من العمالة الكفؤة ويتطلب إعادة تجميع قوة العمل . وفى الوقت الذى نعمل فيه فى هذا الاتجاه ، علينا أن نتفحص بدقة كيف ينفذ مبدأ العدالة الاجتماعية . وقد شكلت الممارسة الواسعة النطاق للمساواة واحدا من التشوهات الرئيسية خلال العقود القليلة الماضية ، وأدت إلى تطوير مواقف الاتكالية والزرعة الاستهلاكية وإلى تفشى فلسفة ضيقة الأفق من نوع : «إن الأمر لا يخصنا ، فليتحمل الرؤساء المتاعب» .

وقد صاغ المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعى السوفيتى مشكلة العدالة الاجتماعية فيما يلى : فى ظل الاشتراكية يعتبر العمل أساس العدالة الاجتماعية . والعمل وحده يحدد مكان المواطن الحقيقى فى المجتمع ، ووضعه الاجتماعى . ويحول ذلك دون أى مظهر من مظاهر المساواة .

إن المواقف المرتبطة بالمساواة تبرز على نحو غير متوقع من حين لآخر حتى فى هذه الأيام . وقد فهم بعض المواطنين الدعوة إلى العدالة الاجتماعية على أنها «مساواة بين كل الناس» . بيد أن المجتمع يطالب بدأب أن يترجم مبدأ الاشتراكية بحزم إلى الحياة . وفى كلمات أخرى ، فإن ما نقدره أكثر من غيره هو إسهام المواطن فى شئون البلاد . وعلينا أن نشجع الكفاءة فى الإنتاج وموهبة الكاتب ، أو العالم أو أى مواطن مستقيم يعمل بجد . ونحن نريد أن نكون واضحين تماما فيما يتعلق بهذه النقطة : إن الاشتراكية لا علاقة لها بالمساواة . والاشتراكية لا يمكن أن تضمن ظروف الحياة والاستهلاك وفقا للمبدأ ، «من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجته» إذ سيكون ذلك فى ظل الشيوعية . أما الاشتراكية فلها معيار آخر لتوزيع المزايا الاجتماعية ، «من كل حسب قدرته ، ولكل حسب عمله» . فليس هناك استغلال

إنسان لإنسان ، وليس هناك تقسيم إلى أغنياء وفقراء . إلى أصحاب ملايين ومعوزين . وكل الشعوب متساوية بين متساوين ، والوظائف مضمونة لكل الناس ، ولدينا تعليم ثانوى وعال بالمجان ، وخدمات طبية مجانية ، ونوفر للمواطنين حياة كريمة فى شيخوختهم . وهذا هو التجسيد للعدالة الاجتماعية فى ظل الاشتراكية .

واليوم ، حين تكون العدالة الاجتماعية هى القضية المطروحة فى بلادنا ، يقال الكثير عن المزايا والامتيازات التى يحصل عليها الأفراد ومجموعات الأفراد . إن لدينا مزايا وامتيازات أقرتها الدولة ، وتمنح على أساس كمية ونوعية العمل المفيد اجتماعيا ، مثال ذلك ، أننا نولى رعاية خاصة لعلمائنا البارزين وأكاديمييننا وكتابنا . وتمنح الألقاب الشرفية للأشخاص مقابل إسهامهم البارز فى البناء الاشتراكى . وهكذا يحظى أبطال العمل الاشتراكى ، والعلماء الحائزون على جوائز والشخصيات الثقافية بمزايا إضافية معينة . وهناك أيضا مزايا معينة لأشخاص فى الصناعات المختلفة ولمن يعملون فى مناطق مختلفة (وفى المقام الأول ، فى المناطق الشمالية والبعيدة) ولرجال القوات المسلحة والدبلوماسيين الخ . وأعتقد أن لهذا الأسلوب ما يبرره . لأنه فى مصلحة المجتمع فى مجموعه . كما يتركز أيضا على أهمية وحجم إسهام المواطن .

ولكن إذا ما كانت هناك امتيازات لم تقرها الدولة ، وإنما أقرها لأنفسهم بعض من يسيئون استخدام سلطاتهم الرسمية ، فنحن نحظر هذه الامتيازات باعتبارها شيئا غير مقبول .

وهناك جانب آخر للقضية . إن كثيرا من تنظيماتنا ، ومعاهدنا ، ومؤسساتنا تدير مرافق للخدمات . وعمليا فى كل مكان يعمل نظام عام لتوريد الأغذية فى المؤسسات الكبرى . وبالإضافة إلى ذلك ، تتحمل المؤسسات فى معظم الحالات نفقات الحفاظ على التنظيمات العامة لتوريد الأغذية . ويتم ذلك بالاشتراك بين

الإدارة واللجنة النقابية مما يترتب عليه أن تكون تكلفة الوجبات أقل .

وتوجد في بلادنا شبكة واسعة من المنشآت الطبية التي توفر خدمات الرعاية الصحية للناس في أماكن عملهم . وهي لا تضم فقط عيادات خارجية ، وإنما دور لقضاء الإجازات ومراكز لتحسين الصحة بعد ساعات العمل تقع بالقرب من المؤسسة أو في مناطق الاستجمام والمنتجعات الصحية . وتدير كثير من المؤسسات متاجرها الخاصة ، وخدمات تقديم الطعام ، ومنشآت لصناعة الملابس ، وما إلى ذلك ، ويمكنك القول ، بأنها مجالات خدمات حقيقية تابعة لهذه المؤسسات .

ويتحقق هذا ، ليس فقط للمؤسسات الصناعية . بل مثلاً ، توجد لدى أكاديمية العلوم ، واتحاد الكتاب ، والتنظيمات الأخرى من هذا القبيل ، مراكز صحية ، وفنادق للإجازات ، ومستوطنات سكنية للصيف . ويوجد لدى النقابات (وتعتبر من أغنى المنظمات في بلادنا) ولدى منظمات الحزب والسوفيات مثل هذه الخدمات كذلك .

وبالتأكيد ، فإن وجود مثل هذه الأشكال من الخدمات يمكن أن يولد ، بل إنه يولد بالفعل المشاكل ، وبخاصة عندما تكون نوعية الخدمات التي تقدم لمجموع السكان أقل كثيراً منها في المنظمات والمؤسسات سالفة الذكر . وتنتقد الجماهير العاملة بالطبع مثل هذه الظواهر . وينبغي حل هذه المسائل في مجرى مواصلة تنفيذ البرامج التي تبنيها .

وسنواصل بحزم النضال ضد السكر وإدمان الكحوليات . وهذا الشر الاجتماعي قد ضرب بجذور عميقة في مجتمعنا لقرون وأصبح عادة سيئة . ومن ثم فليس من السهل مقاومتها . بيد أن المجتمع ناضج لتحول جذري في هذه الناحية فقد زاد سوء استخدام الكحوليات ، وبخاصة في العقدين الماضيين بمعدل ينذر بالخطر ويهدد مستقبل البلاد ذاته . وتذكرنا الجماهير العاملة على الدوام بالحاجة إلى تكثيف جهودنا لمقاومة هذا الشر . ويطالب البعض حتى بتحريمها على نطاق البلاد .

ولكننا ندرك أنه من غير المستحسن تطبيق التحريم على نطاق الدولة . ونحن نحب :
إذا ما أردتم فطبقوا التحريم في أسرتكم ، أو منطقتكم أوحكم . ولقد قررت الجماهير
العاملة ، في آلاف القرى والمستوطنات ، وفي الاجتماعات العامة أن تضع حدا لبيع
واستخدام المشروبات الكحولية . وتتواصل الحملة . لقد انخفض معدل استهلاك
الكحوليات بالنسبة للفرد إلى النصف خلال العامين الماضيين . ومع ذلك فتر الحساس
وتوقف هذا التقدم . إنه من المستحيل حل هذه المسألة بالإجراءات الإدارية وحدها .
وأنجع الطرق للتخلص من بلاء مثل إدمان الخمر هو تطوير مجالات الترفيه ، واللياقة
البدنية ، والنشاط الرياضي والثقافي الجماهيري ، ومواصلة إشاعة الديمقراطية في حياة
المجتمع في مجموعه .

ثالثا - على طريق إشاعة الديمقراطية

احتياطينا الرئيسى

إن إحدى المهام السياسية الأولى لجهود إعادة البناء ، إن لم تكن الأساسية ، تتمثل فى إحياء وتعزيز الشعور بالمسئولية عن مصير البلاد فى الشعب السوفيتى . فما زال للاغتراب الذى نتج عن ضعف الروابط بين الدولة والهيئات الاقتصادية ، وبين أسر العمل والعمال العاديين ، والذى نتج عن سوء تقدير دورهم فى تطور المجتمع الاشتراكى ، ما زال له أثره المزعج .

إن العامل البشرى بمعناه الأوسع يشكل الأولوية الرئيسة بالنسبة لنا . ونحن نفعل كل ما فى وسعنا لكى يلعب دوره ، وفى المقام الأول ، عن طريق تعزيز قوى الدفع الاجتماعى لكل خططنا . وكل ما أريد إضافته هو أننا نعمل من أجل توازن بين الجانبين - الاقتصاد والمجال الاجتماعى - وإذا ما تم تجاهل مصالح هذا الأخير لصالح معدلات التنمية الاقتصادية وحدها ، تلاشى الاهتمام بنتائج العمل الأمر الذى يؤثر على إنتاجية العمل ويضعف الاقتصاد . ومن ناحية أخرى ، لا يجب بناء المجال الاجتماعى بطريقة تضعف الأساس ، لأنه حيثئذ تتقوض إمكانية نفس التنمية الاجتماعية الدينامية . ولذلك يتعين علينا التزام الاعتدال الذى يعزز التنمية الاجتماعية الاقتصادية المتجانسة . فالعلاقة بين هذين الجانبين ليست علاقة ساكنة ، وإنما تتغير على الدوام . واليوم تدفع السياسة الاجتماعية إلى المقدمة .

ويحتل الجانب المعنوى أهمية بالغة . فإذا لم ننشط بشكل فعال القيم الاشتراكية والمناخ الاشتراكى فى أسر العمل وفى المجتمع فى مجموعه ، فسوف نعجز عن مواصلة حركة إعادة البناء . وبإمكاننا أن نقترح السياسات الصحيحة والميكانيزمات الفعالة ، ولكننا لن نحقق أى شىء ما لم يتحسن المجتمع من خلال تعزيز القيم المعنوية للاشتراكية ، وفى المقام الأول ، العدالة الاجتماعية ، والتوزيع وفقا لنتائج العمل ،

والانضباط المتسق ، والقوانين ، واللوائح ، ومتطلبات الجميع .

ونحن ننشط أيضا العامل البشرى عن طريق تحسين نظام الإدارة ، ودولابها .
فما هو الحساب الاقتصادى من هذه الزاوية ؟ إنه ليس فقط حقوق أسرة العمل ،
وإنما مسئوليتها كذلك . وإذا ما قلنا بأنك ستعيش حسب عملك فهذا يعنى أننا
نعطى الناس المسئولية عن مستقبلهم . وتطور أسرة العمل بالطبع رغبة متبادلة بأن
يكون لها حق إدارة مؤسساتها وتسيير عملية العمل ، اللذين نتأججهما دخول
أسرة العمل وحياتها . وهنا ، أيضا ، نجد جانبين لعملية واحدة . وفى كلمات
أخرى ، يرتبط الحساب الاقتصادى بالإدارة الذاتية باستقلال أسر العمل .

إننا نتبنى رأيا آخر عن العلاقة بين إدارة رجل واحد وبين مشاركة أسر العمل فى
معالجة مهام الإنتاج . وهذه قضية موضوعية . ولن يكون هناك تقدم دون مشاركة
العمال فى الإدارة من خلال ميكانيزمات مناسبة - على مستوى فرق العمل ، وورش
المصانع ، ووحدات الإنتاج والمصانع المتكاملة . وزيادة على ذلك ، فإن أسرة
العمل يجب أن يكون لها الحق فى انتخاب مديرها . ويحصل الأخير على حق إدارة
الرجل الواحد نيابة عن أسرة العمل ، موحدا الجميع بقوة إرادته .

ويعتبر انتخاب المديرين الاقتصاديين ديمقراطية مباشرة فى العمل . وكان الناس
فرعين من ذلك فى البداية ، مدعين أننا ذهبنا بعيدا للغاية ، وأن الأمور يمكن أن
تصل إلى نهاية سيئة . بيد أن من يفكرون بهذه الطريقة ينسون النقطة الأساسية ، وهى
أن التفكير الصائب يسود دائما . إن مصالح الجماعة ، وهو أسلوب لتغطية مصالح
بعضهم البعض ، سوف يتم الإحساس بها فى مكان ما . بيد أن كل امرئ فى
الأساس يريد أن يرأس فريق عمله ، أو ورشته ، أو مؤسسته ، أو مزرعته الجماعة
أو الحكومية ، مديرون أذكاء يعتمد عليهم ، وقادرون على القيادة ، وعلى فتح
آفاق لتحسين الإنتاج والحياة . ويدرك شعبنا هذا . وهو لا يحتاج بالتأكيد إلى إدارة
ضعيفة . إنه يريد أناسا موهوبين ، متروين ، ومع ذلك متشددين بطريقة مناسبة .

والناس يريدون أن يروا مواقف متغيرة ، من جانب مديري الوحدة الإنتاجية ، والمشرفين على الورش والمراقبين والملاحظين . والناس يتوقعون قدوة خلقية ويتوقعونها على الأخص من رؤسائهم . وهناك العديد من الأمثلة من هذا القبيل . وحيثما يوجد مدير جيد ، يوجد النجاح . فهو يرفع الناس . وكل امرئ يريد التحدث معه . وهو لا يحتاج لأن يرفع صوته عندما يعطى الأوامر . وقد يبدو عاديا تماما ، ولكنه يرى كل شيء ويمكن أن يوضحه . ومن المهم للغاية أن يكون قادرا على شرح الوضع . وسيوافق الناس على الانتظار إذا عرفوا السبب في أن بعض مطالبهم لا يمكن أن تلبى مباشرة بشكل كامل .

ونحن نبعث النشاط كذلك في العامل البشرى بمساعدة مزيد من التدابير الديمقراطية ، والعمل الأيديولوجي الأفضل ، ومناخ معنوى أكثر صحية في المجتمع . لقد بات كل امرئ يدرك بشكل كامل الطابع الحاسم لهذه المرحلة . وهناك حاجة إلى جهود كبيرة إذا ما أريد للبيريسترويكا أن تنتصر على هؤلاء الذين ما يزالون يقيسون حجمها ، أو يرون الأوضاع الحالية مناسبة لهم .

ولا يمكن إزالة الأفكار الروتينية العديدة بضرية واحدة . والعادات النفسية التي غرست خلال السنين لا يمكن إلغاؤها بأى مرسوم ، وحتى أقوى المراسيم . وللأسف ، فإن علينا أن نخلص أنفسنا تماما من الأشكال البالية للعمل مع الناس ، والأشكال المتعلقة باتجاهنا نحو الحملات الأيديولوجية والثروة الطنانية . ونحن نحتاج هنا إلى نضال طويل ومكثف ، نضال ضد الروتين ، والأبهة التي لا مبرر لها ، والشعارات المجردة ، وتكرار عبارات التباهى المتسم بالغرور . والشئ الهام هو ألا نستسلم لأوهام الرفاهية ، وألا نسمح للبيروقراطية والشكليات بأن تقيد المصادر الواعدة للحياة في مبادرات الشعب .

وعند أحاديثي مع الناس في الشارع أو في أماكن العمل أسمع على الدوام : « الكل هنا يؤيد البيريسترويكا . » وأنا مقتنع بإخلاص وصدق بهذه الكلمات ، ومع

ذلك أجيب كل مرة بأن أهم شيء يواجهنا الآن هو أن نقلل الكلام عن البيريسترويكا وأن نعمل الكثير من أجلها . إن ما نحتاج إليه هو مزيد من النظام ، والضمير الحى ، واحترام بعضنا البعض ، ومزيد من الأمانة . يجب علينا أن نتبع ما يمليه علينا ضميرنا . وإنه لشىء طيب أن يدرك الناس ذلك ، فضلا عن أنهم يرحبون به بعقولهم وقلوبهم . وهذا شىء هام للغاية . إن لدينا سياسة ، ولدينا حكومة مكافحة من أجل هذه السياسة ، وشعبا يساندها . وهذا هو الأمر الأهم . وكل ما عداه يهون أمره ، وسوف تمضى حملات إعادة البناء قدما وتعطى نتائجها . والانطباع الرئيسى الذى خرجت به من لقاءاتى الشخصية مع المواطنين السوفيت هو أنهم يحسون بعمق بالمعنى السياسى والأخلاقى للبيريسترويكا .

الالتزام بالقانون - عنصر لا غنى عنه فى إشاعة الديمقراطية

يعتبر الالتزام بالقانون مسألة مبدأ بالنسبة لنا ، وقد نظرنا إلى المسألة نظرة واسعة ومبدئية . فلا يمكن أن يكون هناك التزام بالقانون بدون ديمقراطية . وفى نفس الوقت لا يمكن للديموقراطية أن توجد وتتطور دون حكم القانون ، لأن القانون يهدف إلى حماية المجتمع من سوء استخدام السلطة ويضمن للمواطنين ومنظمتهم وأسر العمل حقوقهم وحيرياتهم . ولهذا السبب ، فقد اتخذنا موقفا حازما من هذه المسألة . ونحن نعرف من تجربتنا الخاصة ماذا يحدث عندما تكون هناك انحرافات عن هذه المبادئ .

منذ البداية الأولى للحكم السوفيتى أولى لينين والحزب أهمية فائقة للمحافظة على القانون وتعزيزه . وهذا أمر طبيعى ، بالطبع ، لأن الواقع السياسى لنشأة مجتمع جديد كان يتطلب ذلك : فقد كان علينا أن نعزز نظام الحكم الجديد ، ونلغى الملكية الفردية لوسائل الإنتاج ، ونؤم الأرض ، ونمكن الجماهير العاملة من الرقابة على الإنتاج ، ونحمى مصالح العمال والفلاحين من الثورة المضادة . كان يتعين تبرير كل

ذلك ، وإعطاؤه الطابع الرسمي فى القوانين ، وإلا لكانت العملية الثورية قد واجهت الفوضى ولكان من المستحيل تعزيز مكتسباتنا ، وضمان العمل الطبيعى لنظام الحكم السوفيتى وقرار مبادئ جديدة فى الحياة العامة .

وأنجزت مراسيم الحكومة السوفيتية هذا الغرض ، فقد أعلنت منذ البداية الأولى أن الشرعية «مبدأ» أساسى يوجه حياة المجتمع فى الاتحاد السوفيتى . وأعلنت مهمة تشجيع مشاركة ملايين الجماهير العاملة فى إدارة بلادهم وتعليمهم ، كما قال لينين ، « أن يكافحوا من أجل حقوقهم » . وانطلقت هذه الفكرة فى الدستور السوفيتى الأول لعام ١٩١٨ وفى القرار اللاحق « حول الالتزام الصارم بالقوانين » والذى أصدره مؤتمر السوفيتات فى عموم روسيا .

وبعد الحرب الأهلية ، ازداد العمل التشريعى كثافة . وكان يهدف رسميا إلى تقنين التحولات الاشتراكية . وأصبحت القوانين ووظائف الهيئات المسؤولة عن مراعاة القانون وتنفيذ العدالة أداة هامة فى بناء الدولة الجديدة وإضفاء الشرعية على كل ما تم التوصل إليه نتيجة للنشاط الاقتصادى ، والاجتماعى ، والثقافى وغيره . وروعى بصراحة مبدأ لينين القائل بضرورة وجود مجموعة واحدة من القوانين لكل البلاد ، ويأثنا « لا يجب أن نتزعزع قيد أنملة عن قوانيننا » .

غير أنه ينبغى أن نشير إلى الفترة التى نطلق عليها فترة عبادة الشخصية . فقد أثرت على قوانيننا وتوجهها ، وبشكل خاص ، على التقيد بها . وكذلك أدى التأكيد على المركزية الصارمة والإدارة بواسطة الأوامر ، ووجود عدد ضخم من التعليمات والقيود الإدارية ، أدى إلى التقليل من دور القانون . فأدى ذلك فى مراحل معينة إلى حكم تعسفى ، وإلى عدم الخضوع للقانون ، مما لا علاقة له بمبادئ الاشتراكية أو بنود دستور ١٩٣٦ . ويعتبر ستالين وزملاؤه القريبون منه مسئولين عن تلك الأساليب لحكم البلاد . وأية محاولات لتبرير عدم الخضوع للقانون بالاحتياجات السياسية أو التوتر الدولى أو التفاف المزعوم للصراع الطبقي فى البلاد

هى محاولات خاطئة . إن انتهاك القانون كانت له آثار فاجعة لا يمكننا أن ننساها أو نصفح عنها . وقد قِيم المؤتمر العشرون للحزب هذه الفترة تقييما قاسيا للغاية .

ووجد ذلك انعكاسا له فى التشريع . واستعيدت مبادئ الديمقراطية . وجرى تعزيز القانون والنظام ونفذ تقنين التشريع . وبدأت ممارسة مناقشة مشاريع القوانين وغيرها من المسائل الهامة على نطاق البلاد . وخلال ربع القرن الأخير شارك ملايين الناس فى مناقشة حوالى ثلاثين مشروع قانون وطنيا هاما وأعربوا عن رأيهم فى هذه المشاريع ، واقترحوا تعديلات وإضافات .

ولكن ، ارتبطت فترة لاحقة من الركود بالتراخى فى تنفيذ القانون . وظهرت من جديد عناصر السلوك التعسفى وانتهاك القانون ، بما فى ذلك من جانب بعض القادة . إن المحاكم ، ومكاتب الادعاء ، وغيرها من الهيئات التى كانت مكلفة بحماية النظام ، ومقاومة إساءة استخدام السلطة غالبا ما كانت تحكمها الظروف ، وتجد نفسها فى مركز تابع تدفع ثمن موقفها المبدئى فى النضال ضد منتهكى القانون . وغدت حالات الفساد متكررة الحدوث أكثر فى جهاز تنفيذ القانون نفسه .

والآن وقد بدأنا البيريسترويكا ، وقررنا أن نصنئ الظواهر السلبية للماضى ونعطى حافزا جديدا لتطور الديمقراطية الاشتراكية ، رأينا الحاجة إلى تحول بعيد المدى فى كل من مجالات تشريعنا ، وكمال الشرعية الاشتراكية فى مجموعها . وألقى الضوء على هذه الحاجة أيضا التغييرات الجذرية فى دولاب الإدارة الاقتصادية والتنمية الاجتماعية . وهذا جزء لا يتجزأ من إشاعة الديمقراطية فى كافة جوانب مجتمعنا . إن التدابير التى نتخذها فى مجال التشريع والقانون تغدو سندا فى عملية إعادة البناء . ونحن نقوم بهذا العمل فى إطار الإصلاحات فى المجالات الاقتصادية ، والاجتماعية والثقافية ، واضعين فى اعتبارنا رغبات الجماهير العاملة ، ونتائج استطلاعات الرأى العام .

وتتطلب البيريسترويكا قدرا أكبر من التنظيم فى المجتمع ، وانضباطا واعيا

للمواطنين . وسأضع الأمر كما يلي : كلما زادت إعادة البناء عمقا ، كلما كان من الواجب تنفيذ مبادئ الاشتراكية بثبات وصرامة أكبر ، والالتزام بقواعد الحياة في المجتمع الاشتراكي الواردة في الدستور والقوانين .

وتحدد البيريسترويكا مطالب أعلى فيما يتعلق بمحتوى القوانين التشريعية ذاتها . فالقانون يجب أن يحمي بحزم مصالح المجتمع ، ويحرم ما قد يضر بالمصالح القومية . وهذه بديهية . ولكن القانون إذ يحدد هذا الإطار الصارم مطالب كذلك بأن يتيح فرصة لمبادرة المواطنين ، وأسر العمل وتنظيماتهم . وينبغي أن تقدم كل مساندة وتشجيع للنشاط والمبادرة التي تتطور في إطار القانون . لقد فقدنا الكثير ونحن نحاول تجديد كافة حقوق المؤسسات في مختلف التعليمات . وفي الحقيقة ، فقد افترض أن أى مشروع تخطى تلك التعليمات ينبغي النظر إليه باعتباره غير مقبول . وفي نفس الوقت ، فقد أوضحت التجربة أن ما نحتاج إليه ليس التنظيم التشريعي الكامل لظواهر الحياة الاجتماعية المتباينة ، وإنما الترشيح السليم ، والرعاية والمساندة الدائمة للعامل ، ولقوة العمل ، ولكافة أشكال المبادرة الشعبية . وعلينا أن نلتزم بصراحة بالمبدأ القائل : بأن كل ما لا يحرمه القانون مباح .

لقد تم إقرار مجموعة كاملة من القوانين التشريعية الهامة بالفعل في مسار البيريسترويكا . وتشمل قانون المؤسسة الحكومية (الاتحاد) ، والقوانين الخاصة بتغيير نظام إدارة المجمع الزراعي الصناعي^(٢١) ، وإصلاح المدرسة ، والعمل الفردي ، ومقاومة الدخول غير المشروعة ، وتعاطي الكحوليات وإدمان المخدرات . كما صدرت قوانين لتحسين الصحة وحماية البيئة ، ولتعزيز رعاية الأمومة والطفولة . ونحن نولي اهتماما خاصا لتعزيز ضمانات حقوق وحریات الشعب السوفيتي . ومراسيم هيئة رئاسة السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتي تجعل من قمع النقد أمرا يعاقب

(٢١) المجمع الزراعي الصناعي للاتحاد السوفيتي - وحدة هيكلية للاقتصاد القومي تضم فروعاً تعمل في إنتاج المنتجات الزراعية وتصنيعها ، ونقلها ، وتخزينها ، وبيعها .

عليه القانون ، وتقر التدابير للتعويض عن الخسائر التي لحقت بالمواطنين نتيجة الأعمال غير المشروعة للحكومة والهيئات العامة والمسؤولين . كما تم إقرار قانون حول الإجراءات التي تتبع عند رفع الأمر إلى المحكمة ضد أى أعمال مخالفة للقانون يرتكبها المسؤولون ويكون فيها إجحاف بحقوق المواطنين . كذلك نص القانون الذي أقره السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتي في يونيو ١٩٨٧ رسمياً على إخضاع المسائل الهامة في الحياة السياسية للمناقشة العامة على نطاق البلاد .

وفي نفس الوقت فنحن ندرك أن إعادة البناء ستستمر تتطلب مزيداً ومزيداً من الخطوات الجديدة في مجال التشريع والقانون والنظام . إن التقنين الكامل للتشريع يتقدم في جدول الأعمال . إذ ينبغي أن يعالج المهام الجديدة مثل دعم الكفاءة الاقتصادية ، وانتهاج سياسة اجتماعية قوية ، والكشف عن قدرة كافة مؤسسات الديمقراطية الاشتراكية ، وفي كلمات أخرى ، ينبغي أن يمهّد الطريق إلى الحكم الذاتي بواسطة الشعب .

وينبغي إدخال تغييرات هامة على قانون الانتخاب . وقد ساعدت تجاربنا خلال الحملة الانتخابية في يونيو ١٩٨٧ على تحديد أكثر دقة لكيفية معالجة هذه المشكلة المعقدة إلى حدّ ما . ويجرى العمل الآن في أشكال تشريعية ترتبط بإعادة بناء نظام إدارة الاقتصاد القومي ، وبإعطاء دور أكبر للهيئات المحلية لسلطة الدولة ، واضعين في الاعتبار أن هناك حوالي ٣٠,٠٠٠ قانون قومي يعمل بها في اقتصادنا . ويحتاج الكثير منها إلى تغييرات أساسية ، وغالباً ما تحتاج ببساطة إلى إلغاء . وقد ألغيت آلاف منها بالفعل بعد تطبيق قانون المؤسسة الحكومية .

وبعد المؤتمرات الأخيرة ، تقدمت النقابات والكومسومول^(٢٢) باقتراحات لإعداد مشاريع قوانين حول العمل المنظم والشباب . ويجرى الإعداد لمشروعات

(٢٢) الكومسومول هو رابطة الشباب الشيوعي اللينيني في عموم الاتحاد ، وهو منظمة عامة نشطة للشباب السوفيتي تأسست عام ١٩١٨ .

قوانين خاصة بالعمل ، وبالنشاط التعاوني ، وتوسيع نطاق المسائل التي تقرر في اجتماعات أسر العمل ، وبحجم معاشات العمال والعاملين الإداريين والفلاحين الجماعيين ، وبمستويات جودة المنتجات .

وسيكون علينا أن نبذل كثيرا من الجهد لإحداث تعديلات في تغييرات على القانون الجنائي لدينا . وينبغي أن يكون متلائما تماما مع المرحلة الحالية من نضوج المجتمع السوفيتي . وسوف يتم إكمال هذا القسم الهام من عملنا في مجال التشريع والقانون في إطار التحول الهائل المرتبط بإعادة البناء وإشاعة الديمقراطية .

ومن الأهمية بمكان تعزيز دور المحاكم كهيئة انتخابية وثيقة الصلة بالسكان ، وضمان استقلال القضاة ، ومراعاة أكثر المبادئ الديمقراطية صرامة في الإجراءات القانونية ، والموضوعية ، والانتخاب القائم على المنافسة ، والعلانية . وتخدم نفس الأهداف الإجراءات التي اتخذت أخيرا لتعزيز إشراف مكتب الإدعاء على الالتزام الصارم والمنسق بالقوانين ، وتوسيع وظائف التحكيم الحكومي في تسوية المنازعات الاقتصادية ، وتعديل الخدمات القضائية في الاقتصاد القومي ، وتطوير الثقافة القانونية للجمهور .

وفي كلمات أخرى ، فإن العمل يمتد على نطاق واسع ، بهدف تعزيز الأسس القانونية للاشتراكية . إن القانون والشرعية ليسا مجرد عنصرين متلازمين لتعميق ديمقراطيتنا وتسريع التقدم الاجتماعي . إنها أدواتان للعمل في إعادة البناء وضمان يعول عليه في عدم إمكانية الرجوع فيها .

البيروسترويك والسوفيتات

والآن حيث يجري تنفيذ البيروسترويك وتطوير الديمقراطية ، أضيف بعد جديد إلى مسألة الربط بين قيادة الحزب السياسية وبين دور هيئات الدولة ، والنقابات والمنظمات العامة الأخرى . فمثلا ، لنأخذ السوفيتات عندنا . لقد أجبرتنا

البيروسترويكما على أن نوضح الدور الذى يجب أن تلعبه هذه السوفيتات فى الإصلاح الجارى . ولا يمكن أن تكون هناك أى إشاعة للديموقراطية فى الوقت الذى لا تشارك فيه السوفيتات فى العملية ولا يتعرض وضعها ونشاطها للتحويلات الثورية .

والسوفيتات فى روسيا ظاهرة فريدة فى تاريخ السياسة العالمية . إنها ثمرة المشاركة المباشرة الخلاقة للجماهير العاملة . وربما يعرف قليل من الناس فى الغرب أن فكرة السوفيتات ذاتها ، وقد أعقبتها مباشرة الخطوات التنظيمية الأولى ، بدأ التفكير فيها قبل ثورة أكتوبر ١٩١٧ بوقت طويل - فى ١٩٠٥ . وفى أعقاب ثورة فبراير ١٩١٧ التى أطاحت بالحكم القيصرى ، تطورت السوفيتات إلى أجهزة للسلطة فى جميع أنحاء روسيا ، رغم أن سلطاتها كانت محدودة لأنها تعايشت مع الحكومة المؤقتة (٢٣) . وقد شكلت بالطبع الأساس السياسى للجمهورية الجديدة التى ظهرت فى أكتوبر ١٩١٧ . وقد أطلق على بلادنا منذ ذلك الحين الجمهورية السوفيتية .

ولولم تكن هناك سوفيتات ، ما كنا قد كسبنا الحرب الأهلية . ولولم تكن هناك سوفيتات ، ما كنا قد نجحنا فى حشد ملايين الناس ، وعلى الأخص العمال والفلاحين ، فى مثل هذا البلد الواسع . ولولم تكن هناك سوفيتات ما كان قد تحقق شىء من السياسة الاقتصادية الجديدة (٢٤) . وتكمن سلطاتها الحقيقية فى حقيقة

(٢٣) الحكومة المؤقتة هى الجهاز المركزى لسلطة البرجوازية - كبار الملاك فى روسيا - الذى تشكل بعد ثورة فبراير . وقد قامت فى الفترة من ٢ (١٥) مارس إلى ٢٥ أكتوبر (٧ نوفمبر) ١٩١٧ .

(٢٤) السياسة الاقتصادية الجديدة (نيب) - كانت سياسة اقتصادية وضعها لينين وطبقها فى ١٩٢١ . وتمثل مضمونها الرئيسى فى استبدال « البرودرازفيورستكا » أو مصادرة الأغذية من الفلاحين من أجل احتياجات المدن والجيش خلال الحرب الأهلية ، وعندما كان وجود الدولة السوفيتية ذاته يتعرض لخطر قاتل ، وذلك أداء « الضريبة النوعية » حيث كان يدفع الفلاح قسما معيناً من إنتاجه كضريبة وكان الهدف العاجل من النيب هو التبادل بين المدينة والريف على أساس العلاقات السلعية النقدية مما يؤدي إلى سرعة تطبيع الإنتاج والوضع الغذائى فى البلاد . وكان لابد من تقديم تنازلات للشركات الأجنبية . ولكن هذا الجانب لم يقدر له التطور . وسمح كذلك =

أنها ، منذ أن أقامت الجماهير ، عبرت عن مصالح الجماهير العاملة وقامت بالدفاع عنها . وكانت السمة والسر الكامن وراء انتشارها السريع ، بل التلقائي في جميع أنحاء البلاد ، هما أنها كانت تتخذ القرارات وتنفذها بإرادتها في الوقت الذي كانت فيه موضع رعاية الجماهير ، وتحت الرقابة المباشرة لكل من يهمهم تحركاتها . وكانت طريقا فريدا وكفؤا للجمع بين الديمقراطية المباشرة والديموقراطية التمثيلية .

ومع ذلك ، فعندما دفع إلى الوجود نظام الاقتصاد بالأوامر في الإدارة ، كانت السوفيتات قد دفعت إلى الخلف بشكل ما . وتقرر عدد غير قليل من المسائل دون مشاركتها ، أو ترك دون حسم ليتحول إلى مشاكل . وقلل هذا من هبة السوفيتات . ومنذ هذه اللحظة بدأ تطور الديمقراطية الاشتراكية يتباطأ ، وظهرت أمارات تشير إلى أن الجماهير العاملة قد أبعدت عن حقها الدستوري في المشاركة بشكل مباشر في شئون الدولة . وكتيجة لذلك ، أضعف بشكل خطير مبدأ الثورة الاشتراكية - بأن السلطة لا يجب أن تكون فقط للجماهير العاملة ، وإنما تسوسها أيضا الجماهير العاملة .

ويجب أن نعترف أنه في هذه الظروف بدأ كثير من المديرين الاقتصاديين معاملة المطالب والتوصيات المشروعة للسوفيتات بدون الاحترام اللائق . وبدأ أن كل شخص يدرك - ولم ينكر أى امرئ رسميا ذلك - أن على السوفيتات المحلية أن تكون مسئولة تماما عن مناطقها الخاصة في كافة المسائل المتعلقة بالتنمية وأن عليها أن تلبى الحاجات اليومية للشعب . بيد أن القدرات الحقيقية للسوفيتات ، بالمقارنة بقدرات الهيئات الاقتصادية ، لم تجعلها في وضع يسمح لها بإنجاز هذه الوظائف . وكان بمقدور المديرين والجهاز الإداري في العديد من المؤسسات ، وبخاصة في المؤسسات الكبيرة ، أن يتجاهلوا المطالب الملحة والعادلة المقدمة من السوفيتات لبناء المساكن ، ومرافق تنقية الهواء والماء ، والارتقاء بالبرامج الاجتماعية والثقافية ،

= بالمؤسسات الخاصة في الإنتاج الصغير ومبيعات التجزئة . وتحولت المؤسسات إلى نظام الحساب الاقتصادي . لقد كانوا يتصورون النيب كفترة انتقالية طويلة نسبيا ، يجرى الإعداد خلالها بالتدريج ، للتحويل الاشتراكي للمجتمع ويبدأ تنفيذه .

وتطوير شبكة النقل العام ، وتوفير وسائل ترفيه أفضل في مناطقهم ، الخ .

ولا يمكننا القول بأن الجماهير العاملة والهيئات الحزبية كانت غير مهتمة على الإطلاق . فقد بذلت محاولات لعلاج الوضع وتغيير النظام القائم . ولكن كانت هذه المحاولات ضعيفة للغاية . وهو ما يرجع بدرجة كبيرة لأسباب موضوعية وذاتية . وفي السنوات الخمس عشرة الأخيرة اتخذ أربعة عشر قرارا بخصوص تحسين نشاط السوفيتات . ورغم أنها كانت قرارات طيبة ، فإن الأوضاع لم تتحرك من مكانها ، لأن البيئة الاقتصادية والسياسية والأيدولوجية للدولاب الكابح قاومت تماما إعطاء دور أكبر للسوفيتات ، التي كانت في الأساس الهيئات التي تجسد الديمقراطية والعلانية الواسعتين .

وبإمكاننا أن نرى الآن جيدا أنه نتيجة لانتشار أساليب الإدارة والإشراف لاقتصاد الأوامر ، في الوقت الذي سادت فيه المواقف البيروقراطية في كثير من مجالات العمل الحكومي والعام ، قلّ استخدامنا لقدرات السوفيتات على إفادة الشعب . إن الدور المضمحل للسوفيتات أدى إلى نشأة ما نرى فيه استبدالا لوظائف ونشاط الهيئات الحزبية بوظائف ونشاط الحكومة والهيئات الإدارية .

وأدت الاستعاضة عن السوفيتات بهيئات الحزب ، أدت بدورها ، إلى التأثير الشديد على العمل السياسي والحزبي . وعندما وجه المسئولون الحزبيون جهودهم نحو الشؤون الاقتصادية والإدارية ، تم تجنيد الكوادر من بين المهنيين الأكفاء ، رغم أنهم غالبا ما كانوا مفتقدين للمهارة والتجربة في مسائل القيادة . وباختصار ، ظهر خطأ في عمل الجهاز الديمقراطي الذي يدين بوجوده لثورتنا الاشتراكية .

وهكذا واجهنا في سعينا المستمر نحو إعادة البناء ، مهمة ضخمة ألا وهي الحاجة إلى إحياء دور السوفيتات بشكل كامل باعتبارها هيئات السلطة السياسية وأساس الديمقراطية الاشتراكية ونحن الآن نجدد بشكل كامل هبة وسلطات السوفيتات ،

ونخلق الشروط اللازمة لقيامها بعمل خلاق كفاء وناضج في ظل ظروف البيروسترويكيا .

لقد دعا اجتماع يناير ١٩٨٧ الكامل لجان الحزب إلى الالتزام بخط دعم دور السوفيات ، وتجنب التدخل في شئونها . ومن المهم كذلك أن يعمل رؤساء السوفيات والعاملون فيها بكل قوة من أجل اجتثاث القصور الذاتي والتغلب على عاداتهم بالتطلع إلى شخص ما على الدوام وانتظار الأوامر من أعلى . إن القوانين التي أقرت حديثا حول دور السوفيات في مرحلة إعادة البناء تشجع المواقف الديمقراطية من جانب السوفيات وهيئاتها التنفيذية عندما تعمل . ويجب أن يكون محور نشاطها هو توثيق صلاتها مع الشعب . وتتيح القوانين الجديدة للسوفيات أن تنظم عملها بطريقة تسمح لها بأن تصبح الهيئات الحقيقية للحكم الشعبي . لقد أنيطت إليها حقوق واسعة لتنسق وتمارس الرقابة على نشاط كافة المؤسسات والمنظمات في مناطقها الخاصة .

وهذه ليست سوى الخطوات المحدودة الأولى في استعادة الطبيعة الثورية الديمقراطية للسوفيات . وسيقوم المؤتمر الحزبي القادم لكل الاتحاد^(٢٥) بدراسة واتخاذ القرارات المناسبة بشأن إصلاح النظام الانتخابي وعمل السوفيات ، على كافة المستويات : وتجري الاستعدادات جيدا لطرح المقترحات اللازمة . ومن السابق لأوانه تقييمها ، بيد أن أهميتها الكبيرة واضحة - إنها تهدف إلى تعزيز الديمقراطية الشعبية .

(٢٥) سيعقد الاجتماع الموسع (الكونغرس) التاسع عشر للحزب الشيوعي السوفيتي في عموم الاتحاد . في موسكو ، في ٢٨ يونيو ١٩٨٨ ، وفقا لقرار اجتماع يونيو ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي .

الدور الجديد للنقابات

إن ماتصطلع به بلادنا وما تعالجه من مسائل يتضمن إعادة تقييم دور النقابات في الشؤون الاجتماعية .

وينبغي أن نقول أولا وقبل كل شيء إن نقاباتنا تمثل قوة هائلة ، فلا يمكن وضع قانون للعمل مالم يصدق عليه المجلس المركزي لنقابات عموم الاتحاد (٢٦) . وبالنسبة لكافة المسائل المتعلقة بقوانين العمل ، ووضعها موضع التنفيذ ، وحماية حقوق الجماهير العاملة ، فإن للنقابات الكلمة الأخيرة . وإذا ما قام مدير بفصل عامل دون طلب موافقة النقابة تقوم المحكمة أوتوماتيكيا باتخاذ قرار بعدم شرعية هذا الفصل دون أية مداولات ، طالما أن النقابة لم تجر استشارتها . وأخذ رأيها ، ولايجرى تقديم أى خطة تنمية اقتصادية ، لعام أو خمسة أعوام ، للسوفيت الأعلى ، مالم توافق عليها النقابات . وعندما تكون الخطط في دور الإعداد ، تشارك النقابات كذلك على مختلف المستويات .

إن التأمين الاجتماعي ، وإدارة المصحات ومنتجات الاستجمام ، والسياحة ، والتربية البدنية والرياضية ، والترفيه واستجمام الأطفال ، هي جميعا مسئولية النقابات . وبالتالي فإنها تمتلك سلطة حقيقية . ولكن للأسف ، كان هناك نشاط نقابي أقل في السنوات القليلة الماضية . وفي بعض القضايا ، تخلت النقابات عن حقوقها للمديرين الاقتصاديين ، في الوقت الذي لم تكن تحظى ببعض حقوقها بالفعالية الكاملة .

وهكذا ، فعندما بدأنا إعادة البناء ، رأينا عمل النقابات لايمكن اعتباره مرضيا . وخلال رحلتى إلى منطقة كويان ، وجهت اللوم إلى قادة النقابات لتسترهم على المديرين ، والذهاب أحيانا إلى حد التصرف وفق هواهم . وسألتهم ألم يحن

(٢٦) المجلس المركزي لنقابات العمال لكل الاتحاد الجهاز الإدارى لنقابات العمال السوفيتية فيما بين انعقاد مؤتمرها .

الوقت لاتخاذ موقف مبدئي ، والدفاع عن مصالح الجماهير العاملة ؟.

والدور الجديد للنقابات في ظروف البيريسترويكا ينبغي أن يشمل أساسا إعطاء توجه اجتماعي أقوى للقرارات الاقتصادية ، ومعادلة التجاوزات التكنوقراطية التي انتشرت في الاقتصاد في السنوات القليلة الأخيرة . ويعني أن تكون النقابات أكثر نشاطا في صياغة الأجزاء الاجتماعية من الخطط الاقتصادية . وإذا مالزم ، التقدم بمقترحاتها البديلة والدفاع عنها .

وينبغي على اللجان النقابية أن تكون ذات أنياب ، وألا تكون شريكا طيعا للإدارة . ولكن يبدو أن المنظمات النقابية قد اعتادت على ظروف العمل الرديئة في بعض المؤسسات ، وعلى تدهور الخدمة الصحية ، وغرف الدواليب الأدنى من المستوى . بيد أن النقابات السوفيتية لها حق الرقابة على استجابة الإدارة لعقود العمل ، والحق في انتقاد الإدارة ، وحتى الحق في المطالبة باستبعاد المدير الذي يعجز عن الاستجابة للمصالح المشروعة للجماهير العاملة ، من منصبه .

وسيكون من الخطأ الاعتقاد بأن الجماهير العاملة لا تحتاج إلى أية حماية في ظل الاشتراكية . إذ ينبغي حمايتها حتى بدرجة أكبر ، لأن الاشتراكية نظام للجماهير العاملة . ومن ثم تكون المسئولية الهائلة للنقابات . إن المجتمع السوفيتي بكامله له مصلحة حيوية في أن تقوم النقابات بدور أكثر حيوية .

الشباب والبيريسترويكا

يتيح الشباب السوفيتي إمكانية هائلة لجهود إعادة البناء . فالجيل الشاب هو الذي سيعيش ويعمل في المجتمع الذي أعيد تشكيله . ولذلك فمن الطبيعي أن يصبح لعمل الشباب ، ودراسته ووقت فراغه ، الأولوية . ويبحث الشباب عن مكان له في العالم . إنها فترة صعبة في حياة المرء . وهي فترة تقويمية فيما يتعلق بأسرته ومهاراته المهنية وآرائه السياسية والمدنية ، إنه يدخل عالمه كفرد . ولهذا السبب ينبغي

إيلاء أكبر قدر من الاهتمام للشباب والكومسومول (رابطة الشباب الشيوعي) .

وقد رتبنا الأمور بحيث لاتعالج أى مشكلة هامة للشباب دون أن يؤخذ رأى الكومسومول فى الاعتبار . وهذا لايغنى أننا نمالئ الكومسومول . كلا ، على الإطلاق . إن علينا أن نعزز مسئوليته بشكل كبير . وليس هناك مايمكّن أن يكون له تأثيره الفعال على تكوين جيل الشباب ، وعلى قدرته على أن يأخذ حاضره البلاد ومستقبلها بين يديه ، مثل الثقة فيه وإشراكه فى العملية السياسية والاقتصادية الحقيقية . إن تدليل الشباب أو زيادة التبسط معهم أو تملقهم لن يؤدى إلى النتائج المرجوة . ينبغى أن تتاح الفرصة للكومسومول والشباب لكى يكشفوا حقا عن قيمتهم . ويجب أن يتحرر الشباب من شبه الوصاية والإشراف ، وينبغى أن نعلمهم بتحميلهم المسئولية وبالثقة فى مساعيهم الحقيقية .

لقد دعا اجتماع يناير ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتى زعماء الحزب إلى إيلاء مزيد من الاهتمام بعمل الشباب ، وإلى صقلهم الأيديولوجى والمعنوى . إن اللهجة التعليمية والصارمة أمر غير محتمل فى العمل مع الشباب ، ومهما كانت الأسباب - كعدم الثقة فى نضوج تطلعات الشباب وأعماله ، والحذر الأولى الشديد والرغبة فى تسهيل الأمور لأبناء المرء منا - فلا يمكننا أن نوافق على مثل هذا الموقف . وهناك مجالان أساسيان فى حياة الشباب وعمله . فأولا ، عليهم أن يستوعبوا كل ترسانة الطرق إلى الديمقراطية والاستقلال ويتنفسوا طاقة شبابهم فى إشاعة الديمقراطية على كافة المستويات ، وأن يكونوا نشطين فى المساعى الاجتماعية . فبدون ذلك ، يستحيل على الإطلاق أى تشريع وأى تقدم . فعلى كل شاب أن يشعر بأنه يشارك فى كل مايدور فى البلاد . وثانيا ، ينبغى أن يكون الجيل الشاب مستعدا للمشاركة فى التحديث الواسع لاقتصادنا ، وفى المقام الأول من خلال تعميم استخدام الحاسبات ، وإدخال تكنولوجيات ومواد جديدة . إن التجديد الفكرى وإثراء المجتمع هو ما نتوقعه من الشباب .

ويواجه الشباب مشاكل اجتماعية معقدة . وكثير من المسئولين يدعونهم إلى التوجه إلى العمل ، ولنقل مثلا ، في مواقع البناء ، ولكنهم سرعان ما ينسونه عندما يتعلق الأمر بالمسائل الاجتماعية . وليست هذه هي الطريقة التي يجب التصرف بها . إننا نؤيد فكرة قانون للشباب لا يكرر الفرضيات العامة المتعلقة بكافة المواطنين السوفيت ولكنه يعالج المشاكل والحقوق والواجبات الخاصة بالشباب . ومثل هذا القانون يجب أن يحدد في عبارات أكثر تحديدا مجالات التفاعل بين الكومسومول وهيئات الدولة ، والنقابات وغيرها من المنظمات في حدود ما يتعلق الأمر بعمل الشباب ودراساته وحياته اليومية ووقت فراغه . وينبغي أن يعزز القانون مسئولية الوزارات والإدارات الحكومية في حل المشاكل المتعلقة بالشباب .

لقد أثار مؤتمر الكومسومول^(٢٧) الذي انعقد عام ١٩٨٧ استجابة عريضة على نطاق البلاد . وكشف عن أن أعضاء الكومسومول يعون مسئوليتهم نحو بلادنا وشعبنا ، وأنهم متعطشون للمشاركة بدور إيجابي في عملية التجديد الاجتماعي . وقد راقى مناخ العناية الفائقة في المؤتمر . وربما لم تخالجنى قبل ذلك مثل هذه الرغبة الشديدة في المشاركة في المناقشة كما حدث في المؤتمر . وكانت هناك صلة حية مع الحضور المتحمسين الذين شحنوا كل امرئ بطاقتهم .

وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن شبابنا يرحب من كل قلبه بالتغيرات الثورية ، التي بدأت في البلاد ، وبأنهم على استعداد لتطويرها بطاقتهم الثورية واخلاصهم المتحمس .

المرأة والأسرة

يتحتم على بلادنا اليوم إشراك المرأة بنشاط أكثر فعالية في إدارة الاقتصاد ، وفي التطور الثقافي والحياة العامة . ولهذا الغرض أقيمت مجالس للمرأة في جميع أنحاء البلاد .

(٢٧) عقد المؤتمر العشرون للكومسومول في أبريل ١٩٨٧ .

وطرح اجتماع يناير الكامل كذلك مسألة إعداد عدد أكبر من النساء للمناصب الإدارية ، وبخاصة أن ملايين النساء يعملن في مجالات الصحة ، والتعليم والثقافة ، والعلوم . ويستخدم كثير من النساء ، كذلك في الصناعات الاستهلاكية والتجارة والخدمات أيضا .

وغالبا ما ينظر إلى درجة تحرير المرأة ، كمقياس للحكم على المستوى الاجتماعي والسياسي للمجتمع . لقد وضعت الدولة السوفيتية حدا للتمييز ضد المرأة الذي كان سائدا في روسيا القيصرية بتصميم ودون مساومة . وكسبت المرأة مكانة اجتماعية يضمنها القانون وتساوى مع مكانة الرجال . ونحن نفخر بما قدمته الحكومة السوفيتية للمرأة : نفس الحق في العمل كالرجل ، والأجر المتساوى للعمل المتساوى والضمان الاجتماعي . وأتيحت للمرأة كل فرصة للحصول على التعليم ، ولبناء مستقبلها ، وللمشاركة في النشاط الاجتماعي والسياسي . وبدون إسهام المرأة وعملها المتفاني ما كان بمقدورنا أن نبني مجتمعا جديدا أو نكسب الحرب ضد الفاشية .

ولكن طوال سنوات تاريخنا البطولي والشاق عجزنا عن أن نولي اهتماما لحقوق المرأة الخاصة ، واحتياجاتها الناشئة عن دورها كأم وربة منزل ووظيفتها التعليمية التي لاغنى عنها بالنسبة للأطفال . إن المرأة إذ تعمل في مجال البحث العلمي ، وفي مواقع البناء ، وفي الإنتاج والخدمات ، وتشارك في النشاط الإبداعي ، لم يعد لديها وقت للقيام بواجباتها اليومية في المنزل - العمل المنزلي ، وتربية الأطفال ، وإقامة جو أسرى طيب . لقد اكتشفنا أن كثيرا من مشاكلنا - في سلوك الأطفال والشباب ، وفي معنوياتنا ، وثقافتنا وفي الإنتاج - تعود جزئيا إلى تدهور العلاقات الأسرية ، والموقف المتراخي من المسؤوليات الأسرية . وهذه نتيجة متناقضة لرغبتنا المخلصة والمبررة سياسيا لمساواة المرأة بالرجل في كل شيء ، والآن ، في مجرى البيريسترويكا ، بدأنا نتغلب على هذا الوضع . ولهذا السبب فإننا نجرى الآن مناقشات حادة في الصحافة ، وفي المنظمات العامة ، وفي العمل والمنزل ، بخصوص مسألة ما يجب أن نفعله لنسهل على المرأة العودة إلى رسالتها النسائية البحتة .

وهناك مشكلة أخرى هي استخدام المرأة في الوظائف الشاقة الضارة بصحتها . وهذا هو تراث الحرب التي فقدنا فيها أعدادا ضخمة من الرجال ، والتي خلفت لنا نقصا حادا في اليد العاملة في كل مكان ، في كافة مجالات الإنتاج . لقد بدأنا الآن نعالج هذه المشكلة بشكل جاد .

وإحدى المهام الاجتماعية والأكثر إلحاحا بالنسبة لنا - وهي مهمة هامة كذلك في الحملة ضد المسكرات - تتمثل في تحسين صحة الأسرة وتعزيز دورها في المجتمع . ونحن نتوقع أن تكون مجالس المرأة نشطة للغاية وأن تأخذ زمام المبادرة . إنها قد شبت لتوها عن الطوق ويمكنها أن تحقق الكثير ، لأنه لا توجد منظمة أخرى تشارك عن قرب في الحياة الخاصة ومشاكل المرأة كما تفعل هذه المجالس .

إن مواصلة إشاعة الديمقراطية في المجتمع ، وهو ما يعتبر محور وضمان البيريسترويكا مستحيل دون تعزيز دور المرأة ، ودون مشاركتها النشطة والخاصة ، ودون التزامها بكل جهودنا الإصلاحية . وأنا على قناعة بأن دور المرأة في مجتمعنا سينمو باطراد .

اتحاد الأمم الاشتراكية - تشكيل فريد

إننا نعيش في بلد متعدد القوميات . وهذا عامل من عوامل قوته أكثر مما هو من عوامل ضعفه أو تفككه . كانت روسيا القيصرية تسمى بسجن الشعوب . وقد قضت الثورة الاشتراكية على القهر القومى وانعدام المساواة . وضمنت التقدم الاقتصادى والفكرى والثقافى لكافة الأمم والقوميات . وفيما مضى امتلكت الأمم المتخلفة صناعة متقدمة وبنية اجتماعية حديثة . وارتفعت إلى مستوى الثقافة الحديثة رغم أن بعضا منها لم يكن لديه قبل ذلك أبجدية خاصة به . وأى شخص غير متحيز لا بد له وأن يعترف بأن حزبنا قد نفذ قدرا هائلا من العمل وقام بتحويل الوضع . مما ترتب عليه إثراء المجتمع السوفيتى والحضارة العالمية بشكل عام .

وقد أسهمت كافة الأمم والقوميات التى تقطن بلادنا فى تكوين وتطوير وطننا

الاشتراكي . ودافعت معا عن حريته ، واستقلاله ، ومكتسباته الاشتراكية ضد غزوات أعدائه . وإذا لم تكن المسألة القومية قد حلت من حيث المبدأ ، ما كانت لدى الاتحاد السوفيتي على الإطلاق القدرة الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والدفاعية التي يمتلكها اليوم . وما كان لدولتنا أن تبقى إذا لم تشكل الجمهوريات أسرة تقوم على الأخوة والتعاون والاحترام والمساعدة المتبادلة .

غير أن كل هذا لا يعني ، أن العمليات القومية خالية من المشاكل . فالتناقضات تلازم أى تطور . وهى تحدث هنا كذلك . وقد اعتدنا ، للأسف ، أن نؤكد على انجازاتنا الكبيرة حقا فى حل المشكلة القومية ، وقيّمنا الوضع بعبارات فضفاضة . لكن هاهى ذى الحياة الواقعية بكل تنوعها ومصاعبها .

ويبدو الجدل هكذا : إن نمو المستويات التعليمية والثقافية ، إلى جانب تحديث الاقتصاد ، يؤدي إلى ظهور المثقفين فى كل أمة ، وإلى نمو الوعي الذاتى القومى ونمو اهتمام الأمة الطبيعى بجذورها التاريخية . وهذا أمر رائع . وكان هذا مطمح الثوريين من مختلف القوميات ممن أعدوا لثورتنا ، والذين بدأوا يبنون مجتمعا جديدا على أنقاض الامبراطورية الروسية . ويحدث أحيانا فى العملية أن يتزلق قطاع معين من الناس إلى النزعة القومية ، وتظهر الآراء القومية الضيقة والمنافسة والغرور القومى .

ولكن ليس هذا كل ما فى الأمر . فالشئ الأهم يتمثل فى التغيرات التى تحدث فى المجتمع الذى يحل فيه جيل محل جيل ، وينبغى أن يتعلم كل جيل جديد كيف يعيش فى دولة متعددة الأعجناس ، الأمر الذى لا يحدث بسهولة . فالاشتراكية التى ساعدت كل أمة على أن تنشر أجنحتها ، تملك كافة الظروف لحل المشاكل القومية على أساس المساواة والتعاون . ومن المهم أن نعمل بروح المبادئ الاشتراكية ، متذكرين أن الأجيال الجديدة لا تعرف حتى فى الغالب كيف وصلت أممها إلى مثل هذه المستويات . ولم يخبرهم أحد كيف كانت الأمية تعمل فى صالحهم ، ولكم من السنين .

وعلى عكس خلفية النزاعات القومية ، التي لم تترك حتى أكثر بلدان العالم تقدما يقدم الاتحاد السوفيتي مثالا فريدا حقا في تاريخ الحضارة البشرية . وتلك هي ثمرات السياسة القومية التي وضعها لينين . ولكن كم كان الأمر صعبا في البداية ، وكم كانت شاقة بدرجة لاتصدق تلك الخطوات الأولى في بناء دولة متناسقة متعددة الأعناس . ولعبت الأمة الروسية دورا بارزا في حل المسألة القومية . ومرت كثير من الشعوب بنوع من النهضة أو التنوير في ظل السياسة القومية اللينينية ، وفي فترة قصيرة جدا من الوقت . وعندما يستجيب شخص ما لذلك بغروره القومي ، وينسحب إلى داخل نفسه ، ثم يحاول نقل قيمه الخاصة على أنها قيم مطلقة ، فإن ذلك أمر غير سليم ولا يمكن قبوله . ويغدو ذلك موضع مناقشات حية وشاملة في المجتمع السوفيتي .

وتعتبر كل ثقافة قومية ثروة لا يمكن التفريط فيها . بيد أن الاهتمام الصحيح بكل ما هو قيم في كل ثقافة قومية لا يجب أن ينحدر إلى محاولات الانغلاق عن العمليات الموضوعية للتفاعل والتقارب . وإنه لمن الخطير كذلك أن يفتقر موقف ممثلي أحد القوميات إلى احترام ممثلي قومية أخرى . لقد قضيت سنوات عديدة في شمال القوقاز ، وهي منطقة تقطنها مجموعة من القوميات المتعددة ، ولا يقتصر الوضع هناك على أن كل مدينة أو مستوطنة أو قرية جبلية هناك يقطنها أناس من قوميات مختلفة ، بل ينطبق ذلك على المنطقة كلها . ويتضمن تاريخ شمال القوقاز صفحات عديدة كثيفة ، ولكن في سنوات الحكم السوفيتي تغير الوضع جذريا ، وأنا لن أضفي طابعا مثاليا على الوضع ، ولكن العلاقات بين القوميات التي تقطن هذه المنطقة المتعددة الأعناس تتميز بمواقف الاحترام ، والتعاون ، والتقارب ، والوحدة . وأنا أعرف من خبرتي الشخصية أن سكان المرتفعات شديدا الاستجابة للصدقة ، ولكنهم في نفس الوقت حساسون للغاية لأي مظهر من مظاهر الغطرسة نحوهم . ويمكنني أن أتذكر أن منطقة كراتشايفو - تشيركاسيا ذات الحكم الذاتي - وهي جزء من إقليم ستافروبول - يقطنها كراتشايفون ، وشركس ، وروس ،

وأبازينيون ، ونوجيون ، وأوستانيون ، ويونانيون ، وممثلو قوميات أخرى ، وأنهم يعيشون جميعاً في وفاق مع بعضهم البعض . ويعود ذلك إلى المساواة والموقف العادل من حل مشاكلهم من واقع حياتهم . وعندما كان يحدث في بعض الأحيان انحراف عن هذه المبادئ ، كان الثمن غالياً على الدوام . ودخل هذه المنطقة الصغيرة ذات الحكم الذاتي تجرى المحافظة على ثقافات كل القوميات وتطويرها . إن تقاليدهم محل رعاية ، كما ينشر أديبهم بلغاتهم القومية . وهذا لا يبعد بينهم ، وإنما بالأحرى يقربهم من بعضهم البعض . وليس بكاف أن تعلن المساواة بين الأمم ، فلا بد من كفاءة معرفة كافة الجماعات العرقية لأسلوب حياة هادئة .

وأود أن أقول مرة أخرى إنه إذا ما ظهرت ظواهر سلبية في هذا المجال الحساس للغاية للعلاقات البشرية ، فإنها لا تظهر من تلقاء نفسها ، وإنما كنتيجة للروتين ، وعدم الاهتمام بحقوق الناس المشروعة . وهناك أحياناً مناقشات حادة حول تطور اللغات العرقية في هذا البلد . فما الذي يمكن أن يقال في هذا الموضوع ؟ حتى أصغر الأعراق لا يمكن أن ينكر عليها الحق في لغتها القومية الخاصة . ومع ذلك فهذه هي الثقافة البشرية في تنوعها اليوم ، بلغاتها ، وزبها ، وطقوسها ، ومظاهرها العديدة . وهذه هي ثروتنا المشتركة . فكيف يمكن تجاهلها ؟ وكيف يسمح المرء بالتقليل من قدرها ؟ .

ولكننا في نفس الوقت ، في بلدنا الفسيح المتعدد الأجناس لا يمكننا أن نستغنى عن وسيلة مشتركة للاتصال . وأصبحت اللغة الروسية بالطبع تقوم بإنجاز هذا الدور . وكل فرد يحتاج لهذه اللغة ، وقد حدد التاريخ نفسه أن تتطور العملية الموضوعية للاتصال على أساس لغة أكبر الأمم . وعلى سبيل المثال ، فرغم أن ممثلي العديد من المجموعات العرقية التقوا معاً في الولايات المتحدة ، أصبحت الإنجليزية لغتهم المشتركة . وكان هذا على ما يبدو اختياراً طبعياً . وبإمكان المرء أن يتصور ما الذي كان يحدث إذا ما تحدث أفراد كل أمة انتقلت إلى الولايات المتحدة بلغتهم

الخاصة فقط ، ورفضوا تعلم اللغة الإنجليزية ! وينطبق نفس الشيء على هذا البلد ، حيث برهن الشعب الروسى بكل تاريخه أن لديه قدرة هائلة على النزعة الأممية ، وعلى احترام الشعوب الأخرى والنوايا الطيبة نحوها . وأوضحت التجربة أنه لابد من دراسة لغتين (بالإضافة إلى لغة أجنبية) - اللغة الأم واللغة الروسية - لكي تتصل المجموعات العرقية ببعضها البعض .

إن أية محاولات لتغذية الأحقاد على أسس قومية عرقية ، لا يمكن إلا أن تؤدي إلى التعقيد في البحث عن حلول معقولة . ونحن لسنا بصدد تجنب هذه المشاكل أو غيرها مما قد ينشأ . ولكننا سنتصدى لها جميعا في إطار العملية الديمقراطية عاملين على تعزيز الأممية لدى شعوبنا .

وقد علمنا لينين أن نبدى أقصى حذر وبراعة في المسألة القومية ، ولا يمكن ولا يجب أن يكون هناك أية نماذج مقولة هنا . هناك شيء واحد واضح : عندما تلتقى المصالح الأساسية للأمم ، وعندما يشكل مبدأ المساواة في كل شيء عصب العلاقات بين الشعوب - وهذا على وجه الدقة هو واقع الأمر في المجتمع السوفيتي - يمكن عندئذ تسوية أية مشاكل أو سوء تفاهم ينشأ ، حتى في الأوضاع الصعبة . وهناك بالطبع عدد محدود من الناس في الغرب ، وفي الشرق كذلك ، يودون أن يقوضوا الصداقة والوحدة بين شعوب الاتحاد السوفيتي . بيد أن هذا أمر مختلف تماما ، فهنا يقف القانون السوفيتي يقظا ، يحمي منجزات السياسة القومية اللينينية .

وانطلاقا من هذه المواقف ، سنظل ملتزمين بحزم بمبادئنا . ينبغي احترام المشاعر القومية للناس ، ولا يمكن تجاهلها . بيد أن المزايدة عليها تعنى انعدام المسؤولية السياسية ، إذا لم تكن تعنى جريمة . ومن تقاليد حزبنا أن يقاوم أية مظاهر لضيق الأفق القومى والشوفينية ، والطائفية ، والصهيونية ، ومعاداة السامية ، في أى شكل يجرى التعبير عنها . وسنبقى ملتزمين بهذا التقليد . وتبين كل خبرتنا أن المواقف القومية يمكن مواجهتها بفعالية عن طريق الأممية الثابتة ، والتربية الأممية .

وعندما ألتقى بالناس خلال جولاتي في الجمهوريات والمناطق القومية للاتحاد السوفيتي ، أرى بنفسى المرة بعد المرة أنهم يدركون ويفخرون بأن أمهم تنتمى لأسرة دولية كبيرة واحدة ، وأنهم جزء لا يتجزأ من دولة عظمى وواسعة تلعب مثل هذا الدور الهام في تقدم البشرية . وهذا على وجه الدقة ما تعنيه الوطنية السوفيتية . وسوف نواصل دعم الاتحاد والأخوة بين الأمم الحرة في بلد حر .

النفوذ والثقة

شملت البيريسترويكا كل مجالات المجتمع . وتتطور عملية البيريسترويكا عن طريق حل المشاكل والتغلب على الصعوبات . ويعمل الحزب كمبادر ومولد للأفكار ، وكقوة منظمة ومرشدة ، بل أقول أيضا كضامن للبيريسترويكا من أجل مصالح تعزيز الاشتراكية ، ومصالح الشعب العامل . لقد أخذ الحزب على عاتقه مسئولية تاريخية حقة . وقد قال لينين في عام ١٩١٧ : «إننا وقد بدأنا الثورة ، علينا أن نمضي إلى نهاية الطريق» . وينطبق نفس الشيء على البيريسترويكا : فسوف يمضي الحزب فيها إلى نهاية الطريق .

وينمو نفوذ الحزب والثقة فيه . ورغم أننا لا نزال في مرحلة الانتقال من حالة نوعية إلى أخرى ، فإن هيئات الحزب تحاول ألا تأخذ على عاتقها واجبات التنظيمات الاقتصادية والإدارية . وهذا أمر ليس باليسير أبدا . ويتراءى لنا مثل هذا الطريق الذي خبرناه - مارسوا ضغط الحزب والخطوة سوف تنجزا بيد أن هدف الحزب مختلف : إنه في المقام الأول ، تحليل العمليات نظريا ، والإحساس بالنقاط الحرجة في تطور التناقضات في الوقت المناسب ، وإدخال التصحيحات في الاستراتيجية والتكتيكات ، ورسم السياسة وتحديد أساليب وأشكال تحقيقها واختيار العاملين ووضعهم في أماكنهم ، وتوفير الظروف التنظيمية والأيدولوجية على السواء للبيريسترويكا . وبمقدور الحزب وحده أن يفعل كل هذا .

إن الإدارة والشئون الاقتصادية هي مهمة الحكومة والمنظمات الأخرى المسؤولة

عن هذه الأمور . وهذه النظرة لم تنشأ من فراغ ، وإنما دفعت إليها التجربة ويجب على الحزب أن يقوم بمهمته . وعلى كل الآخرين أن يقوموا بمهامهم . وعندما لا يحدث ذلك يتضح أن قيادة الحزب ونشاطه الأيديولوجي وعمله مع الكوادر غير كاف .

لقد تطور مجتمعنا تاريخيا بطريقة جعلت كل ما يحدث داخل الحزب يجد انعكاسه في حياة بلادنا . والمعارضة الرسمية غير قائمة في بلادنا . وهذا مايلقى مسئولية أكبر على الحزب الشيوعي السوفيتي باعتباره الحزب الحاكم . ولهذا السبب فإننا نعتبر مواصلة تطوير الديمقراطية الداخلية في الحزب ، وتدعيم مبدأ القيادة الجماعية في العمل ، ومزيذا من العلانية في الحزب ، كذلك ، ذات أولوية عليا . وتطلب اللجنة المركزية بأن يكون من ينتخبون للمناصب العليا متواضعين ، ومهذبين ، وأمناء ، وغير متسامحين حيال المداهنة والتملق . ولا يمكن أن يكون في الحزب من هو فوق النقد أو من ليس له حق النقد .

وكان واضحا لنا أن علينا ان نبدأ بتغيير تفكيرنا وعقليتنا ، وتنظيم طراز وأساليب عملنا ، وأن علينا أن نبدأ بالناس ، وفي المحل الأول بالمديرين .

لقد بدأنا بتصميم كبير نسير في الطريق الهادف إلى دعم الأشخاص الواسعي الحيلة ، الذين يفكرون ، والديناميون والقادرون على تقييم وضع ما بنظرة انتقادية ذاتية ، وعلى التخلص من الشكليات والمواقف الجامدة في العمل ، ويجدون حلولاً جديدة غير جامدة ، الأشخاص الذين يمكنهم ، ويريدون ، أن يتحركوا إلى الأمام بجرأة والذين يعرفون كيف يصلون إلى النجاح . وقد أعطت البيريسترويكا لمثل هؤلاء الناس مكانا كبيرا لنشاطهم الخلاق .

وليست هناك حاجة ، بالطبع ، لتغيير العاملين بشكل كامل . كما أن هذا غير ممكن في الواقع . ومن الممكن أن تكون هناك ، بالطبع ، بعض التغييرات في العاملين في المستويات العليا والوسطى وعلى مستوى مؤسسة واحدة كذلك . إننا في

حاجة إلى قوى جديدة وهذا ما يحدث بالفعل في الحقيقة . وإلى جانب ذلك ، هناك أيضا عملية طبيعية تفصح عن نفسها : فبعض الناس وصلوا بالفعل إلى نهاية خدمتهم ، وبعضهم لم يعد ببساطة من القوة بحيث يتحمل عبء مسئولية جديدة . وهذا أمر مفهوم ، فليس هناك ما يدعو إلى المبالغة الحادة فيما يتعلق بالوضع .

إن لكل فترة مطالبها الخاصة ، وأناسها المتقدمين ، وطرقها الخاصة لتناول الأمور . والقادرون على إعادة تنظيم أنفسهم ، واتباع طرق جديدة في العمل السياسى والتنظيمى والأيدىولوجى ، سيعملون وسيحظون بمساندة الجماهير العاملة وتنظيمات الحزب . وغالبية كوادرننا مستعدة لذلك ، ولو بطرق مختلفة : فسيقبل بعضهم المطالب الجديدة بسرعة أكبر ، بينما قد يفكر غيرهم أكثر من مرة . ونحن من حيث المبدأ ننطلق من افتراض أن غالبيتهم قادرون على حل مشاكل البيرسترويك . ومع ذلك فليس بإمكاننا أن نتحمل وضعاً يستمر فيه فعل كل شيء بالطريقة القديمة ، بدون تسريع ، أى بدون أن نزيد من سرعتنا .

وتتطلب البيرسترويك كفاءة ونزعة مهنية عالية ، ولا يمكننا أن نستغنى عن التدريب الحديث والشامل ، دون معرفة دقيقة في مجالات الإنتاج ، والعلم ، والتكنولوجيا ، والإدارة ، والاقتصاد ، وفي تنظيم العمل وحوافز العمل ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس . وباختصار ، يجب أن نحرك أكبر قدر من طاقة البلاد الفكرية ، ونزيد بشكل أساسى من كفاءتها الخلاقة .

وأود أن أؤكد مرة أخرى أهمية نشاط الحزب في المجال النظرى . فهناك قدر كبير من العمل يجرى في هذا المجال كذلك ولكننا نسعى في هذا المجال أيضا إلى ديموقراطية أكبر ولن نسمح باحتكار شخص واحد أو مجموعة من الأشخاص . وتدعو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى كافة القوى الخلاقة في الحزب والمجتمع لأن تشارك في هذا العمل . وإذا ما سمحنا لكل شيء بأن يأتى من

المركز ، أو من شخص واحد أو مجموعة من الأشخاص ، وهذا أسوأ ، فن المحتمل أن ننزلق إلى تفكير متحجر . وسيكون ذلك ضربة قاتلة لبرنامج البيريسترويكا ، وبالتالي ، لتطور المجتمع . ويعرف تاريخ الحزب الشيوعي السوفيتي بعض الدروس المؤسفة والمريرة في هذا الخصوص . وليس بإمكانك أن تحصر دور علم الاجتماع والقوى الخلاقة في الحزب في التعليق على قرارات أو خطب الأفراد في المناصب العليا . لقد اخترنا موقفا آخر - وسوف نتصرف بما يتمشى مع مبادئ لينين ، وتقاليد لينين .

رابعاً - الغرب والبيرسترويكا

إننا نهتم على الدوام بالطريقة التي ينظر بها إلى البيرسترويكا خارج البلاد ، وبخاصة في الغرب . ولا يعود ذلك إلى مجرد حب الاستطلاع ، وإنما إلى أنه واجبنا كسياسيين . فنحن نرى أن عملية إعادة البناء تثير اهتماما متزايدا ليس فقط لأنها مثار اهتمام في حد ذاتها ، وإنما لأنها تتعلق بمصير أمة كبيرة . إن إعادة البناء في بلادنا تعتبر بحق حدثا له آثار دولية كبيرة . وقد كتبت إحدى الصحف في أوروبا الغربية تقول : « إن ما يحدث في الاتحاد السوفيتي يهتم العالم أجمع » . وينبغي أن أشير أولا إلى أن الاهتمام الحقيقي بالبيرسترويكا بين الغالبية الساحقة من الناس في العالم أجمع يصاحبه تفاؤل ورغبة مخلصية بأن تكلل التغييرات التي بدأت في الاتحاد السوفيتي بالنجاح . ويتوقع العالم الكثير من البيرسترويكا ويأمل أن تؤثر بشكل إيجابي على مجرى التطورات العالمية والعلاقات الدولية في مجموعها .

وفيما يتعلق بالدوائر الرسمية وغالبية وسائل الإعلام الجماهيرى في الغرب ، كانت هناك في البداية قناعة محدودة للغاية بإمكانية الإصلاحات التي أعلنها في أبريل ١٩٥٥ . وكثرت الملاحظات الساخرة : إنه مجرد تغيير في الفرق ، كما يقولون ، وهكذا تسرع الفرقة الجديدة إلى طرح مفهوماتها وبرامجها . وزعموا أن الروس شعب عاطفي اعتاد أن يقوم الزعماء الجدد بإلقاء مسئولية النواقص على الزعماء السابقين ، بينما يظل كل شيء على حاله . ومع مضي الوقت ، كما يقولون ، سيدوى النقد وينسون الالتزامات الجديدة .

يبدو أن وجهة النظر هذه لم تدم طويلا . وأصبح من الواضح تماما أن إعادة البناء حقيقة تاريخية وأنها تزداد قوة . وبعد اجتماع يناير ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي لم يعد بالإمكان إنكار حقيقة أن هذا البلد قد دخل بالفعل فترة من الإصلاحات الجريئة والبعيدة المدى .

بل إن الحوافز الجديدة أصبحت أكثر وضوحا في التعليقات على اجتماع يونيو ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية . وبدأوا يقولون بأن مدى ونطاق الإصلاحات المقترحة في الإدارة الاقتصادية فاقت تنبؤات معظم المختصين بالدراسات السوفيتية . ونحن نرى أن الكثيرين في الغرب لم يتوقعوا مثل هذه المناقشة الصريحة والعميقة ، ومثل هذه التدابير البناء الواسعة النطاق . ويبدو أن نعت « منتصف الطريق » الذي استخدم لوصف نشاطنا حتى يونيو ، قد أصبح باليا عند وصف قرارات اجتماع يونيو الكامل ودورة السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتي . لقد ذهبنا بعيدا خارج « دائرة الطباشير » التي حصر فيها الغرب إمكانياتنا ونوايانا . وحتى قبل الاجتماع الكامل ، كانت هناك ثروة من الأقوال عن أن « حملة جورباتشوف من أجل الإصلاحات » تفقد قوة اندفاعها .

والآن يتحدثون عن « ثورة ثانية » ، وعن الطبيعة التي لا رجعة فيها لإعادة البناء ، وعن قيامنا « بقفزة جديدة » على أساس إصلاحات اقتصادية وقانونية أقرت أخيرا . وبشكل عام ، فإن لديهم الآن الحق في أن يشعروا بأهمية اجتماع يونيو الكامل لعملية إعادة البناء . وهكذا أصبح من الضروري حتى بدرجة أكبر تحديد موقف من إعادة البناء . وهم يتقدوننا على معدل مسيرة إعادة البناء . لأننا في غاية التباطؤ ، في رأي « اليسار » ، ولأننا نسير بقفزات كبيرة للغاية ، في رأي « اليمين » . ولكن يبدو أنهم جميعا متفقون على أن القيادة السوفيتية تنفذ الإصلاحات بشكل جاد .

ويريد المراقبون الأجانب الوقوف على نتائج إعادة البناء ، بالنسبة للاتحاد السوفيتي والعالم ، إذا ما استمرت العملية . وهم يريدون أن يعرفوا ما قد يناسب الغرب بشكل أفضل : نجاح البيريسترويكا أو فشلها ؟ .

ومن الواضح ، أن هناك إجابات عديدة على هذه الأسئلة . ويقول كثير من المتخصصين الأكفاء : إن التنمية الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع السوفيتي يمكن

زيادة سرعتها ، وأن النجاح في الحركة الحالية من أجل إعادة البناء سيكون له آثار دولية إيجابية . وهم يقولون بحق : إن الأسرة العالمية يمكنها أن تستفيد فقط من نمو رفاهية الشعب السوفيتي ومواصلة تقدم الديمقراطية . إن نطاق ومدى البرامج الاجتماعية والاقتصادية التي ينفذها الاتحاد السوفيتي تدل على سياسته الخارجية السلمية وتقدم ضمانات مادية لها . ومن ثم أبعث بهذه الرسالة إلى قادة الدول الغربية - لا تخشوا البيريسترويكا ، ولا تجعلوا منها موضوع حرب نفسية ، بل بالأحرى طوروها من خلال دولاب العلاقات الاقتصادية والمبادلات الثقافية والإنسانية ، وخذوا بجدية المبادرات السوفيتية لتزع السلاح وتحسين الوضع الدولي ، واسعوا إلى اتفاقات حول هذه المسائل .

وإذا ما تركنا جانبا كثيرا من التقييمات والتقديرات التي نراها قابلة للنقاش ، فإننا بشكل عام نعتبر هذا الموقف موقفا واقعيا ونرحب بتوجهه البناء في الغالب . إنه يتلاءم مع الحركة الرامية إلى تحسين العلاقات الدولية ، ويعكس المشاعر العامة .

ويبدو بعض السياسيين بعد نظر في الاعتراف بأن الغرب قد يرتكب خطأ تاريخياً إذا لم يستجيب لرسالة موسكو الإيجابية . وإذا لم يتخلص من الآراء الخاطئة عن الاتحاد السوفيتي ومن الأثقال التي خلقها بنفسه .

يبدو أن هناك فكرة مختلفة تماماً يجري تطويرها بنشاط في وسائل الإعلام والمناقشات السياسية في الغرب . فما تزال تبذل محاولات لتشويه سمعة سياستنا ونوايانا . وكانت هناك تنبؤات متشائمة ومخاوف بخصوص دينامية السياسة الخارجية والداخلية . ويوضح ذلك مرة أخرى ، مدى قوة القصور الذاتي للحرب الباردة ، ومدى عمق جذور معاداة السوفيت في دوائر معينة . وإذا ما انتهت الأمور إلى مناقشات مدرسية وإلى تمرين في الدعاية فمن الممكن للمرء أن يتجاهلها . وفي الحقيقة فستبرهن التجربة تماماً أين تكمن الحقيقة . يبدو أن المسألة هي أن ذلك

يعطى فرصة لتخويف الناس بفكرة أن تؤدي البيريسترويكا كما يزعمون إلى تنامي القدرة العسكرية والاقتصادية للاتحاد السوفيتي . وبالتالي إلى تزايد «الخطر السوفيتي» . وإذا كان الأمر كذلك ، فيجب النظر إلى العلاقات مع الاتحاد السوفيتي في إطار الفشل المحتمل للبيريسترويكا ، ويجب أن يكون الهدف العام هو عرقلتها وإحباطها تمشيا مع المبدأ الذي يستخدمه أعداء السوفيت المحمومون : «كلما ساءت الأمور بالنسبة للاتحاد السوفيتي ، كلما كان ذلك أفضل بالنسبة للغرب» .

ولا تحاول الدوائر اليمينية المتطرفة للغاية إخفاء مواقفها المعادية للبيريسترويكا ، لأنها تبرهن على خطأ الرأي القائل بأنه لا يوجد في الاشتراكية شيء تقدمه «للعالم الحر» . وبالنسبة لهؤلاء الناس ، يعتبر رفض المبدأ الجامد البالي عن «عدم التحرك الاجتماعي» السوفيتي معادلا لكارثة أيديولوجية ، لأنه سيكون عليهم عندئذ أن يراجعوا كلية مبدأ معاداة السوفيت والتوجهات السياسية الناجمة عنه . وسوف تتبدد أسطورة «الخطر السوفيتي» الذي ينشأ كما يزعمون من حقيقة أن الاتحاد السوفيتي ، لعجزه عن التغلب على مصاعبه الداخلية ، يبدأ في التوسع .

وقد حاولوا حتى تشويه سمعة العلانية وإشاعة الديمقراطية . فمثلا ، يرسلون بأخبار زائفة من الاتحاد السوفيتي ، مستشهدين بالصحافة السوفيتية ، كمصدر رئيسي ولكن سرعان ما يتضح أن لا شيء من هذا القبيل قد نشر في المطبوعات السوفيتية : وهم يفعلهم هذا يهدفون إلى استفزازنا لتقييد العلانية واحتوائها والتخلي عن إشاعة الديمقراطية ، وليجعلونا نشور على وسائل إعلامنا . وهدفهم هو وقف العمليات الكامنة في البيريسترويكا والتي لا يمكن تصورها دون العلانية وإشاعة الديمقراطية .

وقد بذلت جهود متزايدة لبذر الشكوك بين مواطنينا حول صواب البيريسترويكا ، ومحاولات لتخويفهم من الصعوبات وإثارة توقعات غير واقعية . وهم يأملون في أن ينشروا عدم الثقة في شعبنا نحو القيادة ، وفي إثارة بعض

القادة ضد آخرين ، وتقسم صفوف الحزب والمجتمع .

ويحاول بعض السياسيين ووسائل الإعلام ، وبخاصة في الولايات المتحدة ، تصوير البيريسترويكا كحركة من أجل «الانفتاح» مبعثها ضغوط الغرب . وبالطبع ، لا يسع المرء إلا أن يعترف بقدرات مسئولى الدعاية في الغرب ، الذين نجحوا للغاية في مباراتهم الكلامية عن الديمقراطية . ولكننا سنقتنع بالطبيعة الديمقراطية للمجتمعات الغربية عندما يبدأ عمالها وموظفوها في انتخاب أصحاب المصانع ووحدات الإنتاج ورؤساء البنوك الخ . وعندما توجه وسائل الإعلام لديها وإبلا من النقد المنتظم ضد الاحتكارات والبنوك ورؤسائها ، وتبدأ في مناقشة العمليات الحقيقية الكامنة في بلدان الغرب ، بدلا من أن يقتصر دورها على الانغماس في مناقشات عديمة الجدوى ولا نهاية لها مع الشخصيات السياسية .

ويقول بعض منتقدي إصلاحاتنا إن وجود ظواهر مؤلمة في مجرى البيريسترويكا أمر محتوم . وهم يتنبأون بحدوث التضخم ، والبطالة ، وتزايد التمايز الاجتماعي ، أى ، العلل ، التى تضر بها المجتمعات الغربية ، أو يقولون بأن اللجنة المركزية تجد معارضة قوية بين مسئولى الحزب والحكومة ، أو يقولون بأن جيشنا ضد إعادة البناء ، وإن الـ ك . ج . ب^(٢٨) لم يقل كلمته بعد . إنهم على استعداد لادعاء أى شيء للتوصل إلى أهدافهم .

ولكن يجب أن أقول لمعارضينا بعض أشياء تثبط همهم : إن أعضاء المكتب السياسى واللجنة المركزية متفقون جميعا اليوم فى رأى أكثر من أى وقت مضى ، وليس هناك ما يجعل هذا الاجماع يهتز . وسواء فى الجيش ، أو فى لجنة أمن الدولة ، أو فى أية إدارة حكومية أخرى ، فإن الحزب يمارس أعلى سلطة ولديه صوت حاسم سياسيا . وقد تعزز الاندفاع نحو البيريسترويكا فقط من موقع الحزب ، فأضاف بعداً جديداً لدوره المعنوى والسياسى فى المجتمع والدولة .

(٢٨) ك . ج . ب . - لجنة أمن الدولة التابعة لحكومة الاتحاد السوفيتى .

ومع ذلك ، فسأقول ، إحقاقاً للحق ، إن كفاءة المراقبين الغربيين ترى بشكل صائب الطبيعة الاشتراكية لتحولاتنا ، وأنها تهدف إلى دعم الاشتراكية . ولكن أولئك الذين يحاولون أن يخيفوا الرأي العام في الغرب من البيرسترويكا إنما يخشون فعلاً من نجاحها ، وإن يكن فقط لأن هذا النجاح يحبط فرص استخدام «الخطر السوفيتي» كمصدر للذعر ، وتعتم الصورة الحقيقية لبلادنا «بصورة العدو» الغربية والقييحة ، ويحبط كذلك مواصلة سباق التسلح العديم المعنى تحت شعارات ديماجوجية وتكوين ثروات منه .

وإذا ما تحققت خططنا التنموية بنجاح حقاً ، فكيف سيمكنهم خداع الناس بإخبارهم أن الاشتراكية ليست نظاماً مفعماً بالحياة وقادراً على أن يعطي لمواطنيه الغذاء والملبس ؟ إن الفكرة القائلة بأن بلادنا «امبراطورية الشر» وبأن ثورة أكتوبر خطأ تاريخي فاضح ، وبأن فترة ما بعد الثورة خط متعرج في التاريخ ، تتناثر الآن أشلاء . وهذا النوع من البيرسترويكا لا يلائم بالفعل بعض الناس .

وقد كتبت المجلة الألمانية الغربية «شتيرن» ، إنهم يحاولون اليوم بشكل متهور الإفتاء على الإصلاحات الحالية في الاتحاد السوفيتي وتلطيف سمعتها . وهم إذ يقولون ذلك فإنهم في الواقع إنما يدعمون فقط النظام السوفيتي . إن الكرملين يريد شيئاً واحداً - أن يجعل النظام أكثر كفاءة ، ولكن ، يا إلهي ، إذا ما كانت الحركة ضد الفساد وسوء الإدارة ، وإذا ما كان المزيد من حرية الفكر يدعمان النظام الشيوعي ، فإنه طبقاً لهذا المنطق عندئذ ، ستكون الديمقراطية هي الوسط الغذائي الأفضل للماركسية «اللينينية» ! وأود أن أضيف بضع كلمات لهذا الاقتباس البليغ . إذا ما كانت الاشتراكية في الحقيقة لا تتفق كلية مع الديمقراطية والكفاءة الاقتصادية ، كما يقول معارضوها ، فلن يكون لديهم ما يقلقهم على المستقبل وعلى أرباحهم .

وإذا ما انتقدنا أنفسنا بطريقة لم ينتقدنا بها أحد على الإطلاق ، في الغرب أو

الشرق أو في أى مكان آخر ، فذلك يرجع إلى أننا أقوياء ولا نخشى على مستقبلنا . وسوف نصمد في مواجهة هذه الانتقادات ، وسيصمد الحزب والشعب . ولكن عندما تعطى إصلاحاتنا النتائج المتوقعة ، فإن نقاد الاشتراكية عليهم أن يجتازوا كذلك مرحلة «بيرسترويكا» .

لقد وضعناهم في مأزق ، لأننا نعرف نواقصنا أفضل كثيرا ونكتب ونتحدث عنها بإخلاص وكفاءة أكثر منهم . وهكذا سيكف الناس في الغرب بالتدريج عن تصديق كل الهراء الذى يقال لهم عن الاتحاد السوفيتى . وكل هذا يجعل من الصعب تطوير الثقة في سياسة البلدان الغربية .

في مناقشاتي مع الأمريكيين ومع أناس من بلدان الغرب الأخرى ، كنت أساءل بشكل قاطع على الدوام إذا ما كانوا يريدون أن يكون لدى الاتحاد السوفيتى الفرصة لتوجيه مزيد من الموارد لتنميته الاقتصادية والاجتماعية عن طريق تخفيضات في إنفاقه العسكرى . أو هل يريد الغرب ، في مقابل ذلك ، أن يجهد الاتحاد السوفيتى اقتصاديا بتسريع سباق التسلح لكى يحبط العمل الهائل الذى بدأناه وبحبر القيادة السوفيتية على تخصيص موارد أكثر فأكثر للأغراض غير المنتجة ، للتسلح ؟ وهل تنتهى الفكرة كلها حقا إلى إجبار الاتحاد السوفيتى على التركيز كلية على المشاكل الداخلية ، وبذلك يسمح للغرب بالسيطرة على بقية العالم ؟ .

ولكن هناك جانبا آخر لهذه المسألة . فالذين يأملون في إجهاد الاتحاد السوفيتى يبدون في غاية التجاسر بالنسبة لرفاهيتهم الاقتصادية الخاصة . ومهما كانت الولايات المتحدة غنية فبإمكانها أيضا أن تساء التصرف بإنفاقها ثلث تريليون دولار في العام على التسلح . إن الزيادة في الإنفاق على الأسلحة يطلق العنان لزيادات في عجز الميزانية . والولايات المتحدة اليوم تقترض ثلثي ما تنفقه على التسلح . والدين الاتحادى للولايات المتحدة ، هو في الحقيقة دين البتاجون ، ولا بد أن تقوم بتسديده أجيال عديدة من الأمريكيين . ولا بد من وضع نهاية لهذا الخيط في مكان

ما . ولكن على أية حال ، إنه أمر يخص الأمريكيين وحدهم .

أحيانا يتكون لدى انطباع بأن بعض السياسيين الأمريكيين بينما يمتدحون نظامهم الرأسمالى ، وديمقراطيتهم ، فإنهم ليسوا متأكدين رغم ذلك من أيهما ، ويخشون المنافسة مع الاتحاد السوفيتى فى ظروف السلام . ويرغمهم هذا على الإصرار على الاحتفاظ بآلة الحرب ، وتغذية التوترات ، الخ . وأشعر أن بعض المراقبين سيكتبون ، عند قراءة هذه السطور ، أن جورباتشوف ، للأسف ، ليست لديه معرفة طيبة بالديموقراطية الغربية . وأسفاه ، إننى أعرف شيئا أو شيئين ، ولكن ذلك يكفى بأية حال لكى تكون لدى ثقة قوية فى الديمقراطية الاشتراكية والنزعة الإنسانية الاشتراكية .

وسوف نحل المسائل التى نناقشها بأمانة ، وسنصل إلى الأهداف التى رسمناها . إن نزعة شعبنا يجب أن تؤخذ كذلك فى الاعتبار . فإذا كان قد اشتعل حماسه ، إن جاز التعبير ، وألقى بثقل مشاعره الوطنية فى المعركة ، فإنه عندئذ لن يدخر وسعا فى إنجاز أهدافه ، وسيفعل المعجزات من أجل ذلك . والاتحاد السوفيتى بلد واسع غنى بمعادنه وقواه العاملة الماهرة وموارده العلمية الضخمة وكل العمال تقريبا لديهم تعليم ثانوى كامل . ولهذا لا تتعجلوا بأن تلقوا بنا إلى « كومة نفايات التاريخ » ، وفقط تدفع هذه الفكرة الشعب السوفيتى إلى الابتسام .

فى محادثاتى مع وفد من مجلس النواب الأمريكى فى أبريل الماضى ، قلت إن تنفيذ خططنا للتجديد لا يشكل خطرا - سواء سياسيا أو اقتصاديا ، أو أى خطر آخر - على الشعب الأمريكى ، أو على أى بلد . وقلت نفس الشيء فى الكرملين فى خطابى إلى المشاركين فى منتدى « من أجل عالم خال من الأسلحة النووية وبقاء البشرية » : نحن نود أن يفهمنا غيرنا ، ونأمل بأن تعترف الأسرة العالمية بأنه هناك من هو بحاجة لأن يكون خاسرا وسيكسب العالم كله من رغبتنا فى جعل بلادنا أفضل .

وهكذا ، فلا الاتحاد السوفيتى ، ولا البيرسترويكا يشكلان أى خطر على أى أحد ، إلا أن يكون عملنا مثالا لكل من يحده مقبولا . ونحن نتهم المرة بعد المرة ، بأننا نريد أن نغرس الشيوعية فى جمع أنحاء العالم . ياله من هراء . إن الأمر لم يكن ليهمنا لو صدرت هذه الاتهامات عن أناس لا تساورهم الشكوك كثيرا فيما يكتبون من أجل كسب معاشهم . ولكن نفس الاتهامات يرددها ، حتى يومنا هذا ، وعلنا رجال دولة مسئولون كما يبدو . وقد عجبت كثيرا أن أسمعها بعد عامين من بدء البيرسترويكا من سياسى تعودت احترامه . واستفسرت منه ، لماذا ؟ إننا نعرف مبادئ ترومان ، وأيزنهاور ، وريجان . ولكن أحدا لم يسمع عن أية بيانات من جانبنا عن « غرس » الهيمنة « الشيوعية » . وقد قال لينين إننا نحن الدولة الاشتراكية سنؤثر على التطورات العالمية أساسا من خلال منجزاتنا الاقتصادية .

وسيبن نجاح البيرسترويكا أن الاشتراكية ليست قادرة فحسب على الاضطلاع بالمهمة التاريخية ، مهمة التوصل إلى قمم التقدم العلمى والتكنولوجى ، وإنما فى استطاعتها أيضا أن تتناولها بأقصى قدر من الكفاءة الاجتماعية والمعنوية ، عن طريق أساليب الديمقراطية ، من أجل الشعب وبفضل جهوده ، ودكائه ، ومهاراته ، ومواهبه ، ووعيه وإدراكه لمسئوليته تجاه الشعوب الأخرى .

وسيكشف نجاح البيرسترويكا تماما عن ضيق الأفق الطبقي وأنانية القوى التى تحكم الغرب فى هذه الأيام ، القوى التى تتمسك بالترعة العسكرية وبسباق التسلح ، والتى تبحث عن « أعداء » فى جميع أنحاء العالم .

وسوف يساعد نجاح البيرسترويكا البلدان النامية على أن تجد طرقا للتوصل إلى التحديث الاقتصادى والاجتماعى دون حاجة إلى تقديم تنازلات للاستعمار الجديد أو أن تلقى بنفسها فى مرجل الرأسمالية .

وسيكون نجاح البيرسترويكا آخر حجة فى النزاع التاريخى حول أى نظام هو أكثر اتساقا مع مصالح الشعب . إن التخلص من السمات التى ظهرت فى الظروف

الصعبة ، سيكسب صورة الاتحاد السوفيتى جاذبية جديدة ، وسيكون التجسيد الحى للمزايا الكامنة فى النظام الاشتراكى . وستكسب مثل الاشتراكية العليا قوة دافعة .

لقد تحققت فى أكثر من مناسبة من أن من يتحدثون معى من الغربيين يفهمون ذلك تماما . لقد قال لى سياسى غربى ، ليس شيوعيا بأية حال : «إذا فعلتم ما تعتقدونه ، فسيكون لذلك نتائج خيالية ، نتائج عالمية حقا » .

وربما لا يكون من السهل على قارئ أجنبى أن يدرك كثيرا من صعوباتنا . وهذا أمر طبيعى : فكل شعب وكل بلد له حياته الخاصة ، وقوانينه الخاصة ، وآماله ومفهوماته الخاطئة الخاصة ، ومثله العليا الخاصة . ومثل هذا التنوع رائع . إنه يحتاج إلى تطويره بدلا من كبحه . وأنا من جانبى أشمئز من محاولات بعض السياسيين تعليم الآخرين كيف يعيشون وأية سياسة يتبعون . إنهم ينطلقون من الافتراض المتعجرف بأن الحياة والسياسة فى بلدهم إنما هى مثال ونموذج للحرية ، والديموقراطية ، والنشاط الاقتصادى ، والمستوى الاجتماعى . وأعتقد أنه سيكون من الأكثر ديموقراطية بكثير أن يفترضوا أن البلدان الأخرى يمكنها ألا توافق على وجهة النظر هذه . فى عالمنا المعقد والمضطرب من المستحيل أن يقاس كل شىء بمقياس المرء الخاص . إن محاولات فرض الآراء من موقع القوة ، وكذلك محاولات الضغط المعنوى ، والسياسى ، والاقتصادى أصبحت طرازا باليا . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن هذه المحاولات خطيرة ، فهى تثير الرأى العام ، وبالتالي تعوق التقدم نحو السلام والتعاون .

والفهم الصحيح للبيريسترويكا هو أيضا مفتاح لفهم السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى . والحقيقة المنبثقة من البيريسترويكا تتفق ومصالح السلام العالمى والأمن الدولى . وإننا إذ نطالب الغرب بإخضاع عملنا لدراسة مسئولة وأمانة وغير متحيزة لا ننطلق من مصالحنا الخاصة وحدها . إن العجز عن إدراك جوهر البيريسترويكا

وعدم الرغبة في ذلك يكونان إما نقطة بداية لمفاهيم خاطئة عن نوايانا في المعترك العالمى ، وإما أنه محاولة أخرى للإبقاء على عدم الثقة وتعميقها في العلاقات بين البلدان والشعوب .

والصلة العضوية بين كل من السياسة الخارجية والداخلية لكل دولة وثيقة للغاية ، وذات معنى على وجه الخصوص في اللحظات الحاسمة . وأى تغير في السياسة الداخلية يقود بالضرورة إلى تغييرات في الموقف من المسائل الدولية . ولهذا السبب ، يصبح اتساق نشاطنا الآن في ظروف البيريسترويكا ، في الداخل وفي المعترك الدولى أكثر وضوحا ، وملموما بدرجة أكبر من أى وقت مضى . والمفهوم الجديد للسياسة الخارجية السوفيتية ، وخطوطها التوجيهية ونشاطاتها العملية هي جميعا امتداد عاجل لفلسفة وبرنامج وممارسة إعادة البناء .

إن عملية البيريسترويكا في الاتحاد السوفيتى تتيح فرصا جديدة للتعاون الدولى . ويتنبأ المراقبون غير المتحيزين بنمو نصيب الاتحاد السوفيتى في الاقتصاد العالمى وزيادة الحيوية في الصلات الخارجية الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية ، بما في ذلك الصلات التى يحرص عليها من خلال المنظمات الاقتصادية الدولية .

ونحن نقول للجميع بصراحة ليسمعوا : إننا نحتاج إلى سلم وطيء كى نركز على تنمية مجتمعا ولكى نضطلع بمهام تحسين حياة الشعب السوفيتى . ورسما خططنا طويلة المدى وجوهرية . ولهذا السبب ينبغى أن يدرك كل امرئ ، بما في ذلك شركاؤنا ومنافسونا في الغرب ، أن سياستنا الدولية لبناء عالم خال من الأسلحة النووية ومن العنف ، والتى تؤكد المعايير الحضارية في العلاقات بين الدول ، جوهرية وجديرة بالثقة على حد سواء مع المبادئ التى تقوم عليها .

الباب الثانى التفكير الجديد والعالم

الفصل الثالث

كيف نرى عالم اليوم ؟

أين نقف

لقد بدأنا البيرسترويكا فى وضع يتزايد فيه التوتر الدولى . وكان انفراج السبعينيات قد أوقف فى الواقع . ولم تجد نداءاتنا من أجل السلام أية استجابة فى الدوائر الحاكمة للغرب . وكانت السياسة الخارجية السوفيتية تكبح . وكان سباق التسلح يستعر من جديد . وكان خطر الحرب يتزايد .

وعند التأكيد على كيفية التوصل إلى تحول نحو الأفضل ، كان على المرء أن يسأل الأسئلة التالية . لماذا يحدث ذلك ؟ من أى مفترق يقرب العالم فى تطوره ؟ ولكى نجيب على ذلك كان علينا أن نلقى بنظرة واقعية وحصيفة على صورة العالم على اتساعه ، وأن نتحرر من قوة العادة فى تفكيرنا . وكما نقول فى روسيا ، ننظر إلى الأمور « بنظرة جديدة » .

ماذا يشبه هذا العالم الذى نعيش فيه جميعا ، عالم الأجيال الحالية من البشرية ؟ إنه متنوع ، ومتباين ودينامى ومشرب باتجاهات متعارضة وتناقضات حادة . إنه عالم تحولات اجتماعية جوهرية ، وثورة علمية وتكنولوجية شاملة ، ومشاكل عالمية تتدهور - مشاكل تتعلق بالبيئة ، وبالموارد الطبيعية الخ - وتغيرات جذرية فى تكنولوجيا المعلومات . إنه عالم توجد فيه إمكانيات لم يسمع من قبل عنها للتطور والتقدم جنباً إلى جنب مع الفقر المدقع ، والتخلف ، ومعالم العصور الوسطى . إنه عالم حافل بـ « مجالات توتر » ضخمة .

كل شىء كان أكثر بساطة بدرجة كبيرة منذ عدة سنوات خلت . فقد كان هناك دول عديدة تحدد مصالحها وتوازنها إذا استطاعت ذلك ، وتلجأ إلى الحرب إذا ما فشلت . وبنيت العلاقات الدولية على أساس توازن مصالح هذه الدول

العديدة . هذا مجال لواحدة ، وذاك لأخرى ، وما يزال هناك مجال لثالثة . ولكن لنلق نظرة على ما حدث طوال الأربعين عاما التى تلت الحرب العالمية الثانية حتى وقتنا الحاضر .

تشمل الخريطة السياسية للعالم اليوم المجموعة الضخمة للبلدان الاشتراكية التى قطعت طريقا طويلا فى تطويرها التقدمى عبر تاريخ ليس بطويل ، والامتداد الواسع للدول الرأسمالية المتطورة بمصالحها الخاصة ، وبتاريخها الخاص ، ومشاكلها ومشاكلها ، والمحيط المترامى من بلدان العالم الثالث الذى ظهر فى الثلاثين أو الأربعين عاما الماضية عندما حصلت عشرات من بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية على استقلالها .

ويبدو من الواضح أن كل مجموعة من الدول وكل بلد له مصالحه الخاصة . ومن وجهة نظر المنطق الأولى ، ينبغى أن تجد كل هذه المصالح انعكاسا معقولا فى السياسة العالمية . بيد أن الأمر ليس كذلك . لقد قلت أكثر من مرة لمن تحدثوا معى من البلدان الرأسمالية : ينبغى أن نرى الوقائع ونأخذها فى اعتبارنا - فهناك عالم الرأسمالية وعالم الاشتراكية ، كما أن هناك عالما ضخما للبلدان النامية . والأخير هو موطن لملايين الناس . ولكافة البلدان مشاكلها . ولكن البلدان النامية لديها مشاكل أكثر مائة مرة من الدول الأخرى ، وينبغى أخذ ذلك فى الاعتبار . ولهذا البلدان مصالحها الوطنية الخاصة . لقد كانت مستعمرات لعقود كثيرة ، وكافحت بعناد من أجل تحررها . وبعد أن كسبت استقلالها ، تريد أن تحسن حياة شعوبها ، وتستخدم مواردها كما تريد ، وتبنى اقتصادا وثقافة مستقلين .

فهل هناك أمل فى بناء علاقات دولية طبيعية وعادلة ، تنطلق كلية ، من مصالح الاتحاد السوفيتى ، مثلا ، أو الولايات المتحدة أو بريطانيا أو اليابان ؟ كلا ! إن هناك حاجة إلى توازن المصالح . وفى وقتنا الحاضر لا يوجد مثل هذا التوازن . لأن الأغنياء الآن يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقراً . ومع ذلك ،

فالعلاقات الدولية بأسره تختمر في العالم الثالث .
ليس بإمكان أحد أن يوقف عالم الاشتراكية أو العالم النامي أو عالم الرأسمالية المتطورة . ولكن هناك رأيا يقول . بأن الاشتراكية حدث عارض في التاريخ ، وأن الوقت لن يطول قبل أن يلقي بها في كومة النفايات . عندئذ يمكن ترويض العالم الثالث وتعود كافة الأمور إلى مجراها الطبيعي ، ويكون الرخاء ممكنا من جديد على حساب الآخرين . إن الهروب إلى الماضي ليس إجابة على تحديات المستقبل ، لكونه مجرد مغامرة ترتكز على الخوف وعدم الثقة بالنفس .

ونحن لم نشهد من جديد فقط واقع العالم المتعدد الألوان والمتعدد الأبعاد . ولم نقيم فقط اختلاف المصالح بين الدول منفردة . لقد رأينا القضية الرئيسية - الاتجاه المتعاضم نحو الاعتماد المتبادل بين دول المجتمع العالمي . وهذه هي جدليات التطور اليوم . فالعالم - المتناقض ، والمتنوع اجتماعيا وسياسيا ، ولكنه مع ذلك مترابط ومتكامل لدرجة كبيرة - يتشكل بصعوبات كبيرة ، كما لو كان يتحسس طريقه من خلال الصراع بين الأضداد .

وهناك حقيقة أخرى في عصرنا لاتقل وضوحا هي ظهور وتفاقم مايسمى بالقضايا العالمية التي غدت كذلك حيوية بالنسبة لمصائر الحضارة . وأعني بذلك قضايا المحافظة على الطبيعة ، والوضع الحرج للبيئة ، وتلوث الجو والمحيطات ، وموارد كوكبنا التقليدية ، التي اتضح أنها ليست بلا حدود . وأعني الأمراض القديمة والجديدة البغيضة ومشاكل البشرية العامة : كيف نضع حداً للمجاعة والفقر في مناطق واسعة من الأرض ؟ وأعني العمل الذكي المشترك في استكشاف الفضاء الخارجي والمحيط العالمي واستخدام المعرفة التي نحصل عليها لصالح البشرية .

ويمكنني أن أقول الكثير عما نقوم به على المستوى القومي في بلادنا للمساعدة على حل هذه المشاكل . وقد لمستنا إلى حد ما عندما ناقشت البيريسترويكا .

وسوف نبذل في هذا المجال كل مايتعلق بنا .

بيد أنه ليس في مقدور الاتحاد السوفيتي وحده أن يحل كل هذه القضايا . ونحن لانحجل من تكرار ذلك ، وندعو إلى التعاون الدولي . ونقول بكامل المسؤولية ، مستبعدين الاعتبارات الزائفة « للمكانة » ، فكلنا في عالم اليوم نزداد اعتمادا على بعضنا البعض ونصبح بشكل متزايد ضروريين لبعضنا البعض . ولما كانت هذه الوقائع موجودة في العالم ، ولما كنا نعرف أننا في هذا العالم ، بشكل عام ، نرتبط الآن بنفس المصير ، لأننا نعيش على نفس الكوكب ، ونستخدم نفس الموارد ، ونرى أنها ليست بلا حدود ويلزم إنقاذها ، وإن الطبيعة والبيئة تحتاجان إلى الحفاظ عليهما ، فإن هذا الواقع يهمننا جميعا . وهكذا تصبح الضرورة ملحة بدرجة أكبر لاتخاذ اجراءات دولية فعالة وعادلة وميكانيزمات يمكن أن تضمن الاستخدام الأرشد لموارد كوكبنا باعتبارها ملكا لكل البشرية .

وفي ذلك نرى الاعتماد المتبادل بيننا ، وتكامل العالم ، والحاجة الملحة لتعبئة جهود البشرية من أجل المحافظة على نفسها ، ومن أجل مصلحتها اليوم ، وغدا وفي كافة الأوقات .

وأخيرا وليس آخرا ، هناك حقيقة أخرى ينبغي أن نعترف بها . فالبشرية بعد أن دخلت العصر النووي حيث تستخدم طاقة الذرة للأغراض العسكرية ، قد فقدت أبنيتها . وفي الماضي ، كانت هناك حروب ، وحروب مخيفة قضت على أرواح ملايين وملايين من النفوس البشرية ، وحولت المدن والقرى إلى خرائب ورماد ودمرت بلدانا وثقافات بأكملها ، بيد أن استمرار البشرية لم يتهدد . وعلى النقيض الآن ، إذا ما اندلعت حرب نووية ، فسوف يمحي كل شيء حي من على وجه الأرض .

بل إن ماهو مستحيل منطقيا ، وهو أن البشرية يمكن إفناؤها عدة مرات ، قد أصبح الآن ممكنا تقنيا . لقد أصبحت الترسانات النووية القائمة من الضخامة

بحيث يوجد لكل فرد من سكان الأرض شحنة قادرة على حرق منطقة هائلة حتى تحيلها رماداً . واليوم ، باستطاعة مجرد غواصة استراتيجية واحدة أن تحمل طاقة تدميرية تعادل عدة حروب مثل الحرب العالمية الثانية . وثمة عشرات من مثل هذه الغواصات .

إن سباق التسلح ، شأنه شأن الحرب النووية ، لا يمكن كسبه . إن مواصلة مثل هذا السباق على الأرض ، ومده إلى الفضاء ، سيعجلان من تراكم الأسلحة النووية وتحديثها ، الأمر الذي يحدث فعلاً بمعدل محموم . ويمكن أن يصل الوضع العالمى إلى نقطة لا يعود فيها الأمر يعتمد على السياسيين وإنما يصبح أسير الصدفة . وكل منا يواجه الحاجة لأن يتعلم كيف يعيش فى سلام فى هذا العالم ، الحاجة لأن يصوغ طريقة جديدة للتفكير ، لأن الظروف اليوم تختلف تماماً عما كانت عليه حتى منذ ثلاثة أو أربعة عقود مضت .

وأصبح الوقت ملائماً للتخلى عن تلك الآراء فى السياسة الخارجية التى تتأثر بوجهة النظر الامبريالية . وليس فى استطاعة كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة أن يفرض إرادته على الآخرين . وقد يكون ممكناً اتخاذ اجراءات للقمع ، أو الرشوة ، أو التحطيم ، أو التفجير ، ولكن ذلك لفترة معينة فقط . ومن وجهة نظر السياسة الطويلة الأمد ، سياسة الأوقات الحاسمة ، فلن يكون فى مقدور أحد أن يخضع الآخرين . ولهذا السبب يبقى شىء واحد ، وهو علاقات المساواة ، وينبغى أن يدرك كل منا ذلك . وإلى جانب الحقائق السالفة الذكر للأسلحة النووية ، والبيئة ، والثورة العلمية والتكنولوجية ، وعلم المعلومات ، فإن ذلك يفرض علينا أن نحترم بعضنا بعضاً ، بل وكل كائن حى .

هذا هو عالمنا المعقد وإن لم يكن بغير أمل . ونحن نؤمن بالرأى القائل بأنه يمكن حل كل شىء ولكن يجب على كل منا أن يعيد التفكير فى دوره فى هذا العالم ويتصرف على نحو يتسم بالمسؤولية .

التفكير السياسى الجديد

خلال العامين والنصف التى انقضت منذ أبريل ١٩٨٥ ، اجتزنا طريقا طويلا فى فهم الوضع العالمى وطرق تغييره إلى الأفضل . وسوف أكتب أيضا عن التحركات العملية التى قمنا بها بهدف تحسين المناخ العالمى جذريا . ولكن لتناول الآن النقطة الأهم .

بعد أن تبيننا فى المؤتمر السابع والعشرين مفهوم العالم المتناقض ولكنه مترابط ومعتمد على بعضه ، ومتكامل فى جوهره ، بدأنا نبني سياستنا الخارجية على هذا الأساس . وتأكيذا ، ستبقى الخلافات قائمة مع الآخرين فيما يتعلق بنظامنا الاجتماعى وآرائنا الأيديولوجية ، والدينية ، وطريقة حياتنا . ولكن هل يجب أن نتبارز بسببها ؟ ألن يكون من الأسلم أن نتخطى الأشياء التى تفصل بيننا من أجل المصالح البشرية ، من أجل الحياة على الأرض ؟ لقد حسمنا خيارنا ، مؤكدين نظرة سياسية جديدة سواء عن طريق البيانات الملزمة أو الأعمال والأفعال المعينة .

لقد تعب الناس من التوتر والمواجهة . وهم يفضلون البحث عن عالم أكثر أمنا وضمانا ، عالم يحتفظ فيه كل فرد بآرائه الفلسفية والسياسية والأيديولوجية وبطريقته فى الحياة .

إننا ننظر إلى ما يحدث بعيون مفتوحة . ونرى أن القوالب الجامدة تستمر وأن وجهة النظر القديمة قد ضربت بجذورها عميقا ، لتغذى النزعة العسكرية والطموحات الإمبريالية التى - وفق منطقها - تعتبر البلدان الأخرى أهدافا لأنشطتها السياسية وغيرها ، وتحرم من حق الخيار المستقل والسياسة الخارجية المستقلة .

ونحن لانقترح تقديم أية أساليب ممعنة فى تطرفها وجذريتها لحل المشاكل الإقليمية المختلفة ، رغم أن مثل هذه الأساليب ضرورية أيضا فى بعض الحالات . ونحن لانريد معالجة الشئون الدولية بطريقة تؤدي إلى تصعيد المواجهة . وفى الوقت الذى لانقر فيه طابع العلاقات الحالية بين الغرب والبلدان النامية ، فإننا لانحث

على تقويضها . ونحن على قناعة بأن هذه العلاقات يجب تحويلها بتخليصها من الاستعمار الجديد ، الذى يختلف عن الاستعمار القديم فقط فى أن دولاب استغلاله أكثر تعقيدا . وهناك حاجة إلى ظروف يمكن فيها للبلدان النامية أن تكون سيدة مواردها الطبيعية والبشرية ، وأن تستخدمها من أجل مصلحتها ، لا من أجل مصلحة الآخرين .

ينبغى أن يستند تطبيع العلاقات الدولية فى المجالات الاقتصادية ، والإعلامية ، والبيئية ، على التدويل الواسع . والغرب يفضل ، بكل الدلائل ، أن يحتفظ بالأمور فى داخل الأسرة ، أى فى إطار «الدول السبع» ، أو «الدول الخمس» ، أو ماشابه ذلك . وربما يفسر ذلك محاولات تشويه سمعة الأمم المتحدة . فهم يزعمون مثلا أن الأمم المتحدة تفقد معناها وأنها تتفكك تقريبا . ويقال هذا اليوم ، حيث تحدث تغيرات كثيرة للغاية فى عالم مشبع بمصالح مختلفة لدول عديدة وحيث يعتبر العثور على توازن لهذه المصالح مسألة لها الأولوية . وفى هذه الظروف ، يكون دور الأمم المتحدة بنجربتها فى تنظيم التعاون الدولى أكثر أهمية من أى وقت مضى .

صحيح أن جهود الأمم المتحدة لم تكن ناجحة على الدوام . بيد أن هذه المنظمة ، فى رأيي ، هى المحفل الأكثر مناسبة للبحث عن توازن المصالح بين الدول ، وهو الأمر الجوهرى لاستقرار العالم .

وأنا أدرك أن كل شئ لا يمكن أن يتغير بين عشية وضحاها . وأدرك كذلك أننا والغرب سيكون لنا على الدوام نظرات مختلفة للأوضاع المختلفة . وكما سبق أن قلت بالفعل ، فإن بلدان العالم اليوم تشبه مجموعة من متسلقي الجبال يربطها معا حبل لتسلق هذه الجبال . وليس أمامهم سوى أن يتسلقوا معا نحو قمة الجبل أو يسقطوا معا فى الهاوية ، ولكى نحول دون الكارثة فعلى الزعماء السياسيين أن يرتفعوا فوق مصالحهم الضيقة ويدركوا مأساوية الوضع الحاضر . ولهذا السبب فهناك حاجة

ملحة للغاية لفهم جديد للوضع وعناصره المتداخلة .

لم يعد بالإمكان رسم سياسة على أساس مفترضات عام ١٩٤٧ ، ومبدأ ترومان وخطاب تشرشل في فولتون . فمن الضروري أن نفكر ونتصرف بطريقة جديدة .
والأكثر من ذلك أن التاريخ لا يمكن أن ينتظر ، والناس لا يمكنهم أن يتحملوا إضاعة الوقت . وقد يكون الوقت متأخرا للغاية غدا ، وقد لا يأتي مابعد الغد .

والمبدأ الأساسى للنظرة السياسية الجديدة بسيط للغاية : إن الحرب النووية لا يمكن أن تكون وسيلة للتوصل إلى أهداف سياسية ، أو اقتصادية ، أو أيديولوجية ، أو أية أهداف أخرى . وهذا الاستنتاج ثورى حقا ، لأنه يعنى استبعاد الأفكار التقليدية للحرب والسلام . إن الوظيفة السياسية للحرب كانت على الدوام تبريرا للحرب ، تفسيرا « عقليا » لها . ولكن الحرب النووية عديمة المعنى ، إنها غير عقلانية . فلن يكون هناك منتصرون أو منهزمون في نزاع نووى عالمى : فالحصارة العالمية سوف تفنى بشكل محتوم . إنها انتحار ، وليست حربا بالمعنى التقليدى للكلمة .

ولكن التكنولوجيا العسكرية قد تطورت لدرجة أنه حتى الحرب غير النووية يمكن مقارنتها الآن بالحرب النووية من حيث أثرها التدميرى . ولهذا السبب فإنه من المنطقى أن ندخل في مقولتنا عن الحروب النووية هذا « الشكل الآخر » من الصدام المسلح بين القوتين العظميين أيضا .

وبذلك ، فقد ظهر وضع مختلف تماما . لقد تشكلت خلال القرون ، بل خلال آلاف السنين طريقة للتفكير وطريقة للسلوك ، تستندان إلى استخدام القوة في السياسة العالمية . ويبدو أنها قد ضربتا بجذورهما كأنهما شيء لا يتزعزع . واليوم فقدنا كل الأسس المعقولة . إن القول المأثور لكلاوزوفيتز بأن الحرب استمرار للسياسة ولكن بوسائل أخرى ، والذي كان قولاً كلاسيكياً في زمانه ، قد انقضى زمانه بالتأكيد . وأصبح الآن محفوظاً في المكتبات . ولأول مرة في التاريخ غدا احتياجا

حيويا وضع السياسة الدولية على أساس معايير معنوية وأخلاقية مشتركة لكل البشرية ، وكذا إضفاء الطابع الإنساني على العلاقات الدولية .

وتنبع من استحالة الحل العسكرى - أى النووى - للخلافات الدولية جدلية جديدة للقوة والأمن . فلم يعد من الممكن ضمان الأمن بالوسائل العسكرية - سواء باستخدام الأسلحة أو الردع ، أو بمواصلة اتقان « السيف » و « الدرع » . ومحاولات التوصل إلى تفوق عسكرى منافية للعقل . والآن تبذل مثل هذه المحاولات فى الفضاء . وإنها لمفارقة عجيبة تسبب فى استمرارها الدور المتضخم الذى يلعبه العسكريون فى السياسة . وقد أصبح سباق التسلح من وجهة نظر الأمن أمرا سخيفا لأن منطقته نفسه يودى إلى إشاعة الاضطراب فى العلاقات الدولية وإلى نزاع نووى فى النهاية . إن سباق التسلح إذ يحول موارد ضخمة بعيدا عن أولويات أخرى ، فإنه يخفض من مستوى الأمن ، ويضعفه . إنه فى حد ذاته عدو للسلام . والطريق الوحيد إلى الأمن هو من خلال القرارات السياسية ونزع السلاح . وفى عصرنا يمكن ضمان الأمن الحقيقى والمتكافئ عن طريق خفض الدائم لمستوى التوازن الاستراتيجى الذى يجب أن تزال منه تماما الأسلحة النووية ، وغيرها من أسلحة الدمار الشامل .

وربما يخيف ذلك بعض الناس . ويتساءلون ، « ما الذى سيتم مع التجمع العسكرى الصناعى عندئذ ؟ وهو الذى ترتبط به وظائف وأجور عدد كبير من الناس . وقد جرى تحليل هذه المسألة بشكل خاص فى واحد من أحدث مؤلفات ف . ليونتييف ، الحائز على جائزة نوبل . وقد برهن على أن حجج العسكريين خاوية من وجهة نظر اقتصادية . وإليكم ما اعتقده : وأقول بداية بأن كل وظيفة فى التجمع العسكرى الصناعى تكلف مثلين أو ثلاثة أمثال مثيلتها فى الصناعة المدنية . ولذا يمكن إقامة ثلاث وظائف بدلا منها . وثانيا ، فى اليوم نجد أن قطاعات الاقتصاد العسكرى ترتبط بالاقتصاد المدنى ، وتعمل الكثير له . وهكذا ، فلتكن هذه نقطة بداية للاستفادة من إمكانياته للأغراض السلمية . وثالثا ، يمكن للاتحاد

السوفيتي والولايات المتحدة أن يتفقا على برنامج ضخم مشترك ، يعبئ مواردا وقدراتنا العلمية والفكرية من أجل حل أكثر المشاكل تباينا من أجل مصلحة البشرية .

وتدعو النظرة السياسية الجديدة إلى الاعتراف ببديهية بسيطة أخرى : إن الأمن لا يتجزأ . فإما أن يكون أمنا متكافئا للجميع أو لا يكون على الإطلاق . والأساس الصلب الوحيد للأمن هو الاعتراف بمصالح كافة الشعوب والبلدان ، وبالمساواة بينها في الشؤون الدولية ، وأمن كل بلد يجب أن يرتبط بأمن كل أعضاء المجتمع الدولي . فهل يكون من مصلحة الولايات المتحدة ، مثلا ، أن يجد الاتحاد السوفيتي نفسه في وضع يعتبر بموجبه أنه أقل أمنا من الولايات المتحدة ؟ أو هل يمكن أن نستفيد من وضع معاكس ؟ يمكنني أن أقول بحزم إننا لانفضل ذلك . وهكذا يجب أن يصبح الخصوم شركاء وأن يبدأوا في البحث معا عن طريق للتوصل إلى الأمن العالمي .

ونستطيع أن نرى العلامات الأولى للتفكير الجديد في العديد من البلدان ، وفي مختلف فئات المجتمع . وهذا أمر طبيعي تماما ، لأنه الطريق إلى الاتفاقات ذات المنفعة المتبادلة والحلول الوسط المتبادلة على أساس المصلحة المشتركة العليا - تجنب الكارثة النووية - وبالتالي ، لا ينبغي أن يكون هناك أي سعي لأمن طرف على حساب الآخرين .

والنظرة الجديدة تؤثر بقوة مماثلة على طابع المبادئ العسكرية .. إنها يجب أن تكون بحزم مبادئ للدفاع . ويرتبط ذلك بالأفكار الجديدة أو الجديدة نسبيا مثل الكفاية المعقولة للتسلح ، والدفاع غير العدواني ، وإزالة عدم التوازن ، وعدم التماثل في مختلف أنواع القوات المسلحة ، وفصل القوات الهجومية للحلفين ، وهكذا وما إلى ذلك^(١) .

(١) لقد بدأت بلدان أوروبا الاشتراكية تسير بحزم في هذا الطريق في ٢٩ مايو ١٩٨٧ ، في برلين تبني =

ويرتكز الأمن العالمى فى عصرنا على الاعتراف بحق كل شعب فى اختيار طريقه الخاص للتطور الاجتماعى ، وعلى التخلّى عن التدخل فى الشؤون الداخلية للدول الأخرى ، وعلى احترام الآخرين احتراماً مقترناً بنظرة انتقادية ذاتية موضوعية لمجتمع كل منهم . وقد يختار الشعب الرأسمالية أو الاشتراكية . وهذا حقه السيادى ، ولا يمكن للشعوب ولاينبغى لها أن تشكل حياتها وفقاً لنموذج الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى . ومن ثم ، ينبغى أن تكون المواقف السياسية خالية من التعصب الأيديولوجى .

ولاينبغى أن تنقل الخلافات الأيديولوجية إلى مجال العلاقات بين الدول ، كما لا يجب أن تخضع السياسة الخارجية لها ، لأن الأيديولوجيات يمكن أن تتباعد ، بينما تبقى المصلحة فى البقاء وفى تجنب الحرب مصلحة عالمية وسامية .

وعلى قدم المساواة مع الخطر النووى ، تبحث طريقة التفكير الجديد حل مشاكل عالمية أخرى ، بما فيها مشاكل التنمية الاقتصادية والبيئة ، كشرط لاغنى عنه لضمان سلم عادل ووطيد . والتفكير بطريقة جديدة يعنى كذلك رؤية الصلة المباشرة بين نزع السلاح والتنمية .

ونحن نؤيد تدويل الجهود من أجل تحويل نزع السلاح إلى عامل للتنمية . وفى

= اجتماع اللجنة الاستشارية السياسية وثيقة ذات أهمية مبدئية : « حول المبدأ العسكرى للبلدان الأعضاء فى معاهدة وارسو » . وتطرح الوثيقة جوهر الطابع الدفاعى البحث لهذا المبدأ ، وتقول : « لن نبدأ على الإطلاق ، وفى أى ظروف ، حرباً ضد أية دولة أو أى تحالف من الدول ما لم نتعرض أنفسنا لهجوم مسلح . ولن نكون على الإطلاق البادئين باستخدام الأسلحة النووية . وليست لنا أية مطالب إقليمية حيال أى دولة سواء فى أوروبا أو خارجها . ولانتظر البلدان الأعضاء فى معاهدة وارسو إلى أية دولة أو شعب كعدو : وهى على استعداد لبناء العلاقات مع البلدان دون استثناء على أساس المراجعة المتبادلة لصالح الأمن والتعايش السلمى » . ولاتسعى بلدان معاهدة وارسو إلى أن يكون لديها من القوات المسلحة والأسلحة أكثر مما هو ضرورى لأغراض الدفاع . وسوف تتمسك بحزم بمبدأ الكفاية فى حماية أمنها . وقد اقترحت على بلدان حلف الأطلسى بأن يجلسوا جميعاً معاً ويقارنوا المبادئ العسكرية للمتحالفين لكى يفهموا بصورة أفضل نوايا بعضهم البعض . وكان الرد على هذا الاقتراح بالصمت .

رسالة إلى الاجتماع الدولي الموسع حول هذا الموضوع في نيويورك في أواخر أغسطس ١٩٨٧ كتبت : « إن تنفيذ المبدأ الأساسي « نزع السلاح من أجل التنمية » يمكن بل يجب أن يحشد البشرية ، ويسر تكوين وعى عالمي » .

إن بيان دلهي حول مبادئ عالم خال من الأسلحة النووية ومن العنف ، الذي وقعه راجيف غاندي ، رئيس جمهورية الهند ، ووقعته معه في نوفمبر ١٩٨٦ ، يحوى كلمات أود أن أنوه بها هنا أيضا : « في العصر النووي ، ينبغي على البشرية أن تطور طريقة جديدة للتفكير السياسي ، مفهوما جديدا للعالم يوفر ضمانات يعول عليها لبقاء البشرية . إن الناس يريدون أن يعيشوا في عالم أكثر أمنا وعدلا . والبشرية تستحق مصيرا أفضل من بقائها رهينة للرعب النووي واليأس . ولا بد من تغيير الوضع العالمي القائم وبناء عالم خال من الأسلحة النووية ، وخال من العنف ، والكراهية والخوف والشك » .

وهناك دلائل جادة على أن طريقة التفكير الجديد أخذت تتشكل ، وأن الناس بدأوا يدركون أية حافة يقترب منها العالم . بيد أن هذه العملية صعبة للغاية ، والشئ الأكثر صعوبة هو أن نضمن انعكاس هذا الفهم في أعمال صانعي السياسة ، وفي عقولهم . ولكنني أعتقد بأن العقلية السياسية الجديدة ستشق طريقها ، لأنها قد ولدت من وقائع عصرنا .

طريقنا إلى نظرة جديدة

نحن لا ندعى بأننا قادرون على تعليم الآخرين . وبعد أن سمعنا تعليمات لاحصر لها من غيرنا ، خلصنا إلى نتيجة مفادها أن هذه تسلية عديمة الجدوى . فالحياة نفسها تعلم الناس أولا أن يفكروا بطريقة جديدة . وقد توصلنا بأنفسنا وبالتدريج إلى ذلك ، واستوعبناه خطوة خطوة ، وأعدنا النظر في آرائنا المعتادة حول مشاكل الحرب والسلام ، وحول العلاقات بين النظامين ، وفكرنا في مشاكل العالم .

كان طريقا طويلا . فمذ مايزيد على ثلاثين عاما مضت ، توصل المؤتمر العشرين إلى استنتاج هام ، إلى نتيجة أن حربا عالمية جديدة ليست أمرا محتوما وأن من الممكن تجنبها . وكان ذلك يتضمن أنه ليس من المستطاع فقط تأجيل النزاع المقبل وإطالة أمد الفترة السلمية ، بل إن أى أزمة دولية يمكن تسويتها بوسائل سلمية . وأعلن حزبنا قناعاته بإمكانية وضرورة إزالة خطر الحرب في حد ذاته ، وإلغاء الحرب من تاريخ البشرية . كما أعلن عندئذ أن الحرب ليست بأية حال شرطا لاغنى عنه للثورات الاجتماعية . ونقح مبدأ التعايش السلمى ، واضعين في الاعتبار التغيرات التي جاءت بها الحرب العالمية الثانية .

وفي سنوات الانفراج حاولنا ملء هذا المبدأ بمحتوى محدد على أساس الحوار والتعاون الدولى المتكافئ . وشهدت تلك السنوات توقيع عدد من المعاهدات الهامة التي أكملت فترة « مابعد الحرب » في أوروبا ، وتحسنا في العلاقات السوفيتية الأمريكية أثر على الوضع العالمى بأكمله .

إن منطق الانفراج ذاته قد دفع إليه الإدراك المتزايد بأن الحرب النووية لا يمكن كسبها ، وانطلاقا من هذه الحقيقة ، أعلننا منذ خمس سنين مضت للعالم أجمع أننا لن نكون البادئين باستخدام الأسلحة النووية .

وتم التوصل إلى نقطة تحول بعيدة المدى في المفاهيم في اجتماع أبريل ١٩٨٥ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ، والمؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى . وكان ذلك ، على وجه التحديد ، تحولا نحو طريقة جديدة للتفكير السياسى ، إلى أفكار جديدة عن العلاقة بين المبادئ الطبقيّة والمبادئ المشتركة للبشرية في العالم الحديث .

والطريقة الجديدة في التفكير ليست ارتجالا ، ولاتدريبا عقليا ، إنها نتيجة تفكير جاد في وقائع عالم اليوم ، وإدراكاً ، بأن الموقف المسئول بالنسبة للسياسة يتطلب إقامة الدليل العلمى عليه ، وأن بعض الفرضيات التي بدت راسخة قبل ذلك

ينبغي التخلي عنها . هذا وتكلفنا غالبا النظرة المتحيزة ، والقرارات المتعلقة بها من أجل أهداف عابرة ، والابتعاد عن التحليل العلمى الدقيق للوضع .

ويمكن القول بأننا أدركنا العقلية الجديدة من خلال المعاناة ، واستمددنا الإلهام من لينين ، وعند التوجه إليه ، « وقراءة » مؤلفاته فى كل مرة بطريقة جديدة ، يدهش المرء لقدرته على النفاذ إلى جذور الأشياء ، وعلى رؤية أكثر جدليات العمليات العالمية تعقيدا . إن لينين باعتباره زعيم حزب البروليتاريا ، وقد أقام الدليل نظريا وسياسيا على المهام الثورية للأخيرة ، أمكنه أن يرى أبعد ، أمكنه أن يتخطى الحدود التى فرضتها مصالحها الطبقية . وقد تحدث أكثر من مرة عن أولوية المصالح المشتركة لكل البشرية على المصالح الطبقية . والآن فقط بدأنا نفهم كل عمق ومغزى هذه الأفكار . إنها هى التى تغذى فلسفتنا عن العلاقات الدولية ، وطريقة التفكير الجديدة .

وقد يقول قائل بأن الفلاسفة ورجال الدين عبر التاريخ قد تناولوا أفكار القيم الإنسانية « الخالدة » . حقا ، لقد كان الأمر كذلك ، ولكنها كانت عندئذ « تأملات مدرسية » انتهت لأن تكون حلما طوباويا . وفى الثمانينيات ، ونحن نقرب من نهاية هذا القرن المثير ، ينبغي أن تعترف البشرية بالضرورة الحيوية للقيم البشرية ، وأولويتها .

ومنذ أمد بعيد ، كانت المصالح الطبقية حجر الزاوية فى كل من السياسة الخارجية والداخلية . وغنى عن القول ، إنها كقاعدة ، كانت تقدم رسميا على أنها مصالح البلاد أو الدولة أو التحالف ، وكانت تغلف بإشارات إلى « الرفاهية العامة » أو الدوافع الدينية . ولكن الماركسيين وعددا كبيرا غيرهم من الناس المتزنين على قناعة بأن سياسة أى دولة أو تحالف من الدول إنما تحددها ، فى التحليل النهائى ، مصالح القوى الاجتماعية السياسية السائدة . وقد أدت الصدمات الحادة بين هذه المصالح فى المجال الدولى إلى نزاعات مسلحة وحروب طوال التاريخ . ولهذا السبب

فإن السجل السياسى للبشرية هو لدرجة كبيرة سجل الحروب . واليوم يقودنا هذا المنوال مباشرة إلى الهاوية النووية إننا - كل البشرية - فى قارب واحد ، وليس بإمكاننا إلا أن نغرق أو ننجو معا ، ولهذا السبب فإن محادثات نزع السلاح ليست مباراة يمكن أن يكسبها جانب واحد . يجب أن يكسب الجميع ، أو يواجه الجميع الخسارة .

إن عصب طريقة التفكير الجديدة يتمثل فى الاعتراف بأولوية القيم البشرية ، أو لكى نكون أكثر دقة ، ببقاء البشرية .

وقد يبدو غريبا لبعض الناس أن يضع الشيوعيون تأكيداً قويا على المصالح والقيم البشرية . حقا إن النظرة ذات الدافع الطبقي إلى كافة ظواهر الحياة الاجتماعية هى من أجدليات الماركسية . واليوم تتقابل مثل هذه النظرة بشكل كامل مع وقائع المجتمع القائم على الطبقات ، المجتمع ذى المصالح الطبقيّة المتعارضة ، وكذلك مع وقائع الحياة الدولية الزاخرة كذلك بالتزايدات . وحتى وقت قريب جدا كان الصراع الطبقي ومازال هو محور التطور الاجتماعى ، وهو ما يزال كذلك فى البلدان المنقسمة إلى طبقات . ونتيجة لذلك ، فقد سادت الفلسفة الماركسية - فيما يتعلق بالمسائل الأساسية للحياة الاجتماعية - مدخل ذو طابع طبقي . وكان ينظر إلى الأفكار الإنسانية على أنها الوظيفة والنتيجة لنضال الطبقة العاملة - الطبقة الأخيرة ، التى إذ تحرر نفسها ، تحرر المجتمع بكامله من العداوات الطبقيّة .

واليوم ، مع ظهور أسلحة الدمار بالجملة ، أى الدمار الشامل ، ظهر حد موضوعى للمواجهة الطبقيّة فى المعترك الدولى : خطر الدمار الشامل . ولأول مرة على الإطلاق ظهرت مصلحة بشرية مشتركة ، حقيقية وليست تأملية وبعيدة - لإنقاذ البشرية من الكارثة .

وأدخلت تغييرات بروح النظرة الجديدة فى الصياغة الجديدة لبرنامج الحزب الشيوعى السوفيتى التى أقرها المؤتمر السابع والعشرون للحزب . ورأينا ، على وجه

الخصوص ، أنه لم يعد بالإمكان الاحتفاظ فيها بتعريف التعايش السلمى بين الدول ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة « كشكل خاص للصراع الطبقي » .

وكان ثمة اعتقاد سائد بأن مصدر الحروب العالمية يكمن فى التناقضات بين النظامين الاجتماعيين . وقبل ١٩١٧ كان هناك نظام واحد فقط فى العالم - الرأسمالية - ولكن هذا النظام لم يحل دون الحرب العالمية بين الدول التى تنتمى إليه . وكانت هناك حروب أخرى كذلك . والعكس بالعكس ، فخلال الحرب العالمية الثانية ، حاربت البلدان التى تمثل أنظمة مختلفة فى ائتلاف واحد ضد الفاشية وسحقها فى نهاية الأمر . لقد تغلبت المصلحة المشتركة لكافة الشعوب والدول أمام الخطر الفاشى على الخلافات الاجتماعية السياسية بينها ووفرت أساسا لائتلاف « فوق الأنظمة » معاد للفاشية . ومعنى ذلك اليوم أيضا ، أنه فى مواجهة خطر أكثر سوءا تستطيع الدول المنتمية إلى أنظمة اجتماعية مختلفة ، بل يجب عليها أن تتعاون مع بعضها البعض باسم السلام .

وعندما طورنا فلسفتنا للسلام ، تبيننا نظرة جديدة تقوم على الترابط بين الحرب والثورة ، فى الماضى ، غالبا ما كانت الحرب تعمل على تفجير الثورة . وقد يتذكر المرء كوميون باريس الذى جاء كصدى للحرب الفرنسية البروسية ، أو ثورة ١٩٠٥ الروسية التى فجرتها الحرب الروسية اليابانية . وقد أثارت الحرب العالمية الأولى عاصفة ثورية حقة بلغت أوجها فى ثورة أكتوبر فى بلادنا . وأثارت الحرب العالمية الثانية موجة جديدة من الثورات فى شرق أوروبا وآسيا ، وكذلك ثورات عارمة معادية للاستعمار .

وساعد كل هذا على تعزيز المنطق الماركسى اللينينى القائل بأن الأمبريالية تولد بشكل محتوم مواجهات مسلحة هامة ، فى الوقت الذى تخلق فيه هذه المواجهات بالطبع « كتلة حرجة » من السخط الاجتماعى ووضعاً ثوريا فى عدد من البلدان . ومن ثم كان التنبؤ الذى تمسكنا به طويلا فى بلادنا : إن الحرب العالمية الثالثة ، إذا

ما أشعلتها الامبريالية ، ستؤدي إلى اضطرابات اجتماعية جديدة ، ستقضى على النظام الرأسمالى تماما ، وهذا سيؤدي إلى سلام عالمى .

وعندما تغيرت الظروف جذريا بحيث أصبحت النتيجة الوحيدة للحرب النووية يمكن أن تكون الدمار الشامل ، خلصنا إلى استنتاج بخصوص انتهاء العلاقة السببية بين الحرب والثورة . « وتطابقت » آفاق التقدم الاجتماعى مع آفاق تجنب الحرب النووية . وفى المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى « فصلنا » بوضوح فكرتى الحرب والثورة ، مستبعدين من الصياغة الجديدة لبرنامج الحزب العبارتين التاليتين : « فإذا ما غامر المعتدون الإمبرياليون رغم ذلك ببدء حرب عالمية جديدة ، فلن تحتل الشعوب أكثر من ذلك نظاما يحرقهم إلى حروب مدمرة . وسيكتسحون الإمبريالية ويدفنونها » . وقد استبعد هذا النص الذى يعترف نظريا بإمكانية حرب عالمية جديدة باعتباره لا يتفق مع وقائع العصر النووى .

إن المنافسة الاقتصادية ، والسياسية ، والأيدولوجية بين البلدان الرأسمالية والاشتراكية أمر محتوم . ومع ذلك ، يمكن ويجب الإبقاء عليها فى إطار المنافسة السلمية التى تقتضى التعاون بالضرورة . وعلى التاريخ أن يصدر حكمه حول مزايا كل نظام بعينه . وسوف يصنف كل شىء . فليقرر كل بلد أى نظام وأية أيدولوجية أفضل . فليقرر ذلك عن طريق المنافسة السلمية ، وليبرهن كل نظام على قدرته على تلبية حاجات ومصالح الإنسان . إن دول وشعوب الأرض مختلفون للغاية ، وإنه لأمر طيب بالفعل أنهم كذلك . وهذا حافز على المنافسة . وهذا المفهوم للوحدة الجدلية بين الأضداد يتفق مع مفهوم التعايش السلمى .

هذه هى ، بشكل عام ، المراحل الرئيسية لانتقالنا إلى فلسفة جديدة للسلام ولفهم الجدليات الجديدة للمصالح والمبادئ الطبقية والإنسانية المشتركة فى حقبتنا الحديثة .

فهل يعنى ذلك أننا قد تخلينا عن التحليل الطبقي لأسباب الخطر النووى وغيره

من المشاكل العالمية ؟ كلا . وسيكون من الخطأ تجاهل عدم التجانس الطبقي بين القوى التي تعمل في المعترك الدولي وعلى مشارف تحقيق كافة المهام الأخرى للبشرية .

ونحن ندرك مدى قوة مواقع الجانب العدواني والعسكري من الطبقة الحاكمة في البلدان الرأسمالية الكبرى . إنهم يستمدون دعمهم الرئيسي من التجمع العسكري الصناعي القوى الذي تكمن مصالحه في طبيعة النظام الرأسمالي نفسه والذي يعتصر أرباحا ضخمة من إنتاج الأسلحة على حساب دافع الضرائب . ولكي يجعل الشعب يصدق بأن كل هذه الأموال لا تنفق عبثا ، ينبغي إقناعهم بوجود « عدو خارجي » يرغب في أن يعتدى على رفاهيتهم و « مصالحهم الوطنية » بشكل عام . ومن ثم كانت سياسة القوة المتهورة وغير المسئولة . فكيف يمكن أن يكون هذا الاعتماد الكامل على القوة ممكنا في عصرنا النووي حيث التكديس القائم للأسلحة أصبح ضخما لدرجة أن جزءا صغيرا من هذه الأسلحة يمكن أن يفنى البشرية بسهولة ؟ .

وهذا هو على وجه التحديد مانسميه بعقلية « الحرب الباردة » المشثومة . غير أن هذه العقلية ، مع ذلك ، لاتزال راسخة الجذور في المصالح الاقتصادية الملموسة لاحتكارات السلاح وفي التأثير الذي يمارسه الجيش على السياسة والذي يرفض أن يتخلى عن موقفه المتميز ، ويمارسه أيضا الجهاز البيروقراطي الذي يخدم النزعة العسكرية .

وقد يتساءل المرء لماذا نحافظ بأسلحتنا وقواتنا المسلحة ونعمل على تحديثها . بإمكانى أن أقدم إجابة دقيقة على ذلك باعتبارى رئيسا لمجلس الدفاع للاتحاد السوفيتي . فنذ ثورة أكتوبر ونحن تحت تهديد دائم باحتمال العدوان . وحاولوا أن تضعوا أنفسكم في مكاننا ، واحكموا بأنفسكم . ولنستعرض الأحداث معا : حرب أهلية شاركت فيها قوات أجنبية ، تدخل من جانب أربع عشرة دولة ، حصار اقتصادي ، وحجر صحى ، عدم اعتراف دبلوماسى (من قبل الولايات المتحدة

حتى ١٩٣٣) استفزازات عسكرية في الشرق ، وأخيرا ، حرب دموية مدمرة ضد الفاشية جاءت من الغرب . وهل باستطاعتنا أن ننسى المخططات لهجوم ذرى على الاتحاد السوفيتي من جانب العسكريين الأمريكيين ومجلس الأمن القومي بالولايات المتحدة . ونحن نسأل أيضا عن السبب في أن الغرب كان أول من أقام تحالفا عسكريا ، حلف شمال الأطلسي ، وكان على الدوام أول من طور أنظمة أسلحة جديدة . أو لماذا لا ترغب الإدارة الأمريكية القائمة في وقف تجارب الأسلحة النووية ، وما هو السبب في أنها تدفع الأمريكيين لتبديد مبالغ هائلة على برنامج حرب النجوم ؟ هذه ليست أسئلة عديمة الجدوى . فهل يمكن تصنيف كل هذه الحقائق على أنها طموحات سلمية ؟ ومرة أخرى أكرر : حاولوا أن تضعوا أنفسكم في مكاننا لتروا كيف يكون رد فعلكم ..

من أجل كل ذلك ، نحن مستعدون بإخلاص لتزع السلاح ، ولكن فقط على أساس عادل من الأمن المتكافئ ، ومن أجل التعاون على جبهة عريضة للغاية . ومع ذلك ، فإننا إذ نأخذ في الاعتبار دروس الماضي المريعة ، لا يمكننا أن نتخذ خطوات هامة من جانب واحد خوفا من أن يكون في ذلك إغراء للمدافعين عن « المصالح الوطنية العالمية » . وكما نرى ، فإن أهم شيء نفعله الآن هو أن ندفع بدولاب المحافظة على ذات البشرية إلى الحركة ، وندعم إمكانية السلام ، والعقل والنوايا الطيبة .

« يد موسكو »

ربما كانت أكثر عبارة تكررت بشكل مبتذل قالها زعيم سوفيتي في الغرب هي الصيحة التي أطلقها نيكيتا خروتشوف : « سوف ندفنكم ! » وهي صيحة لا بد من تفسيرها للقراء الأجانب بأنه جرت لدينا في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات مناقشات حادة بين خبراء الزراعة والعلماء وصفت بتهكم مرير بأنها مناقشة « عمن سيدفن الآخر » . إن صيحة خروتشوف ، المستعارة من هذه المناقشات ، كانت غير

مناسبة من كافة الوجوه ، ولكن يجب النظر إليها في إطار كل خطابه . ولا ينبغي أن تؤخذ حرفيا . لقد كان يصف المنافسة بين النظامين ، وأراد أن يبين أن الاشتراكية لا تخشى أن تقارن بالرأسمالية ، وأن المستقبل ملك للاشتراكية . لقد كان خروتشوف رجلا عاطفيا ، وأضعف من حماسه كثيرا أن جهوده المخلصة ومقترحاته الخاصة بتحسين الوضع الدولي اصطدمت بجدار سميك من عدم الفهم والعناد .

واسمحوا لي أن أقول لكم ، هذه المرة من تجربتي الخاصة ، بأنه لكي تتفاوض مع الغرب حول مشاكل نزع السلاح ، يجب أن يتحلى المرء بصبر لا يصدق ، لأن المصالح الاقتصادية تتدخل على الدوام . وربما يجب أن نضيف أيضا أننا إذا ما حكمنا في الاتحاد السوفيتي على سياسة دولة أخرى بتصرّيات مفردة لزعماؤها ، لكان قد حان الوقت منذ أمد بعيد لبدء القتال . بيد أن ذلك لا يحدث . ولذلك يجب أن يكف الناس في الغرب عن استغلال بضع كلمات قالها شخص لم يعد بين الأحياء ، وعليهم ألا يسوقوها باعتبارها وجهة نظر .

أما فيما يتعلق بكتاب اليت الأبيض عن الاقتباسات الغامضة التي يشير إليها الغرب ، والتي تتناول « مبدأ » لينين لفرض الشيوعية في جميع أنحاء العالم وخطط إخضاع كل أوربا ، فيجب أن أقول إن مثل هذا المبدأ لم يفكر فيه إطلاقا ماركس أو لينين أو أى من الزعماء السوفيت . وما يسمى بـ « الاقتباسات » التي يستخدمها كبار المتحدثين هي ثمرة تزييف فج أو هي جهل في أفضل الأحوال .

وهذا ما أريد أن أقوله عن « يد موسكو » المشثومة . ووفقا للنظرية الماركسية ، فإن المستقبل هو ملك لمجتمع لا يوجد به استغلال الإنسان للإنسان ولا يوجد به قهر قومي أو عرقي . ولكن لكل أمة الحق في أن تقر ما إذا كانت هذه المبادئ مناسبة لها وما إذا كانت تريد تبنيها في إعادة بناء حياتها . وإذا ما أرادت ، فإنها هي التي ستقرر السرعة والشكل اللذين ستؤدي بهما ذلك .

« إن البروليتاريا الظافرة لا يمكنها أن تفرض على أية أمة أخرى مثلها الأعلى عن

الحياة السعيدة دون أن تلحق ضرراً بانتصارها الخاص . هذه العبارة التي قالها ماركس هي تحديد دقيق لموقفنا من كل أنواع « تصدير الثورة » و « الثورة » كما يقول لينين « تنضج عندما يدرك ملايين الناس أنه لم يعد بوسعهم أن يعيشوا بالطريقة القديمة » وهي « تنضج في عملية التطور التاريخي وتتحطم عندما ينشأ ترابط معين للظروف الداخلية والخارجية » وأية محاولات « لتفصيل » ثورة أو تحديد تاريخ لها أدانها لينين باعتبارها « شعوذة » .

وتقول النظرية التي نطلق عليها الاشتراكية العلمية : إن المجتمع البشرى يمر بمراحل معينة في تطوره . كان هناك المجتمع البدائي ، ثم نظام ملاك العبيد ، ثم الإقطاع . وأخلى الإقطاع مكانه للرأسمالية وشهد القرن العشرون مولد المجتمع الاشتراكي . ونحن على قناعة بأن هذه الخطوات طبيعية على سلم تاريخي واحد وهذا هو التطور المحتوم للعالم . فليعتقد الغرب أن الرأسمالية أرقى إنجازا للمدنية ، فمن حقهم أن يعتقدوا ذلك . ونحن ببساطة لا نتفق مع هذا . وليقرر التاريخ أينما على حق .

تظهر الثورات وحركات التحرر على التربة الوطنية . وهي تنشأ عندما يصبح الفقر واضطهاد الجماهير أمراً غير محتمل ، وعندما تتمهن الكرامة الوطنية ، وعندما ينكر على الأمة حقها في أن تقرر مصيرها بنفسها . وإذا ماهبت الجماهير للنضال ، فهذا يعني أن حقوقها الحيوية قد قُعت . وأن مطامح شخص آخر أو « يد موسكو » لاعلاقة لها بذلك . وباختصار ، فإن هذه الأسطورة كذبة مأكرة .

المغزى الدولي للتفكير الجديد

إننا لانتعبر التفكير الجديد شيئاً ثابتاً مرة وإلى الأبد . ونحن لانتعقد أننا قد عثرنا على الحقيقة النهائية التي يبقى على الآخرين مجرد أن يقبلوها أو يرفضوها ، أى يتخذوا موقفاً قد نسميه خاطئاً . إن الأمر ليس كذلك . والتفكير الجديد ، بالنسبة لنا كذلك ، هو عملية نواصل خلالها أن نتعلم ونكتسب خبرات جديدة دوماً . وقد قال

لينين إن سبعين ماركسيا قد لا يكفون لتحليل كافة العمليات المترابطة في الاقتصاد العالمى . ومنذ ذلك الوقت أصبح العالم أكثر تعقيدا بكثير. إن تطوير طريقة جديدة في التفكير تحتاج إلى حوار ليس فقط مع الذين يؤمنون بنفس الآراء ، وإنما كذلك مع الذين يفكرون بشكل مختلف ويمثلون نظاما فلسفيا وسياسيا يختلف عن نظامنا . إذ أنهم يحملون كذلك خبرة تاريخية ، وثقافية ، وتقاليدي شعوبهم ، وهم يشكلون جزءا من التطور العالمى ، ويحق لهم أن يدافعوا عن آرائهم الخاصة وأن يقوموا بدور نشط في السياسة العالمية. وأنا على قناعة بأن سياسى اليوم يجب أن يعوا القدرة الفكرية للبلدان والشعوب الأخرى ، وإلا سيكون مصير نشاطهم إلى التزعة الإقليمية وإلى نظرة قومية ضيقة إن لم يكن ما هو أسوأ .

ولهذا السبب ، فإننا مع إجراء حوار واسع ، ومقارعة الآراء والجدل والنقاش . فهذا يحفز الفكر ويحول دون وقوع الناس في روتين التفكير التقليدى . ومع ذلك ، فالشئ الرئيسى هو أن ذلك يساعد على تدويل طريقة التفكير الجديدة .

إن الحوار بين الناس « من مختلف العوالم » ، بين الناس من مختلف مشارب الحياة ومن مختلف الآراء ، هام للغاية . وإذا ما كان الاهتمام المشترك بمستقبل البشرية يوحدهم ، فإن المشاحنات والخلافات العديدة بينهم لن تحول بينهم وبين إيجاد نقاط للاتصال والاتفاق حول المسائل الأساسية . وهذا مثال طيب للعالم بأسره .

وبإمكان المرء أن يرى ذلك بوضوح خاصة خلال اجتماعات العلماء ، والكتاب ، والشخصيات الثقافية . فالإخلاص والكفاءة يميزان اهتمامهم وقلقهم على مستقبل العالم ، وعلى مصير الإنسان وقدرته ، وكذلك قوتهم المعنوية ومعاناتهم من أجل الذين مازالوا يعيشون في ظروف غير ملائمة للإنسان . وهذا شئ هام للغاية في عصر يكشف فيه العلم ودكاء البشرية عن أكثر الأسرار غموضا في الطبيعة والحياة ، ويحدد بالفعل مجرى التاريخ . ولذلك يمكننى القول بأن الحوار الحى وغير

الرسمى بين السياسيين والعلماء والشخصيات الثقافية ضرورة ملحة .

إن الاجتماعات مع أمثال هؤلاء الناس لا تثرى فقط نظرية وفلسفة المرء ، بل إنها قد أثّرت أيضا على التحركات والقرارات السياسية التي كان لابد من اتخاذها في السنوات الأخيرة . وأتذكر جيدا اجتماعى فى نوفمبر ١٩٨٥ مع وفد من مؤتمر الحائزين على جائزة نوبل - جورج وولد (الولايات المتحدة) ، تبوكينينبرج وسوزان جابريل (هولندا) ، اليوسى انجلاندر (النمسا) والكسندر بروخوروف (الاتحاد السوفيتى) . وحضر هذا الاجتماع العالمان الأكاديميان أناتولى ألكسندروف ويفجينى فيليخوف . وجرت مناقشاتنا قبل وقت قصير من ذهابى إلى جنيف لأول اجتماع لى مع الرئيس ريحان . وسلمنى العلماء نداء من المشاركين فى مؤتمرهم ، وأجربنا مناقشات جادة للغاية حول الآثار الممكنة لاستخدام الأسلحة النووية- ، وأهمية حظر التجارب النووية ، ومخاطر عسكرة الفضاء . واتفقنا على ضرورة ربط الجهود من أجل الأمن من خلال نزع السلاح بالجهود المبذولة من أجل ضمان ظروف الحياة اللائقة بالإنسان .

وأذكر أن الحائزين على جائزة نوبل قالوا إن صيانة السلام تتطلب اليوم شجاعة أكبر من تلك التى يتطلبها الإعداد للحرب . وأعطى هذا اللقاء السند المعنوى للمواقف التى خططنا لاتخاذها فى الاجتماع مع رئيس الولايات المتحدة .

ولنأخذ مثالا آخر . فى محفل موسكو الدولى «من أجل عالم خالٍ من الأسلحة النووية ومن أجل بقاء البشرية» - الذى يعتبر لقاء لم يسبق له مثيل من حيث عدد المشاركين فيه وسلطانهم - أتيحت لى فرصة للإحساس بأمزجة صفوة فكرية دولية وسماع أفكارها . وأثارت مناقشاتى معهم انطبعا قويا لدى . وقد ناقشت نتائج المؤتمر مع زملائى فى المكتب السياسى وقررنا تقديم حل وسط رئيسى جديد - أى فض ملف ركيافيك وفصل مشكلة الصواريخ المتوسطة المدى فى أوروبا عن المسائل الأخرى .

وإليكم مثال ثالث . لقد مدد الاتحاد السوفيتي مرارا قراره من جانب واحد بوقف مؤقت للتفجيرات النووية . وعلى أن أقول إن ذلك كان نتيجة لدراسة جادة لنداءات عديدة وجهت إلى القيادة السوفيتية من مختلف المثقفين في بلدان أخرى . لقد أخذنا همومهم وحججهم بجدية لأننا أدركنا أن السياسة المسئولة يجب أن تأخذ في الاعتبار رأى ما يمكن أن نسميه بالجانب الأكثر تأثيرا فى الرأى العام . وأعتقد أن السياسة التى لاتبدى الاهتمام بمستقبل البشرية - ويجب أن يكون هذا الاهتمام العلامة المميزة لأى مثقف حقيقى - هى سياسة غير أخلاقية وغير جديرة بالاحترام .

وقد ترك محفل إيسيك - كولسك ، وهو المحفل الذى حضرته شخصيات ثقافية عالمية مرموقة بدعوة من الكاتب السوفيتى جنكيز إيتاتوف - ترك انطبعا عميقا فيما يتعلق بالنظرة الجديدة . ولقد التقيت بهم . وكانت الفكرة الرئيسية لمناقشتنا هى الإنسانية والسياسة ، والجانب المعنوى والفكرى للنشاط السياسى فى العصر النووى . وقلت فى هذا اللقاء : إن الأمم قد تعلمت من مآسيها السابقة واستجمعت شجاعتها وصنعت أفكارها ، وتغلبت على الصعاب والمشاق والخسائر ، ونهضت ثانية وانطلقت إلى الأمام ، واختار كل منها طريقه الخاص . فما الذى سيحدث إذا ما أخفقنا فى إبعاد الخطر النووى الذى يحوم فوق وطننا المشترك ؟ أخشى أن نكون غير قادرين على تصحيح خطأ من هذا القبيل . وتلك هى مهمتنا الأكثر أهمية . ولهذا السبب ينبغى أن نوضع القدرة الفكرية والمعنوية للثقافة العالمية فى خدمة السياسة .

لقد بدأ « أطباء العالم من أجل تجنب الحرب النووية » يمارسون تأثيرا هائلا على الرأى العام العالمى خلال فترة قصيرة نسبيا من الزمن . وقد بدأ هذه الحركة البروفسور الأمريكى برنارد لون والأكاديمى السوفيتى يفجينى تشاروف . والتحق بالحركة عشرات الآلاف من أطباء الأمريكتين ، وأوروبا ، وآسيا ، وأفريقيا ، وأستراليا . وقد سبق أن التقيت بالبروفسور لون من قبل ، ولكنى التقيت هذه المرة بكل زعماء الحركة بعد مؤتمري موسكو . ومن المستحيل تجاهل ما يقوله هؤلاء الناس . إن ما يقومون به يستحق قدراً كبيراً من الاحترام . لأن ما يقولونه وما يفعلونه

تحفز إليهما معرفة دقيقة ورغبة عارمة في تحذير البشرية من الخطر المحدق بها .
وفي ضوء حججهم والمعطيات العلمية الدقيقة التي تتوفر لديهم ، لا يبدو أن
هناك مكانا لالنهماك في المناقشات السياسية . فليس لأى سياسى جاد ، الحق في
تجاهل استنتاجاتهم أو إهمال أفكارهم التي ينقلون بها الرأي العام العالمى مرحلة إلى
الأمام .

وفيما يتعلق بالقيادة السوفيتية ، ينبغى أن أقول : إننا نواقون لمعرفة رأى (وحتى
نقد) كافة أنواع الناس في عالمنا اليوم . ونحن في اتصالاتنا معهم ، نختبر إمكانية
طريقة التفكير الجديدة وواقعية سياستنا . والآن فأى تماثل ، وأحيانا التطابق في
الآراء اللذان نكتشفهما خلال هذه الاتصالات يوفران لنا دليلا يمكننا من أن نرى أن
طرق معالجتنا الجديدة تتبع نفس المنهج الذى اتبعه الجانب المخلص التفكير من
البشرية .

ومن الطبيعى بالنسبة لى كشيوعى أن أظل باستمرار على اتصال بممثلى الحركة
الشيوعية في البلدان الأجنبية . وقد تغير الكثير في هذه الاتصالات في السنوات
الأخيرة . إننا نبتعد عن الدبلوماسية بين الأحزاب ، وهى الدبلوماسية التى تغلف
الحقيقة بغلاف حلو المذاق أو تعالجها بأساطير أيوب ، وهذا أسوأ حالا .

وليس مهما ما يعتقد معارضو الشيوعية ، فقد نشأت الشيوعية ووجدت من
أجل صالح الإنسان وحرية ، ولكى تدافع عن حقوقه الحقيقية ، وعن العدالة على
الأرض . وللشيوعية قدرة هائلة على التزعة الإنسانية . ولهذا السبب فإن نظرتنا
العالمية المشتركة ، والأفكار والتقييمات والاعتبارات والنقد النافع الذى نتبادله مع
أصدقائنا هى أمور لاغنى عنها . وهى تساعد على تطوير طريقة جديدة في التفكير
وعلى أن نطبق سياسيا الثروة الفنية للخبرة الدولية التى تعكس مصالح الجماهير العاملة
ومشاعرها .

ونحن ننظر إلى العلاقات الدولية المكثفة بين العلماء ، والشخصيات الثقافية ،

والمتقنين بشكل عام ، وحركاتهم المهنية ، على أنها محاولة لجذب خبرة القوى في الأمم والشعوب إلى صفوفهم ، ومساعدتهم على فهم العالم المعاصر والتعبير عن رأيهم حول مستقبله لكي يحولوا دون الكارثة النهائية .

وينطبق ذلك ، ليس فقط ، على نزع السلاح ، وتجريد المواقف الفردية والمجتمع نفسه من الطابع العسكري ، بل ينطبق أيضا على مشاكل ذات اهتمام مشترك للبشرية كالخطر البيئي ، وآفاق الطاقة والموارد ، والرعاية الصحية ، والتعليم ، والمواد الغذائية ، ونمو السكان ، والمعلومات ، والهجوم الاعلامي الخ . ونجد نقاط اتصال عديدة للغاية وأشياء مفيدة كثيرة للغاية ، وذلك من خلال تبادل الآراء مع رجال العلم والثقافة وأفراد الشعب ذوي النفوذ حول كل هذه المسائل .

وأود أن أقول : إنه قد أصبح محتوما على الساسة ومثلي العلوم والثقافة أن يلتقوا ويواصلوا تبادل الآراء - ويبدو أن ذلك لا بد وأن يصبح شيئا طبيعيا يودونه في الظروف الحالية .

لقد تحدثت أخيرا مع كاتب أمريكي لاتيى بارز هو جابريل جارسيا ماركيز . إنه عقل كبير حقا . ومدى تفكيره عالمي : وقراءة مجرد كتاب واحد من كتبه يكشف عن ذلك . وهكذا اتضح أن المرء أثناء حديثه عن إعادة البناء التي تجرى في الاتحاد السوفيتي يستطيع أن يتطرق إلى أى مشكلة دولية أو اجتماعية في عصرنا . إذ أن كل العالم يحتاج لإعادة البناء ، أى ، إلى تغير نوعي وتطور تقدمي . إن رأى رجل من طراز ماركيز ذو أهمية بدرجة كبيرة . وذلك لأنه على وجه التحديد يعكس أفكار واهتمامات ومشاعر الملايين - البيض ، والسود ، والصفراء ، وكل الناس على الأرض - إنه ملهم فعلا . وهذا يعنى أن ما بدأنا عمله في الداخل قد يكون مفيدا للشعوب الأخرى كذلك .

ونحن نرحب بما تمارسه الحركات العامة المتباينة والعديدة - الحركات النقابية ، أو النسائية ، أو الشبابية ، أو البيئية ، أو المعادية للحرب - من تأثير مباشر على السياسة

الدولية ، هذا التأثير الذى زاد كثيرا فى السنوات القليلة الماضية . إنها تغزو بمطالبها الملحة ، وشعورها بالمسئولية ، ما كان ذات يوم مجال الدبلوماسية فقط .

وإنه لمن الصواب أن يحصل الناس على أهم المعلومات عن نوايا رجال الدولة الذين يتوقف عليهم بالفعل مجرى الأحداث فى المجالات الرئيسية للحياة الدولية . وقد التقيت بوفد من الاتحاد العالمى للنقابات . وهو أكبر مركز نقابى ، يجمع خلفه مئات الملايين من الجماهير العاملة من بلدان عديدة فى العالم . وسلمنى الوفد وثيقة المؤتمر النقابى العالمى الحادى عشر مع نداء موجه إلى وإلى الرئيس الأمريكى . وتكمن أهمية هذه الوثيقة فى رأيى فى أنها تمثل إرادة الطبقة العاملة ، وتعكس المصلحة المشتركة للبشرية فى قيام سلم آمن . وقد أقنعتنى هذه الوثيقة هى والحديث الصريح الذى أجريته مع الزعماء النقابيين أن الرسالة التاريخية للطبقة العاملة بوصفها متحدًا - من خلال مصالحها الخاصة - باسم مصالح كل التطور الاجتماعى ، ما تزال تنبض بالحياة ، حتى فى الآونة الحاضرة ، حيث تغيرت الظروف جذريا للغاية .

ولقد هزنى بعمق مؤتمر المرأة العالمى الذى اجتمع فى موسكو فى يونيو ١٩٨٧ . وقد طُلب إلى أن أتحدث فيه . وكان المؤتمر غير عادى من حيث تمثيله - إذ ضم ممثلات لأكثر من ١٥٠ دولة . وقد أحسست عندما سمعت المندوبات يتحدثن وعندما تحدثت إليهن ، بإحاطتهن المثيرة للإعجاب بما يجرى فى العالم . حقا إن النساء اللاتى يتمثل قدرهن الطبيعى فى الحفاظ على الجنس البشرى واستمراره ، هن خير نصير لفكرة السلام فى التفانى والتجرد عن الهوى . لقد كسبت كثيرا من حضور هذا المؤتمر سواء عاطفيا أو سياسيا .

وفى كل يوم ، أتلقي عشرات الخطابات والرسائل والبرقيات من جميع أنحاء العالم - من ساسة ، وشخصيات عامة ، وعمد ، وأعضاء برلمانات ، ورجال أعمال ، وغالبيتها من أناس عاديين ، وأزواج ، وكذلك عائلات وأطفال ونداءات

جماعية . وبعضها يهزنى فعلا ، إذ يتضمن أشعارا ، ورسوما ، وهدايا تذكارية صغيرة ومصنوعة باليد ، ودبلومات من المدارس والمجموعات والنوادي . بل وأيضا صلوات ودعوات . وخلف كل هذه المشاعر والأفكار الإنسانية المتباينة . يوجد القلق على مستقبل السلام ، والأمل في أن تكون البشرية جديرة بشيء أفضل من الحياة في ظل التهديد بالكارثة النووية .

ومهما كنت مشغولا ، فإنني أحاول قدر جهدي أن أجيب على هذه الرسائل . وأهم ما تبينه هذه الرسائل والنداءات هو الثقة في الاتحاد السوفيتي وفي سياستنا الحالية . ونحن نعتز بهذه الثقة وسنبذل كل ما في وسعنا لنكون على مستواها بأعمالنا سواء في الداخل أو في الشؤون الدولية .

إن مثل هذا الاتصال بالناس من جميع أنحاء العالم يعزز قناعتى بأن آفاق الحضارة ليست بلا أمل ، حيث أن أفضل العقول وشرفاء الناس يفكرون ويقلقون على حاضرها ومستقبلها . وهم على استعداد لتكريس مواهبهم ، ومعارفهم ، ووقتهم ، وطاقاتهم العاطفية للمحافظة على هذا العالم وبناء عالم أفضل وأكثر عدالة . وهكذا في الوقت الذي نبني فيه سياستنا على التفكير الجديد ، لا نرى أن نحصر أنفسنا في الأفكار التي اعتدنا عليها وفي اللغة السياسية التي عرفت عنا ولا توجد لدينا أية نوايا من أى نوع لتحويل كل الناس إلى الماركسية . إن التفكير السياسي الجديد بإمكانه ، بل وعليه ، أن يستوعب تجارب كافة الشعوب وأن يضمن الإثراء والتأثير المتبادلين لمختلف التقاليد الثقافية .

من أجل سياسة خارجية صريحة وأمينية

تسعى القيادة السوفيتية لتناول الشؤون الخارجية بطريقة جديدة . وأول ما يجب أن أذكره في هذا الإطار هو الحوار . فمن الصعوبة بمكان أن يتحدث المرء عن التوصل إلى تفاهم متبادل بدونه . ومنذ أن اقتنعنا بمبادئ التفكير الجديد جعلنا من الحوار أدواتنا الأساسية لاختبارها في الممارسة الدولية . وبالإضافة إلى ذلك ، فعن

طريق الحوار نتأكد من مدى واقعية أفكارنا ومبادراتنا وأعمالنا الدولية ، ونحن نشير بارتياح إلى أن هذه الكلمة ، رغم أنها على خلاف البيريسترويكا ، ليست من أصل روسي ، فقد ضربت جذورها عميقا في المفردات الدبلوماسية في السنوات الأخيرة . وبدأ الحوار السياسي نفسه يلعب دوراً أكبر أهمية في العلاقات الدولية أكثر من أى وقت مضى .

وخلال العامين ونصف العام ، لشغلي منصب السكرتير العام ، أجريت ما لا يقل عن ١٥٠ لقاء وحديثا مع رؤساء دول وحكومات ، وزعماء برلمانات وأحزاب شيوعية ، واشتراكيين ديمقراطيين ، وليبراليين ، ومحافظين - ومع سياسيين وشخصيات عامة على مستويات مختلفة في أوروبا ، والأمريكتين ، وآسيا ، وأفريقيا . وأصبح ذلك أيضا ممارسة طبيعية لكثير من زملائي في القيادة السوفيتية . إنها مدرسة عظيمة لنا ، وأعتقد أن مثل هذا الحوار مفيد لكل من يتحدثون معي كذلك . إنه يساعد على تشكيل ودعم العلاقات الدولية المتحضرة والضرورية تماما للعالم الحديث .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإننا نريد أن نعود إلى المعنى الحقيقي الأصلي للكلمات التي نستخدمها في العلاقات الدولية . وعندما نعلن عن التزامنا بسياسة أمينة وصریحة ، فنحن نعني بالفعل الأمانة ، والاحترام ، والإخلاص ، ونحن نتبع هذه المبادئ في أعمالنا وهذه المبادئ ليست بجديدة في حد ذاتها - فقد ورثناها عن لينين . والشئ الجديد هو أننا نحاول تحريرها من الغموض الذي انتشر كثيرا في العالم الحديث . والشئ الجديد كذلك هو أن الوضع الحالى يجعلها إلزامية للجميع .

وكحقيقة ، فقد استبعدنا كل تناقض بين ما نقوله لمحدثينا الأجانب خلف أبواب مغلقة وبين ما نصرح به ونفعله علنا . ويجب أن أعترف بأننى لست مع مثل هذه الدبلوماسية المهمة التي تعجز عن طريقها أن تفهم في النهاية ما الذى أراد شريكك قوله خلال اللقاء أو في تبادل الرسائل . فأنا مع السياسة الصريحة التي تؤدي بالفعل

إلى نتيجة ما . ويجب ألا تكون السياسة ذات وجهين ، لأن قدرة السياسة على التنبؤ شرط لا غنى عنه للاستقرار الدولى . ينبغى أن يكون هناك مزيد من الضوء ومزيد من العلانية فى الشئون الدولية ، وأن تكون المناورات التكتيكية والتلاعب الكلامى أقل . فلم يعد باستطاعة أحد خداع الآخرين . وأنا أواصل تكرار ذلك لمن أتحادث إليهم فى الغرب . إن ما نحتاجه من الزعماء اليوم هو تقييم صائب للوقائع ، وعقل صاف ، وإحساس متزايد بالمسئولية : أى أننا بحاجة إلى سياسة جادة بدلا من اللعب فى السياسة ، أو التلاعب فى السياسة .

وأعتقد أن الأسلوب الجديد فى العلاقات الدولية يتضمن توسيع إطارها خارج حدود العملية الدبلوماسية البحتة . لقد أصبحت البرلمانات تشارك بنشاط متزايد فى العلاقات الدولية إلى جانب الحكومات ، وهذا تطور مشجع . إن هذا يشير إلى اتجاه نحو مزيد من الديمقراطية فى العلاقات الدولية . إن غزو الرأى العام والمنظمات الدولية والوطنية لهذا المجال على نطاق واسع هو من علامات عصرنا ، وبالمثل فإن دبلوماسية المواطن ، والجمهور ، وهى طريقة للتوجه إلى الشعوب مباشرة ، تصبح وسيلة مناسبة للعلاقات بين الدول .

ليست هناك خدعة فى استخدام دبلوماسية المواطن . ونحن ننطلق فقط من إدراك أن كل عبء سباق التسلح ، ناهيك عن النتائج المحتملة للتزاعات الدولية ، يقع على عاتق كل الشعوب . ونحن نريد أن يكون موقف الاتحاد السوفيتى معروفا لشعوب العالم .

وعند هذه النقطة ، ينبغى أن أتناول المسألة الآتية والحادة للعلاقة بين السياسة والدعاية . لقد كانت الاستجابة لمبادراتنا فى السياسة الخارجية فى الغالب هى : « هذه دعاية ! » ويجب أن نعترف أن مقترحات السياسة الخارجية فى هذا العصر ، عصر الإعلام الجماهيرى ، والاهتمام الجماهيرى بالمشاكل الدولية تواكبها الدعاية على الدوام . إذ يجب أن «تؤثر» . فالزعماء الأمريكيون ، على سبيل المثال ، يبدأون

بالإعلام عن تحركاتهم الدولية التي ينوون القيام بها قبل أن يعلنوها رسميا بوقت طويل ، ويقدمونها على الدوام على أنها « هامة » ، و « تاريخية » ، و « حاسمة » ، الخ . بيد أن الشيء المهم في النهاية هو الطابع والغرض الحقيقي للمقترحات : وما إذا كان الهدف منها أن توضع بالفعل موضع التطبيق ، وما إذا كانت واقعية ، وما إذا كانت تأخذ في اعتبارها مصالح كافة الأطراف المعنية أو ما إذا كانت دعاية الغرض منها هو مجرد إثارة الاضطراب . ولذلك يمكنني أن أعلن بشعور كامل بالمسئولية بأن كل مبادراتنا جادة ، وأنها ، إذا ما استشهدنا بلينين ، « شعارات للعمل » وليست « شعارات للدعاية » .

وعند هذه النقطة يمكنني أن أكرر بوجودان صاف ما سبق أن قلته لمجلة « تايم » في أغسطس ١٩٨٥ . ومع ذلك ، إذا لم يروا سوى الدعاية في كل ما نفعله ، فلماذا لا يستجيبون له وفقا للمبدأ القائل « العين بالعين » ؟ لقد أوقفنا التفجيرات النووية . فلماذا لم يستطع الأمريكيون أن يقوموا بنفس الشيء ويتبعوا ذلك « بضربة دعائية » أخرى بإيقاف ، مثلا ، أحد صواريخهم الاستراتيجية الجديدة ؟ وقد نستجيب بنفس نوع « الدعاية » ، وهكذا دواليك . وقد يحار المرء عمن سوف يخسر من هذا النوع من المنافسة « الدعائية » ؟ .

إن عامين ونصف العام ليست بالفترة الزمنية الطويلة إلى حد ما . وإذا حكمنا بكل الدلائل ، فإن الفترة التي نتحدث عنها قد برهنت على أنها مليئة بالشيء الكثير . فما هو الشيء الرئيسي فيها ؟ قد يقول بعض الناس إن التفكير السياسي الجديد ما يزال يشق طريقه في السياسة العالمية بصعوبة . وهذا صحيح . وقد يقول البعض إن القصور الذاتي لطريقة التفكير القديمة ما يزال أقوى من الاتجاهات الجديدة . وهذا صحيح أيضا . ومع ذلك فالشيء الرئيسي هو أن العمل الصعب المتعلق بتجهيز الأرض لإعادة تشكيل العلاقات الدولية قد تم القيام به . ونحن نعتقد أن العالم سيتغير نحو الأفضل . وهو يتغير فعلا .

الفصل الرابع

إعادة البناء في الاتحاد السوفيتي والعالم الاشتراكي

يتمثل جوهر مبدئنا الأسمى في : اتخاذ قرارات هادفة وهامة في الداخل ، وتقدير ما يعنيه ذلك بالنسبة للاشتراكية في مجموعها بعناية . وغنى عن القول ، بأنه لا يمكن لأى بلد اشتراكي أن يتحرك إلى الإمام بنجاح وبايقاع صحى دون التفاهم والتضامن ، والتعاون المتبادل المثمر مع البلدان الشقيقة الأخرى ، بل ودون عون منها في بعض الأحيان .

حول الاشتراكية الحققة

عندما بدأنا السير على طريق البيريسترويكا ، انطلقنا من الفرضية القائلة بأن إعادة البناء بدأت تعمل ، وسوف تواصل العمل . إن تدعيم الاشتراكية في مجموعها في عملية إعادة البناء هذه قضية الشعب السوفيتي بأسره . ويهدف إلى النهوض بمجتمعنا إلى مستوى نوعى جديد . وهذه هى النقطة الأولى .

والنقطة الثانية هى أن كلا من النهج الذى اخترناه والحاجة إلى تسريع خطانا جعلانا ننظر إلى كيفية تطوير التعاون مع البلدان الاشتراكية الأخرى في إطار تاريخى عريض . والنتيجة المترتبة على ذلك - وقد توصلت جميع الأحزاب الشقيقة إليها - هى ضرورة إضفاء دينامية أكبر على تعاوننا ، وإن هذا المجال بدوره جاهز لنوع من إعادة البناء . وارتكزت أفكارنا ، ومبادراتنا فيما بعد على ما يلى :

أصبحت الاشتراكية ، طوال عقود ما بعد الحرب ، تشكيلا دوليا قويا وعاملا هاما في السياسة العالمية . ويعمل الآن شكل اشتراكي من الاقتصاد في مجموعة كبيرة من البلدان . وقد وضعت الأسس لتقسيم دولى اشتراكي للعمل . واكتسبت

المنظمات المتعددة الأطراف للدول الاشتراكية خبرة متنوعة من النشاط . واتخذ التبادل الثقافى والعلمى أبعادا واسعة . ولا يعنى هذا ، بالطبع ، أن تطور الاشتراكية العالمية سار بنجاح على الدوام .

لقد اختلف المستوى الاقتصادى الأولى للبلدان التى سارت فى طريق التطور الاشتراكى اختلافا كبيرا . بل حتى اليوم نجده بعيدا عن أن يكون متطابقا . ويشكل ذلك واحدة من الصعوبات أمام تحقيق الإمكانيات الشاملة للاشتراكية وأمام إتقان دوايب تكاملها .

لقد مرت الاشتراكية بمراحل تطور معقدة . فى العقود الأولى بعد الحرب ، كان الاتحاد السوفيتى وحده هو الذى لديه خبرة ما فى بناء المجتمع الجديد . وكان عليه أن يكون مشغولا عن كل ما يحدث ، سواء كان طيبا أم رديئا . وكان طابع العلاقات الاقتصادية مع البلدان الاشتراكية الأخرى يتمشى أيضا مع ذلك . فقد تطورت هذه العلاقات مع التركيز على إمدادات المواد الخام والوقود السوفيتية وعلى معونة الاتحاد السوفيتى فى بناء الصناعات الأساسية . وفى مجال بناء الدولة ، كذلك ، اعتمدت الدول الاشتراكية الشقيقة لدرجة كبيرة على النموذج السوفيتى . وكان هذا حتميا إلى حد ما . وكان الإصرار على فرض « النموذج السوفيتى » يشوه هذه الضرورة الموضوعية لذلك الوقت . ومهما يكن فإن خبرة الدولة الاشتراكية الأولى ومساعدتها قد عززت بشكل عام جهود البلدان الأخرى لبناء مجتمع جديد .

بيد أن ذلك لم يحدث دون خسائر ، وبالأحرى خسائر جسيمة . فاعتمادا على الخبرة السوفيتية عجزت بعض البلدان بالتالى عن أن تدرس خصوصياتها . والأمر الأسوأ أن بعض المنظرين السوفيت وبخاصة زعمائنا العاملين الذين تصرفوا باعتبارهم الحراس الوحيدين للحقيقة قد أعطوا مساحة أيديولوجية للنظرة الجامدة . فدون أن يأخذوا فى اعتبارهم جدة المشاكل والسمات الخاصة للبلدان الاشتراكية المختلفة ، أبدوا الشكوك فى بعض الأحيان حيال مواقف هذه البلدان من مشاكل معينة .

ومن ناحية أخرى ، نمت في عدد من البلدان الاشتراكية اتجاهات نحو نوع من الانغلاق ، مما أدى إلى نشأة تقديرات وأنشطة ذاتية . وبالإضافة إلى ذلك ، كانت البلدان الاشتراكية ، منذ مولدها ، هدفا لضغط شديد من جانب الإمبريالية - ضغط سياسي ، وعسكري ، واقتصادي ، وأيديولوجي .

وأدى كل هذا في بعض الحالات إلى عمليات موضوعية معينة ، وإلى ظهور مشاكل لم تلاحظها الأحزاب الحاكمة والقيادات في الوقت المناسب . وفيما يتعلق بأصدقائنا في البلدان الاشتراكية ، فعادة ما كانوا يلزمون الصمت ، حتى عندما يلاحظون شيئا يثير الاهتمام . كانت الصراحة تواجه بالغضب ، ومن الممكن أن « يساء فهمها » . ومرت بعض البلدان الاشتراكية بأزمات خطيرة في تطورها . وكانت تلك هي الحال ، مثلا ، في الجرج عام ١٩٥٦ ، وفي تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ ، وفي بولندا عام ١٩٥٦ ، ثم مرة أخرى في أوائل الثمانينيات . وكان لكل من هذه الأزمات سماته الخاصة . وعولجت بطرق مختلفة . ولكن الحقيقة أنه لم تحدث عودة إلى النظام القديم في أي من البلدان الاشتراكية . وأود أن أشير هنا إلى أنه لا ينبغي إلقاء اللوم على الاشتراكية عن مصاعب وتعقيدات تطور البلدان الاشتراكية ، وإنما يقع اللوم أساسا على الحسابات الخاطئة للأحزاب الحاكمة . ويمكن بالطبع أن « يعود الفضل » للغرب كذلك ، لمساعدته ، من خلال محاولاته الدائمة والعنيدة لتقويض تطور الدول الاشتراكية .

وخلال تجارب شاقة ، وأحيانا مريرة ، حشدت البلدان الاشتراكية خبرتها في تنفيذ التحولات الاشتراكية . إن ممارسات الأحزاب الشيوعية الحاكمة ، وكذلك مساهماتها النظرية قد أثرت بالتدريج فكرة أكمل وأكثر تحديدا عن الأساليب والطرق والوسائل اللازمة لتحويل اشتراكي للمجتمع . إن ماركس ، وإنجلز ، ولينين ، الذين أقاموا الدليل نظريا على المبادئ التي قام عليها مفهوم الاشتراكية ، لم يسعوا إلى إعطاء صورة مفصلة للمجتمع المقبل . وهذا ما يستحيل عمله بشكل عام . فقد اكتسبت هذه الصورة حدودها العامة ، وما تزال في طور التكوين نتيجة

العمل الثورى الخلاق لكافة الدول الاشتراكية .

وكانت هناك كذلك فترات خطيرة فى العلاقات بين البلدان الاشتراكية . وكان من الخطير على وجه الخصوص تقويض علاقات الاتحاد السوفيتى الأخوية مع يوغوسلافيا ، ومع جمهورية الصين الشعبية ، ومع ألبانيا . وبشكل عام كانت هناك دروس مريرة كافية . ولكن الشيوعيين تعلموا . وماتزال نتعلم حتى اليوم .

وبشكل عام فإن إحدى ميزات الاشتراكية هى قدرتها على التعلم . تعلم كيف تحل المشاكل التى تطرحها الحياة . تعلم كيف تتجنب الأزمات التى يحاول معارضونا أن يخلقوها ويستخدموها ضدنا . تعلم كيف تقاوم محاولات تقسيم العالم الاشتراكى وتحريض بعض البلدان ضد الأخرى . تعلم كيف تحول دون التزايدات فى المصالح بين الدول الاشتراكية المختلفة ، عن طريق تنسيق هذه المصالح وإيجاد حلول مقبولة بشكل متبادل لأعقد المشاكل .

فإلى أى شىء توصلت الاشتراكية العالمية بحلول منتصف الثمانينيات؟ الآن يمكننا القول فى أمان : إن النظام الاشتراكى قد استقر بشكل راسخ فى مجموعة كبيرة من البلدان ، وإن القدرة الاقتصادية للبلدان الاشتراكية تتزايد باطراد ، وإن قيمها الثقافية والروحية هى قيم معنوية لدرجة عميقة وتشرف الشعوب .

ولكن فى هذه الحالة قد يسأل سائل : إذا كان كل شىء على مايرام ، فلماذا تثير البيريسترويكا اهتماما كبيرا فيما يتعلق بالعلاقات مع البلدان الاشتراكية ؟ حسنا ، إنه سؤال مشروع .

وبشكل عام ، فإن الجواب بسيط للغاية : لقد انتهت المرحلة الأولى لنشأة الاشتراكية العالمية وتطورها ، بيد أن أشكال العلاقات التى أقيمت فى ذلك الوقت ظلت بالفعل دون تغيير . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن عمليات النمو السلبية فى هذه العلاقات لم تدرس بدرجة كافية من الصراحة ، مما يعنى أنه لم يتم تحديد كل ما يعرقل تطورها ويحول بينها وبين دخولها مرحلة جديدة معاصرة . وفى نفس الوقت .

جمع كل بلد اشتراكى وكل مجتمع اشتراكى إمكانيات كبيرة خاصة به فى كل مناحى الحياة . وسوف تلحق أضرار مباشرة بهيئة الاشتراكية وإمكانياتها إذا ماتشبنا بأشكال التعاون القديمة أو حصرنا أنفسنا فيها .

وفى الحقيقة ، فابتداء من أواخر السبعينيات أصبحت العلاقات بين قادة البلدان الشقيقة تتجه أكثر فأكثر للاستعراض أكثر منها للعمل الجاد فقلت الثقة فيها وأصبحت أشبه ماتكون بأداء مهمة .

والآن تغير الكثير من الأمور . فخلال العامين ونصف العام الماضيين نفذ الاتحاد السوفيتى واصدقاؤه فى الأسرة الاشتراكية عملا عظيما . وهو يحتاج إلى الاستمرارية بل هو مستمر فعلا . وتجرى من جديد صياغة المدى العام للعلاقات السياسية والاقتصادية والإنسانية مع البلدان الاشتراكية . وهذا ما تمليه الحاجات الموضوعية لتطور كل بلد كما يمليه الوضع الدولى فى مجموعه ، بدلا من الانفعالات والعواطف .

نحو علاقات جديدة

إن دور الاتحاد السوفيتى فى الأسرة الاشتراكية فى ظروف البيريسترويكا يحدده الوضع الموضوعى فى بلادنا . وإذا كانت الأمور تسير سيرا حسنا فى بلادنا ، أو تسير بطريقة سيئة ، فإن هذا يؤثر بالضرورة على كل امرئ . بيد أن مستوى التفاعل الذى توصلنا إليه الآن هو نتيجة لما هو أكثر من مجرد العمل الذى نقوم به فى الداخل . إنه أولا وقبل كل شئ نتيجة للنشاط الاقتصادى والجهود الدؤوبة للبلدان الشقيقة . وقد ناقشنا بدقة كل جوانب التعاون مع اصدقائنا وحلفائنا .

إننا ننطلق جميعا من الفرضية القائلة أنه فى هذه المرحلة الحاسمة من تطور العالم ، ينبغى أن تبين الاشتراكية لأقصى درجة دينامية نظامها السياسى والاقتصادى وطريقتها للحياة الإنسانية . وتجرى بالفعل إعادة ملائمة علاقات الأسرة الاشتراكية مع متطلبات المرحلة الحاضرة . ونحن لانستسلم للرضى عن

النفس : فالعمل بدأ لتوه يكتسب قوة دافعة . بيد أن الأهداف الرئيسية قد جرى تحديدها .

ماذا تتضمن هذه النقاط التي نرجع إليها ؟ أولا ، إن كل إطار العلاقات السياسية للبلدان الاشتراكية ينبغي أن يستند بحزم إلى الاستقلال المطلق . وهذا هو الرأى الذى يؤمن به زعماء كافة البلدان الشقيقة . ويعتبر استقلال كل حزب ، وحقه السيادى فى تقرير المسائل التى تواجه بلده ومسئوليته أمام شعبه ، مبادئ غير قابلة للجدل .

ونحن على قناعة راسخة بأن الأسرة الاشتراكية ستكون ناجحة فقط إذا ما اهتم كل حزب ودولة بمصالحها الخاصة وبالمصالح الاشتراكية على السواء ، وإذا ما احترما أصدقاءهما وحلفاءهما ، وراعى مصالحهما وأوليا اهتماما بنخبة الآخرين . إن إدراك هذه العلاقة بين المسائل المحلية ومصالح الاشتراكية العالمية هو شىء تتميز به بلدان الأسرة الاشتراكية . ونحن متحدون ، وفى الوحدة تكمن قوتنا ، ومن الوحدة نستمد ثقتنا بأننا سنحل المسائل التى يطرحها عصرنا .

ويعتبر التعاون بين الأحزاب الشيوعية الحاكمة أمرا محوريا بالنسبة للتعاون بين البلدان الاشتراكية . وخلال السنوات القليلة الماضية أجرينا لقاءات ومناقشات مفصلة مع قيادة كل بلد شقيق . ويجرى تحديد أشكال هذا التعاون أيضا . وأحد الحلقات الجديدة ، وربما الرئيسية فى هذا ، هى إقامة لقاءات عمل متعددة الأطراف بين زعماء البلدان الشقيقة . وتمكنا أمثال هذه اللقاءات من التشاور ، على الفور بطريقة رفاقية ، فى كل سلسلة المسائل المتعلقة بالتنمية الاشتراكية ، وبجوانبها الداخلية والخارجية .

إن تمديد أجل معاهدة وارسو ، فى الوضع الدولى المعقد ، نتيجة قرار جماعى ، كان حدثا حاسما ، وتمهد الاجتماعات المنتظمة للجنة الاستشارية السياسية لمعاهدة

وارسو الطريق لتراكم أفكار ومبادرات المشاركين فيها ، وتسمح لهم « بضبط ساعاتهم معا » كما يقولون .

ما الذى نعينه بالتوفيق بين مبادرات كل بلد شقيق وبين الخط العام فى الشؤون الدولية . لقد أوضحت التجربة مدى أهمية كل من عنصرى هذه الصيغة . فليس بإمكان أى بلد شقيق - ونحن ننسب هذا إلى الاتحاد السوفيتى بكل معنى الكلمة - أن يحل مهامه فى المجال الدولى إذا ما انعزل عن المسار العام . وبالمثل ، فإن السياسة الخارجية المنسقة بين دولنا يمكنها أن تكون فعالة فقط إذا ما أخذت فى الاعتبار ، على النحو المناسب ، إسهام كل بلد فى القضية المشتركة .

وفىما يتعلق بالعلاقات الاقتصادية ، فإننا نقوم بتطويرها على أساس الالتزام الثابت بمبادئ المنفعة والمساعدة المتبادلتين . ولقد توصلنا إلى تفاهم بأننا جميعا نحتاج الآن إلى قفزة فى العلم والتكنولوجيا وفى المجال الاقتصادى . ومن أجل هذه الغاية ، وضعنا وتبيننا برنامجا شاملا للتقدم العلمى والتكنولوجى يهدف إلى زيادة كفاءة الإنتاج بشكل حاد ، وإلى مضاعفة بل والتوصل إلى ثلاثة أمثال الإنتاجية بحلول عام ٢٠٠٠ . فهل هذا خيال ؟ كلا . إن الأسرة الاشتراكية تملك كل ما تحتاج إليه لتحقيق هذه المهمة ، بما فى ذلك قدرة انتاجية ضخمة ، وعدد هائل من مشاريع الأبحاث والمشاريع الهندسية ، وكذلك موارد طبيعية وقوة عمل كافية ، إن نظامنا الذى يركز على خطة ، يمكننا كذلك من أن نوجه موارد هامة نحو تلبية احتياجات ذات أهمية وأولوية .

لقد توصل زعماء الدول الأعضاء فى مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة نتيجة للمناقشات ، إلى استنتاج أن كافة المكونات البنوية للنظام الاشتراكى يجب أن تعمل بكفاءة أكبر . وهذا مانوافق عليه جميعا . ولكنه لايعنى بالطبع ، أن تلك العمليات ستسير بطريقة متماثلة فى كافة البلدان الاشتراكية . إذ أن لكل بلد تقاليده الخاصة ، وخصائصه والطرق التى تعمل وفقا لها مؤسساته السياسية . ومن حيث

المبدأ ، فإن كافة البلدان الاشتراكية تمر ، بطريقة أو أخرى ، بعملية بحث عن التجديد والتحول العميقة . ولكن كل بلد ، أى قيادته وشعبه ، يقرر بشكل مستقل النطاق والحجم ، والأشكال ، والمعدلات ، والأساليب التى يجب أن تحدث وفقا لها هذه التحولات وليست هناك خلافات حول هذا الموضوع ، وإنما هناك فقط سمات خاصة .

لقد سألتى رئيس وزراء فرنسا جاك شيراك : « هل تعتقد أن روح البيريسترويكا ستترك بصماتها على كافة الدول الاشتراكية فى أوروبا الشرقية » . قلت : إن التأثير متبادل . فنحن نستعير بعضا من خبرة اصدقائنا وهم يأخذون منا مايرون أنه يلائمهم بشكل أفضل . وباختصار ، فإنها عملية تبادل وإثراء متبادل .

وإذا ما تحدثنا بأمانة ، فإنه يبدو لى أن هذه النقطة قد طرحت بدافع أكثر من مجرد الرغبة فى معرفة كيف نقوم بالعمل . لقد حفزتها لدرجة ما الشائعات حول أن بعض اصدقائنا « يختلفون » مع خط القيادة السوفيتية إزاء البيريسترويكا . فماذا يمكننى قوله حول ذلك ؟ إنه ليست لدينا خلافات خطيرة مع اصدقائنا وحلفائنا . لقد تعودنا أن نتحدث بصراحة وبطريقة جادة . وأعتقد أننا نكسب من التقييم النقدى الجاد لتحركاتنا ومبادراتنا أكثر مما نكسب من التصفيق الحاد لأى شىء نقوم به . وهذه هى النقطة الأولى . أما الثانية ، وسأكررها فى هذا السياق ، فهى أننا لا نزعم أننا وحدنا الذين نعرف الحقيقة . والحقيقة يسعى إليها الناس من خلال المساعى والجهود المشتركة .

ولكن اسمحوا لى بأن أقول بضع كلمات أخرى عن الشؤون الاقتصادية : إننا نرى العلاقات المباشرة بين الشركات والمؤسسات والتخصص باعتبارها المعين والرافعة الرئيسية لتعميق تكاملنا . ووفق هذه الخطوط على وجه التحديد نعيد بناء نشاطنا الاقتصادى الخارجى ونزيل الحواجز التى تعوق المؤسسات عن وجود شركاء مناسبين فى البلدان الشقيقة وعن البت على مسئوليتها فى كيفية التعاون معهم . ونحن ننشئ

شركات اشتراكية مشتركة ، بما في ذلك تلك الشركات التي نتوقع أن تلبى حاجات بلادنا بسرعة أكبر إلى أكثر السلع تعقيدا . وتقام مثل هذه الشركات في مجالات الخدمات ، والانشاء ، والنقل . والاتحاد السوفيتي على استعداد لأن يتقدم إليها ببعض الطلبات المربحة . ونحن مستعدون كذلك للتفكير في إمكانية إشراك رجال الأعمال الغربيين في أنشطة مثل هذه الشركات .

ونحن نأمل في التعجيل بعملية التكامل في السنوات القليلة المقبلة . ومن أجل هذه الغاية يجب على مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة أن يركز بصورة متزايدة على مسألتين هامتين .

الأولى ، عليه أن ينسق بين السياسات الاقتصادية ، ويضع برامج طويلة المدى للتعاون في بعض المجالات الجوهرية ويطور الأبحاث الهامة المشتركة والبرامج والمشروعات الهندسية . وإذا ما فعل ذلك فسيكون بالإمكان ، ومن الملائم ، التعاون مع البلدان غير الاشتراكية ومنظماتها ، وفي المقام الأول مع الجماعة الاقتصادية الأوربية .

والثانية ، أن يركز مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة على تطوير وتنسيق المقاييس العيارية اللازمة لدولاب التكامل ، وكذلك المتعلقة بالشروط الاقتصادية والقانونية لعلاقات التعاون المباشر ، بما في ذلك بالطبع ، تحديد الأسعار .

ونحن نريد أن يكون لدى مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة جهاز إداري أقل ، ولجان وهيئات أقل ، وأن يولى اهتماما أكبر للحوافز الاقتصادية والمبادرات ، والروح الاشتراكية للمشروعات ، ولزيادة مشاركة أسرار العمل في العملية . ونحن وزملاؤنا نعتقد أن مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة يجب أن يتخلص من فائض العمل المكتبي والتشويش البيروقراطي .

ولا ينبغي على مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة أن يعتدى بأية حال على استقلال أي من الدول المشاركة فيه وعلى حقها السيادي في أن تكون مسئولة عن

مواردها وقدراتها ، وأن تفعل كل ما في وسعها من أجل مصلحة شعبها . إن مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة ليس تنظيماً فوق القوميات . وهو يعتمد في صنع القرارات على مبدأ الاجماع ، بدلا من التصويت بالأغلبية . والشئ الوحيد الهام هو أن عدم رغبة أو مصلحة أى بلد في المشاركة في مشروع ما لا ينبغي أن يكون قيدا على الآخرين . ومن يريد أن يشارك فعلى الرحب والسعة ، ومن لا يريد ، فيمكنه الانتظار ورؤية مايقوم به الآخرون . وكل بلد حر في أن يقرر ماإذا كان مستعدا لمثل هذا التعاون ولأى درجة سيشترك ، وأعتقد أن هذا هو الموقف الوحيد الصحيح .

ولدينا كذلك مهمة ذات قيمة كبرى تتعلق بالتعاون في المجال الفكرى . والتغيير ضرورى هنا كذلك . فكل بلد اشتراكى ، هو في الحقيقة ، معمل اجتماعى يختبر فيه الأشكال والأساليب المختلفة للجهد الاشتراكى البناء ، وهذا هو السبب في رأينا بأن تبادل الخبرات في البناء الاشتراكى وتجميع تلك الخبرات تكتسبان قيمة متزايدة .

ونحن الشيوعيين السوفيت ، عندما ندرس مستقبل الاشتراكية ، ننطلق من فكرة لينين بأن هذا المستقبل ، سوف يبنى من خلال سلسلة من الجهود التى تقوم بها مختلف البلدان . ولهذا السبب فإننا نؤمن بالطبع بأن أحد الطرق الجيدة للحكم على جدية حزب حاكم هو أن ننظر إلى كيفية استخدامه لخبرته الخاصة ، وكذلك لخبرة أصدقائه ، والخبرة العالمية . وفيما يتعلق بقيمة هذه الخبرة ، فلدينا معيار واحد هنا : الممارسة الاجتماعية والسياسية - نتائج التطور الاجتماعى والنمو الاقتصادى ، وتقوية الاشتراكية في الممارسة . وتقوم الآن مراكزنا العلمية ، وصحافتنا ، واختصاصيوننا ، بتحليل خبرة البلدان الشقيقة على نطاق أوسع بكثير وبنشاط أكبر بكثير حتى يطبقوها بشكل خلاق على الظروف السوفيتية .

وتبدى هذه البلدان من جانبها ، اهتماما كبيرا بما يحدث في الاتحاد السوفيتى . وقد رأيت ذلك حينما التقيت بزعماء البلدان الاشتراكية ، وبالمواطنين العاديين خلال رحلاتي في الخارج . وإليكم توضيح بسيط . فخلال رحلتى إلى

تشيكونسلوفاكيا ، أتيحت لي الفرصة للتحدث إلى الناس في الشوارع وفي مصانع براغ ، وقد أخبروني : « إن مات فعلونه الآن هو الشيء السليم » . وأشار رجل شاب : « وهكذا يتلخص الأمر في : تحدثوا الحقيقة ، واحبوا الحقيقة ، وتمنوا للآخرين الحقيقة » . وأضفت : « وتصرفوا وفقا للحقيقة . وهذا هو أصعب العلوم » . وواصلت كلامي لأقول : « إن الحياة أصعب من أي مدرسة ، فلا يأتي كل شيء بسهولة . ويكون عليك أن تراجع أحيانا ، ثم تتقدم . ومن المؤلم أن تفكر وتحلل وتعيد التحليل ، ولكن لا يجب أن تخشى من ذلك » .

وتتمثل النتيجة العامة التي خلصت إليها القيادة السوفيتية في أننا يمكن أن نصل إلى مستوى جديد من الصداقة بين البلدان الاشتراكية عن طريق تطوير الصلات بين أسر العمل فيها والأفراد وكذلك من خلال تبادل الخبرة . إن صلاتنا في كافة المجالات قد أصبحت أكثر قوة . وقد بدأنا بداية طيبة . وتلعب الشبكة الصلبة من الصلات على خطوط الحزب والدولة والجمهير دورا هاما بل وحاسما في التعاون بين البلدان الشقيقة . ولدينا أنواع مختلفة من الصلات - من تلك التي بين المؤسسات ، و فرق العمل ، والأسر ، ومنظمات الأطفال والشباب ، والجامعات والمدارس ، والاتحادات الابداعية ، والشخصيات الثقافية والأفراد ، إلى الروابط الاقتصادية الدائمة بين مسئولى الإدارات ، وأعضاء الحكومة وامناء اللجنة المركزية .

وإليكم بضع كلمات عن علاقاتنا مع جمهورية الصين الشعبية ، حيث يتحقق في عملية « التحديثات الأربعة » أفكار هامة للغاية أوفي عدة وجوه مشمرة . ونحن نرى في الصين دولة اشتراكية عظمية ، وتتخذ خطوات محددة لضمان أن يجرى تطوير العلاقات الصينية السوفيتية بروح حسن الجوار والتعاون . وقد طرأ بالفعل تحسن ما . ونحن على قناعة بأن فترة الاغتراب قد ولّت . وندعو رفاقنا الصينيين للعمل معنا من أجل تطوير العلاقات الطيبة بين بلدينا وشعبينا .

إن المرحلة الحالية من التطور التاريخي تفرض مطلبا ملحا على الدول الاشتراكية

بأن تزيد معدلاتها ، وأن تنتقل إلى مواقع اقتصادية وعلمية وتكنولوجية أكثر تقدماً ، وأن تبرهن باقتناع على جاذبية طريقة الحياة الاشتراكية .

لقد كنا صريحين ومنتقدين لأنفسنا ، في تقييمنا للتطور الماضى وتحملنا نصيبنا من اللوم عن جوانب فشل الأسرة الاشتراكية . وقد استجاب أصدقاؤنا بسرعة ، ومهد ذلك الطريق لإعادة بناء العلاقات ، وللوصول بها إلى مستوى عصرى جديد .

وقد انجزنا معا في السنوات الأخيرة الكثير في السياسة والاقتصاد وفى تبادل المعلومات . وإن كان هناك ما لم ينجز حتى الآن فلا يجب أن يفقدنا ذلك أعصابنا . إننا نعمل بدأب ، ونستكشف مشارف جديدة . والشئ الرئيسى هو أننا على قناعة بأهمية التعاون وبالحاجة إلى تعزيزه . وفى المرحلة التاريخية الراهنة ، التى تعتبر فى الواقع نقطة انعطاف ، تعى الأحزاب الحاكمة فى البلدان الاشتراكية مسئوليتها الكبيرة ، وطنيا ودوليا ، وهى تتطلع بدأب إلى مزيد من الطرق لتسريع التنمية الاجتماعية . إن التوجه نحو التقدم العلمى والتكنولوجى ، ومسعى الشعب الخلاق ، وتطوير الديمقراطية ، هذا التوجه هو الضمان فى أن الاشتراكية فى الفترة القادمة ، وعلى عكس تنبؤات ذوى النوايا الشريرة ، سوف تكشف حتى بدرجة أكثر عن إمكاناتها الحقيقية كاملة .

لقد أصبحت التغييرات الثورية جزءاً لا يتجزأ من العالم الاشتراكى الواسع . وهى تكتسب قوة دافعة مستمرة . وينطبق ذلك على البلدان الاشتراكية ، ولكنه إسهام أيضا فى تقدم الحضارة العالمية .

الفصل الخامس العالم الثالث في المجتمع الدولي

يعتبر ظهور أكثر من مائة دولة من بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية على المسرح الدولي ، وسلوكها طريق التطور المستقل ، إحدى الحقائق لعالم اليوم . ونحن نهل لهذه الظاهرة للقرن العشرين . إن تلك البلدان عالم ضخم ومتنوع ، ومصالحه كبيرة ، ومشاكله صعبة . ونحن ندرك أن مستقبل الحضارة يتوقف على الكيفية التي يتطور بها هذا العالم .

إن المسؤولية عن عشرات البلدان هذه والتي يصل مجموع سكانها إلى العديد من الملايين ، وعن تسخير إمكانياتها الهائلة لمصلحة تقدم العالم لاتقع على هذه البلدان وحدها .

فمن ناحية ، نرى في العالم الثالث أمثلة من النمو الاقتصادي السريع وإن يكن غير متساو وفيه معاناة . وقد أصبحت بلدان كثيرة منه دولاً صناعية حديثة ، وبعضها يتحول إلى دول عظمى . إن السياسة المستقلة لمعظم دول العالم الثالث ، والتي تركز على الكرامة الوطنية المكتسبة ، تؤثر بشكل متزايد على الشؤون الدولية في مجموعها .

ومن ناحية أخرى ، فإن الفقر ، وظروف المعيشة غير الإنسانية ، والأمية ، والجهل ، وسوء التغذية ، والمجاعة ، ومعدل وفيات الأطفال المندر بالخطر ، والأوبئة ، لاتزال تشكل سمات مشتركة للحياة لبليونين ونصف من الناس ممن يقطنون هذه البلدان التي كانت مستعمرات وشبه مستعمرات سابقة . وهذه هي الحقيقة المرة . وفي أوائل الثمانينيات كان الدخل بالنسبة للفرد في بلدان العالم الثالث أقل ١١ مرة عن الفرد في البلدان الرأسمالية الصناعية . وهذه الفجوة تتسع بدلا من أن تضيق .

ومع ذلك ، تواصل الدول الغربية الفنية جمع «الجزية» الاستعمارية الجديدة .
وخلال العقد الماضي وحده ، أدت أرباح الاحتكارات الأمريكية التي انتزعتها من
البلدان النامية إلى مضاعفة الاستثمارات أربع مرات . وقد يسمى الأمريكيون هذا
أعمالا مربحة ، ولكننا نقيم الوضع على نحو مختلف . وسأتعرض لذلك فيما بعد .

وتتحمل البلدان النامية عبء دين خارجي ضخم . وعند ربط هذا الدين
المتنامي بحجم الأرباح التي تنقل إلى الخارج كل عام ، فإنه يعنى شيئا واحدا - نظرة
كثيية للتنمية وتفاقما محتوما للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من المشاكل
التي بلغت بالفعل حد الخطورة البالغة .

وتحضرني مناقشة أجريتها مع الرئيس ميران . وتتلخص فيما يلي : تسعى كل
مؤسسة رأسمالية بوضوح من أجل الحد الأقصى من الأرباح . ومع ذلك يضطر
الرأسمالي أو الشركة ، تحت ضغط العمال ، أن يضع في حسابه حقيقة أنه إذا ما أريد
للمؤسسة أن تعمل بشكل فعال ، فمن الضروري ضمان دخول الموظفين ، والتي رغم
مستواها المنخفض فإنها تكفى لتمكينهم من استعادة قدراتهم الانتاجية ، والمحافظة على
صحتهم ، والنهوض بمستواهم المهني وتربية أطفالهم . والرأسمالي مضطر لأن يقوم
بذلك ، لأنه يدرك أنه عندما يقوم به فإنه يضمن لنفسه الربح اليوم وغدا . بيد أن
الرأسمالية في مجموعها ، ممثلة في بلدان الغرب ، لاتريد أن تدرك حتى هذه الحقيقة
البسيطة في علاقاتها مع مستعمراتها السابقة . لقد دفعت الرأسمالية العلاقات
الاقتصادية مع آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية إلى نقطة أصبح محكوما عندها على
بلدان بأكملها بالركود الاقتصادي ، وبالعجز عن تلبية احتياجاتها الأساسية
الخاصة ، والغرق في ديون ضخمة .

وستكون هذه البلدان عاجزة ، بالطبع ، عن سداد هذه الديون في ظل
الأوضاع الحالية ، وإذا لم يوجد حل عادل ، فمن الممكن أن يحدث شيء . لقد
تحول دين البلدان النامية إلى قبلة موقوتة من نوع رديء . ويمكن أن يكون للانفجار

نتائج تبعث على اليأس . ويتراكم الآن انفجار اجتماعى ذو قوة تدميرية هائلة .
وتعتبر ديون البلدان النامية واحدة من أخطر المشاكل فى العالم . وهذه المشكلة قائمة منذ وقت طويل . وجرى إما تأجيلها أو تجاهلها أو مناقشتها بشكل عام . إن زعماء الغرب يهونون من الخطر ، ويرفضون أن يروا خطورة الاضطرابات الاقتصادية التى قد تحدث . ولهذا السبب فإنهم يقترحون تدابير غير مدروسة ويحاولون حل الوضع بالمسكنات . وهناك عزوف واضح عن اتخاذ خطوات حقيقية وهامة لتطبيع التعاون إاقتصادى مع البلدان النامية .

وهناك حاجة إلى القيام بجهود واسعة إذا ما أردنا اجراء تغييرات حقيقية وإقامة نظام اقتصادى عالمى جديد . وسيكون طريقا شاقا وطويلا ، وينبغى أن يكون المرء على استعداد لأى تحول غير متوقع . وتتطلب إعادة بناء العلاقات الدولية وضع مصالح جميع البلدان فى الاعتبار ، كما تتطلب توازنا فى المصالح ، بيد أن الكثيرين لا يريدون أن يتنازلوا عن شىء من مصالحهم .

النزاعات الإقليمية

إن الحالة الرهيبة للبلدان النامية هى السبب الحقيقى لكثير من النزاعات فى آسيا ، وأفريقيا ، وأمريكا اللاتينية . وعند مناقشة ذلك مع الرئيس ريجان فى لقائنا فى جنيف ، أخبرته بأن على المرء أن يدرك أولا من أين تأتى النزاعات الإقليمية . والحقيقة هى أنها ، رغم عدم تماثلها من حيث الجوهر ومن حيث طبيعة القوى المتعارضة ، فإنها تنشأ عادة على تربة محلية ، كنتيجة لنزاعات داخلية أو إقليمية ، أفرزها الماضى الاستعمارى ، والعمليات الاجتماعية الجديدة ، أو عودة سياسة النهب ، أو أفرزتها الثلاثة معا .

إن الأزمات والنزاعات تربة صالحة للإرهاب الدولى . ويعارض الاتحاد السوفيتى الإرهاب من حيث المبدأ ، وهو على استعداد لأن يتعاون بنشاط مع الدول

الأخرى لاجتثاث هذا الشر. ومن الملائم أن تتركز هذه المهمة داخل الأمم المتحدة . وقد يكون من المفيد أن تقيم تحت إشرافها محكمة للتحقيق في أعمال الإرهاب الدولي . وخلال حوار ثنائي مع بلدان الغرب (جرى في العام الماضي تبادل هام للآراء حول هذا الموضوع بيننا وبين الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا الاتحادية ، وإيطاليا ، وكندا ، والسويد) اتفقنا على وضع اجراءات فعالة لمقاومة الإرهاب . ونحن على استعداد للتوقيع على اتفاقيات على وضع اجراءات فعالة لمقاومة الإرهاب . ونحن على استعداد للتوقيع على اتفاقيات ثنائية خاصة ، وآمل أن تتسع في السنوات القادمة جبهة النضال المشترك ضد الإرهاب الدولي. ولكن شيئا واحدا لا يقبل الجدل إذا ما أردنا استئصال الإرهاب ، إذ من الضروري إزالة الأسباب التي تولد النزاعات والإرهاب .

وغالبا ما قابلت ساسة غربيين بارزين يعتبرون وجود النزاعات الإقليمية ذاته نتاجا «لنشاط الكريملين التآمرى» . فكيف تجرى الأمور حقا ؟ .

في الشرق الأوسط ، يوجد منذ سنوات عديدة نزاع بين إسرائيل وجيرانها . وتوضع موسكوفى موضع الاتهام ، لأنها تعارض بثبات التوسع الإسرائيلى وتدافع عن الحقوق المشروعة للشعوب العربية ، ومن بينها الشعب العربى الفلسطينى . وتعزى إلى الاتحاد السوفيتى أوهام لا وجود لها بالعداوة لإسرائيل ، رغم أن بلادنا كانت من أوائل الدول التى شجعت قيام دولة إسرائيل .

إن الأمور الهامة تنبغى مناقشتها بشكل جاد . والشرق الأوسط عقدة مستعصية تشابك فيها مصالح العديد من الدول . وسيظل الوضع هناك خطيرا . ونحن على قناعة بأن من المهم بالنسبة للشرق والغرب أن نحل هذه العقدة إنه مهم أيضا بالنسبة للعالم كله . ولكن هناك أيضا رأى يقول بأن مسائل الشرق الأوسط يستحيل حلها تماما . ومن الصعب حتى أن تفهم مثل هذا الموقف ، كما يستحيل الموافقة عليه لاعتبارات سياسية وأخلاقية على السواء . ومن حيث المنطق ، فإن النتيجة الوحيدة

التي يمكن استخلاصها هو أن الوضع لا بد وأن يزداد تفاقماً ، وأنه لا بد من اندلاع معارك جديدة ومزيد من المعاناة لشعوب المنطقة . أليس من الأفضل أن نتخذ موقفاً إيجابياً ونساند جهود هؤلاء الذين يبحثون عن طرق لوضع حد لمازق الشرق الأوسط عن طريق تسوية سياسية عادلة ؟ .

ونحن ندرك أنه في ظل الأوضاع القائمة يصعب التوفيق بين مصالح الأطراف المتنازعة ، ومع ذلك فمن الضروري أن نجد قاسماً مشتركاً بين مصالح العرب ، وإسرائيل وجاراتها والدول الأخرى . ومع ذلك فنحن لانريد بأية حال أن تؤدي عملية وضع تسوية للمشكلة ، أو أهداف هذه العملية ذاتها ، إلى المساس بطريقة ما بمصالح الولايات المتحدة والغرب . وكذلك لانرمي إلى دفع الولايات المتحدة خارج الشرق الأوسط - فهذا ببساطة تفكير غير واقعي - وكذلك الولايات المتحدة يجب ألا تربط نفسها بأهداف غير واقعية هي الأخرى .

والشيء الرئيسي في هذه القضية هو أن نأخذ مصالح كافة الأطراف في الاعتبار . ويفسر هذا ، بشكل خاص ، مبادرتنا التي مضت عليها فترة طويلة فيما يتعلق بعقد مؤتمر دولي للشرق الأوسط . وقد ذكرت ذلك في محادثة لي مع جيمي كارتر . وقد استغرق الأمر من الأمريكيين عشر سنوات لكي يروا من خلال تجربتهم الخاصة ، رغم أنه كان بإمكانهم أن يعتمدوا على تجربة أسلافهم ، أن الصفقات المنفردة لانتيجة لها . والآن فقط ، وبعد أن مرت واشنطن بدورة « إعادة تأهيل » ، يبدو وكأنها تتحرك نحو تقييم أكثر واقعية للوضع وتعود إلى مناقشة أوسع لهذه المسائل .

ومن الضروري أن تتحرك المفاوضات من مكانها . ويجب أن تدمج الاتصالات الثنائية والمتعددة الأطراف القائمة مع مسعى أكثر قوة وحيوية نحو تسوية سياسية عادلة ، وإذا لم يكن المؤتمر ليقدم مظلة لصفقات وخطوات منفردة ، وإذا كان يهدف إلى تسوية حقيقية في الشرق الأوسط ، مع إيلاء مصالح البلدان العربية ، بما

فى ذلك مصالح الفلسطينيين وإسرائيل ، ماتستحقه من اعتبار ، فإننا على استعداد لتقديم كافة أنواع المساعدات والمشاركة فى كافة مراحل المؤتمر . وأن نفعل ذلك بشكل بناء .

وأود أن أؤكد فى هذا الخصوص أننا لانكن أى عدااء لإسرائيل من حيث المبدأ . ونحن نعتزف بحقها المشروع فى الوجود . ومع ذلك ، فإننا فى ظل الوضع الحالى وفى ضوء الأعمال التى ترتكبها إسرائيل ، لا يمكننا أن نوافق على إقامة علاقات دبلوماسية معها . ولكن إذا ما تغير الوضع ، وإذا مارأينا إمكانية تطبيع وتسوية فى الشرق الأوسط ، فبإمكاننا إعادة النظر فى هذا الأمر . وليست لدينا أية عقد فى ذلك . أما فيما يتعلق بالاتصالات القائمة بالفعل بين بلدنا ، فلن نتخلى عنها .

ولنأخذ منطقة متفجرة أخرى من العالم - أمريكا الوسطى . فحول أى شىء يدور النزاع هناك ؟ لقد أطيح بنظام سوموزا غير الشعبى فى نيكارا جوا ، وخرجت الثورة الشعبية ظافرة . ومرة أخرى ، أعلن أن ثورة الساندينستا مرفوضة لأنها « من صنع موسكو وكوبا » . وهذا هو التبرير الأيديولوجى النمطى المبتذل لحرب غير معلنة ضد بلد صغير كانت « خطيئته » الوحيدة أنه يريد أن يعيش بطريقته الخاصة ، ودون تدخل من الخارج . وبالمناسبة ، فإن ماحدث فى نيكارا جوا يبين مايمكن أن نتوقعه فى البلدان الأخرى . وإنه لما ينافى العقل أن نسمع مزاعم تقول بأن نيكارا جوا « تهدد » أمن الولايات المتحدة ، وأن القواعد العسكرية السوفيتية تجرى إقامتها هناك - القواعد التى يزعم الأمريكيون أنهم يعرفون عنها ، ولكننى من ناحيتى لم أسمع عنها إطلاقا .

وقد أجريت حوارا مع مارجريت تاتشر حول هذه النقطة . وقلت لها إن ظروف الحياة غير المحتملة قد أجبرت مواطنى نيكارا جوا على القيام بالثورة . وقد خلق هذه الظروف الأمريكيون أصدقاء بريطانيا ، الذين حولوا كل أمريكا الوسطى إلى فناء خلقى لهم ، مستنزفين مواردها بلا رحمة ، وهم الآن يتعجبون لماذا تنور الشعوب .

إن ما يحدث في نيكاراغوا هو من اختصاص الساندينستا وشعب نيكاراغوا . وكان حديثنا يتسم بالصرامة . وسألت السيدة تاتشر : « أنت تتهميننا بالتضامن مع نيكاراغوا ، ولكن هل تعتبرين أنه من الطبيعي تقديم مساعدات للتميز العنصري أو للعنصريين ؟ ألا تزعجكم الصورة التي تبدو بها أمام الرأي العام العالمي ؟ إننا نتعاطف مع حركات تحرير الشعوب التي تكافح من أجل العدالة الاجتماعية . ولكنكم ، كما أرى ، لاتفعلون ذلك . وهنا تختلف مواقفنا » .

والحقيقة أن الولايات المتحدة إذا تركت نيكاراغوا وشأنها تعيش في سلام فإن ذلك سيكون أفضل للولايات المتحدة نفسها ، ولشعوب أمريكا اللاتينية . ولبقية العالم .

إن المشاكل المتفجرة لا يمكن وضعها على الرف ، ولن تحل أو تختفى من تلقاء نفسها . إن الوضع في جنوب أفريقيا كان عاصفا للغاية منذ زمن طويل . ويقاوم سكان جنوب أفريقيا كلا من التفرقة العنصرية والنظام القمعي غير الأخلاقي الذي تزداد عزله . بيد أن الكثيرين في الغرب يرون خلف هذا الموقف المتصارع مؤامرة شيوعية ونفوذ موسكو ، رغم أنه لا يوجد أى أثر لوجود سوفيتي في جنوب أفريقيا ، وهو ما لا يمكن أن يقال عن الولايات المتحدة وحلفائها .

وينطبق نفس الشيء على الوضع في منطقة الخليج . إن تقييم الاتحاد السوفيتي للوضع وأسباب تفاقمه معروف ، وقد جرى توضيح ذلك في بيانات رسمية . كما اتخذ مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قرارا يطالب بوقف إطلاق النار ووقف كل النشاط العسكري وكذلك سحب إيران والعراق لقواتهما إلى الحدود المعترف بها دوليا . وقد صوّت الاتحاد السوفيتي إلى جانب القرار . بيد أن الولايات المتحدة التي تتصرف على نحو يناقض قرار مجلس الأمن ، كانت تبحث عن ذريعة للتدخل في النزاع الإيراني العراقي ، وتعمل على تعزيز تواجدتها في منطقة الخليج . وهي تزعم أن الاتحاد السوفيتي يهدد المصالح الغربية ، التي يجب أن تحمي ، وتعد بالإضافة إلى ذلك بأن تبقى في الخليج حتى بعد أن ينتهى النزاع .

هذا هو تقييم جميع النزاعات الإقليمية من خلال منظور المواجهة السوفيتية الأمريكية . ولدينا انطباع بأن الولايات المتحدة تحتاج إلى النزاعات الإقليمية لكي تجد على الدوام فرصة للمناورة عن طريق التلاعب بمستوى المواجهة واستخدام سياسة القوة والدعاية المعادية للسوفيت . ويعتقد الاتحاد السوفيتي ، من الناحية الأخرى ، أن هذه النزاعات ينبغي ألا تستخدم في إثارة مواجهة بين النظامين ، وبخاصة عندما تشمل الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة .

وطالما تناولت مسألة النزاعات الإقليمية ، فقد يسأل القارئ عما أراه بخصوص المسألة الأفغانية . ربما لا يكون معروفا عالميا أن أفغانستان كانت أول دولة يقيم معها الاتحاد السوفيتي علاقات دبلوماسية ، وقد كنا على الدوام على علاقات ودية مع هذا البلد ، ومع ملوكه ورؤسائه القبليين . وأفغانستان لديها بالتأكيد مشاكل كثيرة بسبب تخلفها الشديد ، الذي نشأ لدرجة كبيرة عن الحكم البريطاني . وعلى ذلك كان من الطبيعي تماما أن يرغب كثيرون من الأفغان في مساعدة شعبهم في التغلب على أنماط العصور الوسطى . وتحديث الدولة والمؤسسات العامة ، وفي الإسراع بالتقدم . ولكن بمجرد وضع معالم التغييرات التقدمية ، بدأت الدوائر الإمبريالية ضغطها على أفغانستان من الخارج . وهكذا ، فوفقا للمعاهدة السوفيتية الأفغانية طلب زعماء أفغانستان من الاتحاد السوفيتي المساعدة ، وخاطبونا إحدى عشرة مرة قبل أن نوافق على إدخال قوة عسكرية محدودة إلى هذا البلد .

ونحن نريد إعادة جنودنا إلى الوطن بأسرع ما يمكن . لقد تمت تسوية المسألة في الأساس . ولكنها ترتبط بضرورة تسوية الوضع حول أفغانستان سياسيا . ونحن نؤيد النهج الحالي للقيادة الأفغانية في المصالحة الوطنية . والاتحاد السوفيتي يريد لأفغانستان أن تكون مستقلة ذات سيادة وغير منحازة كما كانت من قبل . وإنه من حقوق السيادة لشعب أفغانستان أن يقرر أي طريق يختار ، وأية حكومة يريد ، وأية برامج للتنمية ينفذ . والتدخل الأمريكي يؤخر انسحاب قواتنا ويعرقل تنفيذ سياسة المصالحة الوطنية ، ومن ثم تسوية المسألة الأفغانية برمتها . إن نقل صواريخ ستنجر

إلى العصابات المعادية للثورة ، والتي تستخدمها لإسقاط الطائرات المدنية ، هو ببساطة عمل لا أخلاقي ولا مبرر له على الإطلاق .

لكل بلد الحق في اختيار طريق تطوره الخاص

لكل بلد الحق في أن يختار طريق تطوره الخاص ، وأن يتصرف في مصيره ، وأرضه ، وموارده البشرية والطبيعية . ولا يمكن تطبيع العلاقات الدولية ما لم تدرك ذلك كافة البلدان إذ أن الاختلافات الأيديولوجية والاجتماعية .. والاختلافات في الأنظمة السياسية هي نتيجة للاختيار الذي قام به الشعب . والاختيار القومي يجب ألا يستخدم في العلاقات الدولية بطريقة تؤدي إلى خلق اتجاهات وأحداث يمكن أن تفجر النزاعات والمواجهة العسكرية .

لقد آن الأوان لكي يطرح زعماء الغرب جانبا سيكولوجية وأخطار الأزمة الاستعمارية . سيفعلون ذلك إن عاجلا أم آجلا . وطالما يواصل الغرب النظر إلى العالم الثالث باعتباره مجالا لنفوذه ، ويواصل ممارسة سيطرته هناك ، فسوف تستمر التوترات ، وستظهر بؤر جديدة مع تصاعد المقاومة المعادية للامبريالية .

ولا يجب معارضونا في الغرب أن نتحدث إليهم بهذه الطريقة . فهم يفقدون السيطرة على أعصابهم ويزداد انزعاجهم حينما نسمى الأشياء بأسمائها . وهم يفسرون تقييداتنا بأنها تطاول على العلاقات التقليدية بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية ، في المقام الأول ، والبلدان النامية ، في المقام التالي . ويقولون إننا نرغب أن تتدنى مستويات المعيشة في البلدان الرأسمالية .

وقد أوضحت في مناسبات عديدة أن أهدافنا ليست موجهة ضد مصالح الغرب . ونحن نعرف مدى أهمية الشرق الأوسط ، وآسيا ، وأمريكا اللاتينية وغيرها من مناطق العالم وكذلك جنوب أفريقيا ، لاقتصاديات أمريكا وأوروبا الغربية وعلى الأخص كموارد للمواد الخام . وقطع هذه العلاقات هو آخر ما نصبو إليه ،

ولا تساورنا أية رغبة في قطع هذه العلاقات الاقتصادية المتبادلة التي تشكلت تاريخيا .

لقد آن الأوان لأن نعترف بحق شعوب العالم الثالث في أن يكونوا سادة أنفسهم لقد توصلت هذه الشعوب إلى استقلالها السياسي بعد سنوات عديدة من النضال الشاق . وهم يريدون تحقيق الاستقلال الاقتصادي كذلك . ويحظى زعماء هذه البلدان (وقد التقيت بعدد منهم شخصيا) بمساندة شعوبهم ويريدون أن يعملوا شيئا من أجلها . وهم يريدون أن تكون بلادهم مستقلة حقا وأن تتمكن من التعاون مع الآخرين على أساس متكافئ . ونحن نفهم رغبة هذه البلدان في أن تستخدم مواردها الطبيعية والبشرية الضخمة من أجل التقدم الوطني . وهم يريدون أن يعيشوا في وضع لا يقل عن شعوب البلدان المتطورة . ولا يوجد لديهم الآن سوى سوء التغذية والأمراض . وتستغل الدول المتطورة مواردهم وتلحقها بدخلها القومي من خلال قنوات التبادل غير المتكافئ . ولن تقبل البلدان النامية هذا الوضع لزمّن طويل .

وهذه إحدى حقائق عالمنا المعاصر التي لا يرغب الجميع في الغرب أن يأخذوها في الاعتبار ، رغم أنهم يعونها تماما . ولكنه أمر ينبغي أن يؤخذ في الحساب ، وبخاصة لأنه يهم عشرات الدول .

وكما أسرع الجميع إلى الاعتراف بهذه الحقيقة ، في كافة القارات ، كلما أصبحت العلاقات الدولية طبيعية بصورة أسرع . وهذا أمر في غاية الأهمية ، لأنها المسألة الرئيسية .

لقد آن الأوان لطرح المشكلة على نطاق عالمي ، والبحث عن طريق حلها على أساس توازن المصالح وإيجاد أشكال تنظيمية لحلها في إطار المجتمع الدولي . وتعتبر الأمم المتحدة أفضل محفل لمناقشة هذه المسألة . ونحن نعد مقترحاتنا في هذا الشأن . وقد أحطت بيريز دي كويار السكرتير العام للأمم المتحدة علما بذلك خلال لقائنا

ويرحب بفكرة طرح المسألة على الأمم المتحدة .

وتتمسك غالبية البلدان النامية بسياسة عدم الانحياز . وقد نشأت حركة عدم الانحياز على أساس هذا البرنامج لتوحد ما يزيد على مائة بلد ، تضم غالبية سكان العالم . وأصبحت الحركة قوة جبارة وعاملا هاما في الشؤون الدولية . وهي تساعد على تشكيل نوع جديد من العلاقات الدولية ، رغم ما تتميز به الحركة من سمات وتفاوت . وتجسد حركة عدم الانحياز رغبة البلدان الحديثة التحرر في التعاون مع بعضها على أساس متكافئ ، وفي إلغاء الإملاء ومحاولات الهيمنة في العلاقات الدولية . ويتفهم الاتحاد السوفيتي أهداف الحركة ويتضامن معها .

وحتى وقت قريب ، اعتقد كثير من دول عدم الانحياز أن نزع السلاح وإزالة الترسانات النووية أمور تخص الدولتين العظميين ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وأنها لا تهم كثيرا البلدان النامية . ومع ذلك أبدت الحركة تفهما عميقا للعلاقة القائمة بين نزع السلاح والتنمية وذلك في المؤتمر الثامن لرؤساء دول وحكومات بلدان عدم الانحياز في هراي . وأعلنت هناك عن موقفها بشكل رسمي ، وهو موقف يستند إلى أسس قوية . وإذا ما أوقف سباق التسلح ، وتحقق نزع السلاح ، فسوف تتوفر موارد كافية لحل أخطر مشاكل العالم الثالث .

ولقد ناقشت العلاقة بين نزع السلاح والتنمية مع السيد بيريز دي كويار . واتفقنا على أن المسألة تستحق اهتماما كبيرا من منظمة الأمم المتحدة . وتقدم الاتحاد السوفيتي بمقترحات محددة إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة حول العلاقة بين نزع السلاح والتنمية . ورفضت الولايات المتحدة للأسف أن تشارك في هذا المؤتمر .

ويرحب الاتحاد السوفيتي بهذه الحقيقة ويأخذها بعين الاعتبار في سياسته الخارجية . واليوم ، لا تعتبر الدول الاشتراكية وحدها حركة عدم الانحياز عاملا إيجابيا وهاما في السياسة العالمية بل يشاركها في ذلك كثير من الدول الرأسمالية .

عقدة آسيا - المحيط الهادى

إن الشرق ، وعلى الأخص آسيا ومنطقة المحيط الهادى ، يعتبر الآن المكان الذى تسرع الحضارة فيه خطاها . ويتجه اقتصادنا فى تطوره نحو سيبيريا والشرق الأقصى . ولذلك فنحن مهتمون حقا بتعزيز التعاون فى آسيا والمحيط الهادى .

والاتحاد السوفيتى بلد آسيوى ، كما هو أوروبى ، وهو يريد أن يرى لدى هذه المنطقة الضخمة ، آسيا والمحيط الهادى ، وهى المنطقة التى يرجح كثيرا أن تركز عليها السياسة العالمية فى القرن القادم ، كل ماتحتاجه لتحسين الأوضاع فيها ، وإن مصالح كافة الدول والموازنة بينها ، يوليان مايستحقان من اعتبار . ونحن نعارض أن تكون هذه المنطقة مجالا لأحد . ونريد للجميع فيها مساواة وتعاوننا وأمننا حقيقيا .

وفى آسيا ، ربما لاتكون مسائل السلام أقل حدة وإيلاما منها فى مناطق أخرى من العالم ، بل هى أكثر فى بعض أجزائها . وكان من الطبيعى أن يتقدم الاتحاد السوفيتى والهند وغيرهما من الدول المعنية بذلك ، بمبادرات مختلفة فى أعوام مختلفة . وكانت المبادرة المعروفة أكثر هى اقتراح بتحويل المحيط الهندى إلى منطقة سلام . وقد أيدته الجمعية العامة للأمم المتحدة وحركة عدم الانحياز . وأصبح التعهد بعدم البدء باستخدام الأسلحة النووية ، وهو ما قطعه على نفسه كل من الاتحاد السوفيتى وجمهورية الصين الشعبية ، عاملا هاما للسلام ليس فى آسيا والمحيط الهادى فحسب ، بل وفى العالم كله فى الحقيقة .

وعندما قابلت لأول مرة فى مايو ١٩٨٥ ، باعتبارى سكرتيرا عاما للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ، راجيف غاندى ، رئيس وزراء جمهورية الهند ، اقترحت أنه فى إطار المبادرات السابقة ، والتجربة الأوروبية ، سيكون من المستحسن أن نفكر مليا فى موقف عام ومتكامل من مسألة الأمن فى آسيا وفى إمكانية تنسيق جهود البلدان الآسيوية فى هذا الاتجاه . وأخذت هذه الفكرة تنضج عندما التقيت بزعماء دول أوروبا وبغيرهم من الشخصيات السياسية . وقارنت ،

على غير رغبة مني ، الوضع في آسيا بالوضع في أوروبا . ودفعتني ذلك إلى التفكير بأن منطقة المحيط الهادى تحتاج بدورها بسبب النزعة العسكرية المتصاعدة إلى نظام ما من «اجراءات الحماية» الخاصة ، كتلك التى نصت عليها عملية هلسنكى فى أوروبا .

وأكد التقرير السياسى للجنة المركزية إلى المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى تزايد أهمية اتجاهات آسيا والمحيط الهادى فى السياسة الخارجية السوفيتية . وأعلننا أن الحلول المحلية يجب البحث عنها دون إبطاء ، بادئين بالتنسيق ثم حشد الجهود للتوصل إلى تسويات سياسية للمشاكل الحساسة ، يمكنها فى خط متواز ، وعلى هذا الأساس ، على الأقل بتزعم حدة المواجهة العسكرية فى مختلف مناطق آسيا وإشاعة الاستقرار فى الوضع هناك . وقدمت المقترحات المتصلة بالموضوع فى فلاديفوستوك فى يوليو ١٩٨٦ (وكانت تتعلق بإقامة حاجز ضد انتشار وتعزيز الأسلحة النووية فى آسيا ومنطقة المحيط الهادى ، وتقليص النشاط البحرى فى المحيط الهادى ، وتخفيض القوات المسلحة والأسلحة التقليدية فى آسيا ، وتدابير بناء الثقة وعدم استخدام القوة فى هذه المنطقة) .

وبينما كنت فى زيارة لهذه المدينة بدا لى من المناسب على وجه الخصوص أن أدرس مسائل السياسة العالمية من زاوية آسيا والمحيط الهادى . وكان الوضع فى الشرق الأقصى بشكل عام ، فى آسيا ومناطق المحيط المجاورة ، حيث كنا نعيش ونبحر منذ وقت طويل يمثل أهمية قومية عظيمة بالنسبة لنا . وهنا ، فى المساحات المترامية التى تغطى قرابة نصف الكرة الأرضية ، توجد بلدان رئيسية كبيرة ، من بينها الاتحاد السوفيتى ، والولايات المتحدة ، والهند ، والصين واليابان ، وفيتنام ، والمكسيك ، وأندونيسيا . كما تشمل أيضا دولا تعتبر متوسطة الحجم ، ولكنها كبيرة نسبيا بالمقاييس الأوروبية - كندا ، والفيلبين ، استراليا ونيوزيلندا ، وإلى جانبها عشرات من الدول الصغيرة والمتناهية الصغر .

وبهذه المناسبة ، فقد أثرت ضجة كبيرة حول خطابى فى فلاديفوستوك . لقد

صدرت تلميحات عديدة بخصوص قرار الاتحاد السوفيتي « معالجة الوضع » في المحيط الهادى وإقامة هيمنة سوفيتية هناك ، والعدوان ، بطبيعة الحال ، على المصالح الأمريكية في المقام الأول . ولكننا اعتدنا بالفعل على مثل هذه الاستجابة ، استجابة « إنسان الكهف » لمبادراتنا . وكل محاولاتنا ، مهما كانت ، في تحسيسها لإقامة علاقات طيبة أو ببساطة علاقات دبلوماسية أو تجارية مع هذا البلد أو ذاك في المنطقة كان ينظر إليها على الفور على أنها مخططات مأكرة .

لكن ماهى الحقائق ؟ بعد عام من رحلتى إلى الشرق الأقصى السوفيتى أدليت بحديث صحفى للصحيفة الأندونيسية « ميرديكا » . وقد قيّم رئيس تحريرها ب . م . ضياء تقيها سليما تماما فحوى خطابى هناك على أنه دعوة لكافة دول المنطقة لمعالجة مشاكلها المشتركة حقا . ولكن عند تعداد البلدان نسى أن يذكر الولايات المتحدة . وقد لفت نظره إلى ذلك وقلت إننا نأمل في التعاون مع الولايات المتحدة كذلك . ومن السخف التخمين بأن انشطتنا ومصلحتنا في هذه المنطقة يشكلان خطرا على مصالح الآخرين . إن ما قيل في فلاديفوستوك هو تعبير عن سياسة مدروسة . ولا ينبغي أن يقلق أحد من ذلك . لقد أعلننا أننا على استعداد للتعاون مع الولايات المتحدة بنفس الطريقة التى نتعاون بها مع اليابان ورابطة دول جنوب شرقى آسيا ، والهند وغيرها من الدول ونحن ندعو الجميع لأن يعملوا معا من أجل السلام ومن أجل مصالح الجميع .

وعندما أجبته على رئيس تحرير « ميرديكا » ، ساندت نوايانا في هذه المنطقة بمقترحات محددة جديدة ، أهمها الاقتراح بإزالة كافة الصواريخ المتوسطة المدى في الجزء الآسيوى من الاتحاد السوفيتى ، وبالطبع على أساس « خيار الصفر » مع الولايات المتحدة .

وترتكز نظرتنا إلى هذا الجزء الهائل من العالم ، حيث تقع بلدان وشعوب مختلفة كثيرة ، على معرفة وفهم الحقائق الموجودة فيه . وترتكز مفاهيمنا حول وسائل ضمان

الأمن الدولى والتعاون السلمى فى آسيا والمحيط الهادى على هذه الحقائق ، وتنبع من رغبتنا الحقيقية فى بناء علاقات جديدة وعادلة فى هذه المنطقة بأكملها .

بعد ذلك بعام تمكنا من تحديد اتجاهات ايجابية عديدة - وقد ذكرتها فى حديثى مع رئيس تحرير « ميرديكا » . بيد أن التناقضات والتعقيدات لم تقل ، وتزايدت اتجاهات المواجهة . وهذا ما دفعنا إلى اقتراح تدابير إضافية لتخفيف حدة التوتر فى آسيا والمحيط الهادى ، وهى تدابير تعتبر تطورا وتفصيلا لمبادرات فلاديفوستوك . ونحن نتابع بحرص مواقف ومبادرات الدول الواقعة فى هذا الجزء من العالم . وقد ظهرت أخيرا أفكار بناءة وأصيلة ويجرى تداولها فى الاتصالات الإقليمية . إن السمات المحددة للنظرة العالمية للشعوب التى تعيش هناك ، وخبرتها التاريخية والسياسية وهويتها الثقافية يمكن أن تساعد لدرجة كبيرة فى حل مشاكل المنطقة ، ويمكن أن تقدم أفكارا مفهومة ومقبولة لدى الجميع .

لقد أثار إعجابنا الاسهام المتنامى لرابطة بلدان جنوب شرقى آسيا فى الشؤون الدولية ، ونحن على استعداد لتطوير علاقاتنا مع كل بلد من بلدان الرابطة على حدة ، ومع الرابطة ككل ، مع الاحترام الواجب للإسهام المستقل الذى قدمته بلدان الرابطة بشكل فردى وجماعى لتحسين الوضع الدولى .

لماذا أتحدث عن أهمية النهج المستقل الذى تسلكه دول بمفردها أو مجموعة من الدول ؟ ليس لأننا بمساندتنا لمثل هذا الخط نود أن نعمل ضد مصالح الطرف الآخر ، وإنما لأن العلاقات الدولية الجديدة لا يمكن بناؤها إلا على أساس نهج مستقل . وحتى الآن كانت العلاقات الدولية تعتمد بدرجة كبيرة على تحركات دول معينة أو مجموعة من الدول . ولكن ذلك لم يؤد إلى تحسين الوضع فى العالم . هذا هو درس الماضى الذى يجب أن يتعلمه كل الساسة ذوى العقلية الجادة . إن بناء علاقات جديدة فى عالمنا المعقد ، وفى منطقة على هذه الدرجة من التشابك مثل آسيا والمحيط الهادى ، لا يمكن أن يقوم إلا عبر طريق التعاون حيث تلتقى معا مصالح

كل الدول . أما نمط العلاقات التي ورثناها عن الماضي ، والتي تقف فيها البلدان المستعمرة في جانب والمستعمرات في الجانب الآخر ، قد انقضى زمانه . ويجب أن ينجلى الطريق لنمط جديد من العلاقات .

وقد جرت تعليقات كثيرة عندما اقترح عقد مؤتمر للمحيط الهادى فى المستقبل المنظور تحضره كافة الدول المطلة على المحيط . وقد طرحت هذه الفكرة كافتراض عملى مفيد ، أولكى نكون أكثر دقة ، كدعوة إلى المناقشة . والتماثل مع هلسنكى يجد تفسيره فى حقيقة أن الأسرة العالمية ليس لديها بعد أى خبرة أخرى من هذا القبيل . بيد أن أى تجربة دولية فى عصرنا يكون لابد فيها من بعض السمات العامة ، العالمية .

ومن بين الأسئلة التى طرحتها على صحيفة « ميرديكا » كان هذا السؤال : « كيف ترى دور الاتحاد السوفيتى فى تنمية التعاون الاقتصادى الإقليمى ؟ وتمشيا مع مفهوم بلادنا فى النمو الاقتصادى والاجتماعى المتسارع ، فإننا نولى اهتماما خاصا للمناطق شرق الأورال التى تفوق قدرتها الاقتصادية الجزء الأوروبى من الاتحاد السوفيتى مرات عديدة ، ونحن على قناعة بأن الشركات والمشروعات المشتركة التى تقام بالتعاون مع دوائر الأعمال فى دول آسيا والمحيط الهادى يمكن أن تشارك فى استثمار ثروات هذه المناطق .

حول نزع السلاح النووى فى آسيا

وإذ يهتم الاتحاد السوفيتى بآراء وهموم بلدان آسيا ، فقد اتخذ خطوة هامة إلى الإمام بموافقته على « خيار الصفر المزدوج » فيما يتعلق بالصواريخ المتوسطة المدى والصواريخ التكتيكية . وأبدينا كذلك استعدادنا بآلا نزيد فى عدد الطائرات الحاملة للرءوس النووية فى الجزء الآسيوى من بلادنا إذا ما وافقت الولايات المتحدة بآلا تنشر فى المنطقة أسلحة نووية إضافية يمكن أن تصل إلى الاتحاد السوفيتى . ونحن نتوقع بأن يعطى كل ذلك دفعة قوية لعملية نزع السلاح النووى فى آسيا .

ورغم تعقيد لوحة آسيا والمحيط الهادى وتصميمها المتعدد الألوان والتوزيع المتفاوت للألوان الفاتحة والداكنة فيها ، فإن تركيب الصورة العامة ، الأساسى والمعادى للأسلحة النووية ، تركيب واضح تماما . ومن الممكن أن تكون إحدى الخطوات الهامة فى هذا الاتجاه ، هى مثلا ، إقامة مناطق خالية من السلاح النووى . ومن المعروف أن الاتحاد السوفيتى قد وقع بروتوكولات معاهدة راروتونجا لإقامة مثل هذه المنطقة فى جنوب المحيط الهادى . كما تؤيد مقترحات البلدان الأخرى بإقامة مناطق خالية من السلاح النووى فى جنوب شرق آسيا وشبه الجزيرة الكورية . كما يمكن لمؤتمر دولى بشأن المحيط الهندى أن يعزز مقاصد نزع السلاح النووى بدراسة وإقرار مسألة اعلان هذه المنطقة من العالم منطقة سلام .

إن أساليبنا ونظرتنا إلى نزع السلاح النووى فى آسيا وفى أوروبا متماثلة . ويجب أن يطبق نزع السلاح فى ظل اشراف دولى صارم ، بما فى ذلك التفتيش فى الموقع . ونحن نحث الولايات المتحدة على أن تبدأ محادثات حول الأسلحة النووية فى منطقة آسيا والمحيط الهادى ، وأن تحل هذه المشكلة على أساس المعاملة بالمثل ، مع المراعاة الصارمة للمصالح الأمنية للجميع .

هذا بشكل عام هو مفهومنا للطريقة التى يجب أن تُحل العقدة النووية الآسيوية وفقا لها . إن الدول الواقعة فى المنطقة يمكنها إذا ما تبنت المسألة أن تبدأ فى بناء نظام أمن إقليمى . فما الذى نعينه بالفعل بالعلاقات الطبيعية والوقع الموائى لمنطقة يقطنها بليون ونصف من البشر . إن الأمر أشبه ببناء بيت ، يضع كل منا طوبة أو اثنين فى جدرانته كى نشيد صرحا للتعاون والتفاهم المتبادل خطوة خطوة ، من خلال الجهود المشتركة . وهذا هدف عظيم يتحدانا ولكنه ممكن .

ومن الممكن تعبئة جهود بلدان القارتين - أوروبا وآسيا ، فى هذا الاتجاه ، لتصبح عملية أوروبية آسيوية مشتركة تعطى دافعا قويا لنظام شامل للأمن الدولى . وتقتنعنا التطورات الأخيرة بصورة متزايدة بأن طرح مسألة الأمن لمنطقة آسيا

والمحيط الهادى من جانبنا كان صحيحا وأنه جاء فى وقته . فقد أبدى مؤخرا اهتماماً كبيراً فى البحث عن الطرق المؤدية إلى التعاون البناء على أساس إقليمي وقارى ، كما أصبحت علاقاتنا الثنائية مع بعض دول منطقة آسيا والمحيط الهادى أكثر دينامية .

العلاقات السوفيتية الهندية

إن الهند ، جارتنا الجنوبية ، التى يبلغ عدد سكانها ٨٠٠ مليون نسمة هى قوة كبيرة . وهى تحظى بنفوذ كبير فى حركة عدم الانحياز ، والعالم أجمع ، وتشكل عاملاً حاسماً للسلام فى آسيا وفى العالم .

ولقد تطورت العلاقات السوفيتية الهندية باطراد طوال سنوات عديدة . والتقت براجيف غاندى ، رئيس وزراء الهند ، عدة مرات ، فى موسكو ودلهى على السواء . وتركت زيارتي للهند فى ١٩٨٦ انطباعاً فى نفسى لا ينسى . وتبيننا خلال هذه الزيارة إعلان دلهى الذى ذاعت شهرته الآن .

والاهتمام العالمى بهذه الوثيقة أمر طبيعى . فإعلان دلهى لم يسبق له مثيل . إنه يكشف عن نظرة فلسفية سياسية جديدة تماماً للعلاقات بين الدول . ويشكل الاعتراف بأولوية القيم الإنسانية العالمية فى هذا العصر ، عصر الذرة والفضاء ، يشكل الأساس الفلسفى والأخلاقي . ورغم أن الوثيقة قد وضعها دولتان ، فإن دلالتها تتخطى الحدود الثنائية والإقليمية .

ونفس ظهور إعلان دلهى يعكس الطبيعة الفريدة للعلاقات السوفيتية الهندية . إن لدينا أنظمة اجتماعية مختلفة ، لكن هذا لا يمنع من قيام نوع من التعاون بيننا يثرى الجانبين روحياً ويؤدى إلى اتفاق واسع فى الآراء حول مسائل الساعة الأساسية . وقد وصل كل بلد إلى النظرة التى يشاطره الآخر فيها بطريقته الخاصة ، ولديه دوافعه الخاصة لهذه المواقف .

والعلاقات السوفيتية الهندية نموذجية من عدة وجوه : فى محتواها السياسى ،

والاقتصادى، والعلمى، والتقنى والثقافى المتنوع، وفى الاحترام والحب الذى يكنه شعبانا لبعضهما البعض، وفى الطابع العام لعلاقتنا الذى يعكس ثقتنا المتبادلة ورغبتنا العميقة فى الصداقة. فكيف أمكن للهند والاتحاد السوفيتى، وهما دولتان ذاتا أنظمة اجتماعية وسياسية مختلفة، أن تعملتا على تطوير علاقات من هذا النوع الرفيع؟ لأن كلا منهما يقيم سياسته - ليس بالأقوال وإنما بالأفعال - على مبادئ السيادة والمساواة، وعدم التدخل فى الشؤون الداخلية للآخرين، والتعاون. وكلاهما يعترف بحق كل شعب فى أن يختار نظامه السياسى الخاص ونموذج تطوره الاجتماعى.

ولذلك فلدينا كل الحق فى أن نقول باعتزاز له كل ما يبرره بأن الاتحاد السوفيتى والهند يقدمان مثالا للعلاقات الطيبة بين الدول، مثالا للآخرين ليحتذونه. ونحن نرى فى علاقاتنا نظاما عالميا يفتح، سوف يكون فيه التعايش السلمى، والتعاون القائم على المنفعة المتبادلة القائمة على الارادة الطيبة، سوف يكونان نموذجين عالميين.

عند خط فاصل صعب

التقيت فى فترة العام ونصف العام الماضية بالعديد من الزعماء السياسيين فى أفريقيا (والتقيت ببعضهم أكثر من مرة)، وأجريت مناقشات شاملة معهم. وكان من بينهم جبريل موجابى، ومانجستو هيل ماريام، ومارسيلينو دوش سانتوش، وأوليفر تامبو، وموسى تراورى، ومثيو كريكو، والشاذلى بن جديد. وكلهم زعماء وطنيون ذوى نفوذ كبير ومعتز بهم على نطاق واسع. وخرجت من محادثاتي معهم بانطباع بأن أفريقيا تمر بفترة نشطة من تطورها تتطلب مسئوليات. إن أفريقيا فى حالة اختار، وتجرب بها تغييرات حيوية، كما يواجه هذا الجزء من العالم مشاكل جادة عديدة.

ونحن لا ننظر إلى أفريقيا كقارة متجانسة تتطور فيها كافة العمليات وفقا لنفس

النموذج . وكأى بلد آخر فى العالم ، يمتلك كل بلد أفريقى سماته الخاصة المميزة ويرسم سياسته وفق هواه . والزعماء الأفارقة مختلفون كذلك . وقد ظل بعضهم فى الرئاسة لفترات طويلة نسبيا ، لدرجة أن العالم يعرفهم . بينما ظهر آخرون حديثا على المسرح الأفريقى والعالمى ، وهؤلاء يكتسبون خبرة عملية .

إننا نقدر تماما المهام الضخمة التى تواجه الأنظمة التقدمية فى أفريقيا . والحقيقة أن البلدان الأفريقية ارتبطت تاريخيا بالبلدان الاستعمارية الأم السابقة ، وما يزال بعضها يواصل اعتماده عليها اقتصاديا . ورغم أن الإمبريالية تعمل على الاحتفاظ بمواقعها بوسائل اقتصادية ومالية ، وحتى باللجوء إلى السلاح ، فإن الدول الافريقية المعنية مصممة على انتهاج المسار الذى يدعم مكاسبها .

ويساند الاتحاد السوفيتى هذه الجهود وهذه السياسة ، لأن السيادة السياسية المنية ، والاستقلال الاقتصادى يمكن أن يقدم أساسا سليما للعلاقات الدولية فى عالم اليوم . إن كل بلد أفريقى له حق مشروع فى الاختيار الحر لطريق تطوره . ونحن ندين بحزم كافة محاولات التدخل فى شئونه الداخلية . وقد عمل بلدنا على الدوام ، وسيستمر فى العمل من أجل مساندة نضال التحرر الوطنى لشعوب أفريقيا ، بما فى ذلك شعب جنوب أفريقيا ، حيث تقع إحدى القلاع الأخيرة للعنصرية .

وعندما التقيت بأوليفر تامبو ، رئيس المؤتمر الوطنى الأفريقى ، قلت له : « إننا نساندكم فى نضالكم ضد نظام التفرقة العنصرية وأذنا به ، ومن أجل دولة ديمقراطية وتطور مستقل ، ومن أجل المساواة بين كافة الأجناس والمجموعات العرقية . ومما له دلالة ، أن أعدادا متزايدة من البيض فى جنوب أفريقيا يدينون التفرقة العنصرية ويعلنون عن مساندتهم لأهداف المؤتمر الوطنى الأفريقى ، ويسعون إلى إقامة علاقات معه . ويبرهن ذلك مرة أخرى أنه لا مستقبل للتمييز العنصرى » .

ولدينا علاقات صداقة مع دول المواجهة فى جنوب أفريقيا . ونحن نؤيد مواقفها العادلة وندين بقوة أعمال جنوب أفريقيا المعادية ضدهم .

وليس للاتحاد السوفيتي أية مصالح خاصة في جنوب أفريقيا . نحن نريد شيئا واحدا فقط . ينبغي أن تحصل شعوب ودول المنطقة في النهاية على الفرصة لحل قضايا نموها وتطورها ، وتصريف شئونها الداخلية والخارجية بشكل مستقل وفي سلام واستقرار .

أمريكا اللاتينية : زمن التغير الكبير

ونحن ننطلق كذلك من نفس المبادئ العامة في علاقاتنا ببلدان أمريكا اللاتينية . إن لهذا الجزء من العالم تقاليد فريدة وقدرات ضخمة . وتبدى بلدانها مسعى كبيرا لمستقبل أفضل . وهي ترغب في أن تحقق آمالها رغم كل العقبات . إن الطريق إلى الحرية طريق صعب على الدوام ، ولكننا على يقين من أن حركة أمريكا اللاتينية من أجل التقدم ستكتسب قوة دافعة .

إن القوى والدعاية اليمينية في الولايات المتحدة تصوراها منا بأمريكا اللاتينية بأنه يرمى إلى تدبير سلسلة من «الثورات الاشتراكية» هناك . لغوفارغ ! إن الطريقة التي تصرفنا بها لعشرات السنين تبرهن على أننا لا نخطط لأى شيء من هذا القبيل ، ومثل هذه المخططات تتعارض مع نظريتنا ، ومبادئنا ، وكل مفاهيمنا للسياسة الخارجية .

لقد قلت للرئيس ريغان : « لقد نظرتم لعقود كثيرة إلى أمريكا اللاتينية باعتبارها عتبة بابكم ، وتصرفتم هناك على هذا الأساس . وتحملت الشعوب نتيجة لذلك ما فيه الكفاية . وإنه لمن صميم شئونها أن تحقق آمانها بوسائل سلمية أو عسكرية ، فأنتم الذين زرعتم قبلة في أمريكا اللاتينية في شكل دينها الخارجى الضخم . ولا بد أن تفكروا حقا في ذلك » .

وربما تفهم الدوائر الحاكمة الأمريكية ذلك فعلا ، ولكنها لن تعترف به ، لأنه سيكون عليها عندئذ أن تغير سياستها . وسيرى كل امرئ أن «يد موسكو» ليست إلا أكذوبة كبرى .

ونحن نتعاطف بالفعل مع بلدان أمريكا اللاتينية في نضالها من أجل تأكيد استقلالها في كافة المجالات ، وتحطيم كافة أغلال الاستعمار الجديد ، ولم نخف ذلك أبدا . ونحن نقدر كثيرا السياسة الخارجية النشطة للمكسيك والأرجنتين ، ومواقفها المسثلة حول نزع السلاح والأمن الدولي ، وإسهامها في مبادرات الدول الست . ونحن تؤيد الجهود السلمية لمجموعة الكونتادورا ، ومبادرات رؤساء دول أمريكا الوسطى ، واتفاق جواتيمالا . ونحن نرحب بالتغيرات الديمقراطية في عديد من بلدان أمريكا اللاتينية ، ونقدر التضامن المتزايد بين بلدان القارة ، والذي سيساعد في المحافظة على سيادتها الوطنية وتعزيزها .

وفي نفس الوقت ، أود أن أؤكد مرة أخرى أننا لا نسعى لأي مكاسب لأنفسنا في أمريكا اللاتينية . فلسنا بحاجة لا لموادها الخام ولا لليد العاملة الرخيصة . ولن نستغل المواقف المعادية للولايات المتحدة ، ناهيك عن تغذيتها ، ولن ننوى إضعاف العلاقات التقليدية بين أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة . إن ذلك سيكون نزعة إلى المغامرة وليس سياسة متعقلة ، ونحن واقعيون ، ولسنا مغامرين متهورين . بيد أن تعاطفنا يظل على الدوام مع الشعوب التي تكافح من أجل الحرية والاستقلال . ويجب ألا يكون هناك أي سوء فهم حول هذا الموضوع .

التعاون ، وليس المواجهة

إنني على قناعة بأن الجنس البشري قد دخل مرحلة نعتمد فيها جميعا على بعضنا البعض . ولا ينبغي اعتبار أي بلد أو شعب في عزلة تامة عن غيره ، ناهيك عن دفعه إلى موقف المجابهة مع الآخرين . وهذا ماتسميه مفرداتنا الشيوعية بالأممية ، وهي تعنى القيم الإنسانية العالمية .

وسيكون على الدوائر الحاكمة في الغرب أن تعمل حسابا في النهاية لمصالح شعوب العالم الثالث . وقد سألت جارى هارت ذات مرة : « ألا يمكن

لأمريكا أن تقدم سياسة مختلفة للبلدان النامية غير السياسة التي تتبعها الآن ؟ إن بإمكان الولايات المتحدة أن تفعل الكثير لبناء العلاقات بين الدول ، ولن تفقد شيئا من الناحية الاقتصادية في هذه العملية . بل على العكس ، سوف تكسب من ذلك . فلماذا ترفض الولايات المتحدة الفرصة السانحة كما لو كانت لا تعرف أى وجه من خبزها يدهن بالزبد ؟ » .

يتوقف الشيء الكثير على موقف الولايات المتحدة والغرب ككل ، وفي المقام الأول ، يتوقف عليها ما إذا كنا سنتمكن من حل عقدة مشاكل العالم المعاصر ونتخطى الطريق المسدود أمام الامكانيات الحالية للتطوير ، وإذا ما نجحنا في بناء علاقات جديدة تركز على المساواة والاعتبار الواجب لمصالح كل طرف . فلماذا نكون في حاجة إلى الآلة العسكرية القائمة والتي صممت لتكون أداة لسياسة خارجية توسعية ؟ .

وإنه لأمر مفهوم ، أن هذه الآلة قد بنيت على امتداد قرون ، وليس من السهل تدميرها في يوم وليلة . لكننا اقتربنا من النقطة التي يجب أن نحطمها فيها ، لأن ملايين الآسيويين والافريقيين والأمريكيين اللاتينيين يريدون أن يعيشوا كآدميين . وأنا على قناعة بأن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يمكنهما الاسهام كثيرا في البحث عن طرق لإقامة علاقات عالمية جديدة .

ونحن ندعو الإدارة الأمريكية إلى التعاون معنا في البحث عن حلول لمشاكل العالم الثالث . وهناك طرق أخرى غير الإكراه للقيام بذلك . ومانقترحه واقعي تماما . فلا بد أن تجد الولايات المتحدة طريقا لتحويل جبروتها ، ورأسمالها - وكل ما يبذل حاليا في الأغراض العسكرية - إلى تلبية الاحتياجات المختلفة ، وإلى حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية للعالم الثالث . وأنا على يقين من أن هذا ممكن تماما . وبالإضافة إلى ذلك فبإمكان الولايات المتحدة أن تضم إليها البلدان الغربية الأخرى . وهل لي أن أكرر أن ذلك كله لن يعود عليها إلا بالكسب الكثير .

الفصل السادس

أوروبا في السياسة الخارجية السوفيتية

هل لي الآن أن أقدم تعليقا شخصيا . لقد قمت بأول رحلة إلى الخارج كسكرتير عام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي إلى فرنسا في أكتوبر ١٩٨٥ . وقبل ذلك بعام ، في ديسمبر ١٩٨٤ ، قمت بزيارة بريطانيا على رأس وفد من السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتي . وهاتان الرحلتان دفعتاني إلى التفكير في أشياء كثيرة ، أولا ، يتعلق بدور أوروبا ومكانها في العالم .

وأعرب فرانسوا ميتران عما بدا لي في ذلك الوقت أنه فكرة هامة . إذ قال : « لماذا لا نفترض إمكانية التقدم التدريجي نحو سياسة أوروبية أوسع ؟ » وبعد ذلك بعام ، قال لي في موسكو : « من الضروري أن تصبح أوروبا حقا ، العامل الرئيسي في تاريخها الخاص من جديد حتى يمكنها أن تلعب دورها كعامل للتوازن والاستقرار في الشؤون الدولية » . وسارت أفكارى في نفس الخط . وساعدتني علاقاتي المباشرة مع زعماء الدولتين الرئيسيتين في أوروبا الغربية ومع البرلمانين وممثلي الأحزاب السياسية ودوائر الأعمال على التوصل إلى تقييم أدق للوضع في أوروبا .

وفي المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي ، تميز الاتجاه الأوروبي في سياستنا الخارجية بأهميته الكبيرة . وبودنا أن يفهم كل امرئ على نحو صحيح موقف القيادة السوفيتية فيما يتعلق بأوروبا الغربية .

وقبل المؤتمر وخلالها على السواء التقيت بشخصيات بارزة عديدة في أوروبا الغربية تنتمي إلى معسكرات سياسية مختلفة وتحدثت معها ، وقد أكدت هذه الاتصالات أن دول أوروبا الغربية تهتم كذلك بتطوير العلاقات مع الاتحاد

السوفيتي . وتحتل بلادنا مكانا بارزا في سياستها الخارجية .
فلماذا هذا الاهتمام الكبير بأوروبا ؟ .

ميراث التاريخ

يحاول البعض في الغرب أن « يستبعد » الاتحاد السوفيتي من أوروبا . ومن حين لآخر ، وكما لو كان عن غير قصد ، يساوون مفهومى «أوروبا» و «أوروبا الغربية» . ومع ذلك ، فإن مثل هذه الألاعيب لا يمكنها أن تغير الحقائق الجغرافية والتاريخية . إن علاقات روسيا التجارية والثقافية والسياسية مع شعوب أوروبا ودولها الأخرى لها جذور عميقة في التاريخ . ونحن أوروبيون . لقد كانت المسيحية توحد روسيا القديمة مع أوروبا ، وسوف نحتفل في العام القادم (١٩٨٨) بمرور ألف عام على دخول المسيحية أرض أسلافنا . وتاريخ روسيا هو جزء عضوى من التاريخ الأوروبي العظيم . لقد ساهم الروس ، والأوكرانيون ، والبيلوروسيون ، والمولدافيون ، والليتوانيون ، والليثيون ، والاستونيون ، والكاريليون وغيرهم من شعوب بلادنا إسهاما ذا شأن في تطور الحضارة الأوروبية ، ولذلك فإنهم يعتبرون أنفسهم ورثتها الشرعيين .

وتاريخنا الأوروبي المشترك معقد وغنى بالدروس ، عظيم ومأساوى . إنه جدير بالدراسة لتتعلم منه .

ومنذ عهد طويل ، كانت الحروب معالم رئيسية على الطريق في تاريخ أوروبا . وفي القرن العشرين ، كانت «القارة مرتعا لحربين عالميتين - أكثر الحروب دموية ودمارا عرفتها البشرية . وقدم شعبنا أعظم التضحيات على مذبح النضال التحريرى ضد الفاشية . ومات ما يزيد على عشرين مليون مواطن سوفيتي في هذه الحرب الرهيبة .

ونحن لا نذكر ذلك هنا لكي نقلل بأى حال من دور البلدان الأوروبية

الأخرى فى الكفاح ضد الفاشية . فالشعب السوفيتى يحترم إسهام كافة دول الائتلاف المعادى للهتلرية ومقاتلى المقاومة ، فى هزيمة ودحر الخطر الفاشى ، ولكننا لا يمكن أبدا أن نتفق مع الرأى الذى يقول بأن الاتحاد السوفيتى لم ينضم إلى القتال ضد ألمانيا النازية إلا فى عام ١٩٤١ ، بينما كان على الآخرين أن يحاربو هتلر قبل ذلك « وحدهم » .

وعندما أخبرتنى السيدة تاتشر شيئا بهذا المعنى ، عارضته ، وذكرتُها بأن الاتحاد السوفيتى قد حارب ضد الفاشية سياسيا من ١٩٣٣ ، وبالسلاح أيضا من ١٩٣٦ ، بمساعدته الحكومة الجمهورية فى أسبانيا . أما فيما يتعلق بميثاق عدم الاعتداء مع ألمانيا (الذى يشوه خصومنا على الدوام مغزاه) فقد كان من الممكن تجنبه ، كما كان يمكن تجنب أشياء أخرى عديدة ، لو وافقت الدوائر الحاكمة فى بريطانيا وفرنسا على التعاون مع الاتحاد السوفيتى ضد المعتدى فى ذلك الوقت .

ومن الذى سلم تشيكوسلوفاكيا للنازيين ، لقد قال تشمبرلين لدى عودته من ميونيخ : إنه أتى بالسلام للشعب البريطانى . ولكن فى الحقيقة دارت الأمور فى الاتجاه الآخر .. لقد أتى لهم بالحرب . ويرجع ذلك أساسا إلى أن الحكام البريطانيين كانت تسيطر عليهم فكرة واحدة فقط : كيف يحولون هتلر ضد الشرق ، ضد الاتحاد السوفيتى ، وكيف يسحقون الشيوعية .

وأنا لا أريد تبسيط الأمور ، لأن دول أوروبا الشرقية تلقت كذلك إرثا صعبا . ولنأخذ على سبيل المثال ، العلاقات بين روسيا وبولندا . لقد كانت معقدة لقرون عديدة نتيجة الصراع بين الدوائر الحاكمة فى كلا البلدين . لقد دفع الملوك والقيصرة ، البولنديون لمحاربة الروس ، والروس لمحاربة البولنديين . وكل هذه الحروب والعنف وأعمال الغزو أدت إلى تسمم روح الشعبين وأثارت العداوة المتبادلة .

وكانت الاشتراكية بمثابة انعطاف جذرى فى التاريخ الذى امتد قرونا لهذا الجزء

من العالم . وقد خلقت هزيمة الفاشية وانتصار الثورات الاشتراكية في بلدان أوروبا الشرقية وضعا جديدا في القارة . فقد ظهرت قوة جبارة شرعت في تحطيم السلسلة التي لا نهاية لها من النزاعات المسلحة . والآن تدخل شعوب أوروبا عقدا خامسا دون أية حرب .

ومع ذلك تظل أوروبا معتركا لمواجهة أيدولوجية وسياسية وعسكرية حادة . والبعض يرجع تقسيم أوروبا إلى مؤتمر يالتا وبوتسدام ويشككون في الاتفاقيات التاريخية التي وقعت هناك . ولكن هذا لا يعدو أن يكون قلبا للحقائق رأسا على عقب . لقد وضعت يالتا وبوتسدام الأساس لترتيبات مابعد الحرب في أوروبا . وهي اتفاقات حيوية لأنها كانت في جوهرها معادية للفاشية وديموقراطية . وقد نصت على إزالة «نظام هتلر الجديد» الذي حرم شعوبا ودولا بأكملها من الاستقلال وحتى من الأمل في الحرية والسيادة . وأدى منطق التفكير السياسى القديم إلى تقسيم أوروبا إلى كتلتين عسكريتين متعارضتين . وهناك قول رائج في الغرب يقول إن أوروبا جرى تقسيمها بواسطة الشيوعيين . ولكن ماذا عن خطاب تشرشل في فولتون ؟ أو مبدأ ترومان ؟ لقد بدأ تقسيم أوروبا بواسطة الذين حققوا تفكك الائتلاف المعادى لهتلر ، وشنوا الحرب الباردة ضد البلدان الاشتراكية ، وأقاموا حلف شمال الأطلسي كأداة للمواجهة العسكرية السياسية في أوروبا . وينبغي أن نكرر أن معاهدة وارسو وُقِّعت بعد إقامة حلف الأطلسي .

ونتيجة لقيام حلف الأطلسي ، وجدت أوروبا نفسها مرة أخرى تحت نير عربة الحرب ، وفي هذه المرة حملة بمتفجرات نووية . واليوم ينبغي إلقاء اللوم الأساسى عن استمرار تقسيم أوروبا على الذين حولوها إلى ميدان للمواجهة الصاروخية النووية ، والذين يدعون إلى إعادة النظر في الحدود الأوروبية ، متجاهلين الحقائق الإقليمية السياسية .

وكبداية ، فقد اقترحنا مرارا التخلص من الأحلاف العسكرية ، أو على الأقل

من الجناحين العسكريين للحلفين . ولكن حيث أن اقتراحنا هذا لم يلق القبول ، فينبغي أن نأخذ هذه الحقيقة في الاعتبار أيضا . وحتى مع ذلك ، فنحن على قناعة بأنه بأحلاف أو بدون أحلاف ، علينا أن نمهد الطريق لعالم أفضل ولعلاقات دولية يمكن أن تؤدي في مرحلة لاحقة إلى حل كافة الأحلاف العسكرية .

لقد كان هناك عدد لا بأس به من الأحداث والأوضاع المساوية في تاريخ أوروبا ما بعد الحرب ، ولكن دول أوروبا حسمت خيارها ، على أية حال ، وفقا للظروف والفرص الملموسة : فقد ظلت بعضها رأسمالية بينما سارت أخرى نحو الاشتراكية . ولا يمكن انتهاج سياسة أوروبية مشتركة حقا وارساء عملية أوروبية حقا إلا على أساس الاعتراف بهذه الحقيقة واحترامها .

ونحن نرفض الاعتقاد بأن مصير أوروبا محتوم عليه المواجهة بين حلفين والإعداد المستمر للحرب ضد بعضها البعض . إن البلدان الاشتراكية لم تربط نفسها بهذا الأفق وهو ما تؤكد المبادرة التي قدمتها ، والتي أدت بكل أوروبا والولايات المتحدة وكندا إلى هلسنكي . وقد بينت الوثيقة الختامية التي وقعت هناك السبل الحقيقية للتوصل إلى وحدة القارة على أساس سلمى ومتكافئ .

ومع ذلك ، فإن الدافع الذي قدمه المؤتمر الشهير في عاصمة فنلندا بدأ يجبر تحت ضغط رياح « حرب باردة » ثانية . وقد قيل الكثير في أسباب ذلك ، ولكن ليس هذا هو ما نتحدث عنه الآن . وعن طريق النقد الذاتي سأذكر مجرد أحد هذه الأسباب : ازدياد ضعف المواقع الاقتصادية للاشتراكية وهو ما سمحنا به في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات . ومن ناحية أخرى ، فإن هذا يثبت مرة أخرى ، على عكس ما حدث ، أنه من المفروض أن تلعب الاشتراكية الدور الحاسم في قهر أعداء الانفراج وتطبيع العلاقات بين كافة الدول الأوروبية لتجعلها علاقات حسن جوار . وعندما تضعف الاشتراكية تندفع النزعة العسكرية ، وسياسات القوة والطموحات الامبريالية .

واليوم يضطلع الاتحاد السوفيتي والأسرة الاشتراكية بالمبادرة مرة أخرى ، وعن طريق تعزيز الاشتراكية ، فإننا نضفي قوة إضافية وحيوية على عملية هلسنكي لقد آن الأوان ليدرك كل فرد الحقيقة البسيطة وهي أن الحواجز القائمة لا يمكن تخطيها إذا ما فرض الغرب طريقه على الشرق والعكس . وعلينا أن نتحول عن طريق الجهود المشتركة من المواجهة والمنافسة العسكرية إلى التعايش السلمي والتعاون القائم على المنفعة المتبادلة . وعن طريق هذا الفهم فقط يمكن توحيد قارتنا .

أوروبا بيتنا المشترك

خطر إلى ذهني هذا التشبيه في إحدى مناقشاتي . ورغم أنني استخدمته على ما يبدو بشكل عابر ، فقد كنت أبحث في ذهني عن مثل هذه الصيغة منذ وقت طويل ، وعلى الأخص ، بعد لقاءات مع العديد من الزعماء الأوروبيين . وبعد أن هيأت نفسي لنظرة سياسية جديدة ، لم أعد أقبل طريقة أوروبا السياسية المتعددة الألوان المزرقة كملاءة اللحاف . لقد شبت القارة حروبا ودموعا . وكان لديها مافيه الكفاية . وعندما أُلقيت نظرة عاجلة على الخريطة المتسعة لهذه البلاد التي عانت طويلا وفكرت في الجذور المشتركة لهذه الحضارة الأوروبية المتعددة الأشكال والمشاركة في جوهرها ، شعرت بحدة متزايدة بأن وجود حلف في مواجهة حلف والطبيعة البالية « للستار الحديدي » أمر مصطنع ومؤقت . وربما كانت هذه هي الطريقة التي قفزت بها إلى ذهني فكرة البيت الأوروبي المشترك . وفي اللحظة المناسبة صدر عني هذا التعبير من تلقاء نفسه .

ثم بدأت له حياته الخاصة ، كما نقول ، وظهر في الصحافة . وكان هناك بعض اللوم أيضا ، فقد قيل إنه تعبير مجرد ولا معنى له . ولذلك قررت أن أطرح كل آرائي بخصوص هذا الأمر . وواتني فرصة مناسبة خلال زيارتي لتشيكوسلوفاكيا ، التي تقع على وجه الدقة في وسط أوروبا جغرافيا . ودفع ذلك إلى « الفكرة الأوروبية » في خطابي العام في براغ .

وأوروبا في الحقيقة بيت مشترك ربط فيه كل من الجغرافيا والتاريخ ، وبشكل وثيق ، بين مصائر عشرات البلدان والشعوب وبطبيعة الحال ، فإن لكل من هذه البلدان والشعوب مشاكله الخاصة ، وكل منها يريد أن يحيا حياته الخاصة ، وأن يتبع تقاليده الخاصة . ولذلك فإذا أراد المرء أن يطور الاستعارة ، لأمكنه أن يقول : إن البيت مشترك ، وهذا صحيح ، ولكن لكل أسرة شقتها الخاصة ، وهناك مداخل مختلفة أيضا . ولكن بإمكان الأوروبيين أن ينقدوا بيتهم ، وأن يحموه ضد الحريق وضد الكوارث الأخرى ، وأن يجعلوه أفضل وأكثر أمنا ، ويحافظوا عليه في وضع مناسب ، فقط إذا عملوا معا ، وبشكل جماعي ، واتبعوا القواعد المعقولة للتعايش السلمي .

وقد يعتبر بعض الناس هذا خيالا جميلا . ولكنه ليس بخيال ، إنه نتيجة لتحليل دقيق للوضع في القارة وإذا كان العالم يحتاج إلى علاقات جديدة ، فإن أوروبا تحتاجها قبل كل شيء . وبإمكاننا القول إن شعوب أوروبا قد أدركتها خلال المعاناة ، وهي تستحقها .

ومفهوم « البيت الأوروبي المشترك » يوحى قبل كل شيء بدرجة من التكامل ، حتى ولو كانت دولها تنتمي إلى أنظمة اجتماعية مختلفة وأحلاف عسكرية سياسية متعارضة . إنه يجمع بين الضرورة والإمكانية .

الضرورة : حتميات سياسة لكل أوروبا

بإمكان المرء أن يذكر عددا من الظروف الموضوعية التي تخلق الحاجة إلى سياسة لكل أوروبا .

١ - إن أوروبا الكثيفة السكان والعالية التحضر تعج بالأسلحة ، النووية والتقليدية على السواء ، وقد يكون غير كاف أن نطلق عليها اليوم أنها « برمبل بارود » . إن قوى المجموعتين العسكريتين ، المجهزتين بالمعدات الحديثة للغاية والتي يجرى

تحديثها على الدوام ، تواجهان بعضهما البعض . وتتركز هنا آلاف الرؤوس الحربية النووية على حين تكفى مجرد بضع عشرات منها لتحويل أوروبا إلى جهنم .

٢ - وحتى الحرب التقليدية ، ناهيك عن الحرب النووية ، ستكون كارثة لأوروبا اليوم . ولا يعود ذلك فقط إلى أن الأسلحة التقليدية أكثر تدميراً عدة مرات ، عما كانت عليه خلال الحرب العالمية الثانية ، وإنما يعود أيضاً إلى وجود وحدات للطاقة النووية تضم ما مجموعه حوالي ٢٠٠ مفاعلاً وعدداً كبيراً من المصانع الكيماوية الرئيسية . وتدمير هذه المنشآت خلال معارك تقليدية سيجعل القارة غير صالحة للحياة .

٣ - تعتبر أوروبا واحدة من أكبر المناطق الصناعية في العالم . وقد تطورت الصناعة ووسائل النقل فيها لدرجة أصبح فيها الخطر على البيئة قريباً من النقطة الحرجة . وتجاوزت هذه المشكلة الحدود القومية بعيداً ، لتكتسب بعداً أوروبياً مشتركاً .

٤ - تتطور العمليات التكاملية بشكل مكثف في كل من شطري أوروبا . وقد حان الوقت لكي نفكر فيما سيأتي بعد ذلك . هل سيتفاهم انقسام أوروبا بدرجة أكبر أم سيتمكن العثور على صيغة لمنفعة كل من جزئها الشرق والغربي ومن أجل مصلحة أوروبا ومصلحة بقية العالم في الحقيقة ؟ إن احتياجات التنمية الاقتصادية في كل من شطري أوروبا ، وكذلك متطلبات التقدم العلمي والتكنولوجي تدفع إلى الحاجة للبحث عن شكل ما من التعاون على أساس المنفعة المتبادلة . وما أعنيه ليس نوعاً ما من « الاكتفاء الذاتي الأوروبي » وإنما الاستخدام الأفضل لمجموع قدرات أوروبا من أجل منفعة شعوبها ، وفي علاقاتها مع بقية العالم .

٥ - إن شطري أوروبا لديهما الكثير من مشاكلها الخاصة ذات البعد الشرقي - الغربي ، ولكن لها كذلك مصلحة مشتركة في حل مشكلة الشمال - الجنوب الحادة للغاية . ولا يعني ذلك ، بالطبع ، أن بلدان أوروبا الشرقية تشارك في المسئولية عن

الماضي الاستعماري لدول أوروبا الغربية . ولكن ليست هذه هي النقطة . ذلك أنه إذا ما أغفلت مصائر الشعوب في البلدان النامية ، وإذا ماجرى تجاهل المشكلة الحادة للغاية المتعلقة بسد الفجوة بين الدول النامية والصناعية ، فقد يكون لذلك آثار وخيمة على أوروبا وبقية العالم . (وفي هذا الصدد فإننا نشارك روح وقوة تقارير « لجنة براندت » حول مسألة الشمال والجنوب ، وتقرير الاشتراكية الدولية « التحدي العالمي » الذي تم إعداده تحت توجيه فيلي براندت وميشيل مانلي) . إن دول أوروبا الغربية مثل الاتحاد السوفيتي . والبلدان الاشتراكية الأخرى ، لها روابط واسعة مع العالم الثالث ، وبوسعها أن تعبئ جهودها من أجل تيسير تنميته . هذه هي بوجه عام حتميات السياسة لكل أوروبا تحدد مصالحي واحتياجات أوروبا ككل متكامل .

فرص موازية لأوروبا

والآن ماذا عن الفرص الموازية للأوروبيين والمستلزمات التي يحتاجون إليها لكي يكونوا قادرين على أن يعيشوا كسكان في « بيت مشترك » .

١ - إن لدى شعوب أوروبا أقصى وأمر تجربة للحربين العالميتين وقد ترك الوعي باستحالة السماح بحرب جديدة أعماق الآثار في ذاكرتهم التاريخية . وليس من قبيل الصدفة أن توجد في أوروبا اليوم أكبر حركة معادية للحرب وأكثرها نفوذاً ، حركة تضم في صفوفها كافة الفئات الاجتماعية .

٢ - وتعتبر التقاليد السياسية الأوروبية فيما يتعلق بمستوى السلوك في الشؤون الدولية أكثر التقاليد ثراء في العالم . وأفكار الدول الأوروبية عن بعضها البعض أكثر واقعية منها في أي منطقة أخرى . و « تعارفها » السياسي أوسع نطاقاً وأطول أمداً ومن ثم أكثر قرباً .

٣ - لا يوجد لدى أي قارة أخرى إذا ما أخذت ككل مثل هذا النظام المتشعب

من المفاوضات ، والمشاورات ، والمعاهدات والصلات الثنائية والمتعددة الأطراف على كل مستوى بالفعل . ولديها في رصيدها مثل هذا الإنجاز الفريد في العلاقات الدولية كعملية هلسنكي . وقد أعطى مؤتمر ستوكهولم نتائج مبشرة . ثم انتقلت الشعلة إلى فيينا ، حيث نأمل ، في اتخاذ خطوة جديدة في تطور عملية هلسنكي . وهكذا فإن مخططات بناء البيت الأوروبي المشترك جاهزة تماما .

٤ - إن القدرة الاقتصادية والعلمية والتقنية لأوروبا هائلة . ولكنها مشتتة ، وقوة الطرد بين شرق القارة وغربها أكبر من قوة الجذب . ومع ذلك فإن الحالة الراهنة للأمور من الناحية الاقتصادية ، سواء في الغرب أو الشرق ، وآفاقها الملموسة يمكن أن تساعد في العثور على طريقة لربط العمليتين الاقتصاديتين في كل من شطري أوروبا لمصلحة الجميع .

وهذا هو الطريق الوحيد المعقول للمزيد من تقدم الحضارة المادية الأوروبية . إن أوروبا « من الأطلنطي إلى الأورال » تشكل كيانا ثقافيا تاريخيا يوحدته التراث المشترك للنهضة والتنوير ، وللتعاليم الفلسفية والاجتماعية العظيمة للقرنين التاسع عشر والعشرين . وهذه قوة جذب قوية تساعد صانعي السياسة في بحثهم عن طرق للتفاهم والتعاون المتبادل على مستوى العلاقات بين الدول . وتكمن في التراث الثقافي الأوروبي إمكانات هائلة لسياسة السلام وحسن الجوار . وبوجه عام ، فإن النظرة الصحية الجديدة في أوروبا تجد تربة أشد خصوبة بكثير مما هي في أي منطقة أخرى يحتك فيها النظامان الاجتماعيان .

وأسلم صراحة بأننا سعداء لأن فكرة « البيت الأوروبي المشترك » تجد تفهما بين شخصيات سياسية بارزة وعامة ليس فقط في أوروبا الشرقية ، وإنما أيضا في أوروبا الغربية . وهكذا ، فقد أعلن جينشر وزير خارجية ألمانيا الاتحادية استعداد « لقبول مفهوم البيت الأوروبي المشترك والعمل مع الاتحاد السوفيتي لجعله بيتا مشتركا حقا » . وقد تحدث إلى الرئيس الاتحادي ريتشارد فون فايتزكر ، ووزير الخارجية الإيطالي

جوليو أندريوتي وغيرهما من الزعماء في نفس الاتجاه . وهكذا ، فإن الوعي بوحدة الثقافة الأوروبية ، وبالصلة المتبادلة والاعتماد المتبادل لمصائر كافة بلدان القارة ، وبال الحاجة الملحة للتعاون فيما بينهم ، لم يفقد بعد .

غير أنه يوجد أيديولوجيون وسياسيون يواصلون بذر عدم الثقة نحو الاتحاد السوفيتي . وتنشر غالبية بلدان أوروبا الغربية ، التي تسير في ركاب الولايات المتحدة ، عددا كبيرا من المقالات المحمومة ، ولكن كما هي العادة ، نجد الصحافة اليمينية الفرنسية أكثرها حماسا . إنها ترتعد ببساطة من مجرد توقع وضع أفضل في أوروبا . ولنأخذ ، على سبيل المثال المجلة الأسبوعية الفرنسية « لكسبرس » . ففي ٦ مارس ١٩٨٧ نسبت إلينا رغبة في فرض الهيمنة على أوروبا . وكتبت مقالا نشرته تحت عنوان صارخ « جورباتشوف وأوروبا » على منوال « الفارس الأحمر الصغير » و « الذئب الكبير الشرس » .

وقلبت الأمر في ذهني : هل يمكن أن يكون القراء الأوروبيون ، وشعوب أوروبا من السذاجة لدرجة يصدقون فيها مثل هذه التفاهات ، إن لدينا ثقة في رجاحة عقول الأوروبيين ، ونحن ندرك أنهم سيفرقون بين الحقيقة والأكاذيب إن عاجلا أو آجلا . وإذا ما حكمنا بالنتائج المنشورة لاستطلاعات الرأي العام ، فإن أغلبية الناس في أوروبا الغربية يبدو أنهم يقدرّون سياسة الاتحاد السوفيتي الصريحة نحو أوروبا والتي تهدف إلى وضع حد للنزاعات المستمرة على هذه القارة .

دولتان ألمانيتان

عندما نتأمل مفهوم « البيت الأوروبي المشترك » ، لا يسعنا إلا الإعراب عن موقفنا من الوضع الذي أحدثته الحرب العالمية الثانية في قلب أوروبا حيث توجد الآن الدولتان الألمانيّتان - جمهورية ألمانيا الديمقراطية وجمهورية ألمانيا الاتحادية . وقد أجريت حديثا مفصلا نوعا ما حول هذا الموضوع مع الرئيس الفيدرالي لألمانيا الغربية ريتشارد فون فايتزكر وقال لي إن الناس في ألمانيا الغربية يولون أذنا صاغية

لشعار « البيت الأوروبي المشترك » وسألته : « كيف تفهمون ذلك في ألمانيا الغربية ؟ »
ودعوني الآن أن أورد هنا الحوار القصير الذى دار بيننا :

ريتشارد فون فايتزكر : إنها نقطة نرجع إليها لتساعدنا على تصور الطريقة التى
يجب ترتيب الأمور وفقا لها فى هذا البيت الأوروبي المشترك . وبوجه خاص المدى
الذى سيكون مسموحا به للزيارات المتبادلة بين هذه الشقق .

ميخائيل جورباتشوف : إنك على حق تماما . ولكن قد لا يجب كل امرئ
استقبال زائرين فى الليل .

ريتشارد فون فايتزكر : ونحن لايسرنا بشكل خاص أن يكون لدينا خندق
عميق يمر داخل غرفة معيشة مشتركة .

وهو يشير بذلك إلى حقيقة أن جمهورية ألمانيا الاتحادية وجمهورية ألمانيا
الديموقراطية مقسمتان بحدود دولية ، تمر بوجه خاص ، داخل برلين . وذلك واقع
تشكل تاريخيا وتولد عن الاتفاقية التى اعقبت الحرب العالمية الثانية .

وبوسعنا فقط أن نحمن كيف كانت ألمانيا تبدو اليوم إذا ما كانت اتفاقية
بوتسدام قد نفذت بكاملها . فلم يكن هناك أساس آخر لوحدة بوتسدام . ولم يقتصر
الأمر على أن زعماء الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا فى ذلك الوقت قد خربوا
الاتفاقات الموقعة معنا ، وإنما كان يعارضها أيضا أنصار سياسة القوة فى ألمانيا
الغربية . وكانت بوتسدام كابوسا بالنسبة لهم ، وكلنا يعرف النتيجة .

ويتعين علينا ، بالطبع ، أن نأخذ حذرنا من التصريحات التى تفيد بأن « المسألة
الألمانية » تظل مفتوحة ، وأن كل شئ ليس واضحا بعد بالنسبة « للأراضى
الموجودة فى الشرق » ، وأن يالتا وبوتسدام « غير مشروعة » . ومثل هذه التصريحات
ليست قليلة فى جمهورية ألمانيا الاتحادية . ودعوني أقل بوضوح تام : إن كل هذه
التصريحات حول إحياء « الوحدة الألمانية » بعيدة عن أن تكون « سياسة واقعية » إذا
ما استخدمنا التعبير الألماني . وهى لم تعط جمهورية ألمانيا الاتحادية شيئا فى الأربعين

عاما الماضية . إن تغذية الأوهام عن العودة إلى « حدود ألمانيا عام ١٩٣٧ » إنما يعنى تفويض الثقة فى جمهورية ألمانيا الاتحادية من جيرانها ومن البلدان الأخرى .

ومهما قال رونالد ريحان وغيره من زعماء الغرب حول هذا الموضوع ، فإنهم لا يستطيعون بالفعل تقديم أى شىء واقعى لجمهورية ألمانيا الاتحادية فيما يتعلق بما يسمى بالمسألة الألمانية . إن ماتشكل تاريخيا هنا من الأفضل أن يترك للتاريخ . ويصدق ذلك أيضا على مسألة الأمة الألمانية وأشكال الدولة الألمانية . والأمراهام الآن هو الجانب السياسى . إذ توجد دولتان ألمانيتان ذاتا نظامين اجتماعيين وسياسيين مختلفين . ولكل منهما قيم خاصة بها . وقد استخلصت كلتاهما دروسا من التاريخ ، وباستطاعة كل منهما أن تسهم فى شئون أوروبا والعالم . أما ماذا سيكون بعد مائة عام فالتاريخ أن يقرره . وبالنسبة للوقت الحاضر . ينبغى علينا أن ننطلق من الوقائع القائمة وألا ندخل فى مضاريات مثيرة للمشاكل .

ومن باب الاستطراد سوف أذكر محادثة شهدتها معى فايتركر . فى ١٩٧٥ عند الاحتفال بالذكرى الثلاثين للانتصار على ألمانيا ، كنت فى جمهورية ألمانيا الاتحادية . وبالقرب من فرانكفورت ، تحدثت مع صاحب محطة بترين . وقال لى : « إن ستالين قال : إن أمثال هتلر يجيئون ويذهبون ولكن الشعب الألمانى باق ، ولكن بعدئذ ، فى نهاية الحرب قام الاتحاد السوفيتى بتقسيم الشعب الألمانى » .

وتلت ذلك مناقشة . وذكرته بخطط تقسيم الدولة الألمانية التى وضعها تشرشل والسياسيون الأمريكيون فى سنوات الحرب . وكنا نعارض تلك الخطط ونريد إقامة دولة ألمانية واحدة ديمقراطية وذات سيادة . وذكرته أيضا بحقيقة أن الدول الغربية قد أيدت إقامة دولة منفصلة فى غرب ألمانيا ، وإن جمهورية ألمانيا الديمقراطية قد ظهرت فيما بعد . وحتى بعد مؤتمر يالتا وبوتسدام أيضا ، كنا نؤيد إقامة دولة ألمانية موحدة ذات سيادة ومسألة فى المقام الأول ، على أساس تصفية النازية ، وإشاعة

الديموقراطية ، وتصفية الطابع العسكري لألمانيا . ولكن كانت هناك في الغرب قوى عملت بطريقة أدت إلى الوضع الحالي . ولذلك لايقع اللوم على الاتحاد السوفيتي بالنسبة لتقسيم ألمانيا ، ويجب البحث عمن يلامون على ذلك في مكان آخر . واليوم توجد دولتان ألمانيتان ، وهو واقع أقرته المعاهدات الدولية . وأى سياسى ذو تفكير واقعى ليس أمامه إلا أن يهتدى بذلك وبه وحده .

وهذه كانت محادثتنا .

وحتى بعد أن خاض الاتحاد السوفيتي معمة تلك الحرب الرهيبة ، فقد كان يتخذ موقفا مبدئيا ، ولم نتخل عن الإحساس بالواقع . ولم نخلط بين الشعب الألماني والنظام النازي . كما أننا لانلقى عليه اللوم على الكوارث التي سببها عدوان هتلر . ونحن في علاقاتنا مع جمهورية ألمانيا الاتحادية نضع في الاعتبار طاقاتها وإمكاناتها ، ومكانها في أوروبا وفي العالم ودورها السياسى . والتاريخ يجبرنا على أن يعامل بعضنا البعض معاملة سليمة . إن تطور أوروبا مستحيل بدون التعاون النشط بين دولتنا . وسيكون للعلاقات القوية بين جمهورية ألمانيا الاتحادية والاتحاد السوفيتي دلالة تاريخية حقا . ففي الوقت الذى تحافظان فيه على ذاتيتهما الخاصة ، وفي إطار نظاميهما وتحالفاتهما ، يمكن لكلتا الدولتين أن تلعبا دورا رئيسيا في التطورات الأوروبية والعالمية . والاتحاد السوفيتي معنى بتوافر الأمن لجمهورية ألمانيا الاتحادية . وإذا لم تكن جمهورية ألمانيا الاتحادية مستقرة ، فلن يكون هناك أمل في الاستقرار لأوروبا ، ومن ثم للعالم . وفي تعبير مقابل ، إن العلاقات المستقرة بين جمهورية ألمانيا الاتحادية وبين الاتحاد السوفيتي سوف تحدث تغييرا مقدرًا في الوضع الأوروبي نحو الأفضل .

أوروبا ونزع السلاح

كل ما نوقش في ريكيافيك له تأثير مباشر على أوروبا . وفي علاقاتنا مع الولايات المتحدة لم ننس أبدا ما يتعلق بمصالح أوروبا .

وبعد ريكيافيك التقيت برؤساء حكومات عدد من بلدان أوروبا الغربية الأعضاء في حلف شمال الأطلسي ، وأعني بول شلوتر من الدنمرك ، وردولف لوبرز من هولندا ، وجروهارلم برونلاند من النرويج ، وستيجريمور هيرمانسون من أيسلندا ، وأمنتور فانفاني وجوليو أندريوتي ممثلي القيادة الإيطالية . وأجرينا مناقشات عديدة حول موضوع « أوروبا ونزع السلاح » .

وسمعت من محدثي تعليقات هامة عديدة . وبعد ذلك بحثنا في القيادة السوفيتية بشكل جاد حججهم وأفكارهم وأخذنا بعين اعتبار في سياستنا ما وجدناه صحيحا من هذه الأفكار . ويتعلق ذلك بشكل خاص ، بالصواريخ الأوروبية . ولكن كانت هناك أيضا خلافات - احدثت بشكل خاص مع مارجريت تاتشر وجاك شيراك ، حول مفهومها وكذلك الفكرة العامة لحلف شمال الأطلسي عن « الردع النووي » . وأعربت لها عن دهشتي بخصوص الهياج الذي أحدثته ريكيافيك في بعض العواصم الغربية . فليس هناك سبب من أى نوع لاعتبار نتائجها تهديدا لأمن أوروبا الغربية . ومثل هذه الاستنتاجات والتقييمات ليست إلا ثمرة التفكير القديم لأيام الحرب الباردة .

وفي حديثي مع الزعماء الأجانب كنت أسأل أحيانا بشكل مباشر : هل تعتقدون أن الاتحاد السوفيتي ينوى مهاجمة بلادكم وأوروبا الغربية بشكل عام ؟ وكانت إجابتهم جميعا : « كلا ، لانعتقد ذلك » . ولكن سرعان ما كان يبدى بعضهم تحفظا ، قائلين بأن حقيقة المقدرة العسكرية الجبارة للاتحاد السوفيتي تخلق في حد ذاتها تهديدا محتملا . وبوسع المرء أن يفهم مثل هذا التفكير . ولكن الأمر يكون أقل وضوحا بكثير عندما تكون المكانة والعظمة الوطنية مرتبطين بحياة

الأسلحة النووية ، رغم أنه من الحقائق المعروفة أنه لو اندلعت حرب نووية فلن تكون هذه الأسلحة سوى دعوة لتوجيه الضربات دون أية دلالة حقيقية أخرى .

وعندما نتحدث عن نزع السلاح كوحدة حيوية ينبغي إرساؤها لدى تشييد بيت أوروبي مشترك ، فإننا نخطب ، في المقام الأول ، الدول النووية الأوروبية – بريطانيا وفرنسا . لقد أبدى الاتحاد السوفيتي ثقة ضخمة في أوروبا الغربية بموافقته خلال المباحثات الحالية حول نزع السلاح ، على ألا يضع قدرتها النووية في الحساب . وكان الدافع الرئيسي وراء هذا التحرك أننا نستبعد ، حتى في أفكارنا ، ناهيك عن خططنا الاستراتيجية ، إمكانية الحرب ذاتها مع بريطانيا وفرنسا ، ناهيك مع الدول النووية غير الأوروبية .

وعندما واجهنا ، فيما يتعلق بمقترحاتنا ، تحزرا بأن موسكو إنما تخطط لخدعة وتريد شق حلف الأطلسي ، وإضعاف يقظة أوروبا الغربية ، ثم اجتياحها ، وعندما بدأ الهجوم على فكرة أوروبا الحالية من الأسلحة النووية باعتبارها فكرة ضارة وخطيرة ، قلت علانية لكل هؤلاء الناس : «مم تخافون ، أيها السادة ؟ هل من الصعوبة بمكان أن ترتفعوا إلى مستوى التقييمات الحقيقية للعمليات التاريخية حقا التي تجرى في الاتحاد السوفيتي والعالم الاشتراكي بأكمله ؟ أليس بوسعكم أن تفهموا الصلة الموضوعية التي لا تنفصم بين هذه العمليات وبين النوايا الطيبة حقا في السياسة الخارجية ؟ » .

لقد آن الأوان لوضع حد للأكاذيب المتعلقة بعدوانية الاتحاد السوفيتي . ولن يبدأ بلدنا ، إطلاقا تحت أي ظروف ، عمليات عسكرية ضد أوروبا الغربية ما لم نهاجم نحن وحلفاؤنا من جانب حلف الأطلسي ! وأكرر ، لن نبدأ إطلاقا !

فلتخلص أوروبا الغربية بسرعة من مخاوفها من الاتحاد السوفيتي التي فرضت عليها . ولتعمل العقل في أن فكرة إزالة الأسلحة النووية في أوروبا قد تخلق وضعاً جديداً ليس للغرب فحسب وإنما لنا كذلك . ولا يمكننا أن ننسى أن عمليات غزو

أراضينا في العصر ما قبل النووي قد قام بها الغرب أكثر من مرة . ثم ألا تتحدث عن نفسها كافة المناورات العسكرية لحلف شمال الأطلسي التي تشمل بشكل ثابت مخططات هجومية ؟ .

ونحن نعتبر أن من الأهمية السياسية الكبيرة حقيقة أن اليونان ، وهولندا ، وأسبانيا ، وإيطاليا ، والسويد ، وفنلندا ، وغيرها الكثير من دول أوروبا قد رفعت صوتها مؤيدة إيجاد حل لمسألة الصواريخ الأوروبية .

إنهم يتحدثون في الغرب عن عدم المساواة وانعدام التوازن . وهذا صحيح ، فهناك عدم توازن وعدم تماثل في بعض أنواع الأسلحة والقوات المسلحة لدى كلا الجانبين في أوروبا ، بسبب عوامل تاريخية وجغرافية وغيرها . ونحن نؤيد إزالة عدم المساواة القائم في بعض المجالات ، ولكن ليس من خلال التعزيز من جانب الدين يتخلفون عن غيرهم وإنما من خلال التخفيض من جانب الدين يتقدمون على غيرهم .

وفي هذا المجال هناك مسائل محددة عديدة تنتظر الحل : تخفيض الأسلحة النووية التكتيكية وفي النهاية إزالتها ، على أن يصاحبه تخفيض كبير للقوات المسلحة والأسلحة التقليدية ، وسحب الأسلحة الهجومية من التماس المباشر لنستبعد إمكانية هجوم مفاجئ ، وتغيير كل أنماط القوات المسلحة بهدف اصفاء طابع دفاعي بحت عليها . وقد تحدثت بصورة محددة عن ذلك في اجتماع براغ . وقدمت مقترحات تفصيلية حول هذا الموضوع في برنامج بودابست لمنظمة معاهدة وارسو .

وأعلنت بلدان معاهدة وارسو في اجتماع لجنها الاستشارية السياسية في برلين في مايو ١٩٨٧ اجراء حيويا لبناء الثقة بروح التفكير الجديد ويتعلق بمبدئها العسكري الدفاعي تماما في كافة مكوناته .

ومن الممكن أن تساعد إجراءات مثل إقامة مناطق منزوعة السلاح النووي ومناطق منزوعة الأسلحة الكيماوية في دعم الأمن الأوروبي . ونحن نؤيد العرض

الذى تقدمت به حكومتا جمهورية ألمانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا إلى حكومة ألمانيا الغربية لإقامة ممر خال من الأسلحة النووية في وسط أوروبا . ومن المعروف أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي في ألمانيا قد أسهم في تكوين مثل هذا الممر . ونحن مستعدون لضمان واحترام الوضع غير النووى لهذه المنطقة . ونعتقد أن خطة بولندا التوفيقية بشأن مسألة خفض الأسلحة وتدابير بناء الثقة في وسط أوروبا قد جاءت في حينها وأنها خطة واعدة .

ونحن على قناعة بأن الأسلحة يجب خفضها لمستوى الكفاية المعقولة ، أى المستوى اللازم للأغراض الدفاعية البحتة . وقد حان الوقت ليقوم الحلفان العسكريان بتعديل مفاهيمهما الاستراتيجية وتوجيهها بدرجة أكبر نحو أهداف الدفاع . إن كل شقة في « البيت الأوروبي » لها الحق في حماية نفسها ضد اللصوص ، ولكنها يجب أن تفعل ذلك دون أن تدمر ممتلكات جيرانها .

التعاون الأوروبي

يحتاج بناء البيت الأوروبي إلى أساس مادي ، إلى تعاون بناء في عديد من المجالات المختلفة . ونحن في الاتحاد السوفيتي على استعداد لذلك ، بما في ذلك الحاجة إلى البحث عن أشكال جديدة من التعاون ، مثل البدء في مشروعات مشتركة ، وتنفيذ المشروعات المشتركة في بلدان ثالثة ، الخ . ونحن نطرح مسألة التعاون العلمى والتكنولوجى الواسع لا كمتسولين ليس لديهم مايقدمونه مقابل ذلك . ولسوء الحظ ، فهذا هو المجال الذى تقام فيه معظم الحواجز المصطنعة . وقد قدمت مزاعم بأن هذا يشمل « التكنولوجيا الحساسة » ذات الأهمية الاستراتيجية . وتستخدم عبارة « التكنولوجيا الحساسة » للإشارة أولا وقبل كل شىء إلى الإلكترونيات . غير أن الإلكترونيات تستخدم الآن عمليا في كافة الصناعات التى تعتمد على أساليب الإنتاج المتقدمة .

ولن تتقدم أوروبا الغربية تكنولوجيا ، على طريق برنامج حرب النجوم

العسكري ، كما لن تفتح عسكرة الفضاء الطريق إلى التقدم التكنولوجي . إنها مجرد ديماجوجية فيها نكهة الامبريالية التكنولوجية . إن هناك العديد من الفرص والمجالات للتعاون العلمي والتكنولوجي السلمي . وهناك تجربة المشروع المشترك لدراسة مذنب هالي من خلال رحلة الصاروخ الفضائي فيجا . وقد اكتشف هذا المشروع مواد بناء جديدة كما تمت اكتشافات أخرى في ألكترونيات الراديو ، وأنظمة التحكم ، والرياضيات ، والبصريات ، الخ . وتبدو فكرة جوليو أندريوتي عن إنشاء « معمل عالمي » فكرة واعدة أيضا . وهي تمثل مشروعا بحثيا جديدا ، وعالميا إلى حد بعيد ، ويبدو كما لو كان في طريقه إلى التبلور .

أما عن التعاون في استخدام الطاقة النووية الحرارية ، فقد وضع أساس علمي لذلك في عدد من البلدان بواسطة علماء يشتغلون في الأفكار التي اقترحها زملاؤهم السوفيت . وباستطاعة العلماء الأمريكيين أن يشتركوا في هذه الأبحاث . وهناك أيضا إمكانيات أخرى مثل الاستكشاف والاستخدام المشترك للفضاء الخارجي ولكواكب المجموعة الشمسية والأبحاث في مجال الموصلات الفائقة والتكنولوجيا الحيوية .

صحيح إن كل ذلك سيزيد من التعاون المتبادل بين دول أوروبا ، ولكنه سيكون أيضا لمنفعة كل الناس ، وسيؤدي إلى إحساس أكبر بالمسؤولية وضبط النفس .

وإننا إذ نعمل بروح التعاون ، نستطيع تحقيق الشيء الكثير في هذا المجال الهائل المسمى « بالمسائل الإنسانية » . وستكون إحدى العلامات الهامة على هذا الطريق عقد المؤتمر الدولي للتعاون في المجال الإنساني الذي يقترح الاتحاد السوفيتي عقده في موسكو . وفي مثل هذا الاجتماع يستطيع الجانبان مناقشة جميع جوانب المشاكل التي تهم كلا من الشرق والغرب ، بما في ذلك تلك المسألة المعقدة ، مسألة حقوق الإنسان ، ومن شأن ذلك أن يعطي لعملية هلسنكي قوة دافعة جديدة .

ومع ذلك ، فعندما دعونا بلدان الغرب إلى مناقشة جادة وبناءة لمسألة حقوق

الإنسان ، وقارنا في جو من العلانية المتبادلة ، كيف يعيش الناس بالفعل في بلادنا وفي البلدان الرأسمالية ، ثارت أعصاب الآخرين ، وهم يحاولون الآن تقليص الأمور وتحويلها إلى حالات فردية وتجنب مناقشة البقية . ولقد قلت ، سواء علنا أو في اجتماعات مع الزعماء والوفود الأجنبية ، أننا على استعداد لمناقشة الحالات الفردية بروح إنسانية ، ولكننا مصممون على أن نناقش علنا وعلى نطاق واسع هذه المشاكل برمتها .

وقد يقول المرء أن التعاون والمنافسة السلميين بين الشرق والغرب يستطيعان أن يحققا النفع لكلا الجانبين بل إنها يحققانه فعلا . ولدى بلدان أوروبا الصغيرة والمتوسطة الشيء الكثير الذي تستطيع أن تسهم به في هذه القضية . وقد ناقشنا هذا مع رئيس وزراء أيسلندا السابق هيرمانسون ، ورئيس وزراء هولندا لوبرس ، ورئيس وزراء السويد كارلسون وغيرهم من الزعماء .

بؤادر التفكير الجديد في أوروبا

أعتقد أن أوروبا الغربية ، لاسيما بعد ريكيافيك ، بدأت تدرك بشكل ثابت الحاجة إلى الإسهام في تحسين الوضع في القارة . ونحن نقدر حقيقة أن الأوروبيين يبذلون الآن جهدا كبيرا من أجل تنقية الجو السياسي في العالم .

ولا أعتقد أنني سأفشي سرا هاما إذا ما حكيت لكم قصة حكاها لي رجل الدولة الإيطالي البارز أميتور فانفاني . فقد كان يناقش ذات مرة الوضع السياسي الصعب مع إدواردو ديفيليو المنتج السينمائي الإيطالي المشهور دوليا . وسأل ديفيليو : « ما الذي يجب علينا أن نفعله إذن ؟ » فقال فانفاني : « لنضع ثقتنا في الله » فأجاب ديفيليو : « إذن فعلينا نحن البشر ألا نخلق العقبات لله » .

إن هذا الإدراك بأننا جميعا مسئولون عن مستقبل العالم أمر له قيمته وأهميته الخاصة اليوم . ويجب أن يعزى الفضل لبعض السياسيين في أوروبا الغربية لاعتراฟهم

بحاجة كافة الأوروبيين إلى توحيد قواهم والمحافظة على الأسس التي تم وضعها في ريكيا فيك .

وباستطاعتنا أن نرى البوادر الأولى لنظرة جديدة في الشؤون الدولية تظهر في أوروبا الغربية ، فتحدث تغييرات معينة بين الدوائر الحاكمة . وتصوغ كثير من الأحزاب الاشتراكية والاشتراكية الديمقراطية في أوروبا الغربية مواقف جديدة في سياسة الدفاع والأمن . ويقودهم ساسة متمرسون ذوو نظرة شاملة للمشاكل الدولية .

قبل زيارتي لفرنسا عام ١٩٨٥ بوقت قصير ، سألني الصحفيون الفرنسيون أن أعلق على علاقاتنا بالحكومات الاشتراكية الديمقراطية في أوروبا . فقلت إننا كنا خلال السنوات القليلة الأخيرة نتعاون بنشاط مع الاشتراكيين الديمقراطيين في المسائل المرتبطة بالحرب والسلام . وكانت اجتماعاتي مع وفود الأحزاب الاشتراكية والاشتراكية الديمقراطية تمثل جانبا كبيرا في اتصالاتي مع الزعماء الأجانب .

وقد استقبلت المجلس الاستشاري للاشتراكية الدولية بقيادة كاليفي سورسا والتقيت مع فيلي براندت ، وإيجون بهر ، وفيليب جونزاليز وغيرهم من الزعماء الاشتراكيين الديمقراطيين . وفي كل مرة كنا نلاحظ أن آراءنا حول المسائل الحاسمة للأمن الدولي ونزع السلاح كانت متقاربة أو متماثلة . وأنا في غاية الأسف لأنني لم ألتق أبدا بأولف بالم الذي كانت وفاته المفاجعة صدمة كبيرة لنا . إن فكرة « الأمن للجميع » التي طرحها والتي واصلت تطويرها لجنة بالم الدولية بها كثير من النقاط المتماثلة مع مفهومنا عن الأمن الشامل .

إن الحوار الذي بدأ بين الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين لا يطمس بأي حال الخلافات الأيديولوجية بينهم . وفي نفس الوقت ، فلا يمكننا القول بأن أيّا من الذين شاركوا في هذا الحوار قد أراق ماء الوجه أو تعرض للضغط من الطرف الآخر . وقد أوضحت التجربة أنه لاخطر من مثل هذا الاحتمال .

ولدينا علاقات طيبة وصلات مفيدة مع الاشتراكيين الديمقراطيين في جمهورية ألمانيا الاتحادية ، وفنلندا ، والسويد والدمرك ، ومع حزب العمال البريطاني ، والاشتراكيين الأسبان ، الخ . ونحن نقدر هذه العلاقات لدرجة كبيرة . وبوجه عام فنحن على استعداد للتعاون مع كافة القوى التي يعينها التغلب على الاتجاهات الخطرة في تطور الوضع العالمى . ورغم ذلك فإنى أعتقد أن إسهام أوروبا في قضية السلام والأمن يمكن أن تكون أكبر بكثير . ولكن كثيرين من زعماء أوروبا الغربية يفتقدون الإرادة السياسية ، وربما الامكانيات أيضا ، ومع ذلك فإن الحياة سوف ترغم كل شخص على التحول إلى تقييمات واقعية كما يحدث اليوم .

حول أوروبا والولايات المتحدة

إنه لمن المؤسف أن حكومات بلدان حلف شمال الأطلسى ، بما فيها هؤلاء الذين يتصلون قولا من التجاوزات الخطيرة للسياسة الأمريكية ، ويرضخون في النهاية للضغط ، تتحمل المسؤولية عن تصاعد سباق التسلح وزيادة حدة التوتر الدولى .

وإليكم أحد الأمثلة على ذلك . فى أبريل ١٩٨٦ قصفت الطائرات الحربية الأمريكية طرابلس ، وبنغازى ، وغيرهما من الأهداف فى الأراضى الليبية . ويتعذر تماما الدفاع بمقاييس المجتمع المتمدين عن هذا العمل العدوانى المباشر . لقد أقلعت الطائرات الحربية الأمريكية من قواعد فى بريطانيا وطارت فى المجال الجوى لأوروبا الغربية . فماذا فعلت هذه الأخيرة ؟ .

لقد راقبت حكومات بلدان حلف شمال الأطلسى التطورات فى صمت ولم تجرؤ على معارضة هذا العمل الأمريكى . وقلت لرئيس وزراء السويد ، الذى تحدثت معه لساعات بعد أن وصلتنا أخبار هذه الغارات ، إن مثل هذا الموقف يذكرنى باسترضاء المعتدين عشية الحرب العالمية الثانية . وماذا يحدث إذا ماخطرت

للعسكريين الأمريكيين فكرة معاقبة أحد بلدان معاهدة وارسو بقصفها بالقنابل ؟ ماذا سيحدث عندئذ ؟ إنهم يتصرفون وكأن شيئا لم يحدث ؟ ولكن هذه حرب ! إن مسؤولية الجميع قد ازدادت بشكل لا يقاس في عصرنا النووي .

هناك أسطورة إغريقية قديمة حول خطف أوروبا وإبعادها عن مكانها . وقد أصبحت هذه الحكاية الخرافية فجأة اليوم ذات علاقة كبيرة بما يجري . وغنى عن القول أن أوروبا كفكرة جغرافية ستبقى في مكانها . غير أنه يوجد لدى المرء أحيانا انطباع بأن السياسة المستقلة لبلدان أوروبا الغربية قد أبعدتها عن مكانها ، ونقلتها عبر المحيط ، وأن المصالح الوطنية يتم تأجيرها تحت حجة حماية الأمن .

وهناك تهديد خطير يحوم فوق الثقافة الأوروبية كذلك . وينشأ هذا التهديد من انقضاخ « الثقافة الهابطة » عبر الأطلنطي . ونحن نتفهم جيدا قلق المثقفين في أوروبا الغربية . والحقيقة أنه لايسع المرء إلا أن يعجب من أن الثقافة الأوروبية العميقة والمتعمقة في عقلانيته والمتأصلة في إنسانيتها تتراجع إلى الخلف أمام العردة البدائية للعنف والأدب الإباحي وفيض المشاعر الرخيصة والأفكار الوضيعة .

وعندما نشير إلى أهمية الموقف المستقل لأوروبا ، كثيرا ما ننتهم بالرغبة في الوقعة بين أوروبا الغربية والولايات المتحدة . ولم تكن لدينا أبدا ، وليست لدينا الآن مثل هذه النوايا على الإطلاق . ونحن بعيدون عن تجاهل العلاقات التاريخية القائمة بين أوروبا الغربية والولايات المتحدة أو التقليل من شأنها . وإنه لأمر مناف للعقل أن نفسر الخط الأوروبي في سياسة الاتحاد السوفيتي على أنه تعبير عن « العداء للأمريكيين » . فليست لدينا نية للدخول في ألعيب دبلوماسية كما ليست لدينا رغبة في إثارة التشويش في العلاقات الدولية . إن ذلك لايتفق مع الهدف الرئيسي لسياستنا الخارجية - تعزيز سلم مستقر ودائم يقوم على الثقة المتبادلة والتعاون بين الأمم . وفكرتنا عن « البيت الأوروبي المشترك » لاتنطوى بالتأكيد على إغلاق الأبواب في وجه أحد . حقا إننا لانحب أن نرى أحدا يضرب باب البيت الأوروبي

بقدمه ليدخل ويتصدر المائدة في شقة شخص آخر. بيد أن الأمر عندئذ يكون من اختصاص مالك الشقة. وقد ردت البلدان الاشتراكية في الماضي بالإيجاب على مشاركة الولايات المتحدة وكندا في عملية هلسنكي.

مسئولية أوروبا

وهكذا، ودون التقليل من شأن دور القارات والشعوب الأخرى وأهميتها، نتحدث عن الدور الفريد الذي يجب على أوروبا أن تقوم به اليوم.

إن نجاح العملية الأوروبية يجعل باستطاعتها تقديم إسهام حتى بدرجة أكبر في تقدم بقية العالم. ولا ينبغي لأوروبا أن تنأى بنفسها عن المشاركة في حل مشاكل مثل المجاعات، والديون، والتخلف، ووقف النزاعات المسلحة.

وما من شك في أن كافة شعوب أوروبا دون استثناء تفضل مناخ حسن الجوار والثقة، والتعايش والتعاون على أرض القارة. وسيكون ذلك انتصارا للتفكير السياسي الجديد بكل معنى الكلمة. وباستطاعة أوروبا أن تقدم مثالا يحتذى. فالعالم يقف اليوم عند مفترق الطرق، ويتوقف الاتجاه الذي يسير فيه بدرجة كبيرة على الموقف السياسي لأوروبا.

وليس هناك من يستطيع أن يحل محل أوروبا بإمكانياتها وخبرتها الضخمة سواء في السياسة العالمية أو في التنمية العالمية. إن أوروبا تستطيع بل ويجب عليها أن تلعب دورا إيجابيا، محمدا، وبناء.

الفصل السابع

قضايا نزع السلاح والعلاقات بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة

عندما كنت لا أزال طالبا في جامعة موسكو ، أبدت اهتماما بتاريخ الولايات المتحدة . وقرأت كتبا عديدة لمؤلفين أمريكيين وتابعت تاريخ علاقاتنا . وكانت هناك تقلبات حادة مفاجئة في هذه العلاقات ، فمن تحالف زمن الحرب إلى « حرب باردة » في الأربعينيات والخمسينيات ، ومن انفراج في السبعينيات إلى تدهور حاد في بداية الثمانينات .

وقد شهدت الفترة ما بين اجتماع أبريل ١٩٨٥ الكامل ، التي كانت نقطة انعطاف بالنسبة لنا ، وبين نشر هذا الكتاب أحداثا هامة وعديدة بينها أحداث ترتبط ارتباطا مباشرا بتطور العلاقات السوفيتية الأمريكية . ونحن الآن نواصل الحوار مع الولايات المتحدة . ونكتب - الرئيس ريغان وأنا - لبعضنا البعض من فترة لأخرى . ويناقدش مفاوضو الجانبين مشاكل هامة فعلاً .

وكان هناك قليل من النشاط دبلوماسي في مجالات عديدة مثل التعاون العلمي والثقافي في العام أو العامين الأخيرين . وحاليا يناقش الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، على مستويات مختلفة ، مسائل كانت ذات يوم موضع اتهامات متبادلة . وبدأت تظهر الخطوط العامة للاتصالات حتى في مجال النشاط الإعلامي ، الذي يجب أن يتخلص من دعاية العنف والكراهية ، ومن التدخل في الشؤون الداخلية لبعضنا الآخر .

حسنا ، هل ذاب الجليد ، ودخلت علاقاتنا مرحلة بناءة وأكثر هدوءا ؟ يود المرء لو استمرت هذه العملية ، ولكن الزعم بأن تقدما ملحوظا قد تحقق قد يكون تطاولا على الحقيقة . وإذا كنا نغني بتحسين حقيقي في العلاقات السوفيتية

الأمريكية ، فعلينا أن نقيم حالتها بأمانة . إن التغير إلى الأفضل ، إن وجد ، كان بطيئا للغاية . فبين حين وآخر تطفئ أساليب النهج السابقة المتناقضة ، على الضرورة الحتمية لبعث النشاط في العلاقات السوفيتية الأمريكية .

إن تقدم التكنولوجيا العالية وعلوم الاتصالات جعل الشعوب الآن أكثر قربا من بعضها البعض . ويمكن استخدام هذه العمليات لتعزيز تفاهم متبادل أكبر قدرا . ويمكن استخدامها كذلك للتفرقة بين الشعوب وبسبب ذلك تعرضنا بالفعل لخسائر جسيمة . ولكن العالم الآن قد وصل إلى نقطة يجب فيها علينا - وأعني كلا من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي - أن نفكر كيف نعتزم مواصلة المسيرة . ومالم نغير شيئا ، فمن الصعب أن نتنبأ بما سيكون بعد عشرة ، أو خمسة عشر ، أو عشرين عاما من الآن . ويبدو لي أن القلق على بلدنا وعلى مستقبل الحضارة كلها في تزايد مستمر . إنه يتزايد داخل الشعب السوفيتي مثلما يتزايد داخل الشعب الأمريكي .

ولن أقبل - مهما قيل لي - الزعم بأن الشعب الأمريكي عدواني تجاه الاتحاد السوفيتي . ولا يمكنني أن أصدق ذلك . ربما كان هناك بعض الأفراد الذين يسرهم وجود توتر أو مواجهة أو منافسة حادة بين بلدينا . وربما كان هناك بعض الناس الذين يحنون من وراء ذلك كسبا ما . ولكن مثل هذه الحالات لا تتفق مع المصالح الأكبر لشعبينا .

ونحن نفكر ، قبل كل شيء ، فيما يجب عمله لتحسين علاقاتنا . وهى بالفعل في حاجة إلى ذلك . لأننا لم نعجز فقط عن أن نتقدم في هذا السبيل منذ منتصف السبعينيات ، بل إن الكثير مما توصلنا إليه وفعلناه قد تم تدميره . ولم نتحرك إلى الإمام ، بل ربما في الاتجاه المضاد . ونحن نقول إن الأمريكيين هم الذين يقع عليهم اللوم . ويقول الأمريكيون إن اللوم إنما يقع على الاتحاد السوفيتي . وقد يكون من المتعين علينا أن نبحث عن الأسباب الكامنة خلف ما حدث ، إذ ينبغي أن

نستخلص الدروس من الماضي ، بما في ذلك السجل الماضي لعلاقتنا . فذلك علم ، وعلم جاد ومسئول ، إذا التزم المرء بالحقيقة بطبيعة الحال . ومع ذلك فإن ما ينبغي أن نفكر فيه اليوم أكثر من غيره هو كيف سنعيش معا في هذا العالم وكيف سنتعاون .

وقد أجريت عددا من اللقاءات مع سياسيين وشخصيات عامة أمريكية ، وهي تحدث لي في بعض الأحيان ازدهاما في جدول أعمال ، ولكنني كنت أحاول في كل مناسبة أن أجِد الوقت لمثل هذه اللقاءات . إن مهمتي ، كما أراها ، ليست قاصرة على التوصل إلى تفهم سياستنا ورؤيتنا للعالم ، وإنما أيضا أن أتفهم وأدرك على وجه أكمل إطار العقلية الأمريكية ، وأن أتعلم بدرجة أفضل ماهية المشاكل الأمريكية ، وبصفة خاصة ، العمليات السياسية المحددة في الولايات المتحدة . ولا يمكن للمرء أن يفعل غير ذلك . إن السياسة العلمية يجب أن تبنى على تقييم دقيق للواقع . ومن المستحيل التحرك نحو علاقات أكثر انسجاما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في الوقت الذي نظل فيه مخدرين بالأساطير الأيديولوجية .

إننا لانتصل ببعضنا البعض بما فيه الكفاية ، ولا نفهم بعضنا البعض بما فيه الكفاية ، ولا حتى نحترم بعضنا البعض بما فيه الكفاية . وقد بذلت قوى معينة جهودا كبيرة للتوصل إلى مثل هذه الحالة . لقد تراكم الكثير من المفاهيم الخاطئة لتعرق التعاون وتقف في طريق تطويره .

إن تاريخ العلاقات السوفيتية الأمريكية في فترة ما بعد الحرب ليس موضوع هذا الكتاب . ولكن إذا استعدنا إلى ذاكرتنا أحداث الماضي القريب ، تبين لنا الضرر الذي سببته الأفكار الخاطئة ورفض الأفكار الجديدة . فعندما التقيت بالرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر في مطلع صيف ١٩٨٧ ، قلت له بصراحة إننا لانتعبر بأية حال كل ما حدث خلال رئاسته سلبيا . لقد كانت هناك بعض الإيجابيات كذلك . وأشير بصفة خاصة إلى اتفاقية سولت - ٢ ، التي رغم أنه لم يتم التصديق عليها حتى الآن ، فإنها تلعب دورا هاما رغم النهج الحالي للإدارة الأمريكية . إن

روح هذه الاتفاقية حية . وفي الوقت نفسه ، لا يعجز المرء عن رؤية أن هناك فرصا كثيرة قد أفلتت . لقد اعتقدنا ، ومازلنا نعتقد ، أنه عندما كانت الثمانينيات تلوح في الأفق ، كانت اتفاقيات هامة على مجرد مرمى حجر في مجالات مثل الأسلحة المضادة للصواريخ ، وتجارة السلاح ، والحد من النشاط العسكري في المحيط الهندي ، ومسألة التسوية في الشرق الأوسط . وقد مضت عشر سنوات ! فكم من الوقت ومن الموارد جرى تبديدها على سباق التسلح ، وكم من الأرواح البشرية فقدت !

ماذا نتوقع من الولايات المتحدة الأمريكية ؟

عندما أجبت على مجلة « تايم » في أواخر أغسطس ١٩٨٥ قلت : « إن بلدنا ببساطة لا يستطيعان أن يسمحا للأمور بأن تصل إلى حد المواجهة . وفي ذلك تكن المصلحة الحقيقية لكل من الشعبين السوفيتي والأمريكي . ويجب التعبير عن ذلك بلغة السياسة العملية . فن الضروري وقف سباق التسلح ، ومعالجة نزع السلاح ، وتطبيع العلاقات السوفيتية الأمريكية . وبأمانة فقد حان الوقت لجعل هذه العلاقات بين الشعبين العظيمين جديرة بدورها التاريخي . فمصير العالم ، ومصير الحضارة العالمية ، يتوقفان على علاقاتنا . ونحن مستعدون للعمل في هذا الاتجاه » .

علينا أن نتعلم أن نعيش في عالم واقعي ، عالم يأخذ في اعتباره مصالح الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، مصالح بريطانيا وفرنسا وجمهورية ألمانيا الاتحادية ، ولكن هناك أيضا مصالح الصين ، والهند ، وأستراليا ، وباكستان ، وتانزانيا ، وأنجولا ، والأرجنتين وغيرها من الدول ، ومصالح بولندا وفيتنام وكوبا والبلدان الاشتراكية الأخرى . وعدم الاعتراف بهذه المصالح يعني إنكار حرية الاختيار بالنسبة لهذه الشعوب وإنكار حقها في أن تختار النظام الاجتماعي الذي يناسبها . وحتى إذا ما أخطأت في خيارها ، فلا بد من أن تجد مخرجاً بنفسها . وهذا حقها .

ولقد تحدثت في ذلك مع كثير من الأمريكيين بمن فيهم جورج شولتز ، الذي

كان في موسكو في ربيع ١٩٨٧ . وقد أجريت معه محادثة متعمقة حرصت فيها على أن أعود به إلى الفكرة نفسها : لنحاول أن نعيش في عالم واقعي ، ولنضع مصالح كل من البلدين في الاعتبار . وسوف يستحيل ذلك ، ما لم نضع في الاعتبار مصالح الأعضاء الآخرين في الأسرة الدولية . ولن تكون لدينا علاقات دولية سليمة إذا ما انطلقنا من مصالح الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وحدهما . فلا بد من أن يكون هناك توازن .

ويتخذ هذا الأمر وجهها جديدا عند كل مرحلة من التاريخ . فالمصالح تتغير ، ومن ثم يتغير التوازن . ويقتضي الأمر عندئذ نهج أساليب جديدة . وأكرر القول بأنه سيكون خطيرا ومدمرا أن تبنى السياسة في نهاية القرن العشرين على النهج الذي ألهم خطاب تشرشل في فولتون ومبدأ ترومان . لقد تأخر طويلا البدء في بذل جهد جاد لإعادة تشكيل العلاقات السوفيتية الأمريكية . وعندما نسلم بذلك ، فلا بد من التخلي عن سياسة إصدار الأوامر . فلا الاتحاد السوفيتي ، ولا الولايات المتحدة ، ولا أي بلد آخر يمكنه اعتبار العالم أو أي جزء منه هدفا للاستغلال ، حتى وإن يكن تحت عباءة « المصلحة الوطنية » .

إن محاولات بناء العلاقات على الأساليب الدكتاتورية ، والعنف والأوامر يصعب أن تنجح عند هذه النقطة . وسرعان ما تصاب بالفشل تماما . إن عملية فهم الوقائع الجديدة ليست عملية سهلة . إنها تحتاج إلى وقت المرء وجهده . ولكن هذه العملية بمجرد أن تبدأ ، ستتواصل . وعلينا أن نتعلم كيف نصغي لبعضنا البعض ، ونفهم بعضنا البعض . وأنا كما قلت لشولتز ، أؤيد التعاون مع الولايات المتحدة وأعني التعاون بشكل بناء ، لأنه ليس هناك من يتحمل المسؤولية التي على الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة أن يتحملاها .

وأذكر محادثتي مع الرئيس الأسبق للولايات المتحدة ريتشارد نيكسون . لقد استشهدت بكلمات ونستون تشرشل ، والتي آمل ألا تكون نبوءة ، بأن أجنحة العلم

الوضاءة قد تعيد العصر الحجري إلى الأرض ، وأكد أنه سيكون علىّ ، كسكرتير عام ، وعلى الرئيس ريجان ومن سيخلفه ، سيكون علينا أن نقرر الخيار التاريخي لصالح مستقبل سلمى . وقلت للسيد نيكسون عندئذ ، إننى رأيت ذات مرة فيلما عن رحلة قام بها بعض السياح الأمريكيين على الفولجا . وكانت هناك لقطات لمواطنينا إلى جانب لقطات للأمريكيين . ولم يكن من السهل تمييز الأمريكي من الروسى . كانوا جميعا يتحدثون ، ومحس من يشاهدهم أنهم يتحدثون كأصدقاء ، وأنهم يفهمون بعضهم بعضا : وهذا بالضبط هو ما يعجز السياسيون عن القيام به على الوجه المرضى .

وإنه لأمر طيب أن السياسيين ليسوا هم وحدهم الذين يتحدثون إلى بعضهم بعضا . ولكن ممثلى الشعب العاديين يفعلون ذلك أيضا . وهذا أمر هام للغاية ، وأنا أرحب به . فليلتق المواطنون السوفيت والأمريكيون كثيرا ، وليشكلوا انطباعهم الخاص عن بعضهم بعضا . إن الاتصال ، والاتصال المباشر بين الناس شيء عظيم . وبدونه ، بدون الاتصال الواسع النطاق والتفاهم المتبادل بين الشعوب ، لن تفعل السياسة إلا القليل .

وقد نهت نيكسون إلى حقيقة أن امتلاك بلدنا لترسانة عسكرية رهيبة بما فيها مستودعات الأسلحة النووية هو الواقع الأكثر خطورة في عالم اليوم . وأخبرته إننا إذا بنينا سياستنا حيال بعضنا بعضا ، وحيال بقية العالم على مسلمات خاطئة ، فإن الأمور يمكن أن تصل إلى مداها ، إلى المواجهة المفعمة بأفطع العواقب مأساوية وفجعية بالنسبة للاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة والعالم بأسره .

وأنا اليوم على استعداد لأن أكرر ما قلته في تلك المحادثة : هناك اتجاه راسخ في المجتمع السوفيتى ، وليس في القيادة وحدها ، إلى البحث عن الطرق التى تؤدي إلى تطبيع العلاقات السوفيتية الأمريكية ، وإلى إيجاد وتوسيع مجالات الأرضية المشتركة لكى نصل إلى علاقة ودية في المدى الطويل . وربما يبدو من المبالغ فيه أن نأمل

ذلك في هذه الآونة . ومع ذلك فإننا على قناعة بأن هذا هو الخيار الواجب علينا ،
وإلا فسيكون من المستحيل تصور ما قد نصل إليه .

إما إلى الأفضل وإما إلى الأسوأ . فالسياسة لاتعرف صيغة البين بين . والتاريخ
يصنع دون « بروفات » . ولا يمكن إعادة مشاهدته . وهذا يضاعف كثيرا من أهمية
إدراك مسيرته ودروسه .

الولايات المتحدة : « مدينة متألفة فوق تل »

كثيرا جدا ما واجهنا تصورات مشوهة عن بلادنا وكذلك قوالب متكررة متشعبة
معادية للسوفيت - ولذلك فنحن نعرف جيدا مدى الشر الذي يمكن أن يترتب على
نظرة زائفة - سواء كانت بوعى أو بغير وعى - تنظر إلى الولايات المتحدة من خلال
اللونين الأبيض والأسود فقط .

وأنا أعرف أن الدعاية الأمريكية - أجل الدعاية - تقدم أمريكا على أنها
« المدينة المتألقة فوق تل » . إن أمريكا لها تاريخ عظيم . ومن الذى يشكك في أهمية
الثورة الأمريكية في التقدم الاجتماعى للبشرية ، أو في العبقرية العلمية
التكنولوجية لأمريكا ومنجزاتها في الأدب والهندسة والفن ؟ كل هذا لدى أمريكا .
ولكن لدى أمريكا اليوم كذلك مشاكل حادة اجتماعية وغيرها ، لم يجد المجتمع
الأمريكى جوابا لها بعد . ولكن ، وهذا هو الأسوأ ، إنه يبحث عن حلول لها في
أماكن وبطرق قد تؤدي إلى أن يتعين على الآخرين أن يدفعوا الثمن .

وتمتلك الولايات المتحدة إمكانات انتاجية ضخمة وثروة مادية هائلة ، ولكن
لديها في الوقت نفسه الملايين من التعمساء . وهذا شيء يدعو إلى التفكير والتأمل .
وهذه النوبات الانفعالية شبه التبشيرية التى تنبعث منها ، في حين نجد الإغفال عن
تأمين نفس الحقوق الأولية على أراضيها ، هذا بدوره مما يدعو إلى التفكير .
والحديث لاينتهى عن حرية الإنسان ومحاولات فرض طريقته في الحياة على

الآخرين ، وعن الدعاية الواسعة لعبادة القوة والعنف . فكيف يمكننا فهم ذلك ؟ غطرسة القوة وبخاصة القوة العسكرية ، والزيادة المستمرة في الإنفاق على الأسلحة والعجز في الميزانية ، والدين الداخلي ، والآن أصبح هناك دين خارجي أيضا . من أجل ماذا ؟ وما الذي يدفع الولايات المتحدة إلى ذلك ؟ إننا نسأل أنفسنا كل هذه الأسئلة وأسئلة أخرى غيرها ، في محاولة لأن نفهم الواقع الأمريكي وأن نرى الأسباب الرئيسية التي تكمن خلف سياسة الولايات المتحدة .

واعترف صراحة أن مانعرفه لا يؤيد الفكرة القائلة بأن الولايات المتحدة تشبه « مدينة متألفة فوق تل » . وبنفس التحديد يمكنني أن أقول : إننا لم نعتبر الولايات المتحدة أبدا « إمبراطورية للشر » . فأمريكا في الواقع ، مثلها مثل كافة البلدان ، تلقى بضوئها وبظلالها على السواء . إننا نرى الولايات المتحدة كما هي بالفعل مختلفة في آرائها في داخل المجتمع الأمريكي وعنه على السواء .

والقيادة السوفيتية لا تتصور الولايات المتحدة في بعد واحد فقط ، ولكنها تميز بوضوح بين كل أوجه المجتمع الأمريكي : ملايين العاملين الذين يقومون بعملهم اليومي والمطبوعون بوجه عام على السلام ، والسياسيون الواقعيو التفكير ، والمحافظون ذوو النفوذ ، وجنبا إلى جنب معهم ، مجموعات رجعية لها ارتباطات مع التجمع العسكري الصناعي وتحقق الأرباح من صناعة الأسلحة . وكما نرى اهتماما صحيا وطبيعا بنا ، نرى كذلك نزعة عمياء وواسعة الانتشار معادية للسوفيت ومعادية للشوعية .

ونحن نعتقد أن النظامين السياسى والاجتماعى للولايات المتحدة هما من صميم اختصاص الشعب الأمريكى نفسه . وعليهم أن يقرروا كيف يحكمون بلادهم . وكيف ينتخبون قيادتهم وحكومتهم . ونحن نحترم هذا الحق السيادى . وإذا ما بدأنا نشك في خيار الشعب الأمريكى ، فما الذى يمكن أن يترتب على ذلك ؟ إن السياسة يجب أن تبنى على الحقائق ، وعلى إدراك حقيقة أن كل بلد له الحق في أن يختار

طريقته في الحياة ، ونظامه الخاص وحكومته بشكل مستقل .

والولايات المتحدة دولة يتعين علينا أن نتعايش معها ونقيم معها علاقات . وهذه حقيقة . وبغض النظر عن كل الطبيعة المتناقضة لعلاقتنا ، فمن الواضح أننا بدون الولايات المتحدة لانستطيع أن نفعل شيئاً لتأمين السلام . وكذلك بدوننا لن نحقق الولايات المتحدة شيئاً . فلا مناص لكل منا عن الآخر . فالحاجة ماسة إلى الاتصال والحوار . ويتعين علينا أن نبحث عن طرق لتحسين علاقتنا .

ونحن نعرف وندرك جيداً أن الولايات المتحدة لديها إدارة - هي البيت الأبيض - ولديها الكونجرس . ونحن نريد أن نتعاون مع كل من الإدارة والكونجرس . ونحن الآن نعمل على توسيع قدراتنا على فهم العملية السياسية الأمريكية . ونرى ، على وجه الخصوص ، الاختلاف في الآراء بين وزير الدفاع ، وهو مدني ، والعسكريين المحترفين في الولايات المتحدة . فبالنسبة للأول ، فإن الأعمال الاقتصادية وطلبات الأسلحة تعني الشيء الكثير ، بينما يدرك المحترفون الواقعيون جيداً ما يملكونه في أيديهم وما الذي يمكن أن يجلبه على العالم . ويشهد مثل هذا الإدراك بما يبديه العسكريون من إحساس بالواقعية والمسئولية ، ومن المهم للغاية أن يفهم العسكريون الوضع الحالي على نحو صحيح .

ودعوني أضيف أننا لاننوي تشكيل علاقتنا وفقاً للوضع السياسي داخل الولايات المتحدة . فالجمهوريون اليوم يقعون في السلطة في الولايات المتحدة ، وغدا سيكون الديمقراطيون أو الجمهوريون مرة أخرى . وليس هناك اختلاف متميز . ولكن هناك مصالح الولايات المتحدة كدولة وهي التي يجب أخذها في الاعتبار . وسنحتفظ بالعلاقات مع الإدارة التي تكون قائمة في السلطة . ولتبقى الشؤون الأمريكية أمريكية ، وكذلك شئوننا هي ملك لنا . وهذا هو موقفنا المبدئي .

« صورة العدو »

نحن ، بالتأكيد ، لسنا في حاجة إلى أن نرى أمريكا في « صورة عدو » ، لا بالنسبة لمصالح سياستنا الداخلية أو بالنسبة لمصالح سياستنا الخارجية . والمرة في حاجة إلى عدو وهمي أو حقيقي ، فقط عندما يكون مصرا على المحافظة على التوتر وعلى المواجهة بعواقبها البعيدة المدى ، بل أضيف ، والتي لا يمكن التكهن بها . وتوجهاتنا مختلفة تماما .

ومن جانبنا لا توجد لدى الاتحاد السوفيتي دعاية للكراهية ضد الأمريكيين أو الاستخفاف بأمريكا . لن تجد ذلك في أى موقع في بلادنا ، لا في السياسة ولا في التعليم . إننا ننتقد السياسة التي لانوافق عليها . ولكن هذا أمر مختلف ، وهو لا يعنى أننا نبدي أى عدم احترام للشعب الأمريكى .

وفي صيف ١٩٨٧ التقيت بمجموعة من الأمريكيين يعلّمون اللغة الروسية في الولايات المتحدة ، وقد تلقوا منهاجا تدريبييا لمدة شهرين في ليننجراد . ودارت معهم مناقشة طيبة - صريحة ودافئة . وسأورد هنا مقتطفا موجزا من المحضر الحرفى لها :
ميخائيل جورباتشوف : هل قابلتم ولو حالة واحدة لموقف عدم احترام تجاه الأمريكيين خلال إقامتكم ؟ .

د . بادولا : كلا رغم أن رجلا سألنى في الشارع ذات مرة ، متى سيكون هناك سلام ؟ فقلت له أتمنى أن يأتى السلام قريبا .

ميخائيل جورباتشوف : هذه معلومة هامة للغاية . وأنا على قناعة ، أيها الاصدقاء ، بأنكم حينما توجهتم في الاتحاد السوفيتى ، فلن تقابلوا موقف عدم احترام حيال الأمريكيين . في أى مكان . وبإمكانكم أن تقرأوا صحافتنا كذلك . وستجدون بها انتقادات ، وتحليلات وأحكاما وتقييمات لسياسة الحكومة ، وللبيانات والأعمال الصادرة عن مجموعات خاصة . ولكنكم لن تجدوا قط ما ينم

عن عدم احترام لأمريكا والأمريكيين .. ومن ثم إذا كان «الحر قادمون» ، فهم قادمون معكم على الطريق المشترك للبشرية .

ومع ذلك فإن بعض الناس في الولايات المتحدة ، فيما يبدو ، «يحتاجون» إلى الاتحاد السوفيتي في «صورة عدو» . وإلا تعذر علينا فهم بعض الأفلام ، والإذاعات الأمريكية الملتبة من ميونيخ ، وفيض المقالات والبرامج المليئة بالإهانات والكراهية تجاه الشعب السوفيتي . ويعود كل ذلك إلى الأربعينيات ، إن لم يكن قبل ذلك .

ولن أضفي المثالية على كل خطوة في السياسة الخارجية السوفيتية طوال العقود العديدة الماضية . لقد حدثت أخطاء أيضا . ولكنها كانت في الغالب نتيجة لرد فعل قصير النظر تجاه الأعمال الأمريكية ، تجاه سياسة يوجهها مهندسو «دفع الشيوعية إلى الخلف» .

ونحن حساسون ، وبصراحة حذرون تجاه الجهود التي تبذل لإعطاء الاتحاد السوفيتي صورة العدو ، لاسيما عندما لا تقتصر على مجرد ممارسات أيديولوجية على نمط القصص الخيالية المعتادة عن «الخطر العسكري السوفيتي» و«يد موسكو» و«مخططات الكرملين» والتصور السلبي تماما لشئوننا الداخلية . وأنا لا أريد حتى أن أشير إلى سخف مثل هذه المزاعم ، ولكننا لا نستطيع في الوقت نفسه تجاهل حقيقة أن كل شيء في السياسة له هدفه الخاص . وهكذا فإنها مسألة ممارسة سياسية تكمن خلفها نوايا ومخططات معينة . فينبغي علينا أن نتخلص من أي وجود للشوفينية «التعصب القومي» في بلدنا ، ولاسيما إذا وضعنا في الاعتبار القوة التي يمتلكها كل منا . والشوفينية يمكن أن تدخل إلى السياسة عناصر لا يمكن السماح بها .

إنها حقيقة مأساوية ومؤسفة أن العلاقات السوفيتية الأمريكية كانت تتدهور منذ فترة طويلة . لقد أخلت فترات التحسن القصيرة مكانها لفترات طويلة من التوتر وتصاعد العداء . وأنا على قناعة بأن الفرص المتاحة لتصحيح الوضع ، ويبدو أن

الأمور تتحرك في هذا الاتجاه . ونحن على استعداد لفعل كل ما من شأنه أن يحدث تغييرات نحو الأفضل .

من يحتاج إلى سباق التسلح ولماذا ؟

إذا تأملنا في مسألة ما الذى يقف في طريق علاقات سوفيتية أمريكية طيبة ، نخلص إلى استنتاج ، أنه في الغالب سباق التسلح . لست أريد وصف تاريخه . وسمحوا لي فقط أن أشير مرة أخرى إلى أن الاتحاد السوفيتي كان هو الطرف الذى يحاول اللحاق بالطرف الآخر في كل هذا السباق تقريبا . ومع بداية السبعينيات كنا قد وصلنا ، على وجه تقريبي ، إلى تعادل عسكري استراتيجي ، ولكن عند مستوى مربع حقا . وكل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الآن ، لديه القدرة على تدمير الآخر عدة مرات .

وقد يبدو ومن المنطقي في مواجهة التورط الاستراتيجي أن نوقف سباق التسلح ونتجه إلى نزع السلاح . ولكن الواقع مختلف . فستودعات الأسلحة ، التي تفيض بالفعل ، لا تزال تملأ بأنواع من الأسلحة ، جديدة ومعقدة ، كما يجري تطوير مجالات جديدة من التكنولوجيا العسكرية . والولايات المتحدة هي التي تحدد الإيقاع في هذا المسعى الخطر ، إن لم يكن المدمر .

ولا أفشى سرا إذا ما قلت لكم إن الاتحاد السوفيتي يفعل كل ما يلزم لكي تظل دفاعاته على أحدث مستوى ويعول عليها . وهذا هو واجبنا نحو شعبنا وحلفائنا . وفي الوقت نفسه أود أن أقول بكل التحديد إن هذا ليس خيارنا . لقد فرض علينا .

وتنشر كافة أنواع الشكوك بين الأمريكيين حول النوايا السوفيتية في مجال نزع السلاح . بيد أن التاريخ يوضح استطاعتنا المحافظة على الكلمة التي قطعناها على أنفسنا ، وأنا نحترم التعهدات التي نأخذها على عاتقنا . ولسوء الحظ ، لا يمكن أن يقال ذلك بالنسبة للولايات المتحدة . فالإدارة تقوم بتكييف الرأي العام ، وتخيفه

من الخطر السوفيتي ، وهى تفعل ذلك بعناد خاص عندما تكون هناك ميزانية عسكرية جديدة فى طريقها إلى الكونجرس للتصديق عليها . وعلينا أن نسأل أنفسنا لماذا يحدث كل ذلك وما هو الهدف الذى ترمى إليه الولايات المتحدة .

وإنه لنى وضوح البلور أنه فى العالم الذى نعيش فيه ، عالم الأسلحة النووية ستكون أى محاولة لاستخدام هذه الأسلحة النووية فى حل المشاكل السوفيتية الأمريكية ، إنما تعنى الانتحار . هذه حقيقة لست أعتقد أن السياسة الأمريكين غافلون عنها . فضلا عن ذلك ، فقد نشأ الآن وضع متناقض حقيقة . فحتى لو أنهمك أحد البلدين فى تعزيز الأسلحة باطراد بينما لم يفعل الآخر شيئا ، فإن الجانب الذى يسلح نفسه لن يكسب مع ذلك شيئا . فقد يفجر الجانب الأضعف ببساطة كل شحناته النووية ، ولو فوق أراضيه ، وهذا يعنى الانتحار بالنسبة له والموت البطيء بالنسبة للعدو . ولهذا السبب فإن أى مسعى للتفوق العسكرى يعنى أن يدور المرء فى حلقة مفرغة . ولا يمكن استخدام ذلك فى السياسة الواقعية .

كما أن الولايات المتحدة ليست فى عجلة لأن تتخلى عن وهم آخر ، وأعنى به عزمها غير الأخلاقى على استنزاف الاتحاد السوفيتى حتى آخر قطرة اقتصاديا ، والحيلولة بيننا وبين تنفيذ خططنا فى البناء بجراً أكثر فأكثر إلى هاوية سباق التسلح .

وأطلب من القارئ أن يلقى نظرة على خبرة سنوات ما بعد الحرب . لقد خرج الاتحاد السوفيتى من الحرب العالمية الثانية فى وضع صعب للغاية . نعم ، لقد كسبنا الصراع ضد الفاشية ، وانتصرنا جنبا إلى جنب مع الولايات المتحدة وغيرها من الدول التى شاركت فى التحالف المعادى لهتلر . ولكن بينما لم تلق قبلة واحدة للعدو ، أو تسمع طلقة واحدة للعدو فى أراضى الولايات المتحدة القارية ، كان جزء كبير من أراضينا مسرحا لأشرس المعارك . وكانت خسائرننا - البشرية والمادية على السواء - هائلة ومع ذلك ، نجحنا فى استعادة ما تم تدميره ، وفى بناء امكانياتنا الاقتصادية ، وفى التصدى بثقة لمهامنا الدفاعية . ألا يعتبر ذلك درساً للمستقبل !

ومن غير المسموح به أن تقيم الدول سياستها على تصورات خاطئة . ونحن نعرف أن هناك رأيا شائعا في الولايات المتحدة والغرب بشكل عام يقول بأن الخطر القادم من الاتحاد السوفيتي ليس مرده إلى أنه يمتلك أسلحة نووية ، وهم هناك يفكرون على النحو التالي ، كما سبق أن ذكرت في مناسبة أخرى : إن السوفيت يعرفون جيدا أنهم إذا ما هاجموا الولايات المتحدة ، فإنهم لن يفلتوا من الانتقام . وتذكر الولايات المتحدة بالمثل تماما أن الانتقام سيعقب أى هجوم على الاتحاد السوفيتي . ولذلك فإنه لا يمكن أن يشعل حربا نووية إلا شخص مجنون . إن التهديد الحقيقي ، وفقا لهؤلاء الناس ، سينشأ إذا ما حقق الاتحاد السوفيتي خططه للإسراع في التنمية الاجتماعية والاقتصادية وأظهر إمكانياته الاقتصادية والسياسية الجديدة . ومن ثم كانت الرغبة في استتراف الاتحاد السوفيتي اقتصاديا .

ونحن ننصح الأمريكيين بإخلاص : حاولوا أن تتخلصوا من مثل هذا الموقف حيال بلادنا . إن الآمال في استخدام أى ميزات في التكنولوجيا أو المعدات المتقدمة لتحقيق تفوق على بلادنا هي آمال خائبة ولا طائل من ورائها . إن التصرف على أساس الافتراض بأن الاتحاد السوفيتي في «وضع ميثوس منه» وبأنه من الضروري الضغط عليه فقط ولكن بدرجة أشد ، لاعتصار كل ماتريده الولايات المتحدة ، هو خطأ عميق . ولن تجدى هذه المخططات شيئا . ففي السياسات الحقة لا يقبل الاعتقاد بصحة شيء لمجرد الرغبة فيه وتمنيه . وإذا كان الاتحاد السوفيتي - عندما كان أضعف كثيرا من الآن - قد مكنه الوضع الذي كان فيه من التصدي لكافة التحديات التي واجهته ، فإنه ليس إلا الأعمى الذي يعجز عن رؤية أن قدراتنا ، على الاحتفاظ بدفاعات قوية ، وفي الوقت نفسه على حل مهامنا الاجتماعية وغيرها ، قد تزايدت بدرجة هائلة .

وسأكرر فيما يتعلق بسياسة الولايات المتحدة الخارجية ، أنها تركز على الأقل على وهمين . أولهما هو الاعتقاد بأن النظام الاقتصادي للاتحاد السوفيتي على وشك الانهيار وأن الاتحاد السوفيتي لن ينجح في إعادة البناء . والثاني وهو الأهم يتم

حسابه على أساس تفوق الغرب فى المعدات والتكنولوجيا ، ثم فى نهاية الأمر فى المجال العسكرى . وهذان الوهمان يغذيان سياسة موجهة نحو استنزاف الاشتراكية من خلال سباق التسلح ، بهدف إملاء الشروط فيما بعد . ذلك هو المخطط ، وإنه حقا لمخطط ساذج .

إن السياسة الغربية الحالية ليست سياسة مسئولة بالقدر الكافى ، وتفتقر إلى أسلوب التفكير الجديد . وأعلن ذلك بصراحة . وإذا لم نتوقف الآن ونبدأ نزع السلاح بشكل عملى ، فقد نجد أنفسنا جميعا على شفا كارثة . واليوم يحتاج الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، كما لم يحدث من قبل ، إلى سياسة مسئولة . ولدى كل من البلدين مشاكله السياسية والاجتماعية والاقتصادية : مجال واسع للنشاط . وفى هذه الأثناء تعمل هيئات كثيرة من الخبراء على وضع خطط استراتيجية وتلاعب بملايين الأرواح وتتمخض توصياتهم عما يلى : الاتحاد السوفيتى هو التهديد الرهيب الأكبر للولايات المتحدة والعالم . وأكرر : لقد حان الوقت للتخلى عن عقلية إنسان الكهف هذه . وبطبيعة الحال فقد تورط الكثيرون من الزعماء السياسيين والدبلوماسيين ، تحديدا ، فى سياسات من هذا القبيل تقوم على مثل هذه العقلية لعدة عقود . لكن زمانهم قد انقضى . ويتحتم نظرة جديدة للعصر النووى . وتحتاج الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى للغاية إلى هذه النظرة الجديدة فى علاقاتهما الثنائية .

إننا واقعون . ولذلك فنحن نضع فى الاعتبار حقيقة أنه فى السياسة الخارجية تكون لجميع البلاد ، حتى أصغرها ، مصالحها الخاصة . ولقد آن الأوان لتدرك الدول العظمى أنه لم يعد باستطاعتها إعادة تشكيل العالم وفقا لأنماطها الخاصة . إن هذا العصر قد تراجع ، أو هو على الأقل يتراجع إلى الماضى .

مزید حول الوقائع : إزالة الحدة الأيولوجية من العلاقات بين الدول

كان ينبغي أن تكون لنا منذ فترة طويلة رؤية واقعية للعالم حولنا ولماضيها . وكان ينبغي أن نرى دون خوف أين نحن . فعندما يرى بلد ما بلدا آخر على أنه « الشر مجسداً » ، ويرى نفسه على أنه التجسيد « للخير المطلق » ، تكون العلاقات بينهما قد وصلت إلى طريق مسدود . وأنا لا أفكر هنا في الكلام المنمق المعادى للشيوعية ، مهما كان أثره وضرره ، وإنما أفكر في العجز ، أو العزوف عن إدراك أننا جميعا نمثل جنسا بشريا واحدا ، وأنا نشارك في مصير واحد وعلينا أن نتعلم أن نكون جيرانا متحضرين فوق كوكبنا . لقد ورثت أجيال اليوم من الماضي المواجهة السوفيتية الأمريكية . ولكن هل قدر علينا أن نستمر في العداوة ؟ .

ونحن على وجه الاجمال ، قد عشنا طويلا في سلام . ولكن الوضع الدولي الحالي لا يمكن وصفه بأنه مرض . فسباق التسلح ، لاسيما سباق التسلح النووي ، يتواصل والتزاعات الإقليمية تستمر . وخطر الحرب يزداد . والمخرج الوحيد هو جعل العلاقات الدولية أكثر إنسانية . وهذه مهمة صعبة ونرى طرح المسألة بالكيفية التالية : من الجوهرى أن نرتفع فوق الخلافات الأيديولوجية . وليقرر كل منا خياره الخاص ، ولنحترم جميعا هذا الخيار . ومن أجل ذلك فهناك ضرورة لأسلوب جديد في التفكير السياسى ، أسلوب ينطلق من إدراك الاعتماد المتبادل العام ومن فكرة أن الحضارة يجب أن تبقى . وإذا ما توصلنا إلى تفاهم حول معايير مثل هذا التفكير الجديد ، فسوف نصل إلى قرارات صحيحة للقضايا العالمية . وإذا ما أدرك الزعماء السياسيون هذه النقطة ونفذوها عمليا ، فسيكون ذلك انتصارا هاما للعقل .

وعندما نتحدث عن تحسين الوضع العالمى ، فإننا نخص معيارين لسياسة خارجية واقعية وهما : وضع اعتبار للمصالح الوطنية الخاصة واحترام مصالح

البلدان الأخرى . وهذا الموقف سليم ومعقول ، ويتعين الدفاع عنه بدأب . هكذا نفكر على هذا النحو وهكذا نتصرف وفقا له .

الاغتراب شر

غالبا ما نسمع أن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة باستطاعة كل منهما أن تعمل دون الأخرى . وللحقيقة ، فإنني أقول ذلك أيضا في بعض الأحيان . حسنا ، إن ذلك صحيح من وجهة النظر الاقتصادية ، وإذا ما أخذنا في الاعتبار علاقاتنا الاقتصادية المحددة للغاية اليوم . وسواء كانت هناك علاقات أم لا ، فإننا نعيش ، ونتعلم الدروس التي يلقننا إياها الأمريكيون .

لقد كانت وارداتنا من حبوب العلف مسألة حساسة . وقد تأمن وضعنا الآن بتوقيع عقود استيراد مع عديد من البلدان ، وتطبيق تكنولوجيات زراعية مكثفة لزيادة انتاج الحبوب في الداخل . ومهمتنا الحالية هي أن نبدأ في تصدير الحبوب في المستقبل القريب .

لقد أنشأ الغرب لجنة التنسيق الخاصة بالضوابط على الصادرات الثنائية المتعددة (كوكوم) . وتقف الولايات المتحدة موقف الحذر واليقظة من انتهاك قيودها وللتأكد من أن قوائم السلع غير المسموح ببيعها للاتحاد السوفيتي تتسع ، ولا تتردد أمريكا في التدخل في الشؤون الداخلية للمشاركين في تدابير الحظر .

وقد رد الاتحاد السوفيتي على الفور بوضع برنامج مقابل ، يسمى « البرنامج ١٠٠ » لأنه يتضمن مائة صنف من المواد . وقد انجزناه في أقل من ثلاث سنوات . وحوالى ٩٠٪ من المواد التي نستخدمها مصنوعة محليا . وهكذا يمكننا القول أننا نجحنا في التغلب على المشكلة في الأساس .

وقلنا صراحة أنه قد حان الوقت للتغلب على مركب النقص لدينا . إن بلادنا بلاد شاسعة ذات موارد هائلة وامكانيات علمية ضخمة . وشركاؤنا الرأسماليون في

الخارج لا يعول عليهم على الدوام ويستخدمون التجارة أحيانا للابتزاز السياسي والتخويف . وقد بدأت التدابير التي اتخذناها تعطى ثمارها بالفعل . وحققنا تطورات رائدة في تكنولوجيا الحاسبات والحاسبات المعقدة ، والموصلات الفائقة وغيرها من المجالات . وتأمل الولايات المتحدة في أنها ستقود العالم على الدوام : أمل لا طائل منه ، كما يدرك الكثير من العلماء الأمريكيين .

لقد اغترب بلدانا كل عن الآخر لسنوات ، وفقد كل من الاقتصاد السوفيتي والأمريكي فرصا رائعة عديدة ، وعجزنا عن أن نفعل كثيرا من الأشياء الطيبة معا بسبب الشك وافتقار الثقة . إن الإغتراب شر . وإلى جانب ذلك ، فإن العلاقات الاقتصادية توفر الأساس المادي للتقارب السياسي . كما أنها تخلق مصالح متبادلة تساعد في السياسة ، وإذا ما عززنا علاقاتنا التجارية والاقتصادية وواصلنا العملية الثقافية التي تجرى حاليا ، حتى وإن تكن أبطأ مما نود ، فسنكون قادرين على بناء الثقة بين بلدينا . ولكن الولايات المتحدة وضعت حواجز عديدة في المجال الاقتصادي .

إننا مازلنا نستورد الحبوب - وحتى وإن يكن من أجل الإبقاء على التجارة . وإلا فقد تموت . ولكننا قد لا نحتاج قريبا إلى واردات حبوب على الإطلاق كما سبق أن قلت . والتجارة السوفيتية الأمريكية في السلع الأخرى غير قائمة عمليا . وبمجرد أن دخلت بعض السلع السوفيتية السوق الأمريكي ، شرعت الولايات المتحدة ، بقلق ، في اتخاذ تدابير لحظر التجارة أو على الأقل للحد منها . وهناك اجراءات وقوانين وخبرة في أمريكا تحول دون تنمية التجارة مع الاتحاد السوفيتي .

إن باستطاعة أمريكا أن تدبر أمورها بدون الاتحاد السوفيتي ، ونحن أيضا نستطيع أن ندبر أمورنا بدون أمريكا ، مادامت التجارة مستمرة . ولكن بمجرد التفكير في مدى اعتماد العالم على بلدينا وعلى التفاهم بيننا ، ندرك على الفور ضرورة تنمية تفاهمنا المتبادل . ومن ثم ، يجب أن تنمو تجارتنا بدورها . وهذا أمر طبيعي تماما ، بل ومفيد .

ولكن هناك دوائر معينة في الولايات المتحدة ليست مستعدة للتقارب ، ولا تبدى أية رغبة في التفاهم . إنها تفتقر إلى القدرة على الانفتاح . « فإذا كان هناك شيء يمكن الحصول عليه من الاتحاد السوفيتي فأمريكا على استعداد . ولكن عندما يتعلق الأمر بربح متبادل فعلى أن ننساه » .

وثمة شيء يتوقف على الاتحاد السوفيتي بدوره وهو شيء كبير في الحقيقة . فنحن قد نكون تجارا سيئين . أو قد نحقق في بذل الجهد اللازم لأننا نستطيع تدبير أمورنا بدون التجارة . وعلى الجانبين أن يعملوا من أجل إزالة العقبات .

وهذا هو النهج الصحيح من مسألة الثقة . والتعاويد لا تصلح في هذا المجال . فالثقة تأتي نتيجة للإجراءات العملية ، بما في ذلك الجهود المشتركة لتنمية الروابط التجارية ، والاقتصادية ، والعلمية ، والتكنولوجية ، والثقافية وغيرها . وعلى كلا الجانبين أن يعملوا من أجل وقف سباق التسلح والانتقال إلى نزع السلاح . وإذا ما عملنا معا من أجل تسوية النزاعات الإقليمية ، فسوف نكسب الثقة المتبادلة أيضا .

وعندما أسمع أن علينا أن نرعى الثقة ، وأن المشاكل الأساسية سوف تحل فيما بعد ، يتعذر عليّ فهم ذلك ، إذ يبدو ذلك أشبه بعذر كسيح . هل الثقة هبة من السماء ؟ أو هل تنشأ من نفسها إذا ما أخذ الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة يكرران أنها يؤيدان الثقة ، إنها لا شيء من هذا القبيل . فإقامة الثقة عملية طويلة ، وتتوقف درجتها على الدوام على العلاقات العملية وعلى التعاون في مجالات عديدة .

وعلى أن نشرع في معرفة كل منا للآخر بدرجة أفضل إذا ما أردنا أن نتجنب الأحداث التي تحمل الكوارث في طياتها . وأكرر مرة أخرى إن العوامل الاقتصادية ليست هي وحدها التي تحفزنا على التعاون . فالأهداف السياسية هنا أكثر أهمية من الأهداف الاقتصادية . ويجب أن نضع دائما نصب أعيننا هدفنا الرئيسي وهو المتمثل في تطبيع العلاقات السوفيتية الأمريكية . وينبغي أن نتذكره مهما بدا بعيداً ، ومهما

كان طريقنا إليه قائما نتيجة عوامل داخلية ودولية .

والناس ذوو العقلية الواقعية في أمريكا وفي كل بلد آخر يريدون التعاون وليس المواجهة . وتبين المعلومات والاتصالات الشخصية أن هذه هي الحال . ويرحب هؤلاء الناس بواقعية السياسة السوفيتية ، ويعلقون عليها آمالا كبار . وأنا ألتقي بكثير من رجال الأعمال ، وأرى أنهم يفكرون من زاوية الحالة العامة ، رغم أنهم لا ينسون أبدا مصالح أعمالهم . ويسرني على الدوام أن ألتقي بالدكتور أرماند هامر . إنه يفعل الكثير من أجل تعزيز التفاهم والصلات الودية بين بلدينا . وقد سمعت أخيرا عن السيد برونتمان ، وهو أحد أغنى المواطنين في أمريكا ، يقترح نجبا في صحة جورباتشوف ويقول لزميله ، « لقد حصلت على كل ما أستطيع أن أحصل عليه ماديا في الحياة ، ولكن ما يهم الآن هو مستقبل البشرية . وإذا ما استمرت التنمية في الاتحاد السوفيتي . فسيكون باستطاعته المحافظة على توازن القوى ، وبالتالي سيكون هناك سوق وسلام » .

إن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة هما بلاشك دولتان قويتان لهما مصالح ضخمة . ولكل منهما حلفاؤه وأصدقاؤه . ولدينا - كلينا - أولوياتنا في السياسة الخارجية ، ولكن ذلك لا يعنى بالضرورة أننا لابد أن ننتهى إلى المواجهة . فمن المنطقي بدرجة أكبر أن نتوصل إلى نتيجة مختلفة - إن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة مسئولان بشكل خاص عن مستقبل العالم .

إن الجانب الأكبر من الأسلحة النووية يتركز لدى الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة . وفي الوقت نفسه فإن عشرة في المائة أو حتى واحدا في المائة من إمكانياتها كاف لانزال أضرار لا يمكن إصلاحها بكوكبنا وبكل الحضارة البشرية .

وتتضمن وجهة النظر هذه ، أيضا ، أننا والأمريكيين نتحمل أكبر مسئولية تجاه شعوب العالم . إن بلدينا وشعبينا ، وساستهم ، يتحملون مسئولية خاصة فريدة تجاه كل الحضارة البشرية . لقد كان الشعب الأمريكي من القوة بما سمح له بأن يبنى

أمريكا كما هي عليه الآن . وبرهن الاتحاد السوفيتي على أنه من القوة بالدرجة التي جعلت من بلد كان ذات يوم متخلفا ، قوة متقدمة . واليوم ، ورغم كل الصعوبات ، التي عاينناها خلال تاريخنا الصعب ، أصبح الاتحاد السوفيتي دولة متقدمة جبارة وبلدا جيد التعليم ذا إمكانيات فكرية ضخمة . ولذا أعتقد أننا والأمريكيين ، بمنجزاتنا ، سيكون لدينا من الحكمة ، والمقدرة ، والمسئولية ، واحترام كل منا للآخر ما يلزم لنسك بالواقع بين قبضتينا ونتجنب الكارثة .

ونحن نعي تماما جبال المشاكل التي تراكمت بين بلدينا . ومن المستحيل أن نتمكن سريعا من مناقشة وتسوية المشاكل التي تراكمت على مر السنين . وسيكون من قبيل الوهم أو الحلم الزائف أن نفكر بغير ذلك . والشئ الأكثر أهمية في العلاقات السوفيتية الأمريكية هو عدم الجري وراء الخرافات ، وإنما رؤية الأشياء كما هي بالحالة التي هي عليها . إننا ننظر إلى العالم ، بما فيه الولايات المتحدة ، من موقع السياسة الواقعية . وننطلق من حقيقة أساسية تتمثل في أن كلا من الشعبين الأمريكي والسوفيتي لا يريد الدمار الذاتي . ونحن اقتناعا منا بذلك ، بدأنا السير في طريق مكرس لتحسين العلاقات مع الولايات المتحدة ، ونتوقع منها المعاملة بالمثل .

على الطريق إلى جنيف

خلال « استعراض ومراجعة » مستفيضة لشئوننا الداخلية وللوضع الدولي بعد اجتماع أبريل ١٩٨٥ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي خلصت القيادة السوفيتية إلى استنتاج بأن الوضع في العالم بالغ الخطورة لدرجة لا تسمح بأن تفلت من أيدينا أدنى فرصة لتحسينه والتوصل إلى سلم أكثر دواما .

وقررنا أن نحاول عن طريق الإقناع وضرب المثال وإظهار الحصافة أن نعكس مجرى الأحداث الخطير . وأقنعنا خطورة الوضع بأن لقاءاتي الشخصية مع رئيس الولايات المتحدة ضرورية ، حتى وإن يكن فقط من أجل تبادل عميق للآراء وتفهم أفضل لكل منا لمواقف الآخر .

وبدأنا ، قبل اللقاء بعدة شهور ، نمهّد الطريق بخلق مناخ أكثر مواتاة . وفي صيف ١٩٨٥ أعلن الاتحاد السوفيتي من جانب واحد وقف جميع التفجيرات النووية ، وأعرب عن استعداده لأن يستأنف على الفور المفاوضات من أجل معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية . كما أكدنا من جديد قرارنا بوقف التجارب على الأسلحة المضادة للأقمار الصناعية من جانب واحد وتقديمنا باقتراح جذري لتخفيض الترسانات النووية . ودعّمنا اقتناعنا القوي بأن سباق التسلح يجب ألا ينتشر في الفضاء ، باقتراح بشأن تعاون دولي واسع في استكشاف الفضاء واستخدامه سلميا .

وعشية لقاء جنيف ، أعلنت دول معاهدة وارسو في اجتماع لجنّتها الاستشارية السياسية في صوفيا أنها عاقدة العزم على مواصلة العمل من أجل السلام ، والانفراج ، وضد سباق التسلح والمواجهة ، ومن أجل تحسين الوضع الدولي لصالح كل بلدان العالم .

جنيف

إن كل تفاصيل لقاء جنيف حية في ذاكرتي . فخلال يومين حافلين أجريت عدة مناقشات منفردة مع الرئيس ريغان . وعقدت خمسا من تلك اللقاءات على وجه الدقة ، دون حساب لقائنا لدقيقتين لنودع بعضنا البعض .

وكما سبق أن قلت ، كانت مناقشاتنا صريحة ، وطويلة ، وحادة ، بل وحادة للغاية في بعض الأحيان . ورأينا أن لدينا ما أعتقد أنه نقطة انطلاق للعمل من أجل علاقات سوفيتية أمريكية أفضل . وتتمثل هذه النقطة في إدراك أن الحرب لا يمكن كسبها ، ويجب عدم خوضها قط .

وقد أعرب عن هذا الرأي مرارا الجانب السوفيتي . وكذلك الجانب الأمريكي . وهذا يعني أن المسألة المركزية في العلاقات بين بلدينا اليوم هي الأمن . وقلت للرئيس إن علينا أن نفكر في طرق لتحسين العلاقات الثنائية لصالح الشعبين السوفيتي

والأمريكي ثم نحاول أن نجعل هذه العلاقات ودية ، واضعين في الاعتبار أن بلدنا ليس فقط مختلفين ، وإنما هما أيضا مرتبطان . وذلك لأن البديل هو الدمار الشامل .

وانطلاقا من وجهة النظر هذه تحدثنا عن الحاجة لاتخاذ اجراءات لتجنب سباق التسلح في الفضاء ووقفه على الأرض ، وتحدثنا كذلك عن أهمية المحافظة على التوازن الاستراتيجي وخفض مستواه . ومن هذا الموقع ناقشنا كذلك العالم الخارجي ، الذي يتكون من مجموعة متعددة الأوجه من الشعوب ، لكل منها مصالحه الخاصة ، وتطلعاته ، وسياسته ، وتقاليده وأحلامه . وتحدثنا عن الرغبة الطبيعية لكل شعب في ممارسة حقوق السيادة في المجال السياسي وفي المجالين الاقتصادي والاجتماعي كذلك . ولكل بلد الحق في اختيار طريق تطوره الخاص ، ونظامه ، وأصدقائه . وإذا لم نعترف بذلك ، فلن نكون أبدا قادرين على تنظيم علاقات دولية طبيعية .

وفي بعض المسائل اتفق معي الرئيس ، ولكننا لم نستطع أن نتوصل إلى اتفاق حول عديد من الأمور . وبقيت خلافاتنا الرئيسية حول المبدأ . وعجزنا في جنيف أن نتوصل إلى حل للمشكلة الأساسية المتعلقة بوقف سباق التسلح وتدعيم السلام .

ومع ذلك ، فحتى في ذلك الحين ، في خريف ١٩٨٥ ، كنت أعتقد ، كما لا أزال ، أن اللقاء كان ضروريا ومفيدا . ففي أصعب فترات التاريخ نحتاج إلى لحظات صدق حاجتنا إلى الهواء . لقد جعل سباق التسلح الوضع الدولي مقلقا للغاية وكم من لغو قيل حول هذا الموضوع . وقد جاء الوقت لتبديد هذه السحب واختبار الأقوال بالأفعال . وليس هناك ما يؤدي إلى ذلك أفضل من المناقشة الشخصية ، وهذا ما تهدف إليه لقاءات القمة . ففي الحوار المباشر لا يمكنك أن تختبئ من الحقيقة .

وفي جنيف توصلنا إلى تعرف كل منا على الآخر بصورة أفضل ، ورأينا بوضوح طبيعة خلافاتنا ، وبدأنا الحوار . ووقعنا اتفاقا حول التبادل الثقافي الذي يجري

بالفعل لمصلحتنا المتبادلة . وأدركنا أنه مايزال أمامنا طريق طويل لكى نصل إلى تفاهم متبادل مرضى وأن علينا أن نعمل بمثابة فعلا لكى نحقق تغيرا نحو الأفضل فى العلاقات السوفيتية الأمريكية وفى العالم بوجه عام .

بعد جنيف

فماذا حدث بعد جنيف ؟ كنا نعرف دائما أن لا شىء يتغير من تلقاء نفسه وأن هناك حاجة إلى قدر كبير من المبادرة لمواصلة ماتم تحقيقه . إن الاتفاقيات الملزمة التى وقعت فى جنيف والتى تعهد فيها كل من الطرفين بأن الحرب النووية يجب ألا تبدأ أبدا ، وبألا يسعى أى طرف للتوصل إلى تفوق عسكرى ، وبضرورة الاسراع فى مفاوضات جنيف ، كان لابد من ترجمتها إلى خطوات عملية . وقد قمنا بمثل هذه الخطوات .

الوقف المؤقت للتجارب النووية (الموراثوريوم)

فى أول يناير ١٩٨٦ انتهت فترة الوقف المؤقت من جانب واحد للتفجيرات النووية . ولكن الاتحاد السوفيتى قام بتمديده . ولقد كان قرارا خطيرا للغاية تضمن بعض المخاطر بالنسبة لنا ، لأن التقدم فى تكنولوجيا الفضاء كان مستمرا ، وجرى تطوير أنماط جديدة من الأسلحة النووية مثل سلاح الليزر الحامل لجرعات نووية . ومع ذلك كانت لدينا الشجاعة لأن نقوم بما قمنا به وأن ندعو الولايات المتحدة لأن تسير فى إثرنا من أجل مصلحة السلام العالمى .

إن حظر التجارب النووية يعتبر بمثابة محك . وإذا ما كنت ترغب بإخلاص فى إزالة الأسلحة النووية ، فسوف توافق على حظر التجارب لأن مثل هذا الحظر سيؤدى إلى تخفيض الترسانات القائمة وإلى وضع حد لتحديثها . وإذا لم تكن تريد لذلك أن يحدث ، فستبذل كل ما فى وسعك من أجل ضمان استمرار التجارب . إن حظر التجارب النووية إجراء سيؤدى على الفور إلى إدخال عنصر جديد

مشجع في العلاقات السوفيتية الأمريكية والوضع الدولي بكامله . والأساس الطيب لتنفيذ هذا الإجراء موجود . فالاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة كلاهما من بين الموقعين على معاهدة حظر التجارب النووية في البيئات الثلاث. كما توصلنا إلى اتفاق حول الحد من التفجيرات النووية تحت الأرض ولدينا بعض الخبرة في التباحث حول تحريمها بالكامل .

وفي الفترة السابقة ، كانت مشكلة التحقق تمثل العقبة الكأداء . ولإزالة هذه العقبة أعلننا أننا مستعدون لقبول الرقابة في أى شكل ، واستخدام المرافق التقنية الوطنية والدولية على السواء ، بما في ذلك مرافق بلدان ثالثة من أجل هذا الغرض . ووقف الاتحاد السوفيتي للتفجيرات النووية ، باعتباره عملاً وليس مجرد اقتراح ، إنما يدل على جدية وإخلاص برنامجنا لنزع السلاح النووي وكذلك نداءاتنا من أجل سياسة جديدة - سياسة الواقعية ، والسلام والتعاون .

وقد رحب ذوو الإرادة الطيبة بقرارنا بوقف التفجيرات النووية . وسمعنا كلمات الترحيب والتأييد من جميع أنحاء العالم . ورأى الساسة والبرلمانيون ، والشخصيات والمنظمات العامة في هذا العمل مثلاً لنهج صحيح في المشاكل الحالية وأملاً للتحرر من الخوف من الكارثة النووية . وحظى الوقف السوفيتي للتجارب بتأييد الجمعية العامة للأمم المتحدة ، الهيئة الأكثر تمثيلاً للدول في العالم . وأيدنا كذلك علماء طبيعة وأطباء بارزون ، ممن يدركون ، ربما أكثر من غيرهم ، أخطار الذرة . وألهم الموقف السوفيتي للتجارب أفراد الأسرة العلمية في عديد من البلدان للقيام بأعمال نشطة .

ومع ذلك ، فكل هذه المظاهر الواضحة والمشجعة للتفكير الجديد تقابل بالزرعة العسكرية والمواقف السياسية المرتبطة بها ، والتي تخلفت بشكل خطير عن التحولات العميقة التي تجرى اليوم على النطاق الدولي . وقد ردت الإدارة الأمريكية ، بشكل لا مواربة فيه ، على تمديد الوقف السوفيتي للتجارب - إذ واصلت سلسلة من

التجارب النووية . وأعلن متحدثوها الرسمىون أن إجراء التجارب على الشحنات النووية أو عدم إجرائها هما من شأن موسكو وحدها . وفيما يتعلق بالولايات المتحدة فسوف تستمر التجارب دون أى توقف .

وساد الصمت مواقع التجارب السوفيتية . وقد قلبنا الرأى ، بطبيعة الحال ، فى الأخطار التى تتضمنها أفعال واشنطن ورأينا كيف تصر الإدارة الأمريكية فى حماقة وبغير تحفظ على دفع خطها متجاهلة تماما كل النداءات لوضع حد لكافة التفجيرات النووية . وعلى الرغم من ذلك ، فقد قرر المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى والحكومة السوفيتية فى أغسطس ١٩٨٦ تجديد وقف التجارب النووية من جانب واحد حتى أول يناير ١٩٨٧ ، بعد أن درسا المشاكل من جميع الجوانب ، مسترشدين بشعور من المسئولية عن مصير العالم ولكن الولايات المتحدة اختارت ألا تحذو حذو الاتحاد السوفيتى .

ولست أعتقد أن وقف التجارب من جانبنا كان بلا نتيجة . فلقد تعلم الرأى العام العالمى أنه بالإمكان وقف التجارب النووية كما عرف من الذى يعارض ذلك . صحيح أنه فى ذلك الحين قد فاتت على العالم ، فرصة تاريخية لوقف سباق التسلح ، ولكن الدروس السياسية من كل ذلك لم تضع هباء .

والآن بعد أن توصلنا إلى اتفاق بالبدا فى مفاوضات شاملة ، ومرحلة بعد مرحلة ، حول التجارب النووية فى أول ديسمبر ، يمكننا أن نهنى أنفسنا وكل الناس لأننا استطعنا أن نحرك الأمور .

برنامج نزع السلاح النووى

فى ١٥ يناير ١٩٨٦ تقدمنا ببرنامج مدته خمسة عشر عاما لإزالة الأسلحة النووية على مراحل تنتهى عند نهاية القرن العشرين . ووضعنا هذا البرنامج بعناية ، سعيا إلى ضمان توازن مقبول ومتبادل للمصالح فى كل مرحلة حتى لا يتعرض أمن أحد للضرر فى أى مرحلة . وأى نهج آخر سيكون ببساطة غير واقعى . وعلى أساس

هذا البرنامج تقدم ممثلونا في محادثات جنيف بمقترحات توفيقية هامة تناولت الصواريخ المتوسطة المدى ، والأسلحة الاستراتيجية الهجومية ، وعدم عسكرة الفضاء الخارجي .

إن بيان ١٥ يناير كان بيانا محوريا في صنع السياسة . لقد أردنا أن نبرز الخطر الرئيسي الذي تتعرض له الحضارة والمرتبطة بالأسلحة النووية والتفجيرات النووية ، دون أن نتغاضى عن المسائل المتصلة بتحريم وإزالة الأسلحة الكيماوية ، والخفض الكبير في الأسلحة التقليدية . وقد تمثل ذلك في مجموعة من التدابير ذات الطابع العام . وكان المبدأ الأساسي الفعال في كافة مراحل هذا البرنامج هو المحافظة على التوازن . ولم تكن هناك حاجة إلى أى تلاعبات أو خدع سياسية ، وإنما إلى المسؤولية السياسية ، والإدراك الواضح بأنه لا أحد سوف يسعى إلى خداع الآخر عندما تكون المسألة المطروحة في حساسية مسألة مثل أمن الدولة .

وخطوة كذلك التي اتخذناها في ١٥ يناير لم تكن تتطلب فقط إدراكا لمسئوليتنا . وإنما أيضا تصميمنا السياسى . وانطلقنا من الحاجة إلى مداخل جديدة لمسائل الأمن في العصر الفضائى النووى . وكانت هذه إرادة شعبنا بأسره . وعندما اتخذنا هذه الخطوة ، كان آخر شيء فكرنا فيه هو تحقيق كسب إعلامى على حساب الجانب الآخر . وقد أملى هذا التحرك إحساسنا بالمسؤولية عن تجنب الحرب النووية والمحافظة على السلام . واتفق موقفنا في ذلك مع موقف الرأى العام العالمى ، وكان بين أمور أخرى ، استجابة لنداء مجموعة البلدان الستة (الهند ، والارجنتين ، والسويد ، واليونان ، والمكسيك ، وتانزانيا) .

إننا مخلصون إخلاصا عميقا لفكرة عالم خال من الأسلحة النووية . وهذه الفكرة التى أثرتها التقاليد السياسية للهند ، وخصائص الفلسفة والثقافة الهندية ، جرى تطويرها فى إعلان دلهى حول مبادئ عالم خال من الأسلحة النووية ومن العنف . وهى بالنسبة لنا ليست مجرد شعار رفعناه لنلهب الخيال . فالأمن مسألة

سياسية ، وليس وظيفة للمواجهة العسكرية . والعجز عن إدراك ذلك يمكن أن يؤدي فقط إلى الحرب بكل آثارها المدمرة . وإذا ما أطلقت المخزونات الضخمة من الأسلحة النووية والكيمياوية وغيرها من الأسلحة التي تراكمت فلن يبق من العالم شيء . إننا نتحدث عن بقاء البشرية . وبالنسبة لنا تمثل فكرة عالم خال من الأسلحة النووية اقتناعا توصلنا إليه من خلال قدر كبير من المعاناة . ونحن نعتبر الأمن مفهوما شاملا لا يحسد الجوانب العسكرية السياسية وحدها وإنما يحسد أيضا الجوانب الاقتصادية والبيئية والإنسانية .

وفي المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي جسدنا من جميع الوجوه مفهوم بناء نظام شامل للأمن الدولي . وقدمناه إلى العالم بأسره ، إلى الحكومات ، والأحزاب ، والتنظيمات العامة والحركات المعنية في الحقيقة بالسلام على الأرض^(١) .

(١) نحن نرى المبادئ الأساسية لهذا النظام كما يلي :

١ - في المجال العسكري

(أ) تخلي الدول النووية عن الحرب - سواء كانت نووية أم تقليدية - ضد بعضها البعض أو ضد بلدان ثالثة .

(ب) تجنب سباق التسلح في الفضاء الخارجي ، ووقف كافة تجارب الأسلحة النووية والتدمير الكامل لهذه الأسلحة ، وحظر إنتاج الأسلحة الكيماوية وتدميرها ، والتخلي عن تطوير وسائل الإبادة الشاملة الأخرى .

(ج) التخفيض الحاد تحت رقابة صارمة لمستوى القدرات العسكرية للبلدان إلى حدود الكفاية المعقولة .

(د) حل الأحلاف العسكرية ، وكخطوة نحو ذلك يجب التخلي عن توسيعها أو تشكيل أحلاف جديدة .

(هـ) التخفيض المتوازن والنسبي للميزانيات العسكرية .

٢ - في المجال السياسي

(أ) الاحترام الصارم في الممارسة الدولية لحق كل شعب في اختيار طرق وأشكال تطوره المستقل .

(ب) التسوية السياسية العادلة للأزمات الدولية والتزاعات الإقليمية .

=

ونحن لا نتراجع عن أى من المقترحات التى تضمنها برنامج مؤتمرننا ، كما أننا على استعداد لأن ندرس بأكبر قدر من العناية أية أفكار يمكن أن تعزز التعايش السلمى

= (ج) اتخاذ عدد من التدابير الهادفة إلى بناء الثقة بين الدول ووضع ضمانات فعالة ضد الهجوم من الخارج ومن أجل ضمان حرمة حدودها
(د) تقرير أساليب فعالة لمنع الارهاب الدولى ، بما فى ذلك الأساليب التى تضمن أمن المواصلات البرية والجوية والبحرية الدولية .

٣- فى المجال الاقتصادى

(أ) استبعاد كافة أشكال التمييز فى الممارسة الدولية ، ونبذ سياسة الحصار الاقتصادى والعقوبات الاقتصادية إذا لم تكن قد اتخذت بشكل مباشر بناء على توصية من المجتمع الدولى .

(ب) البحث المشترك عن طرق للتسوية العادلة لمشكلة الديون .
(ج) إقامة نظام اقتصادى عالمى جديد يكفل الأمن الاقتصادى المتكافئ لجميع الدول .
(د) وضع المبادئ اللازمة لاستخدام جزء من الأموال التى توفرت نتيجة لتخفيض الميزانيات العسكرية من أجل خير المجتمع العالمى ، والبلدان النامية فى المقام الأول .
(هـ) تعبئة الجهود من أجل استكشاف الفضاء واستخدامه سلمياً ومن أجل حل المشاكل العالمية التى تتوقف عليها مصائر الحضارة .

٤- فى المجال الإنسانى

(أ) التعاون فى نشر أفكار السلام ، ونزع السلاح ، والأمن الدولى ، وزيادة تدفق المعلومات الموضوعية العامة وتوسيع الاتصالات بين الشعوب بهدف التعرف على بعضها البعض ، وتعزيز روح التفاهم المتبادل والوفاق فى العلاقات بينها .

(ب) نبذ جميع أشكال إبادة الجنس ، والفرقة العنصرية . والدفاع عن الفاشية وأى شكل آخر من أشكال التمييز العرقى أو القومى أو الدين ، وكذلك التمييز ضد الناس على هذا الأساس .

(ج) توسيع التعاون الدولى فى تنفيذ حقوق الإنسان السياسية والاجتماعية والشخصية فى ظل احترام قوانين كل بلد .

(د) حل المسائل المتعلقة بإعادة توحيد الأسر ، والزواج ، وتطوير الاتصالات بين الشعوب والمنظمات بروح إنسانية وإيجابية .

(هـ) تعزيز الأشكال القائمة للتعاون فى الثقافة والفنون والعلوم والتعليم والطلب . والبحث عن أشكال جديدة لهذا التعاون .

باعتباره المبدأ العالمى الأسمى للعلاقات بين الدول .

وقد تحدثنا أيضا فى المؤتمر عن العلاقات السوفيتية الأمريكية . وبودى أن أعيد إلى الذاكرة تصرّحنا فى هذا الصدد : إن العزم الأكيد للاتحاد السوفيتى هو أن يكون فى مستوى آمال شعبى البلدين وشعوب العالم أجمع الذين يتوقعون من زعماء الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة خطوات محددة ، واجراءات عملية ، واتفاقات ملموسة حول كيفية كبح سباق التسلح . وبإمكاننا أن نعبر عن جوهر موقف المؤتمر حول العلاقات السوفيتية الأمريكية فى بضع كلمات - إننا نعيش فوق نفس الكوكب ، ولن يكون فى مقدورنا أن نحافظ على السلام بدون الولايات المتحدة .

الولايات المتحدة منذ جنيف

كيف تصرفت الإدارة الأمريكية منذ جنيف ؟ لقد بدأت حملة صاحبة ترمى إلى إثارة المشاعر المعادية للسوفيت . وبذلت المحاولات المرة بعد المرة لتقديم الاتحاد السوفيتى فى صورة «بعبع» لتزداد المخاوف منه حتى يمكن تمرير آخر ميزانية عسكرية فى الكونجرس . واقترح لقب «إمبراطورية الشر» . وأكد الرئيس مجدداً أنه لا ينوى التخلّى عن هذا اللقب .

وكل هذا يمكن اعتباره كلاماً منمقاً طناناً ، ولكن الخطب الرنانة المعادية ، كما سبق أن قلت تخرب العلاقات أيضا . فلها تداعياتها السريعة . والأمور تبدو الآن أكثر خطورة . فقد طلب من الاتحاد السوفيتى ، مثلاً ، أن يخفض عدد بعثته الدبلوماسية فى الولايات المتحدة بمقدار ٤٠ ٪ ، كما أبحرت السفن الحربية الأمريكية فى المياه الإقليمية السوفيتية بالقرب من سواحل القرم ، وشن هجوم عسكرى ضد ليبيا ذات السيادة . وقد قيّمنا تلك الأعمال التى أقدمت عليها الإدارة الأمريكية فى وضع ما بعد جنيف على أنها تحد ، ليس للاتحاد السوفيتى فقط ، وإنما للعالم بأسره ، بما فيه الشعب الأمريكى .

وكان في ذلك الحين أن أعلنت الولايات عن عزمها على الانسحاب من اتفاقية سولت - ٢ وأعلن عن وفاة هذه المعاهدة. وبدلاً من المضي نحو اتفاقيات رئيسية جديدة لوضع حد لسباق التسلح ، فضلت الإدارة الأمريكية التحلل من الاتفاقيات القائمة . وبدأت حملة « غسيل مخ » للأمريكيين والرأى العام العالمى تمهيداً لتدمير معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ غير المحدودة .

لقد أوضحت فترة مابعد جنيف أنه بينما لم يكن بوسعنا في الماضي سوى الحدس والظن ، فإنه تتوافر في متناولنا اليوم حقائق تشهد على إعراض إدارة الولايات المتحدة عن الالتزام باتفاقيات جنيف . غير أنها بينما استمرت تتصرف بالطريقة القديمة ، فإنها كانت تريد أن « تهدئ » الرأى العام . وأخذنا نسأل أنفسنا من جديد عما إذا كانت واشنطن تعتقد حقاً أنها تتعامل مع أناس ضعيفي الإرادة ، وأن باستطاعتها أن تستمر في التصرف كمقامر ، وأن الاتحاد السوفيتي يرتعد عند مشهد استعراضات عسكرية جديدة ؟ .

في ذلك الوقت كان على أن أتحدث في مدينة تولياتى وكان على أن أشرح للطبقة العاملة في هذه المدينة ، ولكل الشعب السوفيتي ، ماذا حدث منذ جنيف .

لقد انجزنا الشيء الكثير ، ووفينا بالتزاماتنا تجاه العالم ، متخذين موقفاً مسئولاً عالياً من تعهداتنا في جنيف .

ولكن ماذا عن الولايات المتحدة ؟ لقد أوردت الحقائق ، ومن جديد ثار السؤال : ما الذى تريده الولايات المتحدة حقاً إذا كان على المرء أن يحكم بسياستها الحقيقية وليس من بياناتها . فهي لم تكتف بالتخلي عن الانفراج ، وإنما يبدو أنها ترتعد لأى مظهر من مظاهر الدفء في العلاقات . وكان على أن أخبر الشعب السوفيتي بأمانة عن مصالح من التى من المتوقع أن تخدمها مثل هذه السياسة . وبالتأكيد لم يكن الشعب الأمريكى هو الذى يريد للتهديد العسكرى أن يزداد - أليس كذلك ؟ لقد كان ينبغى التحدث عن التجمع العسكرى الصناعى في

الولايات المتحدة ، الذى لايلتهم فقط ، مثل الإله مولوخ القديم ، الموارد الضخمة للأمريكيين والشعوب الأخرى ، وإنما يلتهم أيضا ثمار الجهود الرامية إلى إزالة التهديد بحرب نووية .

وطبعا ، تزعج شعبنا مبادرة الدفاع الاستراتيجى . وقد قلنا ذلك أكثر من مرة . ولكن ربما يحاولون فقط إخافتنا من جديد ؟ وربما كان من الأفضل أن نكف عن الخوف من مبادرة الدفاع الاستراتيجى .

واللامبالاة لم يكن مسموحا بها على التأكيد . وقد رأينا أنه رغم أن ملايين الأمريكيين ومن بينهم ساسة مرموقون وشخصيات عامة بارزة ، وأناس عاديون ، وعلماء ، وزعماء دينيون ، وطلبة فى المدارس والجامعات يقفون ضد مبادرة الدفاع الاستراتيجى والتجارب النووية ، فإن بعض الدوائر فى الولايات المتحدة قد أصيبت ببلوثة بخصوص برنامج حرب النجوم . وكان ذلك أشد خطورة بكثير لأنه ينبع مباشرة من عسكرة سريعة للفكر السياسى . ومع ذلك كان لابد من التخلص من الانطباع الذى لديها عتّا والذى لم نكن مسئولين عنه . فهذه الدوائر تعتقد بأن الاتحاد السوفيتى إذا كان خائفا من مبادرة الدفاع الاستراتيجى ، فينبغى إرهابه معنويا ، واقتصاديا وعسكريا بهذه المبادرة . وهذا مايفسر التركيز الكبير على مبادرة الدفاع الاستراتيجى بهدف استنزافنا . وهكذا ، فقد قررنا أن نقول : نعم ، نحن ضد مبادرة الدفاع الاستراتيجى ، لأننا مع القضاء الكامل على الأسلحة النووية ، ولأن مبادرة الدفاع الاستراتيجى تجعل العالم غير مستقر بدرجة أكبر من أى وقت مضى . ولكن المسألة بالنسبة لنا تنطوى على المسئولية وليس على الخوف ، ولأن النتائج المترتبة عليها لايمكن التنبؤ بها . ومبادرة الدفاع الاستراتيجى ، بدلا من تعزيز الأمن ، فإنها تدمر بقايا ما قد لايزال يخدم الأمن .

عندما كنت أتحدث فى تولياني ، قررت أن أقول مرة أخرى إن ردنا على مبادرة الدفاع الاستراتيجى سيكون فعالاً . وتأمل الولايات المتحدة فى أننا سنطور أنظمة

مماثلة . وبذلك يمكنها أن تسبقنا تكنولوجيا وأن تستفيد من تفوقها التقني . ولكننا في القيادة السوفيتية نعرف أنه ليس هناك ما تستطيع الولايات المتحدة تحقيقه ويعجز عنه علماءنا ومهندسوننا . إن عشر الاستثمارات الأمريكية سيكون كافيا لإقامة نظام مضاد لإحباط مبادرة الدفاع الاستراتيجي .

وهكذا قررنا أن نفصح كلية البيانات الديماجوجية بأننا نترشح أمام مبادرة الدفاع الاستراتيجي .

وقد كررت في خطابي الصيغة التي أقرها مؤتمر الحزب - إننا لا نريد أكثر من الأمن ، ولكننا لن نقبل ما هو أقل منه .

وعندما لخصنا نتائج الشهور التي أعقبت جنيف ، أردنا أن نقول للغرب ، وللولايات المتحدة وحلف الأطلسي أننا لن نتخلى عن سياستنا للسلام ، رغم أننا نأخذ في الاعتبار سياسات الغرب الحقيقية . ولن نستجدي من أجل السلام . وقد رددنا أكثر من مرة على التحديات وسوف نفعل ذلك كل مرة .

وبدا أنه كان على الولايات المتحدة أن ترد على مبادراتنا وتحركاتنا منذ قمة جنيف بمقابلتنا في منتصف الطريق ومحاولة إرضاء تطلعات الناس . ولكن تلك لم تكن هي الحال . فالمجموعة الحاكمة تضع مصالح أنانية فوق مصالح البشرية ومصالح شعبها . وكان الشيء الهام أيضا أنها فعلت ذلك بشكل قاطع وبتحدي ، متجاهلة تماما الرأي العام العالمي .

وتشير مثل هذه المواقف إلى أن الإحساس بالمسؤولية قد تراجع من جديد أمام العقلية المعتادة التي تتيح للمرء أن يفعل أي شيء ويتخلى عن أي شيء دون مجازاة أو حساب .

وسرعان ما أفسحت الآمال التي انتعشت بعد قمة جنيف ، في كل مكان ، حتى في المجتمع الأمريكي ، الطريق لخيبة الأمل ، لأن كل شيء في السياسة الحقيقية للولايات المتحدة ظل كما كان .

درس تشيرنوبيل

لقننا أبريل ١٩٨٦ درسا خطيرا فيما تستطيع أن تفعله الذرة المنفلتة من التحكم ، حتى ولو كانت تستخدم لأغراض سلمية . وأنا أشير هنا إلى مأساة تشيرنوبيل . لقد كشفنا الحقيقة كاملة عن كيف حدثت الكارثة ، ولماذا حدثت وما النتائج . أما هؤلاء المسئولون عن الكارثة فقد قدموا بالفعل إلى المحاكمة . والعالم يعرف ما الذى قمنا به فى بلادنا لنقلل من أبعاد هذه الكارثة .

وقد ناقشنا الحادث مرات عديدة فى المكتب السياسى للجنة المركزية . وبمجرد أن وصلتنا التقارير الأولية المحدودة أدركنا أن الأمر خطير وأنا مسئولون عن تقييم الحادث وعن الاستنتاجات السليمة على السواء . وكان عملنا واضحا للعيان بالنسبة لكل الشعب وكل العالم . ومن غير المقبول الاعتقاد بأنه كان فى استطاعتنا قبول تدابير جزئية أو تفادى المسألة . إنه يتعين أن تقدم المعلومات عما حدث كاملة وغير منحيزة إن الموقف الجبان يعنى سياسة غير مقبولة . وليست هناك أية مصالح تضطرنا إلى إخفاء الحقيقة .

وقد شاركت القيادة السوفيتية بشكل مباشر فى الجهود المبذولة من أجل التغلب على آثار الحادث . واعتبرنا ذلك واجبا أمام الشعب ومسئوليتنا الدولية . واستدعى خبرة العلماء والأطباء والتقنيين لإزالة الآثار المترتبة على الحادث . وقد تلقينا العون الذى نقدره كثيرا من علماء وشركات صناعية ، وأطباء من بلاد كثيرة من بينها الولايات المتحدة . وأخيرا خلصنا إلى بعض النتائج الحاسمة فيما يتعلق بالتطوير التالى لصناعة الطاقة النووية .

وبفضل الجهود المتفانية لعشرات الآلاف من الناس والمساندة التى تلقيناها من البلاد بأسرها ، بما فيها التبرعات ، نجحنا فى احتواء آثار الحادث . ولكننا لانتعبر ذلك سببا لأن نظل صامتين . ونحن لانميل إلى المبالغة فى تبسيط الوضع ، سواء

لأنفسنا أو للآخرين . والعمل يتواصل . وسوف يستغرق سنوات بالرغم من أن الوضع ، وأكرر ذلك ، تحت السيطرة .

لقد كان هذا حادثا شمل مجرد مفاعل واحد . إن تشيرنوبيل قد ذكرتنا بغير رحمة بما سوف نعانيه جميعا لو انطلقت عاصفة زلزالية نووية من عقابها .

وأنا لن استرجع كافة الأكاذيب التي اختلقت عن تشيرنوبيل . هل لي فقط أن أقدر وأثنى كثيرا على التفهم والعون من جانب كل هؤلاء الذين تعاطفوا معنا في محنتنا ، ولكننا شهدنا أيضا مرة أخرى كم يوجد من الحب والحقد في العالم .

ريكيافيك

لقد تحققنا من أن المجموعة العسكرية في الولايات المتحدة (ولا أعني بذلك الحزب الجمهوري أو الديمقراطي ، وإنما هؤلاء الذين يرتبطون بقوة بانتاج الأسلحة) يملكها الرعب من أية مبادرة لذوبان الجليد في العلاقات بين بلدينا . وكانت هذه المجموعة تبذل كل ما هو مستطاع لنسيان كل ما يتعلق بقمة جنيف ، واجتثاث روح جنيف ، ولتزيل كل العقبات في طريقها لتواصل سباق التسلح دون عائق ، بما في ذلك الاتجاه الجديد - تجاه الفضاء الخارجي .

ولكننا أيضا أدركنا جيدا أن المجموعة العسكرية ليست أبدا هي الكيان الوحيد على المسرح السياسي للولايات المتحدة . فالساسة الأمريكيون ، الذين يتخذون مواقف واقعية ، ولا ينساقون وراء الأوهام فيما يتعلق بالوضع العالمي ، كانوا يدافعون عن استمرار المفاوضات مع الاتحاد السوفيتي بحثا عن طرق لتطبيع العلاقات السوفيتية الأمريكية ، مدركين أن سباق التسلح سيسفر عن نتائج سلبية خطيرة بالنسبة للولايات المتحدة نفسها . ولكن مصالح المجموعة العسكرية كانت على الدوام هي المنتصرة بطريقة أو بأخرى ، كما حدث في الغالب حقيقة ، قبل ذلك .

وكانت الفرص أمام انعقاد قمة سوفيتية أمريكية ناجحة ومثمرة تنجو بسرعة

وكان الذهاب إلى قمة جديدة لمجرد المصافحة والاحتفاظ بعلاقات ودية هو عبث لأمعنى له . ومع ذلك لم نستطع قبول الرفض الأمريكي لجهودنا الدؤوبة للتوصل إلى تقارب في المواقف والتوصل إلى حلول وسط معقولة . وعرفنا أننا بحاجة إلى اختراق ، وأن الوقت يعمل ضد مصالح البشرية . ثم جاءت فكرة عقد اجتماع قمة سوفيتي أمريكي مؤقت لإعطاء دفعة قوية حقا لقضية نزع السلاح النووي ، وللتغلب على الاتجاهات الخطرة ، ولدفع الأحداث في الاتجاه الصحيح . وقبل الرئيس الأمريكي مبادرتنا ، التي كانت تبدو ملهمة تماما . وبذلك جرى تمهيد الطريق لقمة ريكيافيك في أكتوبر ١٩٨٦ .

وخلال مناقشتنا الأولى في ريكيافيك أخبرت الرئيس أنه في أعقاب قمة جنيف نجحنا في تنشيط الدولار الضخم والمعقد للحوار السوفيتي الأمريكي . ولكن هذا الدولار تعثر أكثر من مرة : ولم يكن هناك أى تقدم في المسائل الرئيسية التي كانت تهم الطرفين - كيف نخفف من التهديد النووي ، وكيف نستفيد من قوة الدفع التي وفرتها قمة جنيف ، وكيف نتوصل إلى اتفاقات محددة . وقد أقلقنا هذا الوضع كثيرا . وأخبرت الرئيس أيضا أن مفاوضات جنيف تحتق في المناقشات التي لا نهاية لها حول مسائل مئة . وهناك ما بين خمسين إلى مائة اقتراح بديل ، ولكنها جميعا معلقة في الهواء . ولم يتأتّ لواحد منها أن يمهد الطريق نحو التقدم .

لقد خططنا بدقة لقمة ريكيافيك وفنا بقدر كبير من الأعمال التحضيرية . وانتهجنا خطا واضحا وحازما - أن نوافق في المدى الطويل على الإزالة الكاملة للأسلحة النووية مع تحقيق الأمن المتكافئ للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في جميع مراحل التقدم نحو هذا الهدف . وأى مدخل آخر سيكون غامضا ، وغير واقعي ، وغير مشروع . وكنا على قناعة ، بأن اجتماع ريكيافيك ، سيمهد الطريق لتوقيع اتفاقيات حول المسائل الرئيسية للرقابة على التسلح في اجتماعنا التالي .

وحملنا معنا إلى ريكيافيك مجموعة من التدابير الحيوية على شكل مشروعات

اتفاقات . ولو قبلت هذه التدابير ، لكانت البشرية تقف الآن على عتبة عصر جديد ، عصر خال من الأسلحة النووية . ولم تكن النقطة موضع الخلاف هي الحد من الأسلحة النووية ، كما كان الحال في اتفاقيتي سولت - ١ وسولت - ٢ ، وإنما كانت الإزالة السريعة لهذه الأسلحة .

وكان الاقتراح الأول يتعلق بالأسلحة الهجومية الاستراتيجية . وقد أعلنت عن استعدادنا لتخفيضها ٥٠٪ خلال السنوات الخمس القادمة .

ولم أسمع رداً على ذلك سوى كل ما يمكن أن يقال حول المستويات ، والمستويات الفرعية ، وتقديرات تدير الرؤوس ، وهو ما ظلت الوفود لمفاوضات جنيف تدور فيه بلا طائل لشهور قبل أن يجدوا أنفسهم في طريق مسدود . وبدأت أناقش . ولكن سرعان ما رأيت أن المناقشة لا تؤدي إلى نتيجة . وللخروج من مستنقع هذا المأزق - الذى لم يقم في مفاوضات جنيف من قبيل الصدفة وإنما عن نية متعمدة لتشويه سمعة المفاوضات ، وجعل الأمر كله يبدو وكأنه مهزلة - تقدمت بحل واضح وبسيط . لقد كانت هناك الأسلحة الاستراتيجية الثلاث - الصواريخ البعيدة ذات القواعد الأرضية ، والصواريخ التى تطلق من البحر ، والطائرات . وتوجد هذه الأسلحة لدى كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، رغم أن الأسلحة الهجومية الاستراتيجية لكل من الجانبين لها اختلافاتها التاريخية الخاصة . فلتتفق على تخفيض كل المكونات أو أنماط الأسلحة ، أى ، كل من الأقسام الثلاثة للأسلحة إلى النصف بشكل متكافئ .

ولكى نسهل التوصل إلى اتفاق تقدمنا بتنازل هام إذ تخلينا عن طلبنا السابق بأن تشمل المعادلة الاستراتيجية الصواريخ الأمريكية المتوسطة المدى التى يمكنها أن تصل إلى أراضينا والأنظمة الأمريكية المقامة على قواعد متقدمة . ونحن على استعداد كذلك لأن نأخذ فى اعتبارنا قلق الولايات المتحدة من صواريخنا الثقيلة .

ووافق الرئيس الأمريكى على هذا المدخل . وإضافة إلى ذلك ، تقدم بفكرة

الإزالة الكاملة للأسلحة الهجومية الاستراتيجية خلال السنوات الخمس القادمة ، وهذا ما أيدته بحزم .

وكان اقتراحنا الثانى يتعلق بالصواريخ المتوسطة المدى . واقترحت على الرئيس أن تزال بشكل كامل الأسلحة السوفيتية والأمريكية من هذا النوع فى أوروبا . وفى هذا المجال أيضا ، قدمنا تنازلات كبيرة . فقد تجاهلنا القوات النووية البريطانية والفرنسية الموجهة ضدنا . ووافقنا على تجميد الصواريخ التى يقل مداها عن ألف كيلومتر ، وأن تبدأ المفاوضات فوراً حول مستقبلها ، واضعين فى الاعتبار بالتأكيد أن أوروبا قد تخلصت نهائيا من هذا النوع من الصواريخ . وأخيرا قبلنا الاقتراح الأمريكى بالخفض الحاد فى عدد الصواريخ المتوسطة المدى المنتشرة فى القسم الآسيوى من الاتحاد السوفيتى ، تاركين مائة من الرؤوس النووية على هذه الصواريخ شرق الأورال فى الاتحاد السوفيتى ومائة من الرؤوس النووية على الصواريخ الأمريكية المتوسطة المدى فى أراضى الولايات المتحدة . وكنتيجة لذلك ، لاحت لنا فرصة لنصدر التعليمات إلى وزراء خارجيتنا بالبدء فى إعداد مشروع اتفاق حول الصواريخ المتوسطة المدى .

وكانت المسألة الثالثة التى طرحتها على الرئيس فى مناقشتنا الأولى ، والتى رأينا فيها جزءا لا يتجزأ من مجموعة مقترحاتنا ، تتعلق بتعزيز نظام معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ والتوصل إلى حظر التجارب النووية .

وحاولت إقناع الرئيس بأن علينا ، فى الوقت الذى نسعى فيه إلى خفض الأسلحة النووية ، أن نتأكد من أن أيا من الطرفين لن يفعل ما من شأنه أن يعرض أمن الطرف الآخر للخطر . ومن هنا كان المغزى الرئيسى لتعزيز معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ . كذلك أخذنا فى اعتبارنا تمسك الرئيس العميق بفكرة مبادرة الدفاع الاستراتيجى . واقترحنا تسجيل أن الأبحاث العملية لمبادرة الدفاع الاستراتيجى مسموح بها ، وبذلك تحل مسألة عدم استخدام الحق فى التخلي عن

معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ لمدة عشر سنوات . وكان عدم استخدام الحق في التخلي عن معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ لمدة عشر سنوات أمرا لاغنى عنه لكي يجعلنا نطمئن إلى أنه سيكون باستطاعتنا عند تناول مسألة الرقابة على السلاح ، حماية أمننا المتبادل والحيلولة دون محاولات كسب ميزات من طرف واحد من خلال نشر أنظمة ذات قواعد في الفضاء .

ومن الناحية السياسية ، والعملية ، والتقنية ، فإن مثل هذه القيود لا تشكل تهديدا لأحد . وسوف أطرح المسألة من جديد فيما بعد ، ولكنني أود التذكير الآن بأننا اقترحنا في ريكيافيك على الرئيس بأن يتم الاتفاق على أن يبدأ ممثلونا المفاوضات حول حظر التجارب النووية بمجرد انتهاء الاجتماع في عاصمة أيسلندا . وتبنينا موقفا مرنا من هذه المشكلة ، أيضا ، عندما أعلننا أننا نرى المعاهدة المكتملة المقومات للحظر التام والنهائي للتجارب النووية كعملية يتم التقدم فيها خطوة خطوة . وفي هذا الإطار ، يمكن أن تتضمن المسائل ذات الأولوية « القدرة الأولى » للتجارب النووية ، والعدد السنوي لمثل هذه التجارب ، ومستقبل معاهدتي ١٩٧٤ ، ١٩٧٦ . ولقد كنا قريبين جدا من إيجاد صيغ مناسبة لهذه المسألة أيضا .

ومازلت أعتقد أن الطريق إلى وقف التجارب لم يغلق بلا أمل . إن استئنافنا للتجارب لم يكن يعنى بالتأكيد أن الولايات المتحدة يمكنها أن تقرر الأمر وحدها . ومن الصعب أن نقول متى ستسود الواقعية في تقييم كل منا للآخر . ولكنها ستجىء يوما ما ، وربما بشكل غير متوقع تماما ، لأن الحياة تزيدنا حكمة . والتاريخ غني بالأمثلة التي توضح كيف يمكن أن يتغير الوضع فجأة .

وهكذا تمخضت قمة ريكيافيك عن فرصة تتيح إمكانية توجيه وزيرى خارجيتنا نحو إعداد ثلاثة مشروعات اتفاقيات للتوقيع عليها في القمة السوفيتية الأمريكية التالية . ولكن الفرصة ، الواضحة والملموسة للغاية لشق طريق نحو حل وسط تاريخي حقا بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، انهارت في النهاية ، رغم أنها كانت في متناول اليد .

وتبين أن العقبة الكئود هي الموقف الأمريكي من معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ . وبعد ريكيا فيك كنت أسائل نفسى المرة بعد الأخرى عن السبب فى أن الولايات المتحدة تتجنب التوصل إلى اتفاق حول تعزيز نظام هذه المعاهدة ذات المدى غير المحدود . وفى كل مرة كنت أتوصل إلى نفس الاستنتاج : إن الولايات المتحدة ليست على استعداد للتخلى عن آمالها فى كسب التفوق النووى ، وهى هذه المرة تريد أن تسبق الاتحاد السوفيتى بالإسراع بأبحاث مبادرة الدفاع الاستراتيجى .

وأود فى هذا الإطار أن أكرر من جديد : إذا ما نجحت الولايات المتحدة فى المضى بخطتها إزاء مبادرة الدفاع الاستراتيجى ، وهو مانشك فيه كثيرا جدا ، فإن الرد السوفيتى سيكون وشيكا . وإذا لم تتخل الولايات المتحدة عن مبادرة الدفاع الاستراتيجى ، فلن نجعل الحياة أيسر لها . وسيكون ردنا فعلا وموثوقا به وغير مكلف للغاية . فلدينا مخطط فى مراحله قبل النهائية لإبطال مبادرة الدفاع الاستراتيجى دون إنفاق المبالغ الضخمة التى ستحتاجها الولايات المتحدة لتنفيذها . وعلى الأمريكين أن يفكروا مرة أخرى فيما إذا كان من المجدى إرهاب أنفسهم بتنفيذ مبادرة الدفاع الاستراتيجى . إنها لن تقدم لهم حماية يعول عليها بأية حال .

ولكن مبادرة الدفاع الاستراتيجى تعنى نقل الأسلحة إلى بيئة جديدة ستؤدى بدرجة كبيرة إلى عدم استقرار الوضع الاستراتيجى . ومن ناحية أخرى ، فإن التمسك بمبادرة الدفاع الاستراتيجى يكشف عن النوايا والأهداف السياسية : وضع الاتحاد السوفيتى فى وضع غير موات بأية وسيلة . إن هذه النوايا السياسية وهذه المخططات الوهمية - بالسيطرة على الاتحاد السوفيتى من خلال مبادرة الدفاع الاستراتيجى - هى التى حالت دون تتويج ريكيا فيك بقرارات ذات مغزى تاريخى .

وتحدثنا ، رونالد ريغان وأنا كثيرا عن ذلك ، وكانت مناقشاتنا حامية بعض الشيء . وكنت مخلصا حينما قلت للرئيس إن اجتماعنا لا يمكن أن يكون الفوز فيه لجانب واحد ، فإما أن نفوز معا أو نخسر معا .

ومع ذلك فإن ريكيافيك تمثل نقطة انعطاف في تاريخ العالم. وكشفت بشكل ملموس أن الوضع العالمى يمكن تحسينه. ونشأ عنها وضع جديد كينيا. فلم يعد أحد يستطيع الآن أن يتصرف بالطريقة التى كان يتصرف بها من قبل. وقد اقتنعنا فى ريكيافيك أن نهجنا كان صحيحا وأن طريقة التفكير السياسى الجديدة والبناءة أمر ضرورى.

ورفع الاجتماع الحوار السوفيتى الأمريكى إلى مستوى جديد، كما رفع فى الحقيقة كل الحوار بين الشرق والغرب. وقد تحرر هذا الحوار من لعبة التضاربات التقنية، ومقارنة المعلومات، والحسابات السياسية، واكتسب ثوابت جديدة. لقد أصبحت ريكيافيك فرصة مواتية لآفاق رحبة لحل المسائل الصعبة - وأقصد الأمن ونزع السلاح النووى والحاجة لوقف الأبعاد الجديدة فى سباق التسلح. لقد رسمت ريكيافيك طريقا يمكن للبشرية بواسطته أن تستعيد ديمومتها التى فقدتها عندما حولت الأسلحة النووية هيروشيما وناجازاكي إلى رماد.

ونحن نشعر أن اجتماع ايسلندا كان علامة طريق. لقد دل على إكمال مرحلة فى جهود نزع السلاح وبداية مرحلة جديدة. وحططنا النمط القديم للمحادثات وأخرجنا الحوار السوفيتى الأمريكى، مما يمكن أن أسميه، بالضباب السياسى والديماجوجية السياسية. وخلال سنوات المفاوضات حولت المقترحات العديدة من الجانبين موضوعات نزع السلاح إلى شىء غير مفهوم حتى بالنسبة للزعماء السياسيين، ناهيك عن الجمهور العريض. إن برنامج نزع السلاح النووى الأخير الذى تقدمنا به بسيط ومفهوم للجميع. وهو ينحصر فى أربع نقاط أوضحناها فى صفحة ونصف صفحة (كما عرضت من قبل). وبإمكان الجمهور العريض أن يفهمه. وهذا هو ما نهدف إليه عن قصد، أن نجعل المجتمع الدولى طرفا فى محادثتنا.

ما بعد ريكيافيك

يمكن تلخيص جدليات ريكيافيك فيما يلي : أصبح الهدف قريبا ومحسوسا بدرجة أكبر، بينما ازداد الوضع تعقيدا وتناقضا. وبإمكان المرء أن يرى بوضوح ، من ناحية ، أن اتفاقا لم يصبح له مثيل في أبعاده كان وشيكا ، ومن ناحية أخرى ، أن هناك حواجز ضخمة تعترض طريقه . وبوجه عام ، لم نكن قريبين بهذا القدر من الاتفاق قبل ذلك .

والحقيقة أننا توصلنا إلى تفاهم حول النقطتين الأولى والثانية من برنامجنا - الأسلحة الاستراتيجية والصواريخ المتوسطة المدى ، رغم أن التفاهم كان صعبا . وأضاف هذا وحده الشيء الكثير إلى خبرتنا . وقدرنا الصعاب التي تواجه الرئيس وعرفنا أنه لا يملك حرية القرار . ولم نقم بدراما مثيرة ، من حقيقة أن مشكلة معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ قد حالت دون أن تصبح ريكيافيك نجاحا كاملا . وقررنا أن نعطي للرئيس فرصة للتفكير في كل ما حدث ، وللتشاور مع الكونجرس . وربما كان من الضروري إجراء محاولة أخرى لتخطي مايفصل بيننا . وباستطاعتنا أن نتنظر ولذلك لم نسحب المقترحات التي تقدمنا بها إلى ريكيافيك .

لقد أعطتنا ريكيافيك بصيرة نافذة هامة لرؤية موقع كل منا . ويلزمنا هنا نوع من التفكير الواضح والنظرة غير البدائية . ولن أسمى بأية حال ريكيافيك إخفاقا . لقد كانت مرحلة في الحوار الطويل الصعب ، بحثا عن حلول لا بد وأن تكون واسعة النطاق . وعندئذ فقط يكون الاتفاق ممكنا . وخلصنا من ريكيافيك إلى استنتاج بأن الحاجة إلى الحوار تتزايد . ولهذا فقد أصبحت بعد ريكيافيك أكثر تفاؤلا .

كان نص هذا الكتاب على مكتب الناشر عندما اتفق إدوارد شفيردناوزه وجورج شولتر في واشنطن على إعداد مشروع اتفاق حول الصواريخ المتوسطة المدى والأقصر مدى وتوقيعه بعد وقت قصير وقبل نهاية العام . وستكون هذه هي الخطوة الرئيسية الأولى نحو نزع السلاح . وسيكون هذا أيضا نتيجة عملية لاجتماع

ريكيافيك ، تبرهن على أنه كان اجتماعا تاريخيا ، ونقطة انعطاف . وهكذا يكون لدينا الإجابة على سؤال كثيرا ما تردد حينذاك : هل أصبح العالم أكثر أمنا منذ ريكيافيك ؟.

حاول بعض الناس تفسير دراما ريكيافيك (وكان الوضع درامياً حقاً) كما لو أن الأمر برمته كان معلقا على كلمة واحدة وانهار بسبب تلك الكلمة . كلا ، لقد كان الأمر يتعلق بالمبادئ . وسرنا خطوات واسعة لنتق مع الطرف الآخر ، ولكننا لم نستطع أن نقدم تنازلا يعرض أمن دولتنا للخطر . وعندما عدت إلى موسكو تحدثت مرتين عن نتائج ريكيافيك ، ليس فقط لاستعادة الحقيقة التي كانت قد شوهدت بل كان هدفي قبل كل شيء أن أحدد ما الذي سنفعله بعد ذلك . وقد قلت في ذلك الوقت مازلت مقتنعا به ، من أن عدم نجاح ريكيافيك إنما يعود إلى مفهوميين استراتيجيين خاطئين تتميز بهما بعض الدوائر الغربية .

أولهما ، أن الروس خائفون من مبادرة الدفاع الاستراتيجي ولذلك فلا بد أن يقدموا أى تنازلات . وثانيهما ، أن لنا مصلحة في نزع السلاح أكبر من مصلحة الولايات المتحدة . وكان لهذه المشاعر تأثيرها على مجرى محادثات ريكيافيك . وسرعان ما أحسنا بما يتوقعونه منا : لقد وصل الوفد الأمريكي دون برنامج محدد وهو يريد فقط أن يجني الثمار .

ودفعنا الشركاء الأمريكيون بعناد نحو ما ناقشه وفدانا دون جدوى في محادثات جنيف . وأردنا ، من جانبنا ، أن نضع ما تم الاتفاق عليه من حيث المبدأ في قبة جنيف موضع التنفيذ العملي والواقعي . وفي كلمات أخرى ، أردنا أن نعطي دفعة لعملية إزالة الأسلحة النووية .

وفي الحقيقة ، لقد كان كل الحديث السابق حول الحد من الأسلحة النووية . أما الآن فإنه حول خفضها وإزالتها . أما والأمر كذلك ، فقد كان من الضروري سد كل الثغرات للالتفاف حول المناورات الواسعة التي يمكن أن تضمن التفوق .

ولهذا السبب تبين أن النقطة الأساسية هي الالتزام بمعاهدة الدفاع المضاد للصواريخ . وأوضح موقف الولايات المتحدة في ريكيافيك حول هذا الموضوع أن الجانب الأمريكي لم يخفض بصره عن التفوق . ووجدنا أنه يفتقر إلى الإحساس بالمسؤولية وكذلك إلى التصميم السياسى على تخطى هذه العقبة ، لأن ذلك سيعنى زعزعة نفوذ التجمع العسكرى الصناعى .

ومع ذلك ، فلم نسلم ونفقد الثقة في الأمر بأكمله . وانطلقنا من الاعتقاد بأن ريكيافيك قد أتاحت فرصا جديدة للجميع - للأوروبيين ، والأمريكيين ، ولنا - لرؤية ما يحدث . ومع ذلك ، فإن شيئا واحدا يتضح لنا : أن الأمريكيين يريدون التخلص من معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ والسير في مبادرة الدفاع الاستراتيجية - التى تعتبر أداة لضمان السيطرة - فهناك إذن حاجة إلى « حزمة » تربط بداخلها كل شيء . ولدينا الرغبة في أن نكون عادلين : فعندما تقدمنا « بحزمة مقترحاتنا » أردنا أن نوضح للعالم أن مبادرة الدفاع الاستراتيجية هى العقبة الرئيسية التى تعترض التوصل إلى اتفاق حول نزع السلاح النووى .

وقد أفادنا الكثير من الوقت الذى انقضى منذ ريكيافيك . فالدوائر العسكرية قد انتابها الذعر حقا . فحاولت ، وماتزال تحاول ، وضع عقبات سخيفة للغاية في طريق العملية التى بدأت في ريكيافيك لتجعلها تتلاشى بشكل ما . ونسجت كل أنواع الروايات حول ما جرت مناقشته في ريكيافيك وبذلت كل الجهود من أجل إخفاء الحقيقة في أن الجانب الأمريكى أتى إلى ريكيافيك صفر اليدين ، وعلى استعداد فقط لانتزاع بعض التنازلات السوفيتية .

وحدث ما حدث في الأيام ، والأسابيع ، والشهور ، والعام الذى أوشك الآن أن ينقضى منذ ريكيافيك . وقد اخترت أن أسمى الأشياء بأسمائها : لقد انتهجت الإدارة الأمريكية في الحقيقة خطأ يرمى إلى إلغاء نتائج ريكيافيك . ولا يترك أى من أعمالها مجالا للشك في ذلك . ورأينا أن الولايات المتحدة بدأت تخلط الأمور فيما

يتعلق بما حدث بالفعل في ريكيا فيك ، بينما انتشرت في أوروبا الغربية مشاعر الدعر .

لكن الشيء الرئيسى هو نشاط الولايات المتحدة . وأعنى بذلك تخطى الولايات المتحدة بالفعل لحدود معاهدة سولت - ٢ وذلك بنشر قاذفتها الاستراتيجية « ١٣١ » المجهزة بصواريخ كروز . وأعنى بالإضافة إلى ذلك ، المناقشات الصاخبة والمتعمدة في الإدارة لصالح ما يسمى بالتفسير الواسع لمعاهدة الدفاع المضاد للصواريخ . وقد سمعنا من واشنطن في الشهور الأولى لعام ١٩٨٧ أن الوقت قد حان لكى تبدأ الولايات المتحدة في نشر المكونات الأولى لمبادرة الدفاع الاستراتيجى في الفضاء .

وكانت محادثات جنيف تسير هي الأخرى بخطى بطيئة . وبذلت محاولات لجونا إلى الخلف ، وطرحت على مائدة المفاوضات من جديد كل تلك المستويات والمستويات الفرعية . ولأغراض دعائية جرى تزوين ذلك بالحديث عن تصلب الاتحاد السوفيتى وعناده . وقيل إن الاتحاد السوفيتى يتقدم بمقترحاته على شكل « حزمة » وأنه يحول دون التوصل إلى حلول عندما يكون ذلك ممكنا بالفعل . فماذا كان من المفروض أن نفعل ؟ هل نرد بطريقة مماثلة ؟ ولكن لن ينأى أى خير من مثل هذا الموقف .

ولم نخذ حذو « المثال » الأمريكى وإنما قلنا إننا سنواصل احترام التزاماتنا الناجمة عن معاهدة سولت - ٢ . إن قاذفة قنابل أكثر أو قاذفة قنابل أقل لاتعنى شيئاً ذا بال في إطار التوازن الاستراتيجى الحالى بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة إن انتهاك واشنطن لمعاهدة سولت - ٢ ذو طابع سياسى أكثر منه عسكرى . إنه « دعوة » للاتحاد السوفيتى للعودة إلى عهد ما قبل ريكيا فيك .

واحتفظنا ببرود أعصابنا حينما تحدثت الجماعات اليمينية في الولايات المتحدة عن تصعيد مبادرة الدفاع الاستراتيجى والشروع فوراً في اختيار بل ونشر أنظمة الدفاع المضادة للصواريخ ذات القواعد الفضائية .

أما بالنسبة للحديث عن الحزمة السوفيتية ، فهازلت أعتقد ، بأنه لو كانت الولايات المتحدة قد وافقت على قبول « حزمة المقترحات » هذه بمواصفات ممكنة وتعديلات معينة لكنا قد حققنا تقدما هائلا . وفي وقت سابق كانت الحزمة تتضمن بنودا للحد من الأسلحة الهجومية الاستراتيجية وإزالتها وتجنب عسكرة الفضاء . وهذه المسائل ترتبط ببعضها عضويا . وهذا تنسيق استراتيجي وإذا لم تكن هناك قيود صارمة لتجنب سباق التسلح في الفضاء ، فلن يكون هناك خفض للأسلحة الهجومية الاستراتيجية . وينبغي أن يكون هذا واضحا تماما للجميع .

وفي ريكيافيك ، أدخلنا في حزمة المقترحات مسألة الصواريخ المتوسطة المدى لأننا أردنا أن نوقف سباق التسلح في كافة الاتجاهات الرئيسية في وقت واحد . وأكرر أننا أردنا . في نفس الوقت ، أن نبرز مبادرة الدفاع الاستراتيجي حتى يرى العالم بأسره العقبة الرئيسية في طريق نزع السلاح النووي . وقد انتقدنا كثير من الساسة الغربيين وأدانونا لأننا أدخلنا الصواريخ المتوسطة المدى في حزمة مقترحاتنا من جديد . وأنا أعرف أن دوائر الرأي العام المختلفة كانت تختلف أيضا معنا . ومع ذلك فإنني على قناعة بأننا اتخذنا القرار السليم .

محفل موسكو والصواريخ المتوسطة المدى

ترك محفل موسكو « من أجل عالم خال من الأسلحة النووية ، ومن أجل بقاء البشرية » انطبعا عميقا للغاية في نفسى وفي غيرى من الزعماء السوفيت . لقد أدركنا بوضوح مشاعر الرأي العام العالمي ، ومخاوفه وقلقه إزاء مصير ريكيافيك ، وإزاء حقيقة أن الاتحاد السوفيتي بعد ريكيافيك بوقت قصير ، أنهى وقفه للتجارب النووية من جانب واحد ، وأن الولايات المتحدة قد قوضت معاهدة سولت - ٢ ، وأن معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ معرضة للخطر . وقد فكرنا نحن في الاتحاد السوفيتي جديا وقررنا أن نتخذ خطوة أخرى من أجل تنشيط محادثات جنيف

والتوصل إلى تحول إيجابي في نزع السلاح . وما أعنيه هو فصل مسألة الصواريخ المتوسطة المدى عن حزمة مقترحاتنا .

فماذا حدث ؟

تماما كما حدث بعد ريكيافيك ، لقد دق معسكر حلف الاطلنطي نواقيس الانذار بالخطر . وكرد فعل على خطوتنا الجديدة نحو الغرب وأمام أعين الجميع ، بدأت دوائر حلف الاطلنطي الحاكمة تتخلى عن مواقفها التي دافعت عنها لوقت طويل ، ورفضت « خيار الصفر » الذي اقترحته أو قيده بشروط مختلفة . وذهبوا إلى حد اقتراح تعزيز الترسانات النووية في أوروبا عن طريق نشر الصواريخ الأمريكية الأقصر مدى ، بدلا من تخفيض مثل هذه الترسانات .

وسمعا كذلك التصريحات التالية : إن الغرب سيثق بمقترحات الاتحاد السوفيتي حول خفض الأسلحة إذا ما غير الاتحاد السوفيتي نظامه السياسي ، وإذا ما قبل نموذج المجتمع الغربي . وهذا أمر سخيف للغاية .

وبعد ريكيافيك ، وبخاصة بعد اقتراحنا بتوقيع اتفاقية منفصلة حول الصواريخ المتوسطة المدى ، أثارت دوائر حلف الاطلنطي ضجة حول استحالة ضمان السلام في أوروبا بدون أسلحة نووية .

ودارت مناقشة حادة حول هذه المسألة بين السيدة تاتشر وبينى . وقالت إن الأسلحة النووية تعتبر بالنسبة لبريطانيا الوسيلة الوحيدة لضمان أمنها في حالة اندلاع حرب تقليدية في أوروبا . وهذه فلسفة متشائمة . وقلت لرئيسة وزراء بريطانيا : « عندما تعلنين بأن الأسلحة النووية نعمة وبأن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي قد يخفضان مستوياتهما بينما تقف بريطانيا بعيدا عن ذلك ، يتضح لنا على الفور أننا أمام نصيرة متحمسة للأسلحة النووية . ولنفترض أننا نبدأ عملية نزع السلاح ، ونقوم بإزالة الصواريخ المتوسطة المدى من أوروبا ونخفض الأسلحة الهجومية الاستراتيجية ٥٠٪ أو بنسبة أخرى ، في الوقت الذي تواصلون فيه بناء قواتكم

النوية . هل فكرتم كيف ستبدون في نظر الرأى العام العالمى ؟ » .

واعتقدت أن من واجبي أن أذكرها بأن بريطانيا قد شاركت في المفاوضات الثلاثية التى دارت حول الحظر الكامل والعام للتجارب النووية ثم فقدت كل اهتمام بهذه المفاوضات ، وأنا ألتزمنا بوقف مؤقت للتجارب النووية لمدة ثمانية عشر شهرا بينما لم تتقيد بريطانيا بذلك .

إن وجود الأسلحة النووية ينطوى على خطر دائم لا يمكن التنبؤ به . وإذا ما اتبعنا المنطق القائل بأن الأسلحة النووية نعمة وضمان يعول عليه للأمن ، فليس هناك إذن داع لمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية ، لاسيما وأن عشرات الدول لديها الآن القدرة العلمية والتكنولوجية والمادية لصنع قنبلتها الخاصة . فبأى حق معنوى ترفض الدول النووية الحالية امتلاك بلدان مثل الباكستان ، وإسرائيل ، واليابان ، وجنوب أفريقيا ، والبرازيل أو أى بلد آخر للسلاح النووى ؟ ماذا سيحل بالعالم وبالعلاقات الدولية عندئذ ؟.

وعند تقييمه للوضع ، أكد المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى رفض القيادة السوفيتية الحازم للموقف الذى يقول بأن مباشرة الشئون الدولية والأمن القومى لا يمكن تحقيقها إلا من خلال الاعتماد على الأسلحة النووية .

ولنعد الآن إلى مسألة الصواريخ المتوسطة المدى . لقد كان الرئيس ريجان ، على وجه الدقة ، هو الذى اقترح «خيار الصفر» بالنسبة لأوروبا . ويقول هيلموت شميدت أيضا بأنه وحده صاحب هذه الفكرة . وقد كان شميدت ، فى الحقيقة ، أول من تقدم بهذا الاقتراح عندما كان مستشارا لجمهورية ألمانيا الاتحادية . وفى ريكيافيك وجدنا ، الرئيس وأنا ، حلا وطرحناه على مائدة الاتفاق . ومن الممكن تحقيقه الآن . وقد كتبت صحيفة ألمانية غربية أن هناك أناسا فى ألمانيا الاتحادية يصرون على أخذ جورباتشوف بكلامه ، ولكنه بموافقته على «خيار الصفر» ، قد

أخذ هو الآخرين بكلامهم . وتواصل الصحيفة ، حسنا فليبرهنوا الآن أنها لم تكن مجرد ثروة عندما تقدموا باقتراح الصفر ، معتمدين على أن الروس سيقضون الاقتراح بالمثل . وابتسمت عند قراءة ذلك . ولكنني فكرت عندئذ : حسنا ، ربما كانت الصحيفة على حق في نهاية الأمر .

وكان يمكن أيضا حل مشكلة الصواريخ الأقصر مدى . ونحن مع إزالة هذه الصواريخ . ولنرا الآن ماذا حدث . في أبريل ١٩٨٧ وصل جورج شولتر إلى موسكو وحاول إقناعنا بأنه لابد وأن يكون للولايات المتحدة الحق في تعزيز ترسانتها بنشر عدد من الصواريخ من هذا النوع حتى يزيل الاتحاد السوفيتي صواريخه بشكل كامل . وإنه لمنطق غريب ، ومقلوب . إننا راغبون في إزالة الصواريخ الأقصر مدى التي يتم سحبها من جمهورية ألمانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا ، ونحن على استعداد عندئذ لإزالة الصواريخ المتبقية . ولكن عندما تقدمنا بهذا الاقتراح ، بدأوا في حلف الأطلنطي مرة أخرى يدورون حوله كالقطة التي تدور حول إناء طعام ساخن . إن التاريخ يعيد نفسه .

ومع ذلك ، فإن هذا لم يوهن من عزيمتنا . فبعد فحص الوضع الذي نشأ في محادثات جنيف في الربيع وأوائل الصيف ، واستجابة لصوت الرأي العام الأوروبي والآسيوي ، اتخذنا خطوة هامة أخرى .

ففي ٢٢ يوليو ١٩٨٧ ، أعلنت باسم القيادة السوفيتية أن الاتحاد السوفيتي على استعداد لإزالة كافة صواريخه المتوسطة المدى في الجزء الآسيوي من أراضيه ، أيضا . وهذا من شأنه أن يزيل مسألة الاحتفاظ بمائة رأس نووي على الصواريخ المتوسطة المدى التي اتفقنا عليها مع رئيس الولايات المتحدة في ريكيافيك ، والتي ناقشها فيما بعد ممثلونا في جنيف . وكان هذا ، بالطبع ، شريطة أن تقوم الولايات المتحدة بالمثل . وسوف تزال أيضا الصواريخ الأقصر مدى . وفي كلمة ، فالاتحاد السوفيتي على استعداد لتنفيذ « خيار الصفر المزدوج » العالمي .

ويمكننا أن نقول بضمير نقي : لقد فعل الاتحاد السوفيتي كل ما يستطيع من أجل ميلاد أول اتفاقية هامة حول إزالة نوعين ، وليس مجرد نوع واحد ، من الأسلحة النووية .

ولكن كم من الحواجز أقيمت وماتزال تقام لعرقلة الاتفاق ! وكم من العقبات يجب إزالتها كي يسود العقل والتفكير السليم على الهوس النووي ! .

احكموا بأنفسكم ، ما شعرنا به ، بعد أن اتفقنا على «الصفرة المزدوج» ، وقيل لنا أن ٧٢ صاروخا (بيرشينج ١-أ) ستبقى على أراضى جمهورية ألمانيا الاتحادية وأن عددا مماثلا من الرؤوس النووية الأمريكية لهذه الصواريخ لابد وأن يبقى . وهكذا يتضح أن كل شيء - الوضع غير النووي لجمهورية ألمانيا الاتحادية ، والمعاهدة الخاصة بمنع انتشار الأسلحة النووية ، ومبدأ التكافؤ بين الأطراف المعنية - يجب أن يبقى خارج نطاق البحث . ولكن إذا ماسارت الأمور بهذا الشكل ، ماذا يحدث لو طلبت منا جمهورية ألمانيا الديمقراطية أو تشيكوسلوفاكيا أو بولندا أن نعطيها شيئا لتحقيق التوازن مع المجمع الصاروخي النووي للولايات المتحدة وألمانيا الغربية ؟ وماذا عندئذ ؟ هل نقبل وضعها إذا ما سد فيه طريق أمام سباق التسلح ، انفتح له طريق آخر جديد ؟ .

قلت لوزير خارجية الولايات المتحدة : «هل تعتقد حقا أننا من الضعف بحيث نظل مستعدين وراغبين في استرضاء إدارتكم إلى ما لا نهاية ؟ أو هل تعتقدون أننا أكثر اهتماما بتنمية العلاقات السوفيتية الأمريكية . ومن ثم ، فليس على الجانب الأمريكى مايقوم به من ناحيته ؟ إذا اعتقدتم ذلك ، فهذا وهم ، ووهم خطير للغاية . وأنا أقول ذلك صراحة دون أى تغليف دبلوماسى » .

لقد سئم العالم من التوتر وتعب منه . وينتظر الناس بفارغ الصبر فرصة لتحسين الوضع والتقليل من خطر الحرب . وقد قدم الاتحاد السوفيتى تنازلات لم يسبق لها مثيل للمساعدة على أن تسنح مثل هذه الفرصة . وإذا ما ضاعت هذه الفرصة ،

فسوف تترك بصماتها على كل السياسات العالمية .

وقد يتساءل المرء ، لماذا الاتحاد السوفيتي في كل هذه العجلة في أمور مثل هذه ؟
إننا في الحقيقة ، سوف ندمر عددا من الصواريخ المتوسطة المدى أكثر من الغرب
وسنفل نفس الشيء بالنسبة للصواريخ الأقصر مدى . فما الذي يدفعنا إلى العجلة ؟
هناك شيء واحد فقط يجعلنا في عجلة - وهو إدراكنا الواضح للحاجة إلى أن نقوم
بشيء ما ، الحاجة إلى اتخاذ بعض الخطوات الحقيقية حتى يمكن أن تبدأ بالفعل
عملية نزع السلاح ، حتى ولو ببطء وحتى لو اعتمدت على ظروف خاصة ، ولكن
على الأقل لنبدأ .

ويجب أن نسعى في كافة مناقشاتنا ومحافلنا ، وفي المقام الأول ، في محادثات
جنيف ، إلى حلول للمشاكل المعقدة . ونحن نوليها اهتماما ضخما . واعتقد أن القراء
يعرفون الآن ما قمنا به من أجل تحقيق تقدم هناك .

ونحن لا نريد مجرد أن تجري المباحثات . ينبغي أن أقرر صراحة أن الحقيقة
البسيطة بأن المحادثات تجري ، إنما تناسب بعض الناس في أمريكا . ولكنها
لا تناسبنا . إنه لشيء طيب أن تجري المحادثات . ولكن من الجوهرى أن تتحرك نحو
شيء ما حتى نحقق تقدما ، ونصل إلى اتفاقيات ونتمكن الشعبين السوفيتي والأمريكي
بل والعالم أجمع من الحصول عبر اتفاقات جنيف على حل للمشاكل البارزة ،
يؤدي إلى إزالة التهديد النووي ويمهد الطريق إلى نزع السلاح .

وهذا ما نسعى إليه . وإذا ما استخدمت المحادثات كستار لمواصلة كافة البرامج
العسكرية وتصعيد ميزانيات الدفاع ، فإننا عندئذ سنكون ضدها ، وضدها بحزم .
إنه نهج مرفوض .

وبطبيعة الحال ، ليس من السهل تغيير المفاهيم التي بنيت على أساسها العلاقات
بين الشرق والغرب طيلة خمسين عاما . ولكن الجديد يطرق ، بالتعبير الحرفي ، كل
الأبواب والنوافذ . وعلينا نحن الزعماء السياسيين من الجيل الحالي أن نصغي إلى

ذلك . ولكن ، من سوء الطالع أن كثيرا من الساسة ماتزال تكبلهم العقد والقوالب القديمة .

ولقد حان الوقت لتحديد خيارنا . وعلينا جميعا أن نواجه اختيار الإرادة الطيبة والشجاعة السياسية والعقل السليم . ومن الواضح أن الحل الناجح للمشاكل المتعلقة بالصواريخ المتوسطة المدى والأقصر مدى سيكون له مغزاه وآثاره الهامة بالنسبة لكل عملية نزع السلاح . وسيكون عاملا للثقة نحن في أمس الحاجة إليه .

وسوف نواصل ، بالطبع ، المباحثات حول الأسلحة الاستراتيجية وخفضها . وهناك تكافؤ وتعادل تقريبي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي من حيث قوة وقدرة القوات الاستراتيجية . وقد سمعت أكثر من مرة الجانب الأمريكي يقول إن الولايات المتحدة تعتبر صواريخنا العابرة للقارات تهديدا خاصا . ونحن نرى في الصواريخ الأمريكية التي تطلق من الغواصات تهديدا كبيرا لأنها أقل عرضة للهجوم ، ومزودة أيضا برءوس حربية توجه بشكل مستقل ، ولديها دقة كبيرة في إصابة الهدف . ونحن نرى تهديدا آخر يأتي من القواعد العسكرية العديدة التي تحيط بالاتحاد السوفيتي . ومع ذلك ، فهناك تعادل استراتيجي بيننا . وعلى ذلك ، فبما أن هناك تعادلا استراتيجيا مكفولا اليوم في إطار الهيكل الحالي ، مع ما لدى الطرفين من أسلحة استراتيجية في الوقت الحاضر ، فإن التوازن سيتمكن المحافظة عليه بعد تخفيض الـ ٥٠٪ ، وحتى إلى مستوى أقل . وهذا سوف يغير الوضع . وهذا ما اقترحته على الرئيس ريغان في ريكيفيك - تخفيض الثلاثي بأكمله وكل من عناصره بمقدار خمسين في المائة . وكان من الممكن أن يكون هذا إنجازا عظيما .

وبطبيعة الحال ، ينبغي أن نلتزم في أمانة بمعاهدة الدفاع المضاد للصواريخ . وفيما يتعلق بمبادرة الدفاع الاستراتيجي ، ليس لدينا اعتراض على الأبحاث داخل حدود المعامل ، والمعاهد ، والمصانع ، ومجالات التجارب . والحقيقة أن اقتراحنا يأخذ في اعتباره النقاط الخمس إلى الثمانية التي تؤيدها الولايات المتحدة في إطار

موقفها من مبادرة الدفاع الاستراتيجى . فليجلس المتخصصون معا ، ويدرسوا الأمور ويروا أيا من المكونات يمكن أن تطلق إلى الفضاء وأياها يمنع من ذلك . إن أفكارنا المرتبطة بالحلول الوسط توفر فرصة طيبة للتوصل إلى حل .

لقد اتخذ الاتحاد السوفيتى خطوات عديدة لخلق وضع جديد وفرص جديدة لتحسين العلاقات السوفيتية الأمريكية وجعلها أكثر دينامية . ولم تتوافر لدى أى من الإدارات الأمريكية السابقة فى العقود القليلة الماضية مثل هذه الفرص للقيام بشيء ما من أجل تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفيتى . حسنا ، ثم ؟ لا شيء هناك نتفاخر به ! إننا لم نتحرك خطوة واحدة إلى الأمام .

والزمن ينقضى . ونحن على قناعة بأننا إما أن نتوصل إلى اتفاقيات وإما لن يتبقى لنا سوى إلقاء الحطب فى جذوة نار العلاقات السوفيتية الأمريكية حتى لا تنطفئ كلية .

وقد اتخذنا الخطوات اللازمة لتحرير سياستنا من الأوهام المرتكزة على التصورات الأيديولوجية . وهذا ماينبغى على الغرب القيام به كذلك . إن عليه ، أولا ، أن يتحرر من الوهم القائل بأن الاتحاد السوفيتى يحتاج لتزعم السلاح أكثر من الغرب ، وأن قليلا من الضغط يمكن أن يجعلنا نتخلى عن مبدأ المساواة . إننا لن نفعل ذلك أبدا .

انظروا بأنفسكم : إن كافة المقترحات السوفيتية ، بغض النظر عن مدى الدقة فى دراستها ، تستهدف المساواة والتوازن فى كافة المراحل . ويتعلق ذلك بالأسلحة النووية ، والأسلحة التقليدية ، والأسلحة الكيماوية ، كما يتعلق بأى منطقة جغرافية - الشرق ، والغرب ، وأوروبا وأمريكا . ونحن نعد مقترحاتنا بدقة ، منطلقين من الفكرة القائلة بأن أى بلد لن يوافق على أى إجراء قد يلحق الضرر بأمنه .

وعندما نتقدم بمقترحاتنا فى المحادثات ، مثلا ، فى محادثات جنيف أو فى أى

مكان آخر ، فإننا ننطلق من الفكرة القائلة بأننا إذا أخذنا في اعتبارنا مصالح الاتحاد السوفيتي فقط ، وتجاهلنا مصالح الطرف الآخر ، فلن نتوصل إلى اتفاق . ونحن ندعو الجانب الأمريكي إلى التصرف بالمثل - أن يعاملنا بنفس الطريقة ، لأننا لن نسمح على الإطلاق بتفوق الطرف الآخر أو بأى عدوان على أمننا . كما أننا لا نريد إلحاق الضرر بأمن الولايات المتحدة . وإذا ما أبدى الجانبان مثل هذا الموقف فسيكون بالإمكان تحقيق تقدم أكثر حسما في كافة ميادين التعاون الأمريكي السوفيتي .

وباستطاعتنا ، بالطبع ، الانتظار حتى تأتى إدارة أخرى إلى السلطة ، ولكننا نفضل أن نصل إلى اتفاق مع الإدارة الحالية . لقد قمنا ببداية معينة . وهناك علاقات شخصية وقدر معين من التفاهم . ونحن نعتبر من الأهمية البالغة خلق مناخ طبيعي يمكن في ظله تحقيق خطوة في نهاية الأمر نحو الاتفاق . ولكن الجانب الأمريكي يتعثر المرة بعد الأخرى . والأسوأ من ذلك ، أننا في كل مرة نتخذ خطوة للقاء واشنطن ، تسعى القوى المعادية لتعقيد الأمور ووقف التحرك نحو الأمام وذلك بتكثيف نشاطها .

وأحد الأمثلة الأخيرة على ذلك هو التصنت على السفارات . وقد اقترحت على جورج شولتز « مفهوم جديد » : يفترض أنه وشفيردنا دزه « الجاسوسان الرئيسيان » . وأن سفيرينا في موسكو ووشنطن « جاسوسان » أيضا . وهما يشغلان منصبيهما بالتحديد ليلغا بلادهما بحالة الأمور في البلد الآخر ونواياه . فكل هذه الضجة حول هوس التجسس في السفارات لا معنى لها . إننا نعرف كل الأمور الرئيسية في الولايات المتحدة والولايات المتحدة تعرف كل شيء عنا . وهذه المرة دهرت ضجة الجواسيس لأنها أصبحت قاعدة : عندما نصل إلى نقطة محددة ، وعندما يصبح في الإمكان حل مشكلة في علاقاتنا ، سرعان ما يستخدمون خديعة أو مكيدة لنسفها .

وأنا أعرف أن تخمينات زائفة مختلفة قد نسجت حول موقف القيادة

السوفيتية من الرئيس رونالد ريغان . ولدى انطباعات شخصية عن الرئيس . وقد التقينا مرتين وتحدثنا لساعات عديدة . وفي رأي أنه قد جرى حوار جاد بين الرئيس وبينى ، رغم كل الصعاب . وأحيانا نقول لبعضنا أشياء لاتبعث على السرور بل ونقولها علنا وفي كلمات حادة إلى حد ما . وأنا أقول من جانبي أننا سنواصل جهودنا ، وسنسى إلى التعاون والمحادثات المثمرة مع أى رئيس ، ومع أى إدارة ينتخبها الشعب الأمريكى . إن انتخاب الرئيس - سواء كان ديموقراطيا أو جمهوريا - هو شأن الأمريكين الخاص . وأكرر أننا سنتعاون مع الإدارة التى يعهد إليها الشعب الأمريكى بحكم بلاده . وأعتقد أن على المرء أن يتصرف بهذه الطريقة فى كافة الأحوال . فليعيش الأمريكيون فى بلادهم كما يريدون ، ونعيش نحن فى الاتحاد السوفيتى كما نرغب . ولاداعى لأن نصنف قائمة السياسيين إلى مفضلين وغير مفضلين ، وإلى محترمين وغير محترمين . فهناك حقائق ينبغى أخذها فى الاعتبار وإلا تحولت السياسة إلى ارتجال وإلى انتقال من النقيض إلى النقيض ، وإلى عدم القدرة على التنبؤ . وسيكون من الخطأ التصرف بهذه الطريقة فى السياسة ، وبخاصة فى العلاقات بين دول مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . وإنه لأمر على جانب كبير من الخطورة .

ومن المهم للغاية أن ينطلق كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة من الاقتناع بأنه لابد من التوصل إلى اتفاق ، وأنه مقدر علينا أن نتعلم كيف نعيش فى سلام .

وما يزال أمام الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة على السواء عمل ضخم ذو أهمية تاريخية . ولن يكون فى مقدور أى من بلدينا أن يقوم بهذا العمل على انفراد . وأعنى بذلك المسألة التى تهم عصرنا - وهى مسألة درء خطر دمار البشرية فى حرب نووية . وإذا أنجز هذا العمل بنجاح ، فسيكون هناك من الأسباب ما يجعلنا نتوقع ازدهار العلاقات السوفيتية الأمريكية ، وقيام « عصر ذهبي » يكون مفيدا للاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة وكل البلاد ، والمجتمع الدولى بأسره .

خاتمة

والآن حانت نهاية الكتاب ، ولم يبق سوى بضع كلمات فى الختام . وأنا على اقتناع عميق بأن الكتاب لم ينته بعد ، ولا يمكن أن ينتهى . إذ يجب تكملته بالأعمال والتصرفات العملية التى ترمى إلى التوصل إلى الأهداف التى حاولت أن أضعها صراحة على هذه الصفحات .

إن إعادة البناء لا تسير بسهولة معنا . فنحن نقىم بشكل انتقادى كل خطوة نخطوها ، ونختبر أنفسنا بالتائج العملية . ونتحقق بدقة من أن ما قد يبدو مقبولا وكافيا اليوم قد يكون غير مناسب للغد .

لقد قدم لنا العامان ونصف العام الماضىة القدر الكبير . وسوف تشهد السنوات ، وربما حتى الشهور المقبلة تحركات جديدة غير تقليدية . وفى مجرى إعادة البناء ، نوسع ونوضح أفكارنا حول أمس الاشتراكية ، ويومها ، وغدها . ونحن نكتشف أنفسنا من جديد . لقد تم ذلك ويتم ، كما سبق أن قلت ، ليس من أجل إثارة الاعجاب بنا ، أو « كسب التعاطف » نحونا أو سماع التصفيق الحار . وإنما تحركنا أفكار ثورة أكتوبر ١٩١٧ ، أفكار لينين ، ومصالح الشعب السوفيتى . ونحن على اقتناع بأن ثمار إعادة البناء ستكون مفيدة للعلاقات الدولية أيضا ، بما فى ذلك العلاقات السوفيتية الأمريكية . إن التفكير السياسى الجديد يعتبر ضرورة لاغنى عنها فى عصرنا .

وتواجه البشرية أخطارا كبيرة . فهناك عناصر كافية للمواجهة ، ولكن القوى الراغبة والقادرة على وقف هذه المواجهة والتغلب عليها ، تزداد قوة واتساعا أمام أعيننا .

إن الانتقال من الشك والعداء إلى الثقة . ومن « توازن الرعب » إلى توازن العقل والارادة الطيبة ، ومن المصالح القومية الضيقة إلى التعاون - هو مامث

عليه . وهذا هو ما تهدف إليه مبادراتنا السلمية ، وما سنواصل العمل دون كلل من أجله .

إن هناك تعطشا شديدا في العالم للتفاهم المتبادل والاتصال المتبادل . ويحس به الساسة ، ويكتسب قوة دافعة بين المثقفين ، وممثلي الثقافة ، والجمهير على اتساعها . وإذا ما كانت الكلمة الروسية « بيرسترويكا » قد دخلت بسهولة القاموس الدولي . فإن ذلك يرجع إلى أكثر من مجرد الاهتمام بما يجري في الاتحاد السوفيتي . فالعالم كله الآن يحتاج إلى إعادة البناء ، أى إلى تطور تقدمي وتغيير جوهري .

والناس يحسون ذلك ويفهمونه . وعليهم أن يحددوا مواقعهم ، ويفهموا المشاكل التي تقلق البشرية ، ويدركوا كيف يجب أن يعيشوا في المستقبل . إن إعادة البناء ضرورة لعالم يفيض بالأسلحة النووية ، لعالم يعاني من مشاكل اقتصادية وبشرية خطيرة ، لعالم يرهقه الفقر ، والتخلف والمرض ، وضرورة لجنس بشري يواجه الآن حاجة ملحة إلى ضمان بقائه .

إننا جميعا طلبة ، ومدرسنا هو الحياة والزمن . واعتقد أن المزيد والمزيد من الناس سيدرك أنه من خلال إعادة البناء بالمعنى العريض للكلمة ، سيتعزز تكامل العالم . وعندما نحصل على درجات عالية من مدرسنا الرئيسي - الحياة - سندخل إلى القرن الحادى والعشرين ونحن على استعداد طيب وعلى ثقة بأنه سيكون هناك مزيد من التقدم .

إننا نريد للحرية أن تترف عاليا في القرن القادم في كل مكان في العالم . ونريد للمنافسة السلمية بين الأنظمة الاجتماعية المختلفة أن تتطور دون عائق ، وأن تشجع على التعاون المتبادل للمصالح بدلا من المواجهة وسباق التسلح . ونريد لشعوب كل البلدان أن تتمتع بالرخاء والرفاهية والسعادة . ويمكن الطريق نحو ذلك في الانطلاق نحو عالم خالٍ من الأسلحة النووية ومن العنف . لقد بدأنا السير على هذا الطريق ، وندعو البلدان والشعوب الأخرى أن تتابع خطانا .

الفهرس

الصفحة

٥	إلى القارئ
١١	الباب الأول - البيرسترويكا
١٣	الفصل الأول - البيرسترويكا : أصولها ، وجوهرها ، وطابعها الثورى
١٣	البيرسترويكا - ضرورة ملحة
٢٣	التوجه إلى لينين ، مصدر أيديولوجى للبيرسترويكا
٢٥	برنامج أعد بعناية ، وليس إعلانا طنانا
٣٧	مزيد من الاشتراكية ومزيد من الديمقراطية
٣٩	دروس التاريخ
٤٨	ما الذى ألهمنا أن نبدأ البيرسترويكا
٥٤	البيرسترويكا ثورة
٦١	« ثورة من أعلى » الحزب والبيرسترويكا
٦٧	الفصل الثانى - البيرسترويكا تحقق تقدما : الاستنتاجات الأولى
٦٨	أولا - المجتمع يبدأ فى التحرك : كيف بدأت الأمور
٧٢	البيرسترويكا تكتسب قوة دافعة
٧٣	ليست لدينا صيغ جاهزة
٨٦	مزيد من الضوء على الجلاسنوست
٩٣	البيرسترويكا والمثقفون
٩٦	ثانيا - السياسة الاقتصادية والاجتماعية الجديدة فى العمل
	الإصلاح الاقتصادى : اجتماع يونيو ١٩٨٥ الكامل للجنة
٩٧	المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى

الصفحة

١٠٢ نحو الحساب الاقتصادى الكامل
١٠٣ مفهوم جديد للمركزية
١٠٧ الهدف : المستويات التكنولوجية العالمية
١١١ النسيج الحى للبيريسترويكا
١١٥ السياسة الاجتماعية لإعادة البناء
١٢١ ثالثا - على طريق إشاعة الديمقراطية: احتياطينا الرئيسى
١٢٤ الالتزام بالقانون - عنصر لاغنى عنه فى إشاعة الديمقراطية ..
١٢٩ البيريسترويكا والسوفيتات
١٣٤ الدور الجديد للنقابات
١٣٥ الشباب والبيريسترويكا
١٣٧ المرأة والأسرة
١٣٩ اتحاد الأمم الاشتراكية - تشكيل فريد
١٤٤ النفوذ والثقة
١٤٨ رابعا - الغرب والبيريسترويكا
١٥٩ الباب الثانى - التفكير الجديد والعالم
١٦١ الفصل الثالث - كيف نرى عالم اليوم - أين نقف
١٦١ أين نقف
١٦٦ التفكير السياسى الجديد
١٧٢ طريقنا إلى نظرة جديدة
١٧٩ « يد موسكو »
١٨١ المغزى الدولى للتفكير الجديد
١٨٨ من أجل سياسة خارجية صريحة وأمنية
١٩٣ الفصل الرابع - إعادة البناء فى الاتحاد السوفيتى والعالم الاشتراكى
١٩٣ حول الاشتراكية الحقة
١٩٧ نحو علاقات جديدة

الصفحة

٢٠٥ الفصل الخامس - العالم الثالث في المجتمع الدولي
٢٠٧ النزاعات الإقليمية
٢١٣ لكل بلد الحق في اختيار طريق تطوره الخاص
٢١٦ عقدة آسيا - المحيط الهادى
٢٢٠ حول نزع السلاح النووى في آسيا
٢٢٢ العلاقات السوفيتية الهندية
٢٢٣ عند خط فاصل صعب
٢٢٥ أمريكا اللاتينية : زمن التغيير الكبير
٢٢٦ التعاون ، وليس المواجهة
٢٢٩ الفصل السادس - أوروبا في السياسة الخارجية السوفيتية
٢٣٠ ميراث التاريخ
٢٣٤ أوروبا بيتنا المشترك
٢٣٥ الضرورة : حتميات سياسة لكل أوروبا
٢٣٧ فرص مواتية لأوروبا
٢٣٩ دولتان ألمانيتان
٢٤٣ أوروبا ونزع السلاح
٢٤٦ التعاون الأوروبي
٢٤٨ بؤادر التفكير الجديد في أوروبا
٢٥٠ حول أوروبا والولايات المتحدة
٢٥٢ مسئولية أوروبا
 الفصل السابع - قضايا نزع السلاح والعلاقات بين
٢٥٣ الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة
٢٥٦ ماذا نتوقع من الولايات المتحدة الأمريكية ؟
٢٥٩ الولايات المتحدة « مدينة متألفة فوق تل »
٢٦٢ « صورة العدو »

الصفحة

٢٦٤ من يحتاج إلى سباق التسلح ولماذا ؟
	مزيد حول الوقائع : إزالة الحدة الأيديولوجية من العلاقات
٢٦٨ بين الدول
٢٦٩ الاغتراب شر
٢٧٣ على الطريق إلى جنيف
٢٧٤ جنيف
٢٧٦ بعد جنيف
٢٧٦ الوقف المؤقت للتجارب النووية (الموراثوريوم)
٢٧٨ برنامج نزع السلاح النووي
٢٨٢ الولايات المتحدة منذ جنيف
٢٨٦ درس تشيرنوبيل ١
٢٨٧ ريكيافيك
٢٩٤ ما بعد ريكيافيك
٢٩٨ محفل موسكو والصواريخ المتوسطة المدى
٣٠٩ خاتمة

١٥

رقم الابداع : ١٩٨٩/٨٦٩٥
الترقيم النوى : ٣ - ٣٤٦ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

التابعة : ١٦ شارع جواد حسى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

ميكائيل جورباتشوف

• ولد ميكائيل ميروخيميتش جورباتشوف في ٢ مارس ١٩٣١ في قرية بريولني . بإقليم ستافروبول (جنوب روسيا) . وأصبح منذ مارس ١٩٨٥ السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي . ورئيس مجلس الدفاع في الاتحاد السوفيتي . وعضو هيئة رئاسة السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتي (البرلمان السوفيتي) . وقد التحق بالحزب الشيوعي عام ١٩٥٢

• تخرج من شعبة القانون بجامعة الدولة في موسكو عام ١٩٥٥ . ومن معهد ستافروبول الزراعي في ١٩٦٧

• وفي سن الخامسة عشرة بدأ العمل كعامل تشغيل لآلة حصاد . وفي منتصف الخمسينيات كان قائدا للكموسومول (منظمة الشباب الشيوعي) في ستافروبول . باعترافه سكرتيرا للجنة كومسومول المدينة . وفيما بعد سكرتيرا للجنة الكومسومول في الإقليم . وفي عام ١٩٦٦ أصبح سكرتيرا للجنة مدينة ستافروبول للحزب الشيوعي السوفيتي . ثم سكرتيرا أول للجنة إقليم ستافروبول للحزب الشيوعي السوفيتي فيما بعد

• وفي عام ١٩٧٠ انتخب عضوا في مجلس السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتي . وفي عام ١٩٧١ انتخب عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي في المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي . وفي ١٩٧٨ انتخب سكرتيرا للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي في الاجتماع الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي . وانتقل لموسكو في هذا الوقت

• وأصبح عضوا احتياطيا للمكتب السياسي في ١٩٧٩ . ومنذ عام ١٩٨٠ أصبح عضوا في المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي

البريسدرويك

• « البريسدرويك » . تعني « إعادة البناء » . هو العرض الذي يقدمه ميكائيل جورباتشوف بنفسه للثورة التي ينفذهها في الوقت الحاضر في الاتحاد السوفيتي . وهي إذ تأتي بعد سبعين عاما على ثورة أكتوبر . تشكل ثورة في المواقف والأفكار والممارسة . تتطلب تغييرا جذريا في السياسة الداخلية والخارجية على السواء

• والبريسدرويك هي المرحلة التالية في التاريخ الاشتراكي التي ينبغي أن يشجع فيها بقوة بين الشعب . شعور أكبر بالمسئولية . والمبادرة وروح المبادرة . من خلال إحساس حقيقي بالمشاركة الشخصية . إنها مخطط للتغيير لم يسبق له مثيل يمكن أن يكون له فحسب معنى عميقا بالنسبة للعالم والسكرتير العام الذي يشم بالصراحة في نقده الماضي . وبالخصم في توصيائه بالنسبة للحاضر . يصر على قناعته بأن احتياجات العالم لا تفصل عن احتياجات بلاده . إذ أنه في السعي إلى « عالم خال من الأسلحة النووية » . ومن العنف » . ينبغي أن تكون إعادة البناء قضية عالمية تتطلب تعزيز قضية التضامن والتسامح . إن دول وشعوب العالم مختلفون تماما . وأنه لا مفرط في أهم كذلك

• والسلام العالمي تجربة يمكن أن تكون البريسدرويك بمرتها . إنها رؤية متأسكة ملهمة للمسرح السياسي الدولي الخائل والمقسم بشكل لم يسبق له مثيل والبريسدرويك باعتبارها سهلة المثال . وشخصية . عملية بالحماس والبلاغة في الغالب ينبغي أن تكون أحد أهم الوثائق السياسية في أيامنا